مكتبة ٧٠٥

إليزابيث كاي

سبع أكاذيب

ترجمة: نادين نصر الله

رواية

كل شيء بدأ بكذبةٍ واحدة صغيرة...



إهداء لصاحب الرسالة


من فضلك لا تنسي رواية سبع اكاذيب 🖤🤎💜💙💚💛🧡 قلب أمام كل كذبة 🤣وممكن لو في اقتباسات من الرواية شاركنا فيها

إهداء

17:29

إليزابيث كاي

سبع أكاذيب

مكتبة | 705
سُر مَن قرأ

الكتاب: سبع أكاذيب، رواية

تأليف: إليزابيث كاي

ترجمة: نادين نصرالله

عدد الصفحات: 352 صفحة

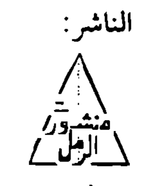
الترقيم الدولي: 7-124-472-614-978

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2020

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
SEVEN LIES by Elizabeth Kay
Copyright © Elizabeth Kay 2020.

الناشر:





منشورات الرمل - مصر

دار التنوير

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقًا)
- الدور الأرضي - شقة رقم 2

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340 - بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

Manshoorat Alraml is an Imprint of Dar Altanweer

إليزابيث كاي

سبع أكاذيب

رواية

مكتبة | 705
سُر مَن قرأ

ترجمة

نادين نصرالله



الكذبة الأولى



الفصل الأول

«هكذا فزت بقلبها»، قال وهو يبتسم. ثم ترحرح في كرسيّه، ووضع يديه خلف رأسه، نافخًا صدره. كان على عجرفة منقطعة النظير.

نظر إليّ، ثم إلى الأبله الجالس بالقرب منّي، قبل أن يعيد ناظريه إليّ. كان ينتظر منّا ردًّا على ما قاله لتوّه. أراد أن يرى ابتسامة تتمدّد على محيّانا، وأن يشعر بإعجابنا، أو بالأحرى بانبهارنا.

كنت أكرهه. أكرهه كرهًا شديدًا، يتخطّى ما يمكن للمرء تخيّله. كنت أكره كيف يعيد سرد هذه القصة كلّما جئت لتناول العشاء، مساء كل يوم جمعة. لا يهمّ من أحضر معي. لا يهم من هو ذاك المنحطّ الذي أواعده في ذاك الوقت.

لم ينفكّ يخبرهم هذه القصّة.

لأنّ تلك القصّة، كما يبدو لك، هي الكأس الذي يحوزه في نهاية المطاف. بالنسبة لرجل مثل تشارلز، رجل ناجح وثريّ وجذّاب، فإن امرأة جميلة ومرحة ومشعّة مثل مارني هي الميدالية الأخيرة التي يحصدها ويضمّها إلى مجموعته. ولأنه يعتاش من احترام الآخرين وإعجابهم به، ولربّما لأنه لم يحصل يومًا على ذلك منّي، أخذ يشحذ تلك الأحاسيس من ضيوفه الآخرين.

ما أردت قوله ردًّا عليه، وما لم أقله يومًا، هو أن قلب مارني لم يكن يومًا ملكًا له كي يفوز به. فالقلب، لو أردنا أن نتكلّم بصراحة، وهو

ما أقوم به أخيرًا، لا يسع المرء أن يفوز به. هو يُمنح ليس إلّا، ويتلقّاه الطرف الآخر ليس إلّا. لا يسعك أن تقنع قلبًا، ولا أن تسحره، أو تغيّره، أو تجمّده، أو تسرقه، أو تصلّبه، أو تأخذه. فما بالك في أن تفوز بقلب.

«كْرِيما»؟ سألت مارني.

كانت تقف إلى جانب المائدة تحمل في يدها إبريقًا خزفيًّا أبيض اللون. كان شعرها مثبتًا بعناية أعلى عنقها، وقد تركت بضع خصلات مجعّدة تحيط بوجنتيها، بينما تدلّى عقدها ملتويًا، لينتهي بمشبك مجاور للقلادة يستريح عند عظمة صدرها.

هززت رأسي نفيًا وقلت: «كلّا، شكرًا».

فردّت عليّ مبتسمة: «لا أوجّه كلامي إليك. أعلم أنّك لا تريدين».

أريد أن أخبرك شيئًا الآن، قبل أن نبدأ. مارني غريغوري هي أكثر امرأة مثيرة للإعجاب وملهمة ومبهرة عرفتها في حياتي. لقد كانت صديقتي المقرَّبة لأكثر من ثمانية عشر عامًا -لقد بلغت علاقتنا رسميًا سن الرشد، وبات من حقّها أن تتناول الكحول، وتتزوّج، وتقامر- مذ التقينا في المدرسة الثانوية.

كان يومنا الأوّل، وكنّا نصطف في ممرّ ضيّق، صفًّا طويلًا يتألّف من أولاد يبلغون الحادية عشرة من عمرهم، يهرع الواحد تلو الآخر منهم باتجاه طاولة في آخر القاعة. وكانت مجموعات تتجمّع في لحظات، كما فئران ابتلعتها أفعى، تنتفخ من حين إلى آخر على نحو منظّم مستقيم.

كنت أشعر بالتوتّر، إذ كنت أدرك جيّدًا أنّني لا أعرف أحدًا، فأستعد نفسيًّا كي أكون بمفردي وحيدة لما يقارب العقد من الزمن. أخذت أحدّق بهذه المجموعات وأنا أبذل مجهودًا كي أقنع نفسي أنني، في كل الأحوال، لا أرغب أن أكون جزءًا من أيّ مجموعة منها.

تقدّمت إلى الأمام متسرّعة، وجعلت خطواتي كبيرة، حتى انتهى بي المطاف وأنا أدوس على قدم الفتاة التي كانت تقف أمامي. استدارت

مسرعة نحوي، فأصابني الهلع. كنت على يقين أنني على وشك أن أتعرّض للمهانة، وأتلقّى وابلًا من الصراخ، وهذا سيقلّل من شأني أمام زملائي. لكن ذلك الهلع تلاشى لحظة رأيتها. قد يبدو الأمر سخيفًا، أعلم ذلك، لكن مارني أشبه بالشمس. هذا ما فكّرت به في تلك اللحظة؛ وهذا ما أفكّر به غالبًا الآن. كانت بشرتها فاتحة اللون، لافتة، عاجيّة صافية، لا تتلوّن إلّا لمامًا -على سبيل المثال، بعد قيامها بتمارين رياضيّة أو عندما تبلغ من الحماسة أوجها- لتصطبغ وجنتاها بالزهر الشفاف. وكان شعرها كستنائي اللون داكنًا، يتحوّل لولبيّات حمرًا وشقرًا، وعيناها ذات زرقة باهتة تقارب البياض.

«عفوًا»، قلت لها وأنا أرجع خطوة إلى الوراء مثبّتة نظري على حذائي الجديد اللمّاع.

«اسمي مارني، وأنتِ؟»، أجابت.

يلخّص ذلك اللقاء الأوّل رمز علاقتنا كاملة. تتميّز مارني بانفتاح، وبنبرة تستدعي الدفء والحب. فهي بكل بساطة تنضح ثقة ولا تخشى أي قرائن قد يعرضها المرء في خلال حديث قائم، أو حتى لا تدري بوجودها قط. في المقابل، كنت أشعر بوجود هذه القرائن على نحو لا يقبل الشك فيه. فكنت أخشى أي عداوة محتمَلة فأعدّ العدّة كي أكون على أتم الاستعداد لما أدري أنّه آتٍ لا محالة. كنت دائمًا بانتظار أن أتعرّض للسخرية. في تلك الفترة، كنت أخشى الحكم على البثور التي تتوسّط جبيني، وعلى شعري الباهت، وعلى زيّي الرسمي الفضفاض. أما الآن، فأخشى الحكم على نبرة صوتي، عندما يرتعش، وعلى ملابسي -المريحة التي نادرًا ما تلفت الأنظار- وعلى شعري وحذائي الرياضي، وأظافري التي أقضمها.

هي النور وأنا الظلام

أدركتِ ذلك في ما مضى. وأنتِ على وشك إدراك ذلك الآن.

«اسمكِ؟»، زمجرت المعلّمة الجالسة بسترتها الزرقاء وراء مكتبها في مقدّمة الصف.

«مارني غريغوري»، أجابتها بنبرة ثابتة واثقة من نفسها.

«ظ... ع.... غ... غريغوري. مارني. أنتِ في تلك القاعة هناك، تلك التي تحمل حرف (ج) على الباب. وأنتِ»، أكملت. «من أنتِ»؟

أجبتها: «جاين».

أشاحت المعلّمة بناظريها عن الورقة الموضوعة أمامها وأخذت تحدّق بي بتململٍ.

«آه، عفوًا»، سارعت إلى القول. «باكستر. اسمي جاين باكستر».

عادت إلى لائحتها. «معها. هناك. الباب بالحرف (ج)».

قد يسعى البعض إلى التأكيد أن تلك كانت صداقة مبنية على المصلحة، وأنني كنت لأقبل بأي عرض يرتكز إلى معاملة قوامها اللطف والعطف والحب. لربّما هذا صحيح. في كل الأحوال، سأرد أنّنا ولدنا لنكون معًا، وأن صداقتنا كانت فعل كواكب ونجوم، لأنّها هي أيضًا كانت بحاجة إليّ في وقت لاحق.

قد يبدو الأمر عبثيًّا، أعلم هذا. ولربّما هو فعلًا كذلك. لكن أحيانًا، أستطيع أن أحلف بصدقه.

أجاب ستانلي: «أجل، شكرًا، لا بأس ببعض الكريما».

كان ستانلي يصغرني بعامين وهو محامٍ حصل على عددٍ من الشهادات الجامعية. كان شعره أشقر مائلًا إلى البياض، يصل إلى عينيه، ويهمهم باستمرار، بلا أي سبب منطقي في غالب الأحيان. كان ينجح في التكلّم مع النساء، على عكس معظم أقرانه. وذلك يعود، على ما أعتقد، إلى طفولة قضاها محاطًا بأخوات. لكنّه كان مملًّا من دون شكٍّ.

أما تشارلز، فكان يبدو وكأنّه يستمتع برفقته، وهذا بطبيعة الحال أمر متوقّع. لكنّه جعلني أمقت ستانلي أكثر فأكثر.

مرّرَت مارني الإبريق على المائدة، وهي تضغط بقميصها على بطنها. لم تكن تريد أن ينزلق قماشه -وهو حريري على ما أعتقد- على طرف وعاء الفاكهة.

«أي طلب آخر»؟ سألت وهي تنظر إلى ستانلي، ثم إليّ، قبل أن تستدير نحو تشارلز. كان يرتدي قميصًا مقلّمًا أزرق اللون وأبيض، وقد فكّ أعلى أزراره فبرز مثلث شعيرات داكنة من بين ثنايا القماش. تلكّأت عيناها قليلًا عند ذلك الموقع. هزّ رأسه نفيًا فمالت ربطة عنقه -التي كان قد فكّها وتركها مرخيّة حول عنقه- إلى اليسار أكثر فأكثر.

«ممتاز»، قالت مارني وهي تجلس وتمسك بملعقة الحلوى الخاصّة بها.

كان تشارلز -جريًا على عادته- سيّد الحوار. وكان ستانلي يجاريه الحديث، متفوّهًا عن نجاحات حقّقها بنفسه كلّما سنحت له الفرصة بذلك، لكنّني كنت أشعر بالملل وأعتقد بأن مارني كانت تبادلني الشعور نفسه. فكنا كلانا نسند ظهرَيْنا إلى كرسيَّينا، نرتشف آخر قطرات النبيذ في كأسَينا، وقد أخذَتنا حوارات افتراضية تدور في أذهاننا.

عند الساعة العاشرة والنصف، وقفت مارني، كما تفعل دائمًا عند العاشرة والنصف، وقالت: «حسنًا».

«حسنًا»، كرّرت وراءها. ووقفتُ أيضًا.

أخذَت صحوننا الأربعة من على الطاولة وكدّستها في ثنية ذراعها اليسرى. فسالت على قميصها الأبيض قطرة زهرية اللون من عصير حبّة توت كانت لا تزال عالقة في أحد الصحون. سارعتُ إلى حمل وعاء الفاكهة وقد فرغ -وهو وعاء أعدّته بنفسها في صف صناعة الفخار قبل سنوات- إضافة إلى إبريق الكريما، ولحقتها إلى المطبخ في آخر الشقة.

تلك الشقة، -شقّتهما- هي الشاهدة على علاقتهما. لقد سدّد تشارلز الدفعة الباهظة، فتشارلز يدفع ثمن معظم الأشياء، لكن نزولًا عند إصرار

مارني. وقد أيقنت في غضون لحظة ليس إلا أن تلك الشقة قد أعدَّت لهما، وليس مفاجئًا أن يكتشف المرء أن ملَكة الإقناع مكوّن فطريٌّ لدى مارني.

عندما انتقلا إلى الشقة، كانت أشبه بكوخ رديء: صغيرة، قاتمة، وسخة، ملؤها الرطوبة، تمتد على طابقين، وتعاني نقصًا مدقعًا في الحب. لكن مارني لطالما كانت تتمتّع برؤية مستقبلية ثاقبة؛ فكانت ترى أمورًا يعجز عن تبصّرها آخرون. كانت تجد الأمل في أكثر الأماكن ظلامًا -والمثير للسخرية حتى فيّ أنا- وتؤمن بأنّها قادرة على تقديم ما هو رائع. لطالما حسدتها على ثقتها بنفسها، وهي ثقة استقتها مارني من شيء من عناد. فهي لا تخشى الفشل، ليس لأنها لم تفشل يومًا في حياتها، بل لأن الفشل لم يمثل بالنسبة إليها أكثر من انعطافة أو التفافة بسيطة في رحلة قادتها في نهاية المطاف إلى النجاح.

راحت مارني تعمل بلا كلل -في الأمسيات وفي عطل نهاية الأسبوع، وحتى في عطلتها السنوية- لبناء منزل جميل. وبيديها الصغيرتين، ألصقت ورق الجدران، وحفّت الأبواب بورق الرمل، ودهنت الخزائن، ووضعت الألواح للأرضية، وفرشت السجاد، وعلّقت الستائر: فعلت كل شيء. إلى أن بدأت هذه الغرف تبعث الدفء نفسه الذي تبعثه هي؛ ثقة هادئة، وإحساس جليّ لا حدود له بكنف منزل.

وضعت مارني الصحون في الجلاية، تاركة مسافة بين الواحد والآخر.

وعلّقت قائلة: «تُنظَّف الصحون على نحو أفضل هكذا».

«أعلم»، أجبتها، لأن هذا ما تقوله كل أسبوع، لأنّني أهمهم الهمهمة نفسها كل أسبوع، لأنّني أرى في ذلك هدرًا كبيرًا للمياه.

«تسير الأمور جيّدًا مع تشارلز»، قالت لي.

شعرت بنوع من الوخز في عمودي الفقري يدفعني إلى الانتصاب، ويدفع بالهواء إلى رئتيَّ.

لم نتكلّم سوى مرة واحدة عن علاقتهما في السابق، وكان حديثًا يتخلّله استعراض تاريخي طويل من الصداقة القديمة الملتوية. ومذاك الحين، لم نتكلّم سوى بعبارات عمليّة: خططهما لعطلة نهاية الأسبوع، أو المنزل الذي قد يشتريانه يومًا ما خارج لندن؛ أو أمّه التي تعاني داء السرطان؛ أو العيش في اسكتلندا والموت موتًا بطيئًا، مؤلمًا وحيدًا.

ولم نناقش، على سبيل المثال، واقع أنه مضى على علاقتهما ثلاث سنوات، وقد اكتشفت قبل بضعة أشهر على حين غرّة -وأنا أعلم جيّدًا أنه لم يكن يفترض بي أن أنظر- خاتم خطوبة من الماس مخبّأً في درج طاولة السرير من جانب تشارلز. ولا ناقشنا واقع أنّه حتى من دون ذاك الخاتم، كانا يعملان على نسج علاقة دائمة تربطهما ببعض إلى الأبد، على نحو لم يسعنا أنا ومارني -حتى بعد حوالى العشرين عامًا- أن نشعر به كرابط وثيقٍ بيننا.

لم نناقش بطبيعة الحال واقع أنّني أكرهه.

«نعم»، أجبتها، لأنّني كنت أخشى أن جملة كاملة، أو حتى كلمة تتعدّى الأحرف الثلاثة، قد تلقي بعلاقتنا في مهب الريح.

«ما رأيك؟ ألا تعتقدين أن الأمور تبدو جيّدة لنا؟».

أومأت برأسي إيجابًا، وسكبت ما تبقى من الكريما في الإبريق في الحاوية البلاستيكية الجاهزة.

«تجديننا مناسبَيْن لبعضنا البعض، أليس كذلك؟»، سألتني.

فتحت باب البرّاد واختبأت وراءه، وأنا أعيد ببطء -ببطء شديد- الكريما إلى الطبقة العلوية.

«جاين؟».

«أجل، أعتقد ذلك «، أجبتها.

تلك كانت الكذبة الأولى التي كذبتها على مارني.

أتساءل الآن -في الواقع في أغلب الأيام- لو لم أكذب تلك الكذبة

الأولى، فهل كنت لأكذب الأكاذيب الأخرى؟ وأسعد بإخبار نفسي أن الكذبة الأولى كانت الأقل شأنًا بين أكاذيبي كلّها. لكن هذه، بحدّ ذاتها، كذبة. فلو كنت صادقة مساء ذلك الجمعة، لربّما -أو لكان- تغيّر كل شيء.

أريد إعلامك ذلك الآن. كنت أخالني أقوم بما هو صائب. فالصداقات القديمة كما الحبل المعقود، الذي يصيبه الاهتراء في بعض أجزائه، والانتفاخ في أجزاء أخرى. كنت أخشى أن رابط حبّنا رفيع جدًّا، ومنهك جدًّا، حتى ليتداعى أمام وقع الحقيقة. لأن لا شك في أن الحقيقة -حقيقة أنّني لم أكره في حياتي أحدًا كما أكرهه هو- كانت لتقضي على صداقتنا.

لو كنت صادقة، ولو ضحّيت بحبّنا في سبيل الآخرين، لكان تشارلز بكل تأكيد لا يزال على قيد الحياة.



الكذبة الثانية

الفصل الثاني

هذه هي إذًا حقيقتي. لا أود أن أبدو مغالية في الدراماتيكية، لكنّني أعتقد بأنه عليّ أن أطلعك على هذه القصة. برأيي أنّك بحاجة للاطلاع على هذه القصة. إنّها قصّتك تمامًا كما هي قصّتي.

مات تشارلز، نعم، لكن تلك لم تكن نيّتي يومًا. في الحقيقة، لم يخطر ببالي يومًا أنّه لن يكون حاضرًا دائمًا وأبدًا بحضوره المزعج المؤلم. كان واحدًا من أولئك الأشخاص المهيمنين المسيطرين: أكثر الأصوات ارتفاعًا، وأكثر الإيماءات تفلّتًا، وأطول وأقوى وأضخم وأفضل من أي شخص آخر في أي غرفة كانت. قد يقول من يراه إنّه كان حتّى أكبر من الحياة بحد ذاتها، وهو ما يبدو الآن مثيرًا بالطبع للسخرية. ومع ذلك، فمجرّد النظر إلى هيكله وكينونته قد شكّلا الدليل القاطع على أنّه سيكون موجودًا دائمًا وأبدًا.

في السنوات الأولى من حياتي -وأفترض أن الأمر صحيح ومشابه للسنوات الأولى من حياة معظم البشر- شكّلت عائلتي الإطار المحدِّد لحياتي. فالقرارات الكبرى، تلك التي ترسم الحياة اليومية -أين أعيش، ومع من أقضي وقتي، وحتى ماذا أسمي نفسي- لم تكن قراراتي. بل كان أهلي يحرّكون الدمى التي تملي عليّ شكل حياتي.

وفي النهاية، كان المطلوب منّي أن أتولّى بنفسي عملية تحديد خياراتي الخاصّة: ماذا ألعب ومع من وأين ومتى. كانت عائلتي تشكّل

كلّ شيء لي، أو بالأحرى الشيء الأوحد، إلى أن تحوّلت الأساس الذي بنيت عليه هويّتي الخاصّة. وكان من المثير أن أكتشف أنّني في الواقع عبارة عن كياني الخاصّ، ومع ذلك كان مرعبًا في الوقت عينه.

لكنّني كنت محظوظة. وجدت رفيقة.

سرعان ما أصبحنا أنا وماريني صديقتين لا تفترقان. لم نكن نشبه بعضنا بشيء ومع ذلك، غالبًا ما كان أساتذتنا ينادوننا باسم أحدنا الآخر. لأنه لم يصادف يومًا أن كان أحدنا من دون الآخر. كنا نجلس جنبًا إلى جنب في كل حصّة، ونتنقّل معًا بين الصفوف، ونعود إلى منازلنا في الباص نفسه في نهاية اليوم.

آمل أن يكون بإمكانك يومًا ما اختبار صداقة مماثلة. قد يربط المرء نفسه بحبٍّ مراهقٍ يبدو وكأنه أبديّ، فينخرط في تجارب جديدة وإحساس جديد بالحرّية يكتشفه حديثًا. لكن ثمّة ما يبقى ساحرًا فاتنًا في اكتشاف صديق مفضّل في الحادية عشرة من العمر. ولكم يصاب المرء بإحساس الثمالة ذاك عندما يدرك أن ثمّة من يحتاجه كثيرًا، أو يشتاق أحدهم كثيرًا، ويعي ذاك الشعور بالانصهار بين الشخصيتين. لكن هذه الروابط الأوّلية ليست مستدامة. ويومًا ما، سيتعين عليك تحرير نفسك من تلك الصداقة، بحثًا، عوضًا عنها، عن حالة عشق. سيتوجب عليك سحب نفسك طرفًا طرفًا، وعظمة عظمة، وذكرى بعد ذكرى، حتى يصبح وجودك مستقلًا استقلالًا تامًا، حتى يستعيد كيانك مجدّدًا وجوده كشخص واحد بعد أن كنتما اثنين.

كنا لا نزال اثنتين، أنا وماريني، عندما انتقلنا -بعد الجامعة- إلى الشقة في فوكسهول. كانت شقة عصرية، في بناء جديد شُيّد قبل أقل من عقد من الزمن، تحيط به مبانٍ أخرى مشابهة بشقق أخرى مشابهة، تصل إليها كلّها عبر ممرّات يكسو أرضها سجاد أزرق، وتختبئ وراء أبواب جوزية متطابقة. كانت الأرضية بلاستيكية تعطي انطباعًا خشبيًّا، وخزائن

المطبخ بيضًا والجدران مطليّة باللون الأبيض الباهت الميت. وكانت كل غرفة تحتوي على مصابيح إنارة -حتى الحمامات- وكان بلاط أرضية الحمامات قرنفليّ اللون ضاربًا إلى صفرة. كانت الشقّة تبعث شعورًا بالبرودة أو الشتاء نوعًا ما، مع أنها كانت على الدوام على حرارة مرتفعة. لكنها كانت ملاذنا الذي نلجأ إليه هربًا من الأضواء البرّاقة الصاخبة والضوضاء اللامتناهي الذي يصبغ مدينة عالمية لم يشعر أيّ منّا في ذلك الوقت بالراحة المطلقة فيها.

في ذلك الوقت، كانت الأمور مغايرة. فكنا نناقش جدول أعمالنا بينما نتناول رقائق الفطور ونوزّع مسؤوليات اليوم: زجاجة جديدة من الشامبو، أو بطاريات لجهاز التحكّم عن بعد، أو طعام للعشاء. وكنا نمشي جنبًا إلى جنب إلى محطة الميترو. ونركب المقصورة نفسها.

وكان من المنطقي بالنسبة إليّ أن أستقلّ القطار من الطرف الآخر، حتى تصبح نقطة خروجي أمامي مباشرة عندما أنزل، لكن حيواتنا كانت متداخلة متشابكة بما يجعل التنقل كل على حدة أمرًا مضحكًا. كنا نعود إلى المنزل من عملنا على عجل كي نسدّ الفجوات التي ظهرت خلال يوم واحد. فنغلي إبريق الشاي ونحمّي الفرن ونضحك على زملاء لنا سخيفين وننتحب بسبب اجتماعات رهيبة. كنّا مقرَّبتَيْن من بعضنا البعض، نتعايش على نحو يضاعف أواصر علاقتنا: فنتشارك الحليب في البراد، والأحذية المكوّمة وراء الباب الرئيسي، وتتداخل كتبنا على الرفوف، وتنتصب صورنا المؤطّرة على عتبات النوافذ. لقد أصبحنا جزءًا لا يتجزّأ من حياة واحدنا الآخر، حتى لبدا تصدّعٌ وإن بسيط ضربًا من ضروب المستحيل.

كانت أموالنا شحيحة ووقتنا ضيّقًا، ومع ذلك، كنّا نغامر كل بضعة أسابيع بتجربة زاوية جديد من العالم الجديد، فنزور مطعمًا أو حانة، ونستكشف جزءًا جديدًا من هذه المدينة الجديدة. كانت مارني تعمل

عملًا إضافيًّا إلى جانب عملها الثابت، وتسعى دائمًا إلى اكتشاف تجربة جديدة تكتب عنها. فكانت تحلم أن تكون أول من يكتشف مطعمًا يفوز لاحقًا بنجمة ميشلان. وكانت قد عملت مع فريق التسويق في سلسلة حانات مذ تخرّجت، لكن لم يمضِ أشهر قليلة حتى قرّرت أنّها تريد القيام بما هو أكثر إبداعًا وإرضاءً وحميميّة في آن. فبدأت تكتب مدوّنة حول الطعام: تجمع المعلومات ومراجعات المطاعم وتكتب وصفاتها الخاصة أيضًا.

تلك كانت البداية، ولربّما الجزء الأكثر إثارة فيها. سرعان ما بدأت قاعدة جمهورها تتوسّع. وبطلب من متابعيها على شبكة الإنترنت، بدأت تسجّل عبر الفيديو وصفاتها الخاصّة. كما قبلت دعمًا من شركة لأدوات المطبخ الراقية، ملأت شقتنا بالمقالي الزهر الصلبة والأواني الباستيل وكمية من الأدوات التي لا يمكن لشخصين اثنين أن يحتاجاها. كما عُرض عليها عمود ثابت في صحيفة. لكن في البداية، كنا نحن الاثنتين ليس إلّا، نقلّب صفحات المجلّات بحثًا عن أحدث الأماكن الجديدة التي نقوم باستكشافها.

أعتقد أن بوسع المرء أن يعرف الكثير عن علاقة ما من الطريقة التي يتناول فيها شخصان عشاءهما معًا أمام الناس. كنّا نهوى أنا ومارني مراقبة الأزواج يدخلون إلى المطعم يدًا بيد؛ أو مجموعات الرجال ببزاتهم الرسمية بينما يزداد ضوضاؤهم شيئًا فشيئًا، فيتّسعون ليملأوا الفضاء المتوفّر؛ أو استطلاع علاقة غير شرعية؛ أو عشاء الاحتفال بذكرى؛ أو اللقاء الأول. كنا نحب قراءة القاعة، وتخمين الماضي واستشراف مستقبل الآخرين، والتشارك في قصص عن حيواتهم كنّا نأمل أن تكون صائبة.

لو كنت أحد هؤلاء الزبائن الآخرين، ممن يجلسون على إحدى هذه الطاولات، يلعبون اللعبة نفسها ويراقبوننا بدورهم، لكنت رأيت

امرأتين شابتين، واحدة فارعة الطول فاتحة اللون، والأخرى منكمشة على نفسها داكنة البشرة، وكلاهما مرتاحتان برفقتهما. وأخالك بوسعك سريعًا اليقين أنّنا كنّا نستمتع بصداقة جذورها راسخة وفروعها صلبة. لكنت رأيت مارني -من دون تفكير، ولا سؤال، ولا حاجة لذلك- تمد يدها لتأخذ البندورة من صحني. ولكنت رأيتني أتناول شرائح الخبز أو كبيس الخيار من صحنها.

لكنّنا لم نتناول أنا ومارني طعام العشاء بمفردنا منذ ثلاث سنوات، مذ انتقلَت للعيش مع تشارلز. لم نعد نشعر بتلك الراحة التي كنا نشعر بها في ما مضى. لم تعد عوالمنا متداخلة. أنا الآن مجرّد ضيفة زائرة في كتاب حياتها. لم تعد صداقتنا قائمة بحد ذاتها على نحو مستقل، بل باتت طغوة جلديّة، أو نتوءًا يجد علّة بقائه ضمن حب آخر.

لم أفكّر في ذاك الوقت -ولا أفكّر اليوم- أن قصّة حب مارني وتشارلز تتخطّى الحب الذي كان قائمًا بيننا. ومع ذلك، فقد أدركت ضمنًا أن حبّهما -وهو حب رومانسي- سيستهلك حبّنا لا بل عليه أن يقوم بذلك. ومع ذلك، فإن حبّنا -ذلك الحب الذي نما على وقع تنقّلاتنا جنبًا إلى جنب في زوايا المدرسة، وفي باصات كنا نستقلها لرحلات نهارية، وفي قضاء الليل في منزل أحدنا الآخر- بدا وكأنه يستحق حياة كاملة معًا.

كنت مساء كل جمعة، في حوالى الساعة الحادية عشرة عندما أغادر شقتهما، أجدني أقول وداعًا لحب صقلني وحدّدني وقرَّرَني. لطالما بدا الأمر غاية في القسوة أن نكون داخله وخارجه في آن واحد.

والحقيقة التي كنت أدركها آنذاك -الحقيقة التي لا يسعني حتى اليوم فهمها كاملة- هي أنه، على الرغم من قساوتها، إلا أنها واقع أنا المسؤولة حصرًا عنه. لقد كنت مسؤولة بالكامل عن ذلك الطرف الأول الذي انفصل، وتلك العظمة الأولى التي انكسرت، وتينك الذكرى الأولى التي فقدت.

الفصل الثالث

بعد ثلاثة أشهر من تعرّفي على جوناثان، انتقلت للعيش في منزله الصغير في إيلنغتون. نعم، كنا شابَّيْن يافعين، لكننا كنا عاشقَيْن غارقَيْن في الحب. كان الأمر غاية في السهولة، على عكس ما يفترض بالعلاقات الجديدة أن تكونه في بداياتها. وقد أضحت الحياة حيّة مثيرة، على نحو نادرًا ما خبرته في حياتي. لقد أحببت العيش مع مارني -وكنت سعيدة- لكنّني كنت بدأت أتوق لما هو أكثر من ذلك، لما هو مختلف.

قضيت السواد الأعظم من طفولتي في منزل بدا محبًّا من الخارج، لكنّه فشل فشلًا ذريعًا في الالتزام بوعد قطعه على أفراده. حافظ أهلي على زواجهما لخمس وعشرين عامًا قبل أن يتطلَّقا. كان يفترض بهما أن ينفصلا قبل ذلك بكثير، لأن نزاعاتهما وخلافاتهما جعلت حياتنا العائلية لا تُحتَمل.

بالمختصر المفيد، كان والدي زير نساء. وقد أقام علاقة امتدت على عشرين عامًا مع سكرتيرته، فضلًا عن عدد من النساء الأخريات اللواتي حمن حوله وعبرن حياته خلال فترة زواجه. كانت أختي تصغرني بأربع سنوات، لذلك فعلت ما أمكنني لحمايتها من جلبة التوتر والدراما التي كانت ترافق حياتنا. فكنت أصطحبها خارجًا وأرفع صوت الموسيقى وأحاول تشتيت انتباهها بوعدها بمشاهدة ما هو أكثر إثارة في مكان آخر. لكنّني أفترض أن هذه قصة أخرى سأتركها لوقت آخر. ما أود قوله هنا هو إنّني -وربّما أكثر من غيري- كنت أكثر عرضة للجنوح لمثاليات الحب الرومانسي. لقد عشقت مارني. لكن هذا الحب الجديد استهلكني بالكامل.

التقينا أنا وجوناثان في شارع أوكسفورد عندما كان كلانا يبلغ الحادية والعشرين من العمر. كانت الساعة السادسة مساء وكان كل واحد يتّجه إلى منزله في الطرف الآخر من المدينة. كانت مداخل المحطة تعترضها أبواب، كما هي الحال في أغلب الأحيان، نتيجة الاكتظاظ عند المنصّات. وكانت السماء قاتمة، تهدّد بهطول الأمطار، والغيوم السود المتزاحمة تمر سريعًا فوق رؤوسنا.

انحشرنا أنا وجوناثان -وكان لا يزال واحدنا يجهل وجود الآخر- بين الجموع ننتظر في الصف لنتمكّن من الولوج إلى الردهة المخصّصة للبطاقات. بدت الحشود وكأنها منصهرة في شخص واحد، وكلّ واحد يدرك التحامه بالآخر، ويشعر برغبة ملحّة لأن يكون في مكان آخر. أما أنا، فكنت أشعر بالأجساد الأخرى تغزو جسدي؛ أذرع محشورة إلى ذراعي، وساق تلاصق ساقًا على نحو لا يتفق مع المألوف، بينما يضغط صدر أحدهم على مؤخّرة رأسي. كنا مضغوطين على بعضنا البعض حتى لتعذّر عليّ أن أرى أبعد من ظهر الرجل الذي كان واقفًا أمامي.

في النهاية، ارتفع صوت صرير، معدن بمعدن، لحظة فُتحت الأبواب من الداخل. وبدأت الحشود تهتز، استعدادًا للدخول. مال الرجل الذي يقف أمامي -ويعيق نظري- إلى الأمام، وبينما تقدّمت خطوة في المساحة الفارغة بيننا، ارتدّ إلى الوراء. فاصطدم بي واصطدمت أنا بالشخص ورائي. في ذلك الوقت، كان طرفا الحشد يتحرّكان بثبات إلى الأمام، بينما وقفنا نحن في الوسط، ندفع بمن حولنا في الاتجاه الخاطئ.

«ما الذي...؟»، قلتُ وأنا أحاول استعادة توازني.

«أنت...»، قال وهو يستدير ليواجهني.

أيقنتُ -كما أيقنتُ مع مارني- أيقنتُ على الفور. قد يبدو الأمر غبيًّا أو حتى ساذجًا، أنا أعرف ذلك. فقد واجهني الناس بهذا النقد مرارًا وتكرارًا - عندما انتقلت للعيش معه، وعندما وافقت على الزواج به، وحتى عشية زواجنا. وجلّ ما استطعت قوله لهم ردا عليهم، وجل ما

أستطيع قوله لك الآن هو إنّني أتمنّى أن تسنح لك الفرصة يومًا ما لعيش ذلك بدورك أيضًا.

أفترض أن الأمر كان مغايرًا مع مارني. فكان كلانا يبحث عن أحد ما. كانت السنوات السبع التالية من المدرسة تمتد أمام ناظرينا وما كان أحد منّا يتوق لقضائها وحيدًا. والفرحة التي شعرنا بها عندما وجد أحدنا الآخر تضاعفت بفعل إحساس غامر بالارتياح.

أما في ما يتعلّق بجوناثان... لا أدري. لم أشعر يومًا بأنّني من نوع النساء اللواتي يقعن في الحب على هذا النحو. لذلك، لم أكن أعلم أن ثمّة ما أحتاجه، أو ثمّة مساحة فارغة، أو شيء أحتاج لتبريره. لقد رأيته بكل بساطة، وأدركت تلقائيًا أنّه يتعيّن عليّ أن أتعرّف إليه عن كثب. أستطيع أن أخبرك عن شعوري مستخدمة عبارات تحوّلت مع الوقت إلى مرادفات للحب العظيم، لكن تلك الحقائق البديهية لم تكن يومًا حقائق بالنسبة إليّ. لم يتداعَ العالم تحت قدمَيّ؛ لا بل شعرت أنّني ثابتة راسخة كما لم أكن يومًا. ولم ترتعش يدايَ، ولا ارتجف قلبي، ولا احمرّت وجنتاي خجلًا. ولم أرَ أي فراشات. لقد كان مجرّد شعور قائم على أنه كان بالنسبة لي ذلك المنزل الذي لطالما احتجته ولم أعرفه يومًا.

«أنت...»، قلت وأنا أسوّي طيّات معطفي. كانت عيناه خضراوان، وبينما أخذ يحدّق بي، مدهوشًا، شعرت برغبة ملحّة بتمرير راحة يدي على خدّه. «أنت».

«وشاحي»، قال وهو يشير إلى الأرض. «أنتِ تدوسين على وشاحي».

«ليس صحيـ...» ونظرت إلى الأسفل. كنت لا أزال أدوس على أطراف وشاحه الأزرق الداكن. آه، أجبت وأنا أتنحّى سريعًا جانبًا. «عفوًا».

«هيا، حلّوا مشكلاتكم بعيدًا»، صرخ صوت من الخلف، عاليًا مزمجرًا، هو صوت الحشد.

قال وهو يستدير. «أجل، حسنًا، عذرًا».

بدأ يمشي إلى الأمام وأنا أتبعه، مبتسمة ابتسامة بلهاء فارغة، بينما وجهي

لا يزال يضغط بإحكام على طرف كتفه. بقينا هكذا، ملتصقَيْن ببعضنا البعض، على طول ردهة البطاقات نزولًا حتى السلالم باتجاه المنصّات. وفي لحظة ما، بدأنا نتكلّم. لا يسعني أن أخبرك الآن ما الذي قيل آنذاك، لكن لحظة تعيّن علينا أن ننفصل، هو كي يذهب شمالًا وأنا جنوبًا، وجدنا أنفسنا نتشاجر حول الوشاح، وحول حانة كان يصرّ على أنّها غير موجودة.

قلت له: «أنتَ لا تدري ما تقوله، لقد ذهبت إليها عشرات المرات. وأستطيع أن آخذك إليها الآن».

«حسنًا»، أجابني.

كان الناس يسارعون الخطى من حولنا، ويتفرّقون في اتجاهين، كلّ من طرف منّا، قبل أن يتوزّعوا على المنصّات.

«ماذا؟»، سألته.

ردّ عليّ: «فلنذهب»،.

وكانت الحانة موجودة تمامًا كما قلت وأصررت؛ حانة مخفية بألواحها الخشبية التقليدية، تعود إلى القرون الوسطى، بسقوفها المنخفضة والمَوقدة المفتوحة التي تتوسّطها. كانت–ولا تزال، مع أنّني لم أذهب إلى هناك منذ ثلاث سنوات، تسمّى قصر ويندسور. وكانت تبعد حوالى العشر دقائق عن شارع أوكسفورد سيركس، يحتضنها شارع مرصوف ضيّق، في إشارة ترحيب لافتة إلى نسخة قديمة من المدينة التي شيّدت وسبقت بوقت طويل المتاجر والمقاهي الشهيرة الشاهقة التي تكرّر نفسها كل مائة متر.

بقينا هناك لساعات، حتى رنّت صاحبة المكان جرسها إيذانًا بآخر الطلبات، فعدنا أدراجنا إلى ردهة البطاقات، التي أصبحت شبه فارغة، وودّعنا بعضنا البعض بقبلات -كانت خارجة كليًّا عن طباعنا- وبوعد بلقاء في المرة المقبلة. أحسست بشيء يتحرّك داخلي عندما رفع يديه عن ردفيّ. وبينما رحت أراقبه يبتعد عنّي، ومعطفه الزيتي يطرق ساقيه، أيقنت أنّني وقعت لتوّي في حبّه.

ذاك الحب هو الأساس الذي كان يفترض بي -ويمكنني- أن أبني حياةً عليه. ثمّة نسخة من هذا العالم لا نزال فيها أنا وجوناثان موجودين معًا، مغرمَيْن مأخوذَيْن ببعضنا البعض. لقد وعد أحدنا الآخر حبًا لا ينضب، وحياة نحتفي فيها بالضحكات، ورابطًا لا يتزعزع للحظة. قد يبدو أحيانًا ضربًا من ضروب المستحيل أن نصدّق أنّنا فشلنا في الالتزام بعهد كان ثابتًا، لا بل راسخٌ في ما مضى.

عرض عليّ الزواج به بعد سنة -في اليوم نفسه- في هذه الحانة نفسها. جثا بإرباك على ركبة واحدة وأخبرني أنّه كان قد أعدّ العدّة لخطاب، حفظه غيبًا، لكنّه لا يستطيع تذكّر كلمة واحدة ممّا أراد قوله. لكنّه سيحبّني ما بقي حيًّا، بحسب ما قال، إن كان ذلك يكفيني الآن.

خلت الأمر أكثر من كافٍ بالنسبة لي.

تزوّجنا ذلك الخريف في مكتب تسجيل. لم ندعُ أي ضيف واحتفلنا بأغلى زجاجة شمبانيا وجدناها في أقرب مخزن مرخّص. ثم ذهبنا إلى حانة قصر ويندسور لتناول فطور الزفاف. كان من المنطقي أن تتحوّل الحانة إلى المقر الذي يشهد على أبرز مراحل علاقتنا. وضعت طلبيّتي عند البار، وأنا ألفظ بدقة أن زوجي يريد البرغر. كوّرت النادلة عينيها لكنّها ابتسمت، وقد راقها مشهد العروس الصبية بفستانها الأزرق الزاهي والعريس بربطة عنقه الخضراء. أما الحلوى -وكانت عبارة عن قطع براونيز مع بوظة الفانيليا- فقدّمت لنا مع كلمة «مبروك» مكتوبة بالشوكولا على دائرة كل صحن.

جررنا حقائبنا إلى ووترلو والتحقنا بالقطار المتجه إلى الساحل الجنوبي لنقضي ليلتنا في نزل صغير في بلدة ساحلية تدعى بير. وصلنا في وقت متأخّر من المساء، وعرّفنا عن أنفسنا كما يفعل المتزوّجون حديثًا، معلنين أننا حجزنا غرفة باسم السيد والسيدة بلاك.

«باسم جاين؟»، سألت السيدة العجوز الجالسة وراء المكتب. كانت

الساعة قد شارفت على العاشرة وبدت وكأنها تصرّ على أن نعي أننا نزعجها في ذلك الوقت.

«نعم»، أجبتها. «جاين بلاك». تستطيع أن تقول ما تريد، وتفعل ما تشاء، لكن أيًّا من ذلك لن يؤثّر قيد أنملة على السعادة التي كنت أشعر بها.

«إلى الأعلى، في نهاية الممر، إلى اليمين». أعطتنا مفتاحًا ذهبيًّا صغيرًا مربوطًا بسلسلة ذهبية رفيعة في طرفها علّاقة خشبية حفر عليها كلمة أربعة. «هل من طلب آخر؟».

هززنا رأسَيْنا نفيًا.

حمل جوناثان حقائبنا إلى الأعلى قبل أن نصل إلى غرفتنا. كانت الأرضية مصنوعة من الخشب الداكن، وشراشف السرير مزخرفة بزهور صغيرة زاهية. أما الستائر -التي كانت بلون الصدأ- فكانت مغلقة لينير مصباح زهريّ صغير موضوع في الزاوية أرجاء الغرفة. وعلى المكتب الخشبي القديم الطراز، وُضعت زجاجة شامبانيا في دلو ثلج. نزع جوناثان الفلّينة وسكب كأسين، وشربنا نخب زواجنا للمرة الثانية. استيقظنا في الصباح التالي بينما كانت الشمس تشرق ساطعة وترمي السرير بسهام صفرٍ وبرتقالية. أذكر دفء صدره على ظهري بينما احتضنني من الخلف، وراحة يده الناعمة تمرّ على بطني، وشفتاه تستريحان على كتفي. أذكر شعور أن يحتضنني كاملة، أن يغلّفني بأمان مطلق، كما أذكر كيف تلفّني يداه وتديرانني نحوه، لتتحوّل قبلاته وتزداد إصرارًا بينما يسعى لما هو أكثر.

لم نتخلَّ عن سريرنا ونخطّط لكيفية قضاء يومنا إلّا في وقت لاحق من اليوم، عندما سمعنا طَرقًا على الباب، ووقفت امرأة معتذرة تقدّم لنا مناشف كان يفترض تركها في الحمام. ففتحت الستائر ونظرت إلى البحر. كان يمتد عبر الأفق تحدّه من الجانبين منحدرات بيض يعلوها عشب أخضر خصب. كنا في شهر أكتوبر، ومع ذلك كانت السماء مشرقة، صافية، ترحّب بنا.

أخرجنا أحذية المشي وارتدينا السترات الصوفية السميكة.

خارجًا، افترشَت الحصى الشاطئ. بدأت أسير في ذلك الاتجاه، نحو البحر، نحو الأمواج التي كانت تتوالى مدًّا وجزرًا، لتنهار عند الشاطئ.

« صرخ جوناثان وهو يشير صعودًا نحو المنحدر. «من هنا، أعتقد أنه علينا أن نذهب في ذلك الاتجاه».

وهكذا بدأنا رحلة الصعود، نمشي على طول الطريق المعبَّدة، فنمر أمام سيارات مركونة ونوافذ مغلقة بالستائر، إلى أن وصلنا إلى حافة معشوشبة وضعت عليها إشارات تدل إلى الساعات وأيام العطل وآلة بطاقات صغيرة.

«فلنواصل السير»، قال جوناثان وهو يعبر وسط الشاحنات القليلة المركونة ويجتاز العشب.

من هناك، أكملنا المسير بصمت، أحيانًا يدًا بيد، وأحيانًا أخرى هو يسبقني وأنا ألحقه، بعد أن أكون قد توقّفت قليلًا إذ استرعى انتباهي أمر ما فأجهد لاحقًا للّحاق به.

كان دائم التركيز، لا سيما في الخارج، حاضرًا دائمًا بكاميراه، يبحث عما هو أبعد مما يراه، في زاوية ما، أو ما ينتظره. أما بالنسبة لي، فكان يسرّني بكل بساطة أن أكون معزولة، فلا أسمع صوتًا غير صوت البحر تتكسّر أمواجه عند الصخور ونعيق النوارس فوق رؤوسنا.

بعد ساعة ونيّف، اقتربنا من قرية ساحلية أخرى، بدت وكأنها أصغر من بير، لكنّها تحتوي على موقف للسيارات، وبناء صغير يضم مراحيض عامة، ومقهى مسقوف بالقش.

«لربّما هو مفتوح»، قال جواناثان، ولأن جوناثان كان معي، فقد كان المقهى مفتوحًا.

طلب كوب قهوة له وكوب عصير ليمون بارد لي. ثم جلسنا خارجًا على مقاعد النزهة، وأخذنا نتأمل البحر بانتظار سندويشات اللحم. كان الصيادون يتجمّعون مع بعضهم البعض، يحمي أحدهم الآخر من

الرياح. رحت أتخيّلهم يناقشون صيدهم، وسعر سمك القَدّ، وخططهم لما تبقى من النهار.

بعد الفطور، تجوّلنا على طول الشاطئ، حيث الأمواج تتلاطم مدًّا وجزرًا، تلامس شقوق كل صخرة وتمرّ فوق نعال أحذيتنا. لاحظ جوناثان شرخًا عند عتبة أحد المنحدرات فأصر على استكشافه. اخترقنا الشجيرات الكثيفة، مبتعدين عن الساحل لنغوص في الغابة ونتعرّج بين الدغل الشائك وشجر القرّاص في ممر ضيّق موحل. ثم تسلّقنا نحو الأعلى، وكان المنحدر لا يزال يعلو فوقنا بكثير.

بعد حوالى العشر دقائق، وربّما الخمس عشرة، وصلنا إلى مفترق في المسار؛ كانت الجهة اليسرى تكشف عن خطوات محفورة في المنحدر، بينما تبدو الجهة اليمنى مسارًا رفيعًا على حدود موقع مطلّ.

«فلنجرّب هذا»، قال جوناثان، مشيرًا إلى الجهة اليمنى.

«لا أعتقد ذلك»، أجبته.

كان قد أمضى طفولته في الجبال، حيث ترعرع بين الوحل والقش والعشب. لكنّني لم أكن لآلف هذا العالم. نعم، لقد سحرتني المشهدية والأصوات والفضاء اللامتناهي، لكنّني شعرت كأنّني دخيلة غير مرحَّب بها ولا تشعر بأنها في ملعبها.

«يبدو الدرب أكثر أمانًا من هنا»، قلت مشيرة إلى اليسار.

أجابني مبتسمًا. « هيا بنا، ستكونين بخير».

تردّدت قليلًا. لكن الأمر كان يغويني، وقد مدّني إيمانه بي وثقته بالشجاعة. كنت أجد صعوبة في رفض ما يطلبه. صدقًا، كنت لأفعل كلّ ما يمكن أن يطلبه منّي.

رفعت قبضتي، وبسطت أصابعي ثم تقدّمت خطوة باتجاهه، وصولًا إلى الشفة الصغيرة الناتئة من الصخور.

تراجع بضع خطوات -بسهولة ورشاقة لافتين- كما البهلون يتأرجح على خيط رفيع.

قال مشجّعًا: «هيا، تبلين حسنًا».

كان الجرف ضيقًا، بالكاد يتّسع لقدم واحدة. وكان يستحيل أن نقف والقدمين جنبًا إلى جنب.

«قومي بخطوة ثانية»، قال.

سمعت في هذه اللحظة صدى مستقبلنا معًا: هو يتكلّم إلى طفل، يشجّعه أيضًا. واستقرّت في أحشائي تلك الذكرى، ذكرى حدث لم يقع بعد، فمدّتني بما يلزمني من شجاعة.

«ماذا تنتظرين؟ هيا، واصلي المسير»، أصرَّ قائلًا. «أنا هنا لأحميكِ».

رفعت قدمي اليسرى، ولحت بها ببطء إلى الأمام، فوق البحر الممتد تحتنا. أخيرًا، وجدت قدمي موطئها على الحافة وتنفست الصعداء.

«وماذا بعد كيف تقوم بذلك؟»، سألت. كنت قد استدرت على نفسي، وقد بتّ أواجه المنحدر، وصدري يضغط عليه، وطرف نعلي في الهواء.

أجابني: «تستطيعين المشي بشكل طبيعي، أو مرّري رجليك تمريرًا. وحاولي ألّا تفكري بالأمر».

نظرت إليه وهو على بعد خطوات قليلة مني. ابتسم لي ابتسامة عريضة وقد ازدادت التجاعيد تحت عينيه، وغاصت الغمازات في ثنايا وجنتيه. مدّ يده نحوي مطمئِنًا، وكان الخاتم في إصبعه يلمع تحت أشعة الشمس. ويده الأخرى تمسك بحافة أعلى رأسينا، وكان بإمكاني رؤية طرف وركه وقد ارتفع قميصه عن سرواله.

ملت باتجاهه. لكن رجلي الخلفية قد انزلقت، وما زلت أذكر ذاك الشعور الذي رافقني، بينما وزني يتداعى إلى جهة واحدة. أذكر أن الهواء الذي كنت أتنشقه قد علق في رئتي، وأصابعي راحت تخدش الصخر، بينما يدب فيّ الذعر. شعرت بيده تضغط سريعًا على ظهري بينما يدفعني بقوة نحو الصخر، ليكشط ذقني سطح المنحدر الحاد.

« طمأنني قائلًا: « أنت بخير، لا تجزعي أنت بخير».

«كلا، لست بخير، ليس آمنًا هنا، لا يجدر بنا أن نكون هنا».

كان وجهي يلسعني، وركبتاي تؤلمانني من وقع الانزلاقة.

« راح يكرّر: « أنت بخير، أعدك ستكونين بخير».

فهززت رأسي بقوة.

أجابني: «حسنًا، حسنًا، لا تغضبي. اذهبي من ذاك المسار».

أخذت أزحف بقدميَّ بضع خطوات إلى اليسار، إلى أن بلغت المسار المعشوشب.

قال: «حسنًا فعلتِ، هل ارتحتِ؟».

«أومأت برأسي إيجابًا. ثم وضعت يدي على ذقني؛ خلتني أنزف، لكن أصابعي كانت نظيفة بلا أي بقعة دم.

«حسنًا. ألقاك في الأعلى»، قال.

أومأت برأسي وانطلق هو في مساره إلى فوق.

أعلم أنّني قلت إنّني مستعدة للحاق بجوناثان إلى أي مكان، وهذا صحيح. لكن في انعدام الخوف لديه ما يتعارض مع خوفي الغريزي. ومهما حاولت ومهما سعيت، إلا أنّ الخوف كان أحيانًا الفائز من دون منازع. هكذا لجأت إلى الطريق الأسلم لتلتقي دروبنا مجدّدًا بعد دقائق معدودة؛ أعلى المنحدرات.

لو علمت في ذاك الوقت أنّنا لم نكن لنحظى إلا بأشهر قليلة أمامنا، لكنت وجدت الشجاعة لأقضي تلك الدقائق القليلة معه.

ثمّة مفارقة مأساوية -أدركتها متأخرة- متجذّرة في كل خيط من خيوط علاقتي مع جوناثان. لقد التقينا في زاوية صغيرة من المدينة، وقد أصبح هذا المكان جزءًا أساسيًا من طريقة عيشنا ونمو حبّنا ووجودنا معًا. إلى أن أصبح هذا المكان حيث انتهت علاقتنا. لقد وقعنا، جوناثان وأنا، في حب بعضنا البعض في زاوية شارع أوكسفورد وبضربة قاسية من القدر، لقي حتفه في المكان نفسه.

بجعبتي ما أخبره عن ذلك اليوم أكثر بكثير مما أستطيع إخباره عن اليوم الذي التقينا فيه. فإذا بشريط الأحداث السوداوي يكرّ أمامي،

التسلسل الدرامي الذي أدّى إلى وفاته، بشكل متواصل لأسابيع طويلة. ولا أزال أحيانًا أستذكر هذا الشريط.

كان جوناثان يشارك، للمرة الأولى، في سباق ماراثون لندن. وكنّا نتوقّع هطول المطر وتشكّل الجليد وهبوب رياح عاتية. لكنّه كان بالغ الحماسة. لقد تدرّب طوال فصل الخريف؛ وكان معتادًا على الركض تحت المطر لذلك لم يكن مباليًا.

في ذلك الصباح، كان يستحيل ضبط حماسته، إذ راح يتململ ويهذي بكلام بمغزى وبغير مغزى، لتنتقل عدوى حماسته إلى مَنْ حوله. كنّا نعيش حياتنا على وقع روتين عادي. فنستيقظ صباحًا على رنين المنبّه، ونتناول القهوة والفطور، قبل أن نستحم، ونبحث عن مفاتيح المنزل، لنكاد نصل متأخرين قليلًا، فنستعيد الرتابة المطمئِنة التي تميّز كل يوم.

أردت أن أشاركه نصره فتوجّهت فورًا إلى المركز التجاري. وقفت هناك أمام الحاجز الحديدي لساعات وبالكاد أحسست بالوقت يمرّ. كان الجو ملتهبًا؛ الجموع من حولي في حالة حماسة وتوتر وتشجيع وتعرّق. مرّت نخبة المتسابقين بادئ ذي بدء -وهم يوحون بأن السباق غاية في السهولة- يتبعهم قلّة من الرجال، ثم بعض النساء، وأخيرًا زوج يقطر وجهاهما بغزارة وأجسادهما مغلّفة بأزياء ديناصورات.

كان جوناثان مصرًّا على إنهاء السابق في أقل من ثلاث ساعات، ولم أشكّ لحظة في أنّه سينجح بالقيام بذلك. فرحت أشاهده يزيد من سرعته بعد ساعتين وواحد وخمسين دقيقة، ليعبر خط النهاية بعد ثلاث دقائق.

لم يُكتب لي يومًا أي نجاح عظيم. لقد عملت دائمًا بكدٍّ، لكنّني لم أبرَع يومًا. ولطالما شاركت في مباريات؛ لكنّني لم أفز يومًا. على عكس جوناثان، الذي اعتاد الفوز. حتى إنّه تخطّى الأهداف الجريئة التي وضعها لنفسه.

لذا لم أتفاجأ على الإطلاق عندما أُعلن أنّه المتسابق المليون في الماراثون منذ افتتاح ماراثون لندن في العام 1981، وأجرت قناة الـ«بي بي

سي» مقابلة معه. لطالما كان وراء عدسات الكاميرا في الأحداث الرياضية، يصوّر للقنوات الإخبارية أو لمحطات البث الرياضية، لكن إجاباته ذلك اليوم كانت غاية في التواضع والجاذبية. أذكر أنّني تساءلت إن كان حريّ به أن يفكّر بمهنة يقف فيها أمام عدسات الكاميرا بدل أن يكون وراءها.

بعد المقابلة، توجّهنا إلى مقهى قصر ويندسور لتناول المشروب، مشروب سريع واحد لنحتفل بنجاحه.

لكنّنا لم نصل أبدًا.

بينما كنّا نشق طريقنا من محطة الميترو في شارع أوكسفورد سيركس باتجاه الشارع الضيّق المرصوف، اندفع سائق مخمور باتجاه معبر للمشاة، مطيحًا بزوجي أرضًا.

أذكر أنّه كان مستلقيًا على ظهره على الرصيف. كانت ركبته ملتوية عند المفصل. أما عيناه، فمطبقتان، بشكل مسالم، وذقنه يرتاح بلا حراك على صدره. كان لا يزال يرتدي سرواله الأسود القصير والبلوزة الصفراء الضيقة. وكانت حقيبة ظهره على بعد متر أو اثنين منه، يخرج منها، من بين سحاباتها، غلاف القصدير الرقيق الذي أعطي له. أما قارورة مياهه، فأخذت تتدحرج ببطء لا متناهٍ باتجاه الرصيف.

تجمّع حشد، من الدرّاجين والمشاة، في غياب سائق التاكسي الذي بقي مسمّرًا في مقعده.

وكان جوناثان مسمّرًا أيضًا، وعلامات إعياء غريب تظهر عليه، حتّى بات جماده ملفتًا وسكونه مرعِبًا كما لو أنه نائم. وبدأت بقعة دماء تتشكّل تحت خدّه، لتتحوّل مستنقعًا تحت جسده.

أذكر وصول سيارة الإسعاف، التي ركنت إلى جانبنا، وصفّارتها تزعق زعقًا. لكن سرعان ما صمتت؛ أذكر فجأة فقدان الأصوات بينما كانت تصمّ الآذان، لكن الوميض تواصل، أحمر وأزرق، وأحمر وأزرق. قفز المسعفون من مركبتهم، اثنان منهم، يرتديان اللون الأخضر، وتوجّها نحونا، يصرخان من فوق غطاء محرِّك الإسعاف. تسارعت الأمور

وبدأ الطاقم يحرق الوقت حرقًا: وضعت المسعفة قفازات بيضًا من اللاتيكس، في يدها اليمنى أولًا ثم اليسرى، وراحت تتأكّد من دخول كل إصبع في مكانه. وكانت تضع حقيبة ظهر فوق كتفيها. وكان ثمّة شرطية تعتمر قبعة ولا أزال أذكرها الآن، تشير إلى الحشد بضرورة التراجع، والمضيّ في سبيلهم، إذ ليس ما يستدعي للمشاهدة هنا.

دار المسعفان من حولنا، وفحصا نبض جوناثان، ممدِّدَين يديه فوق جسده، قبل أن يمزِّقا بلوزته، ويوجِّها نورًا أبيض ساطعًا إلى عينيه.

«لو أمكنك فقط أن...»، قالت لي المرأة، فجثوت على ناحية من الأرض جانبًا. امتدت ذراعاهما من حولي، والشرائط العاكسة على بزاتهما تعيد توجيه ضوء مصابيح السيارة إلى عيني. أخذت أغمض عينيَّ وأفتحهما وأنا أدرك أن الدمع يبلّلهما.

وضعوه على حمالة؛ لوح بلاستيكي غريب، ورفعوه إلى داخل مؤخّرة سيارة الإسعاف. تقدّمنا ببطء في شوارع لندن وجنوبًا باتجاه مستشفى القديس جاورجيوس. وتبعَت سيارة الشرطة واقتربت مني الشرطية -التي لم تتخلَّ عن قبَّعتها- تمسك بذراعي بينما أنزل من سيارة الإسعاف، ثم جلست معي في قاعة الانتظار. طلبت مني أن أواصل التنفس: أحبس أنفاسي وأعدّ إلى ستة، ثم أزفر وأعدّ إلى ستة. بعد ذلك، غادرت وتركتني بمفردي، أنتظر. كان الظلام قد حلَّ خارجًا عندما ناداني طبيب إلى غرفة جانبية ليخبرني بما كنت أعلمه جيدًا، ليؤكد لي أن جوناثان قد مات.

عرض أن يتّصل بأحد يأتي ليساندني، لكنّني لا أذكر أنّني أجبت عن سؤاله. بل غادرت واستقلّيت سيارة أجرة وأمليت عليه عنوان الشقة في فوكسهول. وعندما وصلت، وجدت ثلاثة شبان يرتدون السراويل القصيرة والقمصان ويجلسون خارجًا حول طاولة في حانة على النهر، وميداليات الماراثون الذهبية تتدلّى من حول أعناقهم. شعرت بفقاعة تكاد تنفجر في صدري وأنا أتصوّر جوناثان جالسًا هناك معهم، بسرواله

القصير وقميصه وميداليته، يشاركهم الاحتفال بالنصر. ثم أحسست بالقيء يبلغ حلقي فابتلعته مجدّدًا لأن الوقت غير مناسب لذلك، فالواقعة ليست حقيقية، ومع ذلك، لم يكن بإمكاني أن أفكّر بما يجدر بي القيام به ولا حتى كيف أكون في هذه اللحظة.

جلست عند مدخل المبنى، وتخيّلته واقفًا أمامي، يفرك كوعه، ويمسح يده بصدره ليزيل بقايا علقت عليه من الإسفلت. تصوّرته مصدومًا، وغاضبًا نوعًا ما، وقد برزت ندبة صغيرة تحت عينه اليمنى حيث وقع، لكن كان عدا ذلك بخير: يمشي، ويتكلّم ويتحرّك، ويحيا. أغمضت عينيَّ فرأيت شعره، الطويل أكثر مما يلزم، وذراعيه مكتَّفين على صدره، وذقنه المسنون، والنمش المنتشر على أنفه، نتيجة ساعات من الركض بعد الظهر تحت أشعة الشمس.

وإذ بي أتقيأ لأن الأمر لم يكن إلا سرابًا -ما من ندبة صغيرة تحت عينه، ولا شعر طويل، ولا نمَش، ولا ساعات إضافية من الركض- ولن أراه مجدّدًا، ولن يراه أحد مجدّدًا، ويا لهذا الحدث الجلل، الحدث المستحيل، الحدث اللامعقول.



الفصل الرابع

لفترة، كنت أحقِّق فوزًا في حياتي. وأعني ذلك بأبسط معاني الكلمة. لو كانت الحياة منافسة، مباراة يمكن خسارتها -وأنا أكيدة أنه يمكن خسارتها- فلا بد من أنه يمكن الفوز بها أيضًا.

كانت مارني تواعد عددًا لا يحصى من الرجال غير الجديرين بالمواعدة، من الذي يكثر من الشرب، إلى الذي يرجم بالحجارة في ملعب الأطفال في عطلة نهاية الأسبوع، والذي يشمّ المخدرات من مستوعبات الحمامات، بينما أنا كنت أقع في غرام شابٍ عظيم. وبينما كان رفاقها في الجامعة يقضون ليلة الجمعة في نوادٍ ليلية فظيعةٍ تصدح فيها الموسيقى الصاخبة وتكثر أنوارها المتلألئة وتزلق أرضياتها اللماعة، كنت أنا أخطط لكيفية قضاء شهر العسل. وبينما كبروا وأصبحوا قانطين، ينتحبون فشل كل علاقة وبلوغها حائطًا مسدودًا، وينسون انكسارهم في كؤوس الكحول وفي الوجبات الجاهزة، كنت أنا قد عقدت قراني. كنت قد حصلت على زوج لي. و-الأفضل من ذلك- أنّني كنت أحبه بكل جوارحي. وكانوا يتجادلون في غرف نوم صغيرة ويتقاسمون الفواتير ويسكبون الحليب أرضًا، ويتنازعون حول تراكم شعر العانة في البالوعة، وطوفان الحمام، وتكدّس الأطباق المتّسخة فوق الجلاية. بينما أنا كنت أعيش في بيت صغير جميل سقفه عالٍ ونوافذه كبيرة. كانت جدرانه مطلية بعيّنات صغيرة من الألوان، والصور المؤطّرة تستند إلى مدفأته، بانتظار تعليقها.

كانت مارني قد قدّمت استقالتها. وبينما بات آخرون يشكّلون أعدادًا إضافية في وظائفهم، حتى إنهم طُردوا في بعض الحالات وراحوا يتناولون

بالسوء مديريهم، والمهمات الوضيعة التي كان يومهم يتمحور حولها: من جلب القهوة، إلى حجز سيارات الأجرة، وطلب ماعون الورق للطابعة، كنت أنا أحصل على علاوة. لقد بدأت بدور إداري في شركة مبيعات عبر الإنترنت -كانوا يبيعون كل شيء: من الكتب إلى الألعاب والالكترونيات- وعرضوا عليّ وظيفة في فريق جديد يتولّى قسم المفروشات. كنت في عمل أحبه، في وظيفة أرى فيها مستقبلًا، في شركة طموحة.

كنت بحال أفضل منهم كلّهم. كنت أكثر سعادة منهم كلّهم.

أفترض أنه يعجبني أنّني وقعت في الحب أولًا. قد أشعر بالانزعاج وأنا أقول ذلك الآن، لأن الأمر يبدو غبيًا وطفوليًا، لكنها الحقيقة وهذا ما وعدتك بالبوح به.

كانت مارني أول من وجد خليلًا بيننا. كنا في الثالثة عشرة من عمرنا وكان ريتشارد يكبرنا بعام. أهله منفصلين ويعيش مع والدته. كان شعره برتقالي اللون لامعًا ووجنتاه تعلوهما بقع النمش. ذهب مع مارني إلى السينما وتلامست أناملهما في علبة البوشار حتى أمسككلّ منهما بيد الآخر حتى نهاية الفيلم. ثم ذهبت إلى منزله في اللقاء الثاني وأعدَّت لهما والدته دجاج الناغتس. لكن ريتشارد انفصل عن مارني في اليوم التالي. قرّر أنه يكنّ المشاعر لفتاة أخرى في دفعتنا -أعتقد بأنَّ اسمها جيسيكا- شعرها يشبه شعره في لونه، وكانت بالتالي أكثر ملاءمة له.

كنت أنا أيضًا مصرّة على أنّني بحاجة لصديق صبيّ، وهكذا وسط فجيعة مارني العاطفية، فاوضت لقاءً مع صبي اسمه تيم. لم نذهب إلى السينما، بل تمشينا عوضًا عن ذلك واشترى لي الأيس كريم، وكنت شبه أكيدة أنّني وجدت نصفي الآخر. وما ساعدني على ذلك أنه كان -بأشواط ملحوظة- أكثر جاذبية من غالبية الصبية الذين واعدتهم زميلاتي في الصف. وبالتالي زادت شعبيتي بشكل لافت إلى أن أصبحت فجأة

الملجأ لكل من يحتار في أمر علاقته. لكن لسوء الحظ، لم أكن أمارس ذلك التأثير الإيجابي على سمعته، فأعلن انتهاء العلاقة بعد أسبوع ونصف.

انتحبنا أنا ومارني معًا، مصرّتَيْن على عدم الوقوع في الحب ثانية وعلى التحول إلى ثنائي مثلي.

وهذا بحد ذاته بدا مثيرًا نوعًا ما للفضولية أليس كذلك؟ كنا قد بدأنا نعي جيدًا أن مجرّد صداقة لن تكون كافية في مرحلة الشباب. وكنا نعلم -في سنين المراهقة المبكرة- أن الحب الرومانسي سيضحى الأكثر أهمية.

ليس بوسعي أن أخبرك متى تغيّرت الأمور تحديدًا. فلسنوات -لا بل لأكثر من عقد من الزمن- كانت كل واحدة منا تشكّل محور حياة الأخرى. فكنا نخبر بعضنا البعض كل شيء، بما في ذلك أخبار الصبية ولاحقًا الشباب، والمواعدة ثم الجنس، والعلاقات ثم الحب. ومع ذلك، في لحظة ما، برزت فجوة بيننا وباتت حياتنا العاطفية تعيش خارج إطار صداقتنا. بتنا نغربلها في حواراتنا، فنستثني علامات فارقة فيها أو تحديثات، بدل أن نعيشها ونتشاركها معًا.

أفترض أن تلك كانت حالة من صنيعي أنا بنفسي. هل أخبرتها كيف كان شعوري عندما وقعت في غرام جوناثان؟ هل أخبرتها كيف كان شعور الليلة الأولى؟ لا أخالني فعلت.

عوضًا عن ذلك، تخلّيت عنها. ذهبت لأزوره بعد العمل، وكان قد أعد لي طعام العشاء، فعلّقت على المساحات الفارغة في الشقة، من الرفوف الشاغرة، إلى الجوارير نصف الممتلئة، فسألني إن كنت أحب أن أملأ هذا الفراغ. كان الوعد بالحصول على منزل مثل هذا -منزل معه- وعدًا آسرًا بكل بساطة.

«سأغادر هذه الشقة»، قلت لمارني عندما عدت ذاك المساء.

«حقًّا؟»، أجابت وقد بدت عليها علامات الذهول. كانت تجلس على أريكتنا الزرقاء والبيضاء، وتضع قدميها على الطاولة الصغيرة، بينما تطرق بأناملها على مفاتيح حاسوبها الجديد. كانت قد سجّلت في الأمسيات السابقة أولى شرائط الفيديو الخاصة بها: وصفة باستا الكاربونارا التي لطالما كانت المفضّلة لديّ. «يستحيل ذلك»، أضافت. «كيف أ...؟». أخذت هاتفها وبدأت تضغط على الشاشة بعصبية.

«مع جوناثان»، قلت.

«متى؟»، سألتني.

«غدًا»، أجبتها.

فنظرت إليَّ. «ماذا؟». وقد توسطت تجاعيد الصدمة أعلى جبينها. «غدًا؟ لكنك التقيتِ به للتو».

«لقد مضى على لقائنا ثلاثة أشهر»، أردفت قائلة.

«لكن تلك فترة لا تعني شيئًا».

فاستهجنت قائلة، «إنها تعني الكثير لي».

أردفت بهدوء: «حسنًا، هل أنت متأكدة؟» ثم أطبقت شاشة الحاسوب. «هل يفترض أن يحدث الأمر في الغد؟».

أومأت برأسي إيجابًا.

يسهل أن أعود بالنظر الآن وأحكم على نفسي لانتقالي سريعًا، ولفرط حماستي، لكن الحق يقال إنّني لم أكن لأغيّر أي شيء.

ساعدتني في توضيب حقائبي وأعطتني مجموعة سكاكين حادّة، وكسرولة بحجم مرجل، ومجموعة أطباق حمر. «ذلك لأنه عليكِ أن تتعلّمي الطبخ. لا تستطيعين العيش على حبوب الفاصوليا والتوست».

«سأعود لتناول الوجبات معك»، أجبتها ممازحة.

«أتمنى أن تفعلي. لن يكون لدي من أطهو له من دونك هنا».

تساءلت في ذلك الوقت إن كانت تمهلني فترة من الزمن، وإن كانت

تخالني سأعود بعد بضعة أسابيع. لكنّني لا أعلم الآن إن كانت تفعل. أعتقد بأنها فهمت أن تلك كانت خطوتي التالية، بداية شيء جديد.

رحت أتأمّلها وهي تلف أوراق صحيفة قديمة حول مجموعة من أطباق الطهو والتقديم الحمر التي كنت أكيدة أنّني لن أستخدمها يومًا. وضعَتها جانبًا ثم سألتني بعد تنهيدة: «هل أنت أكيدة؟ تعرفين، أعتقد أنه رائع، وأعدك أنّني أطرح هذا السؤال من أجلك أنت وليس من أجلي، لكن الأمر حصل بسرعة، وهل أنت أكيدة، هل أنت متأكدة مئة بالمئة؟»

«نعم»، أجبتها، وكنت فعلًا أكيدة.

«سأفتقدك».

أجبتها، «أعلم ذلك، وأنا أيضًا».

أحسست بقطرات من الدمع تتجمّع في حلقي، بينما رحت أفكر في ما سأفتقده: جواربها الملونة تجفّ على المدفأة، والبقايا المغلّفة تنتظرني في البراد، والوجوه الضاحكة التي ترسمها على ضباب مرآة الحمام. حاولت أن أبتلع ريقي وأبتسم، بينما أخذت يديّ في يديها وضغطت عليهما.

بدت الأسابيع الأولى محمومة بعض الشيء، بينما كنت أحاول أن أكون كل شيء لكل منهما. فلم أرد لمارني أن تشعر بأنّني بتّ أحبها بدرجة أقل -لأن ذلك ليس صحيحًا- ومع ذلك، أردت لجوناثان أن يعلم أنّني له بالكامل. وعندما توفّيت جدة مارني، بعد أسابيع قليلة، اتصلت بي في منتصف الليل وهي غارقة بالدموع. فارتديت ملابسي سريعًا وتوجّهت إلى الشارع أستقل سيارة أجرة لأصل إلى الشقة القديمة في أقل من ثلاثين دقيقة. أعتقد، بعد ذلك، بأنها أدركت أن ما عليها سوى أن تطلب، وسأكون حاضرة لها، تمامًا كما كان الأمر في السابق.

بنَت مارني وجوناثان علاقة طيبة. لم تتعلّم في صغرها ركوب الدراجة، فأخذ على عاتقه أن يدرّبها. وأعطاها واحدة من درّاجاته القديمة. راقها

أن تركب درّاجة صُمِّمت لشاب. في المقابل، علّمته هي كيف يطهو الكاربونارا. قالت إنها حاولت تعليمي، لكنّها مهمّة لا أفق لها، لذلك قرّرَت عوضًا عن ذلك أن تشاركه هو أسرار الطبخ الخاصّة بها.

كنا نشكّل ثلاثيًا ممتازًا. كان لجوناثان العديد من الهوايات –من ركوب الدراجات، إلى التخييم والتسلّق– ولم يكن لديَّ أنا سوى مارني. لذلك، عندما كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في الريف داخل خيمة ترفرف في مهب الريح وهو قابع مع العناكب في كيس النوم ينتظر أن يجف حذاؤه الرطب المبلل بمياه الأمطار، كنت أبقى في الشقة القديمة، الصغيرة الدافئة، مع صديقتي المفضّلة. تلك السنوات القليلة كانت أعظم السنوات التي عشتها. لكم كانت فرحتي أن أكتشف أنّني أستحقّ –وقادرة أيضًا على منح– حبَّيْن عظيمين.

عندما توفّي جوناثان، خلت علاقتنا ستعود إلى ما كانت عليه في السابق. لكن ذلك لم يحصل. لا أدري إن كان السبب يعود لغيابه، لكن كل ما في حياتي بدا أكثر فراغًا.

لقد افتقدت للكثير الكثير عندما كنت معه. لم أرَ غيمة لأكثر من عامين؛ كانت الزرقة تعمي بصيرتي. كنت أجد الفرح في أتفه الأماكن: في الأطفال الذين يمشون ببطء، والكلاب التي تنبح في الحديقة، وضوء القمر الذي يتسلّل عبر الستائر ليلًا. كنت أعتقد بأن عينيه زيتيّتان كما الزيتون. ومع ذلك، لم أجد مذاك يومًا حبة زيتون تضاهيهما جمالًا. أضحت كل ضحكة مشروعًا صعبًا. وكل ابتسامة عابرة. وكل وجع أزلي. قدرتي على استيعاب شرّ هذا العالم وخيره وموازنتهما تلاشت كلّيًا. لقد خسرت توازني.

اعتقدتني سأجد نفسي مرة أخرى مع مارني. اعتقدتني أستطيع أن أعيد إحياء نفسي. ومع ذلك، فقد كانت الأمور تسير قدمًا بينما كنت أبحث في مكان آخر.

الفصل الخامس

التزمنا أنا وستانلي الصمت بينما نزل المصعد بنا إلى ردهة المبنى. وبقينا صامتَين عندما خرجنا من الأبواب الرئيسية للمبنى الذي يقطن فيه تشارلز وماري. كنا صامتَيْن بينما رحنا نسير على الممر المرصوف الذي يقود إلى الرصيف العام. كنا نمشي جنبًا إلى جنب، ومع ذلك كنت أشعر بأنّني وحيدة.

«كانت السهرة لذيذة، أليس كذلك؟ قال ستانلي عرضيًّا. أطبق أزرار معطفه ورفع ياقته وصولًا إلى أذنيه. «هل استمتعتِ بالأمسية؟».

لففت وشاحي حول عنقي مرة ثانية. كنّا في شهر سبتمبر وكنتُ لا أزال أصرّ أحيانًا أن شهر سبتمبر هو تتمة للصيف، وهو ما لم يكنه يومًا. فهو دائمًا أكثر حدّة، وأكثر برودة على الرغم من الأمسيات الليلاء.

لم أجب عن سؤاله. سألته عوضًا عن ذلك: «ما رأيك بتشارلز؟».

كان تشارلز قد زيّن المائدة بقصّة لقائه الأول مع ماري. التقيا في حانة في المدينة. راح يرسل لماري وزميلاتها زجاجة الشامبانيا تلو الأخرى إلى أن وافقت وجلست معه إلى طاولته. كان يعتقد بأن هذا إن دل على شيء، فهو يدل على قوة حبّه لها. في المقابل، كانت هي ترى في ذلك سحرًا والتزامًا. أما أنا، فكنت أرى أن الأمر يجعله يبدو يائسًا مستميتًا.

«رجل عظيم، أليس كذلك؟»، أجاب ستانلي وهو يستدير إليّ ويهمهم. «هو بالفعل رجل عظيم».

لم أنظر إليه؛ بل رحت أثبت ناظريّ إلى الأمام وأسفل الطريق. كنت أتمنّى دائمًا أن أطرح يومًا ما هذا السؤال فيستدير أحدهم نحوي ويبتسم ويقول: «وغد صرف، أليس كذلك؟».

لأن تلك كانت الحقيقة المطلقة للرجل الذي أعرفه. كان بكل بساطة لا يُحتمَل.

«هل ترين ذلك فعلًا يا جاين؟». كان تشارلز يبادرني بالسؤال كلّما تفوّهت برأي يعارض رأيه. ويواصل تأكيدًا: «لأنّني أعتقد حقًّا أننا على الموجة نفسها هنا، وما أردتِ قوله...».

ثم ينطلق في محاضرة حول الأزمة العقارية، أو نقص اليد العاملة في المستشفيات، أو اقتصاديات الضريبة على الإرث، كما لو كان أحد أرباب هذا الموضوع. ولاحقًا، عندما نكون قد انتقلنا إلى موضوع آخر، والحوار بات شبه منسي، يقول: «يسرّني أنّنا متّفقان على هذا يا جاين»، مع أن موقفي لا يكون قد تزحزح قيد أنملة لكنه أسكتني بكل بساطة بنبرة صوته وثقته اللامتناهية.

وعندما يفرغ كأسه وتكون الزجاجة على الطاولة من طرفي أنا، تراه يطرق مرّتين متتاليتين على حافة الكأس، وكأنّي به لا أستحق حتى عناء كلمات فعلية. أحيانًا، يتناول يدي ويفتح أناملي ويقول: «عليك أن تتوقّفي عن أكل هذه يا جاين». ولاحقًا، عندما تكاد السهرة تشرف على نهايتها، وبينما تقدح عيون الجميع لهبًا بفعل الكحول وتطبق تعبًا ونعاسًا، كان يتفوّه بتلك العبارات، العبارات السوقيّة -التي دائمًا ما يصوّبها إلى مكان آخر، لكنّه دائمًا ما يقصدني أنا بحديثه- مثل: «ربّما حان الوقت كي تصطحب جاين إلى منزلها، أليس كذلك؟». ثم يغمز ويقول: «إن كنت تفهم قصدي. هل فهمت قصدي؟». وكنا كلّنا نفهم، فنبتسم ونضحك. ومع ذلك، في كل مرة، كنت أشعر بشيء ما داخلي يغوص أكثر فأكثر. ذلك أنّني لم أمارس الجنس مع أحد منذ ثلاث سنوات، منذ رحيل جوناثان، وكانت فكرة يدَيّ رجل آخر تطال جسدي تثير قشعريرتي واشمئزازي.

«هل استوعبت الآن نموذج تشارلز الذي يتكلّم مع الجميع، ويسحر

الجميع، ويضحك على فكاهاتهم؟ كان بكل بساطة مزيّفًا، رداء يضعه المرء لإخفاء الحقيقة. وقد خدعهم جميعًا: ولا سيما الرجال منهم، لكن غالبية النساء أيضًا، اللواتي رأين فيه وسامة وسعادة وجاذبية».

«إذًا»، قال ستانلي عندما وصلنا إلى محطة الباص. ابتعدت قليلًا عنه، مدّعية أنّني أقرأ جدول قدوم الباص المطبوع والملصوق على الجدار. ثم كرّر مرة أخرى، «إذًا، ما هي مخطّطاتنا؟».

نظرت بثبات إلى ساعتي -التي كانت هدية من مارني- ولم أتفوّه ببنت شفة.

فأضاف: «أعتقد أنّنا أقرب إلى منزلك، أليس كذلك؟».

«حقًّا؟» أجبته. ثم رحت ألمس بأصابعي الجدول الزمني، فأتوقّف عند الأرقام المطبوعة باللون الأسود على الورقة البيضاء، المثبتة بين لوحين من البلاستيك. حاولت أن أبدو مرتاحة وطبيعية، كما لو أن ذلك أمر غالبًا ما يقوم به الناس وليس فعلًا عفّى عليه الزمن ومضى من سالف العقود.

أردف قائلًا: «أعتقد ذلك، ليس ثمّة ما ستجدينه هنا، لكنّني أعتقد بأننا أكثر قربًا إلى منزلك».

واصلت ادّعاء القراءة.

ثم سمعت وقع خطواته على الخرسانة، وثقله يقترب منّي. كان نفَسه متقطّعًا جائشًا ورائي، يعبق بالكحول، فأدركت أنّه على وشك أن يلمسني.

«جاين؟». اقترب خطوة أخرى مني إلى أن أصبح واقفًا تمامًا ورائي، ثم مرّر ذراعيه حول وسطي. طبع على مؤخرة رأسي قبلة مبللة صاخبة، فتحوّلتُ جمادًا، أثبت نعلي في الأرض تحت قدميّ، وأقطع نفسي وأحافظ على رباطة جأشي حتى لا أسقط أرضًا. ضغط عليّ، من غير قوة -ومع ذلك، شعرت وكأن جسدي بأكمله يتعرّض للاختناق-، لا بل كنت أختنق.

«كيف...؟». تنحنح في كلامه. «منزلك؟». وراح يمرّر راحة يده اليمنى أعلى بطني وأسفلها، وكلّما صعد قليلًا إلى الأعلى، طالت حركته أعلى وأعلى، حتى بتّ أستطيع الشعور بأنامله تلمس السلك الحديدي في حمالة صدري، إلى أن أحسست بها تطال النسيج المالس أعلاها. «جاين، أنت وأنا...» راح يتنفّس في أذني، وكلماته تخرج مبتورة محمومة ورطبة.

«ستانلي»، أجبته وأنا أتنحّى جانبًا، بعيدًا عنه، بعيدًا عن الجدار الاسمنتي. «ستانلي، أخشى أنه ما من أنا وأنت هنا».

«آه»، أجابني وفيه شيء من المهانة إنما الكثير من الإرباك. «لكنّني...».

«المشكلة ليست فيك»، أردفت قائلة.

فأومأ بشيء من الجدّية. «هل للأمر علاقة بزوجك السابق؟»، سألني. كان واثقًا من نفسه مرة جديدة، متأكدًا أنّه وجد الإجابة على سؤال لم يتم طرحه، متأكدًا أنه يعرف العلاج لمداواة هذا الجرح. «قالت مارني...».

لا بد من أنّها نبّهته لضرورة أن يكون لطيفًا وأن يقترب مني بعناية.

أجبته: « كلا، يا ستانلي، الأمر لا يتعلّق بجوناثان». وتلك كانت الحقيقة. «والأمر لا يتعلّق بك أيضًا». وتلك أيضًا كانت حقيقة، على ما أفترض. «الأمر يتعلّق بي حصرًا».

لاح باص أحمر عند المنعطف ومصابيحه تنير الليلة الكالحة، ليصل للمرة الأولى في التوقيت الصحيح.

«هل تعتقدين بأنه ربّما ما تشعرين به...».

قاطعته قائلة: «لقد استمتعت بوقتي»، مع إنّني لا أدري لمَ تكبّدت عناء قول ما قلته إذ كان جليًّا أن هذه ليست الحقيقة. «يمكنك أن تبقى على تواصل مع تشارلز إن كان ذلك يسعدك. لكنّني أعتقد بأن الأمر ينتهي هنا. بيني وبينك. أعتذر. ووداعًا».

مددت يدي اليسرى، فأبطأ الباص ليتوقّف أمامي. صعدته، وبينما كانت الأبواب تغلق، عاجلت ستانلي بتلويح حماسي لا معنى له. كان لا يزال عاقد الحاجبين لحظة انطلق الباص.

لقد واعدت الكثيرين من الرجال منذ توفّى جوناثان. لم أوجّه الكلام لرجل لأكثر من عام. لكن الجميع بدأ يشعر بالقلق، ويخشون أنّني سأقع صريعة حزني، فكان لا بد لي من أن أطمئنهم أنّني ما زلت ناشطة في حياتي الخاصة. لأن -وذلك أمر آخر ندركه كلنا مع الوقت- الجميع يعلم أن امرأة وحيدة لا تسعى للحب الرومانسي، هي بطبيعة الحال وبشكل شبه حتمي امرأة تعيسة.

تلك فكاهة. يمكن لك الابتسام في هذه المرحلة.

والحقيقة أنّني لم أكن أبحث عن حب آخر؛ ليس من السهل توقّع إيجاد حب آخر في حياتي المتواضعة التي كنت أعيشها. كان لديَّ جوناثان، ولا أستطيع تخيّل حب آخر يكاد يجاري ما كان بيننا. وكان لديَّ مارني. وكان يفرحها أن تخال أنّني ما زلت أبحث، وأنّني كنت مؤمنة، وأنّني كنت واثقة في خير هذا العالم.

ومع ذلك، حاولت ألّا أواعد أي رجل لفترة طويلة، ما يفسّر رحيلي السريع. فكنت أجدهم كلّهم أولًا -والحق يقال، كلّ واحد منهم- متعجرفين على نحو يخنقني، بحيث يستحيل إيجاد حل لهم.

وثانيًا لأن جزءًا صغيرًا جدًّا مني كان يخشى أن يبدأوا باستلطافي.

هل يبدو ذلك مغاليًا في الورَع؟ ليس الهدف منه ذلك. فقبل جوناثان، لم أكن أفكّر أنه يمكن لأحد أن يكنّ لي هذه المشاعر. لم أصدّق أن أحدًا قد يعثر على الحب في شخص فاقد لكل إحساس بالفرح، ومجرّد من أي إحساس بالأمان. لكن جوناثان وجد أشياء استلطَفها، وأشياء أحبَّها. كان معجبًا بطبيعتي التنافسية. وكان مدهوشًا أنّني لم أخسر يومًا أي اختبار أو لعبة كنا نلعبها في الحانة. كان يرى في حضوري باكرًا بشكل

دائم أمرًا ملفتًا. وكان يُذهل عندما أقرأ رواية في يوم واحد. وكان يحبّ أنّني متأنّية، ومثالية، وأسعى لتعليق صورنا بنفسي. وفي النهاية، بدأت أحب بدوري هذه الأمور أيضًا.

لم أرد لهؤلاء الرجال أن يقعوا في حبّي لأنّني كنت أدرك جيّدًا أنه يستحيل أن أقع في غرام أيٍّ منهم. وكنت أعي -ولا أزال- أن الرفض ما هو إلا تقرّحٌ تحت الجلد، قد ينزف ليتحوّل إصابة خطيرة.

هل هذه مبالغة؟

لا أعتقد.

لكن الوقت ليس مناسبًا لذلك الآن.

كنت أتمنّى لو أستطيع إخبارك أن هذه قصة يسهل عليك سماعها، لكنّني لا أعتقد البتة بأنّها ستكون كذلك. فسأخبرك عن موت كثيرين، وكنت أتمنّى لو لم يكن الوضع كذلك، لكنّني وعدتك بالحقيقة، وهذا وعد، أستطيع أخيرًا الالتزام به.

ما زلت غير أكيدة أين بدأت هذه القصة بالفعل -ولا فكرة لدي كيف ستنتهي- لكنّني أعرف كيف بدأت.

قبل بضع سنوات، كانت مارني وتشارلز يعيشان معًا في شقتهما، وكنت أواعد رجالًا كثيرين زوجي ليس من بينهم، وكانت حياتي العائلية معقّدة إنّما تحت السيطرة. تلك هي أسس القصة التي سأتلوها عليك. تلك هي قصة كيفية موته.

الفصل السادس

تهوى غالبية النساء في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات من عمرهنّ التنويع، والعفوية، وفرصة لقاء أناس جدُد والقيام بنشاطات جديدة. لم تكن تلك حالتي يومًا. فلطالما كنت تلك الفتاة التي لا يتعدى عمرها الحادية عشرة، والتي تنكمش على نفسها في ممر المدرسة لتستبق رفض الآخرين لها. لم أبحث يومًا بجدية عن صداقات، لذلك، أجدني أعاشر قلّة قليلة جدًّا من الناس.

لأنه، كما يبدو واضحًا، كان لديَّ صديقة. ولم يكن أي من الآخرين -الشقراوات الجميلات بسراويل الجينز القصيرة التي بالكاد تغطي مؤخراتهن، والشباب بسراويل الجينز الفضفاضة والسترات الواسعة يتجمّعون لتدخين سيجارة، ونجوم الرياضة في زيّهم وأحذيتهم، وفتيات المكتبات بنظاراتهن وقمصانهن، والصبية الأثرياء بسراويلهم وستراتهم- أيّ من الآخرين يضاهي صديقتي. لم أحتج لأي منهم لذلك لم أسعَ وراء أي منهم.

كنت أعلم ما أحب. أحب الروتين والتكرار. ولا أزال.

وهكذا، عند الصباح، بعد أن طردت ستانلي من حياتي، ذهبت لأزور أمي. كانت تعيش في دار رعاية في الضواحي، وكنت أحتاج في كل مرة لما لا يقل عن الساعة للوصول إلى هناك. وبما أنّني لم أكن أستسيغ الوصول بعد الساعة التاسعة، حتى أكون لحظة انطلاق ساعات الزيارة، كنت أضع المنبّه قبل أن أخلد إلى النوم، ثم أغادر المنزل باكرًا كي أستقل أول قطارات اليوم.

لطالما كانت المقصورات هادئة صبيحة السبت. كنت أجد عادة

رجلًا ببزة رسمية، وقد ترنّح ثملًا بفعل ليلة جمعة امتدّت لتشمل صبيحة سبت. وغالبًا ما كنت أصادف امرأة تجرّ عربة أطفال، هي أم جديدة تحاول أن تملأ ساعاتها بين يقظة ونوم، ونوم ويقظة، ساعات لم تكن موجودة قبل أشهر خلت. أحيانًا، كنت أرى حرس أمن، وعمال نظافة، وممرضين وممرضات، يسافرون كلهم عائدين أدراجهم بعد دوام ليلي. وأنا كنت الثابت في تلك الرحلات.

كنت أزور مارني مساء كل جمعة ثم أزور أمّي صبيحة كل سبت.

كانت غرفة قضاء النهار عند واجهة المبنى، فعبرتها متّجهة إلى غرفة أمي. حاولت ألا أسترق النظر إلى الداخل، والتركيز على بابها الموجود في نهاية الممرّ، لكن لطالما استرعت تلك الغرفة انتباهي. كانت تكشف عن عالم آخر يجذبك كما لو كان من مغناطيس. فكانت تعجّ بكهَلة يرتاحون على الكنبات، بعضهم في كراسٍ متحرّكة، وقد لُفت سيقانهم كلهم بالملاءات. وكان السجّاد من كل لونٍ، مزركشًا ومنقوشًا. وكان يذكّرني بسجّاد الفنادق الفاخرة، حيث يخشى المديرون بقع الطعام والوحل والماكياج.

هنا، كانت النقوش تفعل فعلها. فهي تخبّئ الوسخ والقيء وبالطبع بقع الطعام، لكن ليس تلك التي سببتها وجبة طعام ثلاثية الأطباق تسودها الضحكات والنميمة والنبيذ، بل هي مخلّفات بطاطا مهروسة لزجة رُميت عمدًا على الأرض.

عدا السجاد المتعدّد الألوان، كانت الغرفة بحد ذاتها بسيطة غير ملفتة: من الجدران الباهتة الفارغة، لا صور ولا رسومات عليها، إلى الكنبات الجلدية القاتمة اللون، التي يسهل تنظيفها.

ومع ذلك، فإن الديكور بحدّ ذاته لم يكن ليثير الانتباه. بل إن هذه الغرفة مثيرة ليس بفعل مزاياها، بل نتيجة قاطنيها. فهي تشكّل خلفية مشهدية تختزل الحياة والموت والخيط الرفيع الذي يفصل بينهما. هؤلاء الأشخاص نصفهم داخلها ونصفهم خارجها. فقلوبهم تنبض ودماؤهم

تسري في عروقهم لكن أرواحهم تُسلب منهم، وعقولهم تذوي، وأجسادهم تتهاوى وتتكسر. كان مكانًا غريبًا، غرفة تعج بالأشخاص الذين بالكاد ما زالوا أشخاصًا، غرفة تنضح بالحياة التي بالكاد هي حياة، وتعبق بالموت الذي بالكاد هو موت. لم ترد أمي يومًا أن تقضي وقتها هناك، وقد أقلعت الممرضات عن إقناعها منذ زمن.

كانت عوَضًا عن ذلك في غرفتها، تجلس مستقيمة على السرير عندما وصلت.

وقفت عند مدخل غرفتها أراقبها، لهنيهة من الزمن، بينما كانت تداعب الكريات الصغيرة المنسوجة على البطانيّة الصوف الزرقاء التي تغلف لحافها. رفعت الغطاء إلى ذقنها، وعقدت يديها معًا قبل أن تغرقا تحت الملاءات. كانت النافذة مفتوحة، وقد أزاحت نسمة باردة نسيج الستائر حتى باتت تعكس ظلًا على الجدار.

كانت أمي البالغة الثانية والستين من عمرها تعاني الخرف المبكر. وقد أشار الأطباء في الدار -عندما كانوا يزورونها مرة في الأسبوع: وقلّما التقينا- أنها بلغت آخر مراحل بداية الخرف، كما لو أنه يفترض بذلك الاكتشاف أن يمنح بعض الطمأنينة. وما عنوه، بطبيعة الحال، هو أن حال الآخرين أسوأ بكثير. فهمت. لكن الذراع المكسورة لا تخفّف من حدّة الشظايا.

طرقت الباب، ثم دخلت. نظرَت إليَّ فابتسمت، آملة أن تتذكّرني. كان وجهها جمادًا، والتجاعيد قد حفرت أخاديد على جبينها، بينما تزمّ شفتيها باستمرار. كان باستطاعتي أن أرى يديها تتحرّكان تحت اللحاف، فأيقنت أنها كانت تستخدم إصبع السبابة بيد واحدة لتلتقط جلدها الجاف الخشن الذي يحيط بأظافر يدها الأخرى.

أحيانًا، كانت تستغرق بضع دقائق قبل أن تتعرّف إليَّ. راحت تحدّق، فأدركت أنها تفتش في ملفات رتّبتها في صناديق الذاكرة المدفونة

عميقًا، تحاول أن تعالج دخولي، وتحلّل وجهي وملابسي، جاهدة كي تفكّ شيفرة هذا القدوم الجديد.

بالنظر الآن إلى تلك الأيام، يصعب أن أصدّق أنه مضى على مكوثها هناك ثمانية عشر شهرًا. لطالما بدا الأمر مؤقتًا، كنوع من التخدير. لم تكن تلك قناعتي وقتذاك، مع أن الأمر يبدو مستحيلًا الآن، لم أكن أرى أن دور الرعاية مؤقتة. بل هي النقطة الفاصلة، ليس بين لحظتين في الحياة، بل بين حدَّي الحياة بحد ذاتها.

تم تشخيص أمي عندما كانت في الستين من عمرها، لكنها في ذلك الوقت، كان قد مضى على عيشها وحيدة حوالى العام، بعد إنجاز معاملات الطلاق ومغادرة أبي. كنت قد أدركت قبل أشهر عدة أن الأمور ليست على ما يرام؛ لكنّني خلتها وقتذاك مكتئبة. كانت سريعة الغضب على نحو لم أعهدها به من قبل، تستشيط غيظًا عليّ بحجة أمور سخيفة مثل الإكثار من الحليب في كوب الشاي، أو اتساخ حذائي بالوحل-.

ثم بدأت تكيل الشتائم. في السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياتي، لم تتفوّه يومًا -وبالأخص أمامي- بشتيمة واحدة على غرار *تبًا* أو *سحقًا*. بل كانت تعمد عوضًا عن ذلك إلى تلطيفها بعبارات بديلة، تتمتمها بين شفتيها. لكنها فجأة بدأت أسوأ العبارات تشكّل جزءًا لا يتجزأ من حديثها اليومي. *جل ما أريده نقطة قليلة من هذا الحليب اللعين. أنت تعيشين فسادًا أينما كان، تبًا تبًا تبًا.*

أحيانًا، كانت تنسى موعد زيارتي على الرغم من ثبات عادتي تلك. فكنت أقرع جرس الباب باكرًا صباح يوم السبت. فأسمع صوت خفَّيْها على السجاد بينما تقترب من الباب الأمامي. ثم أسمع رنينًا بينما تنزع سلسلة الأمان. ثم تفتح الباب تردّه إلى الخلف، لسنتمترات قليلة ليس إلا، وتدسّ أنفها من خلال الفتحة الصغيرة. فتمسحني بنظراتها، لتبلغ عيناها وجهي ثم نزولًا إلى قدمي، قبل أن تقول: «آه، موعد الزيارة اليوم؟».

تساءلت إن كانت تفرط في تناول الكحول. فاصطحبتها لزيارة طبيب.

أومأ برأسه بينما كنت أشرح له الوضع، فشعرت بأنه يفهم عليّ. شعرت أنه يعي جيدًا سبب هذا التحوّل في شخصيتها، وأنه يعرف الإجابات التي فشلتُ في إيجادها على شبكة الإنترنت، والأدوية أو العلاج أو المشورة التي تضع حدًّا لذلك.

«انقطاع الطمث»، قال لي، عندما انتهيت من وصف عوارض أمّي. أومأ رأسه بجدية، مردّدًا، «بالتأكيد انقطاع الطمث».

في الصباح التالي، وقعت أمي من على السلالم. تلقيت اتصالًا من جارها. كان قد سمع صوتًا غريبًا، فدخل، لحسن الحظ، بواسطة المفتاح الذي يملكه. كان أبي قد أعطاه المفتاح قبل سنوات، لري المزروعات وإطعام السمك بينما كنا نقضي وقتنا في كورنوول.

عندما وصلت، كانت أمي تجلس على الكنبة، ومبذلها مشدود حول خصرها، تحمل في يدها كوب شاي بارد، تتجادل مع جارها، الذي كان يفضّل لو ذهبت إلى المستشفى -لمجرد القيام بكشف سريع-، كي نطمئن ليس إلا.

قالت عندما رأتني: «لا، ليس أنتِ أيضًا، لقد زلّت قدمي. لم أكن أركز. كنت لأستعيد رباطة جأشي في دقيقة أو دقيقتين، لكن ذاك المعتوه لم يكن يستطيع الاهتمام بشؤونه، أليس كذلك، لا بل يحشر نفسه، كما لو أنه يعيش هنا أيضًا، ذاك المعتوه».

كان رجلًا لطيفًا -يتخطّى بلطفه وصبره ما قد أكونه في حضرة جارة على هذه الدرجة من القسوة والجحود- وقد وعدني أنه سيبقى متيقظًا. كان يعمل من المنزل، بحسب ما أخبرني، لذا فهو حاضر دائمًا. والجدران ليست سميكة، لذا سيبقي مستوى الموسيقى منخفضًا، في حال احتاجت لمساعدته مجدّدًا.

تساءلت عن كمّ الجدالات التي أنصت إليها على مر السنين.

وقعَت مجددًا بعد أسبوعين. سمع السقطة فاتصل بسيارة الإسعاف. هذه المرة، أصيبت في جبينها عندما اصطدمت بالدرابزون. قالت إنها

بخير، وإن الإصابة سطحية، لكنه أصر على نقلها إلى المستشفى. وكان الجرح لا يزال ينزف عندما لحقتها إلى هناك بعد حوالى الساعتين.

التقتنا طبيبة، لم تكن تكبرني كثيرًا، قطّبت حاجبيها عندما أومأت رأسي بكل ثقة وأعلنت: «عوارض انقطاع الطمث».

«هل تعتقدين يا سيدة باكستر بأن السبب هو انقطاع الطمث؟»، سألت الطبيبة. فاكفهرّ وجه أمي. وواصلتُ قائلة: «أنا لا أقول إن الأمر لا يعود إلى انقطاع الطمث، لكن هل تعتقدين *أنت* بأن هذا هو السبب؟».

رفعت أمي حاجبها غير النازف كنوع من الردّ ثم تنهّدت وهزّت برأسها.

«في هذه الحالة، أودّ أن أجري المزيد من الفحوصات. هل تمانعين؟».

هزّت أمي رأسها.

تم تشخيصها مبدئيًا بالخرف بحلول فترة بعد الظهر. لقد عاشت بمفردها في المنزل لفترة طويلة جدًّا؛ فساء وضعها شيئًا فشيئًا. لكن عندما تأكّد التشخيص بعد ستة أشهر، انتقلت أمي إلى دار الرعاية، لتحصل على الدعم والرعاية وخدمات التمريض التي لن أتمكن من منحها إياها، حتى لو عشت معها.

جلستُ على الأريكة، واضعة معطفي على قدمي. فتحت فمي لأتكلّم، لكن أمي هزّت رأسها. أرادت أن تبحث عن الملف الصائب؛ لم تكن تريد أي مساعدة.

«لقد تأخّرتِ»، قالت في النهاية.

«بضع دقائق ليس إلا»، أجبتها وأنا ألوي رأسي كي أرى الساعة المعلّقة فوقي.

«القطار؟»، سألت.

فأومأت برأسي إيجابًا.

كانت موجودة. عيناها واعيتان دافئتان. أحيانًا، كنت أخشى أن

تستسلم، وأن تترك الخرف يتسلّل إلى ذهنها كما الفطريات، فيدمّر آخر ما تبقى لها من إنسانية. لكن في أيام كمثل هذا اليوم، كنت أدرك أنها لا تزال تحارب، فتنتفض بطريقتها الخاصة، رافضة أن ترضخ للفراغ والعدم قبل حينه.

«هل أنهيتِ العلاقة مع ذاك الصبي؟»، سألتني. كنا قد التقينا أنا وستانلي مرتين سابقًا، إحداهما لم تكن سيئة، فأخبرتها عن اللقاء -النزهة في الحديقة العامّة، والمشروبات في الحانة- عندما زرتها الأسبوع الماضي. لكنّني أخبرتها أيضًا أنه محامٍ، وأنه غاية في الملل، وأن حسنته الوحيدة هي شعره القصير جدًّا جدًّا.

كان واضحًا أنها فخورة بنفسها لتذكّرها الحوار السابق بيننا. غالبًا ما كانت تتذكر نبرة الحديث -إن كانت غاضبة مني أو سعيدة أو تسَرّ بكل بساطة بالرفقة- لكنها كانت تتذكّر أحيانًا أدق التفاصيل. وأذكر أنّني كنت أتساءل إن كانت تدوِّن ما يجري لحظة أغادر، على شكل ملاحظات تحتفظ بها للأسبوع التالي، كطريقة لتبقى على اتصال عندما تخونها ذاكرتها أو تسعى للتفلّت منها.

«تقصدين ستانلي؟»، سألتها.

أجابتني: «ربما، لا أملك ما يكفي من المساحة هنا»، وطرقت على جبينها: «كي أتذكّر كل الأسماء».

«حسنًا، نعم. أنهيتها البارحة»، أردفتُ قائلة.

فردّت عليّ، «جيد. لم يبدُ لي يشبه جوناثان كثيرًا».

لقد قام الخرف لدى أمي -على نحو مناسب- بمحو ذكرياتها عن علاقتي بجوناثان. فلا تتذكّر إلا أنّني أغرمت به وأنه توفّي. وتلك ليست الحقيقة على الإطلاق.

لكن الأمر لا يعني أن أهلي مقتوا جوناثان. في الواقع، أعتقد بأنهم أحبوه فعلًا: فقد كان جذّابًا ومرحًا ودائم التهذيب. لكنّني أعتقد بأنهم

أحبوه كما يحب الأهل الصديق الأول لابنتهم. لا بأس به. يفي بالغرض. لكنه لم يكن على قدر الصورة التي رسموها لزوج ابنتهم.

اعترتهما موجة غضب عندما أخبرتهما أنّنا ارتبطنا. وعلى الرغم من أنهما فشلا خلال عقد سابق من الزمن في الاتفاق على أمر واحد، إلا أنهما اتفقا على أنّني أرتكب خطأ لا يمكن الرجوع عنه. وحاولا إثبات أننا مختلفان الاختلاف كلّه. كان يحبّ الحرية والهواء الطلق؛ وأنا أحب دفء منزلي. وكان يحبّ الناس والضوضاء، وأنا أحب الألفة والصّمت. أعتقد أنهما شعرا أنه لم يكن جيدًا كفاية بالنسبة إليَّ، ولا ذكيًّا، ولم يجنِ الكثير من المال من عمله كمصوّر. لكنّني لم أبالِ.

في الأسابيع التي تلت إعلان خطوبتنا، كانت أمي تتصل بي بشكل متواصل، وأحيانًا مرات عدة في اليوم الواحد، لتصرّ على أنّني أدمّر حياتي. كانت تلومني بقسوة وبلا هوادة، وبزخم منقطع النظير، مشدّدة على أن الحب ليس سهلًا، وأنه أكثر تعقيدًا مما قد أفكّر، ولديه من الأوجه المتعدّدة ما يصعب عليَّ فهمها، وأن الزواج لربّما يؤجَّل لوقت آخر، أو عقد آخر أو حياة أخرى. كانت تتحجّج أنّنا ما زلنا صغيرين في السن، بريئَين، نصرّ على أمر يتعدّى فهمنا. وفي الخلفية، كنت أسمع صفير الهواء بينما تزرع بخطاها ممر المنزل، وتنعطف كما الإعصار في نهاية الرواق، وأصغي إلى تنهيداتها الجامحة بين الجملة والأخرى. لم تقلها بصريح العبارة، ليس بهذه الكلمات، لكنّني أعتقد بأنها كانت تحاول أن تحميني من أخطائها، من زواج حوّل كينونتها وصيَّرها حصرًا ألفاظًا ذابلة: «زوجة»، و«امرأة»، و«انكسار».

قالت لي إنه عليّ أن أختار؛ فاخترت جوناثان.

ربّما كان يفترض بهذا القرار أن يكون قرارًا صعبًا. لكنه لم يكن كذلك.

عندما كنا أنا وجوناثان بمفردنا، كنا نتصرّف على سجيّتنا بالكامل. تلك كانت أعظم فرحة لي، أن أجد شخصًا أستطيع أن أكون على طبيعتي

معه، ويبادلني بدوره الأمر نفسه. وعندما كنا نتواجد مع آخرين، وتحديدًا مع أهلي، كنّا دائمًا نجهد لكي نبدو بأفضل حلّة، كأن نكون أكثر مرحًا، وأكثر لطفًا، وأكثر غرامًا. فكنّا نعظّم من نفسينا حتى نصير هذا الزوج الذي يُشعر الآخرين بالراحة. فكان يتفوّه بنكات على حسابي، فيسخر ضاحكًا ويثير ضحكات الرجال الآخرين، ضحكات أبي، بينما كنت أنا أكثر تهذيبًا، إذ أجلب له المشروبات وأسأله إن كان يرغب بالمزيد، وأشجعه على مناداتي إن احتاج شيئًا من المطبخ. وكنا نتلامس على نحو قد يبدو أحيانًا مفتعلًا؛ إذ يضع ذراعه حول وسطي، بينما أريح رأسي على كتفه. لكن عندما كنا نمسي بمفردنا، كانت أجسادنا تتلاحم جسدًا واحدًا، وأطرافنا تتداخل، وبشرة الواحد منا تتمدّد حتى تنصهر ببشرة الآخر.

كان خيارًا سهلًا.

أفترض أنّني خِلتُ أمي ستستسلم مع الوقت، وستقرّر أنّها تستطيع التعايش مع زواجي. لكن لم يبدُ لي من العدل القول إن تلك ستكون اللحظة التي تتذكّر فيها أمومتها وعاطفتها نحوي.

عندما كنت في الرابعة من عمري، ولدت أختي إيما قبل سبعة أسابيع من موعد ولادتها وسط حال من الفوضى العارمة. وهُرع بها إلى العناية الفائقة، وأودعَت في حاضنة، بينما نُقلت أمي سريعًا إلى غرفة العمليات لوضع حدٍّ لنزيفٍ حادٍّ أصابها. عادا معًا بعد بضعة أسابيع، لكن في غضون شهر واحد كان كل شيء قد تغيّر. مذاك الحين، أصبحت أمي أكثر هوَسًا، تساورها حال من القلق الدائم على ابنتها الصغرى: فتسأل بلا انقطاع إن كانت تشعر بالبرد، أو تشعر بالجوع، وتتأكّد أنها لا تزال تتنفّس. بنتيجة ذلك، أصبحت أكثر قربًا من أبي -مع أنه لم يُجِد القيام بأي أمر خلال هذه الأشهر القليلة الأولى- لكن أمي لم تكن حاضرة لي سوى بالجسد. لم تعد تهتم بتلاوة قصص ما قبل النوم، أو بصور المدرسة الأولى، أو بالتفاصيل التي تدور في حياة الطفل اليومية. في

الواقع لم تعد تهتم بي مذاك الوقت، لذا لم يكن بوسعي أن أصدّق أنّني جديرة بهذا الكم من اهتمامها في مرحلة شبابي.

بعد زفافي بوقت قصير، طلب والدي من أمي الطلاق، وهجر المنزل. كانت سكريتيرته جودي، وعشيقته لفترة طويلة، قد أصبحت أرملة منذ حوالى السنة. وهدّدت بترك أبي إن لم يلتزم معها بالكامل. لطالما بدت تهديدات أمي غير مقنعة، لكن بالطبع لم يكن ذلك الحال مع جودي. ولم يتفاجأ أي منا عندما اختارها أبي.

كنت أعتقد بأن أمي ستحتاجني أكثر غداة تلك الخسارة. أفترض أنه كان عليَّ أن أعرف الجواب مسبقًا.

في إحدى السنوات، لم نتكلّم مع بعضنا البعض أبدًا. أذكر أنّني كنت أتوقّع اتصالًا منها يوم ذكرى مولدي -لأن لا شك في أن الأمهات والبنات أقله يرتبطن بفعل الولادة- إلا أن ذلك الاتصال لم يحدث. ولم تتّصل بي عندما توفي جوناثان. تساءلت إن كانت ستحضر الجنازة. ولم تفعل. لم أعطها أي تفاصيل، لكنّني أفترض أنّني خِلتها -ربّما حتى تمنّيت أن- قد تسأل أحدهم عن التفاصيل.

لاحقًا، بعد شهر ونيف، وعلى حين غرّة، بدأت ترسل لي رسائل بريدية، رسالة أو اثنتين في الأسبوع، لا تخبرني فيها الكثير، إنما مجرّد تحديثات عن حياتها، أمور جعلتها تفكّر بي: محل جديد لبيع الأثاث في شارع فخم، أو مقالة في مجلة، أو شريط دعاية رأته عن فيلم قدّرت أنّني قد أستمتع بحضوره.

وكنت أجيبها -شاهدت الفيلم ووجدته مملًّا- إلى أن استقر بيننا حوار غير مريح. كنت غاضبة عليها في ذلك الوقت، غاضبة بحق، إذ كنت أجد أن ثمّة الكثير الذي كان يُفترض قوله بعد. فوجدتني أزجّ هذه الحقائق الصغيرة، لحظات الغضب الصغيرة، في رسائلي وفي أحاديثنا، أخفيها تحت جوانب حادّة وأحيانًا في تأخير مطوَّل في الرد. فقد وجدت

من السهل التركيز على هذه الندوب بدل مواجهة الجرح الدفين الذي كان يتعاظم في داخلي.

وكرهتها. كرهتها بحقّ. ثم في يوم واحد، لم أعد أكرهها. هي أيضًا خسرت الرجل الذي أحبته. ثم خسرت أكثر من ذلك بكثير: خسرت ذاكرتها وذكرياتها. كانت حيواتنا في أماكن مختلفة، ومع ذلك، كان كلانا مكسورًا، فوجدنا ما هو مألوف في حدود بعضنا البعض. بعد أكثر من عشرين عامًا من الفشل في فهم واحدنا الآخر، توصلنا أخيرًا إلى ما هو مشترك بيننا.

لذا وجدت أنّني أستطيع أيضًا محو هذه الذكريات من المأساة: لم تكن أفعال تلك المرأة، أمّي؛ بل هي أفعال شخص آخر، خسر نفسه الآن أمام متاهة التاريخ والزمان.

قلت في النهاية: «كلّا، ستانلي لا يشبه جوناثان على الإطلاق».

«إذًا أحسنت صنيعًا. ألا تعتقدين ذلك؟».

«أفترض ذلك»، أجبتها.

ثم أدرت جهاز التلفاز وأخذنا نشاهد الأخبار معًا: شاب تعرض للطعن؛ تم تمويه وجه مهاجمه، في صورة التقطت من كاميرات المراقبة. سياسي مشين يتحدّث إلى الصحافة، يشرح من دون أي اعتذار، يبرر أفعاله. أم شابّة تبكي؛ لقد حُرمت من المعونة التي تحصل عليها ولم تعد قادرة على الاعتناء بطفلها كي تتمكّن من الذهاب إلى العمل، أو العمل من أجل تأمين المال لرعاية طفلها. شعرنا بالصدمة من دون أي مفاجأة، ثم اعترانا الحزن، وقد تغيّرت تعابيرنا في وقت واحد.

ثم ألقى المذيع علينا تحيّة الوداع فأخذت معطفي وحقيبة يدي وتسللت إلى الردهة، تاركة أمي تغرق في سُباتها وجهاز التلفاز يهمس بداية برنامج ألعاب جديد.

أنا أخبرك عن أمي لأنه من المهم فهم دورها في هذه القصّة. كنت أكرهها، لكنّني صفحت عنها. لا بد من تذكّر هذا.

الفصل السابع

يوم الجمعة التالي، لم يكن لديّ من أحضره معي لزيارة مارني وتشارلز، لكنّني غالبًا ما كنت أزورهما بمفردي، وكنت أتطلّع لهذا اللقاء. إلى أن اتصلت بي مارني في منتصف اليوم لتخبرني أنّه ليس باستطاعتي القدوم للعشاء ذلك المساء لأن تشارلز قد أعد لها مفاجأة، هي عبارة عن عطلة نهاية الأسبوع في كوتسوولدز. اتصلت من السيارة، وكان بوسعي أن أسمع صوت عبور السيارات الأخرى سريعة على الطريق. تساءلت متى علمَت أنها ذاهبة في تلك الرحلة. لا بد من أنه أخبرها قبل ما لا يقل عن بضع ساعات. كان لديها متسعٌ من الوقت كي توضّب أغراضها ثم ينطلقا خارج المدينة بشوارعها الضيّقة، المكتظة بالسيارات، منها التي تسير بطيئة وتلك المركونة جانبًا، وأنوار الإشارات الحمر تضيء كل بضع مئات الأمتار. كان بوسعها أن تتصل قبل ذلك.

«إلى أين أنتما ذاهبان؟»، سألتها، مع أنّني لا أدري لماذا لم أكن مهتمة على وجه الخصوص بالإجابة.

أجابتني، «فندق ما». سمعت خشخشة هاتفها على وجنتها فتخيّلتها تستدير نحو تشارلز، الذي لا شك في أنه يجلس بالقرب منها، في مقعد القيادة، كما هي الحال دومًا، يحدّد مسارهما. «ما اسمه؟»، سألَته.

سمعته يتكلم، فلا يتفوه بكلمات واضحة محدّدة، إنما مجرّد همس، ونبرة صوته يتردّد صداها في أرجاء السيارة.

«لا يستطيع أن يتذكّر، لكن...»، -صوت الخشخشة نفسها- «غوغل يقول إنّنا سنصل في غضون ساعتين».

تصوّرتهما جالسين جنبًا إلى جنب: حذاء مارني منزوع ومرمي

أرضًا، تجلس وقدماها تحتها تحاذيان فخذيها؛ وتشارلز مرتديًا قميصًا أنيقًا وسترة دافئة، تحسّبًا لقرصة الخريف، وهو من نوع الرجال الذي يهوى القيادة والشبّاك مفتوح وكوعه مرخيّ على الحافة.

«جاين»، سمعته يصرخ. ثم يسأل بنبرة هادئة أكثر لطافة، «هل تستطيع سماعي؟».

فأجبت: «أستطيع سماعه».

فردّت مارني موجّهة كلامها إليه: «أكمل. تقول إنها تسمعك».

«جاين»، صرخ مجدّدًا، «هل تسدين لي خدمة؟»، أريد أن أحصل على هذه السيدة الجميلة لي وحدي لعطلة نهاية الأسبوع. هل تسمحين بذلك؟ واصل قائلًا. فضغطت بإبهامي على سماعة الأذن كي أخنق الصوت. «هل بوسعك القيام بذلك؟ ثمانٍ وأربعين ساعة لا غير. ستكونين بخير».

انطلقت مارني في ضحكة طفولية مكبوتة، فشاركتها الضحك بدوري، ثم صرخت: «بالطبع. كلّها لك». لأن ما عساي أفعل غير ذلك؟ ما عساي أقول غير ذلك؟ أعلم جيدًا ما يعني ذلك.

«لكننا سنراك الأسبوع المقبل؟، في التوقيت المعتاد؟». سألت مارني.

فأجبتها، «بالطبع. في التوقيت المعتاد».

«أعلميني إن كان ستانلي سيرافقك».

أجبتها، «لن يفعل».

«آه، حقًّا؟ يا لهذا الخبر المحزن». تفاجأت كما يتفاجأ مرارًا وتكرارًا المتفائلون بفعل وقائع تخون هواماتهم. لطالما أمِلت، ولطالما افترضت أن الرجل التالي سيكون الرجل المناسب، وهو أمر سخيف لأن الوقائع كانت تثبت عكس ذلك. لم تلتقِ أيًا من طالبي رفقتي، كما كان يحلو لها أن تدعوهم، أكثر من بضع مرّات. «حسنًا، أعلميني إن كنت ستحضرين شخصًا آخر»، أردفت قائلة.

أنهت مارني الاتصال، ورحت أنا أستمع إلى الصمت الذي خلّفه صوتها الذي كان يصدح قبل ثوانٍ معدودة. كنت أدرك جيّدًا ما سيجري وأدرك أيضًا أن هذا ما كنت أخشاه. أخذت نفَسًا عميقًا، أستنشق الهواء بقوة، فأحسست بأن صدري مطبق وضلوعي ترتعش، نتيجة الهواء الذي ما انفكَّ يعلَق في حلقي.

سبق وذكرت أن ثمّة خاتم خطوبة. كنت أفترض أنه ما زال قابعًا في الدُّرج بالقرب من سرير تشارلز؛ وليس ثمّة ما يحملني على التفكير بمنطق آخر. لكن، في تلك اللحظة تحديدًا، كنت على يقين أنه بات على الطريق، وقد انزلق في جيب سترة، أو في الطبقة الأولى من حقيبة، أو في صندوق القفازات في تلك السيارة البيضاء اللمّاعة.

بينما كنت أستلقي في سريري في تلك الأمسية، تصوّرته في غرفتهما في الفندق، مخبّأ في دُرج إلى جانب السرير، ينتظر اللحظة المثالية. كان بوسعي أن أراه في علبته المخملية الحمراء، خاتم ذهبي مع ثلاث ماسات برّاقة.

وكرهت تلك الفكرة. كرهت احتمال أن قد تتزوّج منه.

عندما كانت طفلة، كانت علاّقة مارني بأهلها متوتّرة: أشبه بعلاقة زملاء عمل منهم أقارب. كان كل من والدها ووالدتها طبيبَيْن ناجحَيْن كل في ميدانه. وقد قضيا حياتهما مسافرين، بينما مارني وأخوها الأكبر إيريك يقبعان في المنزل وحيدين لأسابيع متواصلة مذ أصبحا في سن يخوّلهما الذهاب بمفردهما إلى المدرسة وإعداد وجبات طعامهما. كان أهلها يظهران في الأيام المناسبة - أمسيات الأهل، أو مسرحيات المدرسة- لكنهما لم يكونا يومًا حاضرَيْن بالفعل. فلم يكن لديها من تشاركه أحزانها في الأيام العصيبة، تلك الأيام التي تجتمع لتحيك حياة المرء في مراحله كافة.

إلى أن جئت أنا. ذاك كان دوري. أحببتها بشكل كامل، بلا أي قيد أو شرط، ومن دون طرح أي سؤال.

اعتقد تشارلز أن بوسعه أن يملأ هذه المساحة أيضًا. لكنه كان على

ضلال. لأن زجاجة الشامبانيا التي ترسل في الحانة ليست فعل نكران للذات، بل دليل غرور. والشقة الباهظة الثمن ليست إثبات كرم، بل هي دليل يأس ومغالاة. والخاتم الباهظ الثمن لا يمثل رمز ارتباط، بل ثقة عمياء، ونوع من الغطرسة التي لا تكون مقبولة إلا لدى رجل من صنف تشارلز.

كنت قد اكتشفت الخاتم قبل بضعة أشهر.

كانت مارني وتشارلز مسافرَيْن لفترة أسبوع. كانت وجهتهما جزر السيشيل، على ما أعتقد -أو ربّما جزر الموريس- وكنا نتوقّع وصول موجة حرّ في لندن. وكانت مارني تشعر بالقلق على شتولها التي تصطف على الشرفة، وتخشى أنها لن تعيش سبعة أيام تحت أشعة شمس ساطعة بلا مطر. وكان تشارلز يسخر منها قائلًا إنها مضحكة، لأنها مجرد نباتات ويمكنها في أي وقت أن تستبدلها بأخرى.

تناولت طعامي وأنا أستمع إلى مشاحنتهما، ملتزمة صمتي عنوة. لأكذبنّ لو قلت إنّني لا أشعر بالرضا كلّما وجدتهما يتشاجران -فكنت أغتبط لرؤية تشارلز يفشل في تفهّم مارني- لكنّني كنت أعرف جيدًا أنّني لن أحقّق أي مكسب بتدخّلي. ومع ذلك، كم وددت لو أطلب من تشارلز أن يتوقّف عن كونه نذلًا، فأقول له لو كانت النباتات مهمة لمارني فيجب أن تكون مهمة بالنسبة له أيضًا. لكنّني لم أفعل.

صبيحة اليوم التالي، اتصل بي تشارلز يسألني إن كنت أمانع في ري النباتات بينما هما مسافران.

لم أكن أملك سيارة؛ إذ إنّني لا أستطيع القيادة. وأحتاج في العادة حوالى النصف ساعة للوصول من منزلي إلى شقتهم عبر المترو، لذا أيقنت على الفور أن المهمة لن تكون بالسهلة.

ورحت أتساءل إن كان لديهم أي من الأصدقاء الذين يقطنون بالقرب منهم؛ ربّما زملاء عمل لتشارلز، يستطيعون أيضًا تحمّل كلفة الشقق الباهظة في المباني القديمة الفخمة. كنت أكيدة أن لديهم مثل هؤلاء الأصدقاء. لا بد من ذلك. ومع هذا، تشارلز طلب مني أنا.

ربّما، بحسب ما تراءى لي، كنت أنا أقرب صديقة لهما.

وكنت أعرف، بالطبع، أن هذا ليس صحيحًا.

لقد سألاني لأنهما ببساطة كانا على يقين من أنّني سأقبل. لمارني عدد لا يستهان به من الأصدقاء وكذلك تشارلز- لكنّني كنت مصدر ثقة.

شرح لي تشارلز أنه سيترك مفتاحًا إضافيًا مع الناطور وسألني إن كان بإمكاني أن أمرّ بعد العمل من الاثنين إلى الجمعة -وفي الواقع لو استطعت المرور مرة يوم السبت، فسيكون الأمر مثاليًا- فعندئذ سيكون الأمر رائعًا.

يوم الاثنين، غادرت عملي عند السادسة والنصف، وقد أرهقني قضاء يوم كامل وراء مكتب وأمام شاشة، أحاول أن أشرح لزبائن لا يكلّون لماذا تأخّرت شحنتهم عن الوقت الذي اختاروه. كنت قد أخذت عطلة استمرت لنحو العشرة أسابيع عندما توفّى جوناثان، وعندما عدت اكتشفت أننا لم نعد نبيع الأثاث، وأنه تمّ نقلي إلى فريق خدمة الزبائن للإجابة على الاتصالات. كانوا مصرّين على أن ثمّة فرصًا للمساهمة في الشركة على نحو فاعل، لكنّني شعرت بهذا المنصب كنوع من خفض الرتبة بالنسبة لي.

كان الخط الساخن يغلق في عطلة نهاية الأسبوع، لذلك فإن بداية الأسبوع تكون الأسوأ. فبحلول يوم الاثنين، يكون أولئك الذين لم تصلهم طلباتهم يوم السبت على درجة من الغيظ، لا يعلوها سوى درجة إحباطهم أيضًا -إذ لم يحصلوا على أثاث الحديقة لوليمة الشواء، ولا وصلت هدايا عيد ميلاد ابنهم، أو تأخّرت حلي الفستان الفاخر- فيستحيل عليهم كبت جام غضبهم. لذلك، يقضون ما يقارب الساعة يصرخون ويشتمون وينادون عبر الهاتف. أما أنا، فأقضي ما يقارب الساعة أهدّئ من روعهم وأطمئنهم وأعدهم بتصحيح الخطأ وأحوّل إلى حساباتهم مبالغ صغيرة كتعويض لهم.

وصلت إلى شقة مارني وتشارلز بعد السابعة بقليل.

«هل أستطيع رؤية بطاقة هويتك؟»، سألني الناطور عندما طلبت المفتاح.

«لا أحمل أي بطاقة، لكن هيا يا جيريمي»، -كان يرتدي شارة اسمه- «لقد رأيتني هنا مرة في الأسبوع لسنوات. أنت تعلم من أنا. وانظر، أستطيع أن أرى المظروف مع المفتاح على مكتبك. جاين بلاك. وأنت تعلم أن هذا اسمي».

«لا بطاقة هوية؟»، أعاد السؤال.

«أخشى أنها ليست بحوزتي».

وعاجلته بأوسع ابتسامة لطيفة لدي، لأتفاجأ صدقًا عندما مرر المفتاح عبر الطاولة بنوع من التواطؤ قائلًا: «لم تحصلي على هذا مني».

أخذت المصعد إلى شقتهما، وعندما فتح الباب أنيرت الإضاءة تلقائيًا في الردهة. لقد قضينا أنا ومارني عامًا كاملًا نخرج من المصاعد إلى السجّاد الأزرق، والمبنى الذي أعيش فيه الآن يقدم التجربة نفسها (مع أن السجادة رمادية داكنة اللون، لكنها موحلة ومهترئة). غير أن هذا المبنى كان مختلفًا على نحو ملحوظ، ولم يفشل يومًا في جعلي أشعر بنوع من الدونية. فالجدران كانت مزينة باللوحات الفنية المؤطرة، والرسومات الموقَّعة عند الزاوية اليمنى لكل قطعة، والثريات تتدلّى بأناقة من السقف. أما الأرضية فكانت نظيفة تلمع تحت الأضواء، والدليل الوحيد على قدم أخرى وطأت هذه الردهات كان دعسات بالكاد تراها العين المجرّدة، وملامح حذاء عند أبواب المصعدَيْن.

دخلت إلى شقتهما وقد تفاجأت -بكل غباء- بظلمتها. مساء الجمعة، عندما أرن الجرس، تركض مارني لتجيب، فتفتح الباب مبتسمة، ثم تهرع إلى المطبخ لتحرّك أو تبهّر أو تخضّ. في العادة، تكون الكاميرا موضوعة عند الرف، تصوّر إعدادها آخر ابتكاراتها. وغالبًا ما يظهر انسحابها -وقدومي- في مقالاتها، ووصفاتها، وفيديواتها أيضًا.

لطالما أردت الخروج لتناول العشاء. أردت أن يكون كلانا فقط من

جديد. لكنها كانت تؤكّد أنها بحاجة لأن تكون في المطبخ؛ هكذا تستطيع أن تسدّد ثمن نصف حصتها من الشقة. كان تشارلز يتطلّع للحصول على امرأة أو زوجة - شخص يتملّكه. لكنّني كنت أعلم أنها لم تكن تريد هذا لنفسها، ولم أرِد لها هذا أيضًا.

وكنت أسمعها من الممر تقول: «وتلك كانت اللحظة التي كنت أتمنى فيها تحديدًا أن تصل جاين».

فأغلق الباب ورائي، بهدوء، وأتوقّف لأنصت.

«لأنه بإمكاني أن أختفي لثانية، من غير أن أخشى أن يفيض القِدَر أو تحترق الطبخة، ولن أعود لأجد المقالي محروقة، والصلصات مشدودة».

كنت أسمعها تقرقع في المطبخ لدقيقة أو اثنتين -من ملعقة تدور في قِدر، إلى زيت يفرقع في مقلاة، أو سلسلة من الأدراج والخزائن تفتح وتغلق في آن- ثم تقول أخيرًا الجملة التي كنت أنتظرها، وأتوق لسماعها. كانت دائمًا عبارة من هذا القبيل:

«لكن تذكرون ما أقوله دائمًا، أليس كذلك؟ جاين هي بمثابة عائلتي. لذا أنا أعلم أنها خارجًا الآن تعلّق معطفها أو تنزع حذاءها أو أي فعل مماثل، ولا مانع من أن تسكب لنفسها مشروبًا أو تفتح زجاجة، منزلي هو *منزلها*، وما إلى هنالك. أما إذا كان ضيوفكم أكثر تطلّبًا، فأقترح أن تنظّموا لحظة وصولهم مع نهاية المرحلة التالية، عندما تستطيعون التوقّف قليلًا والتوجّه إلى ضيوفكم الكرام بالـ«أهلًا وسهلًا»».

كنت بمفردي في الممرّ في تلك اللحظات، نعم، لكن الوضع بدا مختلفًا كثيرًا. كانت الأنوار مضاءة، أنوار في كل مكان، ثريات تتدلّى، ولمبات جانبية تبرق في الزوايا.

كما كانت الشمعدانات المعطّرة تسيل عند غطاء المشعاع، والموقد، والطاولة الجانبية، لتومض عند كل سطح. كان بوسعي أن أصغي إلى مارني بلا انقطاع، تكلّم نفسها، أو تكلّم جمهورها، أو تتوجّه إلى متابعيها

الذين ما انفكّت أعدادهم تتزايد. ثم يبرز صوت أزيز الفرن والنوافذ الخارجية التي تبقيها دائمًا مفتوحة لتقود إلى الشرفة، فأسمع صفير الهواء وخرير السيارات وأبواق السائقين في الشارع في الأسفل.

لكن في تلك الليلة، غابت الأنوار، وتلاشت الروائح، وساد الصمت.

أحببت كيف أن الشقة لا يدنّسها أي وجود آخر؛ بدت فاقدة لأي ملكية، جوفاء نوعًا ما.

لزِمَني بعض الوقت قبل أن أجد إبريق الري (تحت مغسلة الحمام) ومفتاح الشرفة (في الدرج بالقرب من الملاعق.) وكان الليل قد حلّ عندما نجحت في الخروج، وكان بإمكاني مع ذلك أن أرى بيوت العناكب بين أوراق الشتول، تمتد من الجذور إلى السور المعدني، تلمع تحت أضواء الليل. وقد برز عنكبوت واحد، صغير وبنيّ اللون، وسط شبكته. رفعت الإبريق فوقه، ورحت أراقب المياه تنسكب عليه فتطيح به مع شبكته أرضًا.

عندما وصلت إلى منزلي، كانت الساعة قد شارفت على التاسعة.

في الصباح التالي، وضبت حقيبة صغيرة وضعت فيها ما يكفي من الثياب والملابس الداخلية إلى نهاية الأسبوع. حتى إنّني أحضرت شراشف السرير الخاصّة بي. لقد طلبوا زائرًا، أو ضيفًا، أو شخصًا يزورهم بشكل متقطّع، نصف ساعة كل يوم، ليسقي شتولهم ليس إلا. عوضًا عن ذلك، انتقلت للإقامة عندهم.

لم أظنّهما يمانعان لكنّني لم أكن أنوي أن أخبرهما.

دخلت إلى شقتهما ذاك المساء ووقفت مجدّدًا في الممر المظلم. ستتحول تلك الشقة إلى منزلي الآن -لأسبوع ليس إلا- ستكون منزلي. أضأت الأنوار كلها -تمامًا كما تحبّها مارني- ورتّبت سريرهما بشرشفي وغطاء مخدّتي. ثم أفرغت طعامي في برادهما، وفي أدراجهما وأدرت جهاز الراديو الخاصّ بهما وفتشت في كتبهما.

لم يكن أسهل من التكهّن أيّ الكتب يعود لمارني وأيها لتشارلز؛

فغالبية كتبه كانت بأطراف داكنة وعناوين ذهبية عريضة، بينما كانت كتبها زاهية الألوان، زهرية وصفراء في الأساس، مع كتابة منمَّقة بخط اليد.

كنت أعود من العمل كل مساء، فأغرق نفسي بين الوسائد، بعد أن أترك طبقة خفيفة من الأوساخ تسيل عبر بلاط الحمام، وبقع مرطّب الشفاه تعلق على الزجاج.

ثمّة إحساس غريب بعض الشيء إنما مريح في أن يكون الإنسان بمفرده في منزل شخص آخر. أذكر كيف كنت أشعر بوجودهما، مع أنهما كانا على بعد ساعات مني -وحتى قارّات- في المقلب الآخر من الكرة الأرضية. شعرت وكأنّني أراهما -النسخة الحقيقية لهما كزوج واحد- للمرة الأولى. وجدتني أقلب في أغراض خزائنهما، أسعى لاكتشاف الأعشاب المفضّلة لديهما وتلك التي لا تزال موضّبة في ورقتها الأصلية. كما فتشت في أدراجهما، فذهلت عندما اكتشفت أن مارني قد أصبحت من أولئك النساء اللواتي يتكبّدن عناء ارتداء ملابس داخليّة متطابقة. كما بحثت في خزانة الأدوية الخاصّة بهما -مجموعة لا تعد ولا تحصى من المسكنات وأدوية السعال واللصقات وميزان الحرارة الذي كان لا يزال في عبوته- فشعرت بعد ذلك بأنّني بت أعرفهما بشكل أفضل بقليل.

كانت طاولة السرير من جهة مارني تحتوي على مجموعة من التحف الزهيدة، ولا غرض ذو قيمة: علب محارم، وعيّنات من مواد تجميل، وأقلام جافة، وبطاقات معايدة قديمة، وعلب دواء فارغة، وزوج نظارات قديمة، وسوار من رحلة قمنا بها إلى اليونان عندما كنا في الجامعة. في المقابل، وجدت من جهة تشارلز ثلاث مجلات، وإشارتين فاصلتين، وأربع محركات أقراص، وبعض الصور القديمة من زفاف صديق -واحدة مع مارني وهي ترتدي فستانًا حريريًا أزرق ساعدتها في اختياره- وشيء ما مغلّف بورق بني اللون في آخر الدرج، علبة مخملية حمراء.

لذلك، كنت على دراية بالآتي؛ كان لدي متسع من الوقت لأحضّر نفسي.

كانت ظهيرة يوم الأحد، وكنت لا أزال مستلقية في السرير عندما تلقيت اتصالًا ثانيًا من مارني. حملت الهاتف مقابل وجهي، ونظرت إلى الاسم المكتوب بالأحرف الكبيرة على الشاشة، والصورة التي أخذت في مطبخها، والمئزر حول وسطها، وشعرها الأحمر مشدود إلى الوراء، وذلك عندما ارتقيت إلى جهاز هاتف ذكي قبل نحو عامين.

أخذت نفسًا عميقًا وأجبت.

«جاين»، كانتِ تصرخ. «جاين، هل تستطيعين سماعي؟». كانت في حال من الهيجان الفرِح المثير.

أجبتها، «بالطبع أسمعك، ماذا يجري؟ ما القصة؟».

كنت أدري جيّدًا ما القصّة ومع ذلك ادّعيت المفاجأة وأكملت المسرحية.

«تشارلز تقدّم بطلب يدي»، قالت في شبه صراخ. «طلب مني أن أتزوّجه». كانت عاجزة بالكامل عن السيطرة على نبرة صوتها أو سرعة كلامها. «سأرسل لك صورة الخاتم». سمعت أناملها تطرق على السماعة. ثم وضعت الهاتف على وجنتها. «هل وصلتك؟».

رج هاتفي على أذني. كنت بالطبع أعرف ما الذي ستظهره لي هذه الصورة. ومع ذلك، لم أشعر أنّني مستعدّة لأرى ذاك الخاتم يلتف حول إصبعها، يلمس بشرتها، يربطها بمستقبل محدَّد.

أجبتها، «لم تصل بعد، أنا أكيدة أنها ستصلني قريبًا».

كنت سأنظر إلى الصورة، إنما لاحقًا. كنت أخطّط لوضع زجاجة نبيذ في البراد ولتنظيف الشقة والتنزّه قليلًا، على أن أقوم بعد ساعات، عندما يكون الظلام قد حلَّ خارجًا وساد الهدوء، بفتح الرسالة والنظر إليها.

سألتني، «ستحضرين، أليس كذلك؟ بالطبع ستحضرين. ستحضرين

الزفاف؟ قد نقيمه في الخارج، سنرى، لسنا أكيدين بعد. وستساعدينني في اختيار ثوبي؟».

«بالطبع»، أجبتها. لم أكن أكيدة من أنّني أبدو على درجة من الحماسة. «بالطبع»، أعدت القول، وأنا آمل أن يخلق التكرار البليد إيحاء بالإثارة في الوقت الذي كنت أشعر به بالغثيان.

«وستكونين وصيفة الشرف. تقبلين بذلك، أليس كذلك؟».

أجبتها، «نعم، بالطبع أقبل».

«حسنًا، عليَّ أن أقفل، نحن عائدان أدراجنا الآن، وعليّ أن أجري عددًا من الاتصالات، آه يا جاين، أليس ذلك أكثر الأحداث إثارة؟ أنا لا أصدق؛ صدقًا لا أستطيع أن أصدّق. هلّا تخبرينني عندما تصلك الصورة؟ أو أستطيع أن أرسلها مجدّدًا. إنه حقًا مميز. أعتقد أنك ستحبينه. أو أقلّه قولي لي إنك أحببته. لكنّني أكيدة أنك ستحبينه بالفعل. حسنًا أنا أتفوّه بحماقات، وبدأ تشارلز يضيق ذرعًا بي -نعم، نعم، أنا آتية- لذا فلنكمل لاحقًا، وأراكِ يوم الجمعة أو حتى قبله و-حسنًا- أحبك».

وأقفلت الخط.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثامن

خلدت إلى سريري باكرًا في تلك الليلة. جلست أستند إلى وسائدي، أتعرّق في بيجاما من الفلانيلا، أحدّق في الصورة على شاشة هاتفي. كانت تظهر يدها، والحلقة الذهبية تلتف بعناية حول رابع أناملها. كان خاتمًا غاية في الجمال، لكن لم يسعني إلا تخيّله مصنوعًا من الحبال، عقدة حول حبل مشنقة، نهاية شيء بدل أن يكون بدايته. أما اليد -وهي يد مارني بالطبع، بأناملها الرفيعة الأنيقة وأظافرها المطلية النظيفة- فقد بدت شيئًا آخر، كما لو كانت كائنًا مستقلًّا بحدّ ذاته، منفصلًا عنها وعن كيانها.

استيقظت فجأة -عند الثانية والعشر دقائق فجرًا- أتصبّب عرقًا وأرتعش وبي إحساس يقيني أنّني نسيت القيام بأمر بالغ الأهمية. عندئذ، استوعبت أن مارني قد اتصلت بي من السيارة مجدَّدًا- ليس في الاتصال الأول وحسب، بل والثاني أيضًا. تذكّرت صوت حركة السير نفسها وتردّد صدى العجلات المخيف نتيجة السرعة. لقد قالت، ألم تقل ذلك، إنهما مسافران، إنهما يعودان أدراجهما؟

كنت على يقين مطلق أن تشارلز لن -ولم- يتقدّم بطلب يدها في السيارة. فهذا ليس أسلوبه. لكان بالطبع قد أعدّ الورود والشامبانيا وعازفي الكمان وربّما اختار ضوء القمر أيضًا. شعرت ببعض الصدمة إذ لم تقم بالاتصال بي إلا عندما كانا في سيارتهما.

عندما كانت مارني في السادسة عشرة من عمرها، وقعت في غرام شاب يدعى توماس. كان في السابعة عشرة من عمره، يقارب المترين

طولًا، ويلعب الرّكبي مع فريق البلدة. أحبت فكّه المنحوت نحتًا وعضلات معدته المقطّعة وكتفيه العريضين وذراعيه القويين. أما أنا، فلم أنفكّ أحدّق بجبينه العريض على نحو غريب عجيب. لكنه كان قمة في السحر، وها أنا أقولها، أنا التي لا يسهل أن أتأثّر بالتصرّفات الحميدة ولا أرضخ للجاذبية والابتسامة المثيرة.

لم أكرهه، لكن كان يجدر بي أن أفعل. لم أقتله، لكن يا ليتني فعلت.

لا. أتضرّع إليك التوقف عن النظر إليَّ على هذا النحو.

أتضرّع إليك التوقّف عن الحكم علي وأطلب منك الاستماع إلى القصة.

كنت أحب كيف كانت علاقتهما تسير. كان يأمل الحصول على منحة رياضية في جامعة مرموقة، لذلك كان يقضي الجزء الأكبر من وقته في التدريب أو المنافسة. في الواقع، في أمعظم الأمسيات، إضافة إلى مباراة ثابتة في عطلة نهاية الأسبوع. كانا قلّما يلتقيان وقد نما حبّهما على المراسلات في الممرّات ومقاطع نصوص وغمزات في قاعة الطعام في المدرسة.

وجاء فصل الصيف بصباحاته الحماسية وفترات بعد الظهر الطويلة الرطبة. لم ألاحظ أن مارني كانت لا تزال ترتدي قمصانًا إلى أن رفعت يومًا أكمامها عن غير قصد وقت الغداء فلمحت أربع كدمات متساوية فوق كوعها. رأتني أحدّق فراحت تتفوّه ببعض الهراءات حول كيف اصطدمت بحافة السرير.

لا أدري كيف لم ألحظ الأمر. كانت تلتزم السرّية في موضوع هاتفها بينما كانت في السابق تقرأ رسائلها بصوت عالٍ، وكنا نحضّر الإجابات معًا. وقد باتت سريعة الغضب، كثيرة الانفعال، لا تهدأ ولا تثبت على رأي ولم أتنبّه لأيٍّ من ذلك.

أدركت ما يجري. وأدركت أن باستطاعتي أن أوقف الأمر.

كان ثمّة تعريشة تتشابك مع شجرة كرمة وصلت من الحديقة الخلفية لمنزل أهلها إلى نافذة غرفة نومها. فتسلّقتها. وفتحت الخزانة. دخلتها وجلست القرفصاء، مستندة إلى أكوام الملابس.

وانتظرت.

كنت أعلم أنه يلعب الرّكبي بعد الظهر. وكانت تشاهد المباراة وكنت أعلم أنهما سيعودان إلى غرفتها بعد ذلك، لأن أهلها في حفل موسيقي لأخيها، وفي ذلك الوقت من عمرنا، كان المنزل الخالي قمة في الإغراء بحيث لا يمكن تجاهله.

سمعت صرير المفتاح في الباب، وأصواتهما عند المدخل الأمامي، ثم المياه تسري في المطبخ، وخزانة تفتح، وكوب زجاج يرتطم بالمجلى الرخامي. ثم سمعت وقع أقدامهما على السلالم، وباب الغرفة يفتح ويحفّ بالسجادة، وأخيرًا ملاءات السرير.

أخذت هاتفي من جيبي وفتحت مكبر الصوت وقرّبته من الفتحة بين بابَي الخزانة حيث كان يتسلل الضوء. لا أزال أملك التسجيل:

كانت تقول، «هل يمكننا ربّما... ربّما ليس اليوم؟».

«آه، هيا»، أجابها.

أردفت قائلة، «كلا، أنا جادة. هل يمكنك فقط...».

«لكنك قلت، قلت اليوم. ماذا؟ هل غيرت رأيك؟».

وعدته قائلة. «المرّة المقبلة، أعدك. أهلي سيعودون في أي لحظة».

«أنت تقومين بذلك مع شخص آخر، أليس كذلك؟». سألها من دون أي سبب يستدعي ذلك.

فردّت عليه سريعًا، «كلا. أعدك لست أقوم بذلك».

«أنت ساقطة. هذا ما أنت عليه».

«لست كذلك! أعدك لست كذلك، ليس ثمّة أحد آخر، أعدك».

«أنتِ تعلمين أنّني لو أردت ذلك، فبوسعي القيام بما أريد، صحيح؟ تعلمين ذلك، أليس صحيحًا؟».

«رجاء طوم. دعنا...».
«أستطيع القيام بما أريد. تعلمين ذلك».
«توقف. لا تهدّدني».
«تعتقدين أنّني أهدّدك. إنه وعد بحق الله».
بدأت تبكي.
«أهلي لن يكونوا في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة»، قال وهو يقف -صرير الفرشة- وفتح الباب -ثقل خطواته على الخشب على السجاد- ثم غادر.
أوقفت التسجيل لكنّني بقيت جالسة داخل الخزانة.
ذهبت مارني إلى الحمام بعد دقائق قليلة فتسلّلت خارج النافذة نزولًا على الشجرة. أرسلت التسجيل إلى مدرب الرّكبي بواسطة بريد إلكتروني من عنوان مجهول، فطُرد طوماس بكل هدوء من الفريق. وراح يرسل بعض الرسائل المهدّدة لمارني، لكننا أخذنا نقرأها معًا ولم تره مجدّدًا بعد ذلك. دعتني لأخذ دروس دفاعية معها، نوع من توليفة من الفنون القتالية، وكان من المجدي -ولا يزال- أن أعرف أن أفعالي قد جعلتنا أكثر قوة وثقة، وأقل هشاشة.
أعتقد أنها كانت تعلم أنّني من سجّل له وقام بإرسال تلك الرسالة البريدية. لكنّها لم تتفوّه يومًا بكلمة. وأعتقد أنها لو كانت ترى أنّني تجاوزت حدودي، لكانت تكلّمت. ومع ذلك، في الأشهر التي تلت الحادثة، كانت تستدير أحيانًا إليّ، كما لو أنها على وشك الكلام، ثم تغيّر رأيها وتطبق فمها.
الآن، أفترض، لا بل آمل أنها كانت تعلم. آمل أنها، في تلك اللحظة، أدركت أن جذورنا متشابكة متداخلة في ما بينها -بشرة واحدة سميكة متلاحمة قد ذابت عند المفاصل، فبات اللحم يجاور اللحم- حتى لغدا من الصعب تفريقنا. آمل أنها أدركت أننا كلانا معًا، مهما كان الثمن، دائمًا وأبدًا.

تم تحديد موعد الزفاف بعد تسعة أشهر من تقدّم تشارلز لطلب يدها في السبت الأول من أغسطس. رحت أتساءل إن كانت خطوبتهما ستغيّر أيًا من تقاليدنا، لكن لحسن الحظ، بدا نظام حياتنا اليومية غير متأثّر بذلك التغيير. ومرت الأشهر الفاصلة بلا أي حدث يذكر. كنا لا نزال أنا ومارني نكلّم بعضنا البعض بشكل منتظم، وأحيانًا مرات عدة في الأسبوع. وكنا نتناول العشاء معًا مساء كل يوم جمعة، وبينما أقرّ أن أحاديثنا قد تحوّلت إلى تنسيق الورود، كنت أتوقّع أسوأ من ذلك بكثير. وهكذا، ارتحت عندما اكتشفت أننا لا نزال كما كنا في السابق.

في بداية آخر أسبوع من حياة عزوبيتها، مساء ذلك الجمعة، كنا أنا ومارني جالستين على أرض شقتها، نعلّق شارات أسماء فضّية على علب صغيرة تحتوي على ملبّس لوز. وقد تراجعت قوائم الأمور العالقة عن الأسابيع السابقة فلم يتبقَ لدينا إلا بعض تفاصيل اللحظات الأخيرة، آخر ما نحتاج لاستكماله.

سألت: «متى تصل والدة تشارلز؟ وأين ستبقى؟». كنت أجد صعوبة في تمرير الخيط الفضي الرفيع عبر الفجوة الورقية الصغيرة، وذاك النوع من العمل المتأنّي الدقيق لم يكن يومًا نقطة قوتي.

سألتني مارني: «إيلين، لا أدري. لا أعتقد. ثم... لا أدري أين يمكنها أن تمكث. لحظة». توجّهت إلى المطبخ وعادت مع جهاز اللابتوب. جلست على الأريكة وفتحت الشاشة. «لا أدري»، أعادت الكرّة. «آمل ألّا تمكث هنا. سيتوجّب عليّ أن أعدّ السرير وكل شيء».

«أستطيع أن أساعدك»، أجبتها. ثم انتقلنا إلى لوائح الطعام، وكانت كلّها بحاجة لنقرّها في الأعلى وإدخال شريط فيها نعقدها على شكل عقدة فراشة.

وصل تشارلز إلى المنزل بعد ساعة تقريبًا. كانت الساعة قد شارفت على التاسعة. وكان واضحًا لنا أنه معكّر المزاج من الطريقة التي طرق

بها الباب وراءه، ومن ارتطام حقيبته على الأرضية الخشبية، والانفعال بينما يعلّق سترته على الحافة.

«سأرى ما به»، همست مارني.

سمعت صوتها في الرواق؛ همسٌ رقيقٌ ناعمٌ، يحمل نغمته الخاصة، كما لو أنه أغنية. وإجابته، قصيرة وحادّة ولاذعة. في البداية، كان الأمر مجرّد تفريغ لمجريات اليوم، تفكيك للغضب، ثم بدأ صوتها يتحوّل أيضًا، يتموّج، وبدل أن تهدّئ هي من روعه، راح يصرخ عليها.

«لقد دخلت لتوّي من هذا الباب»، كان يقول، وقد بات صوته مرتفعًا الآن، ويواصل كما يفعل شخص معتدٌّ بنفسه، «وأنت تسألينني أمور الزفاف. لا فكرة لديّ مارني. ليس بوسعي أن أعطيك أي رأي يتعلّق بأي أمر يخصّ الزفاف».

قالت: «سألتك عن أمك، إنها أمك».

«الأمر تحت السيطرة».

«اسمها في قوائم الطاولات».

«ولماذا اسمها وارد في قوائم الطاولات؟»، أجاب بحدة.

«لأنها أمك»، أكملت مارني بإصرار. ثم أردفت على نحو أكثر لطفًا: «ألن تأتي؟ لم نرها منذ زمن و...».

«سآخذ حمّامًا»، قال بينما كان يتوجّه إلى السلالم وانسحبت هي متوجّهة إلى المطبخ.

سمعت المياه تسري ثم النقر على مفتاح الغاز قبل أن يتناهى إليّ صوتها تكلّم الكاميرا بتلك النغمة مجدّدًا. فواصلت أنا عملية القص والخياطة والعقد، أومراكمة اللوائح الجاهزة في الصناديق.

دخل تشارلز غرفة الجلوس بعد حوالى العشر دقائق، يرتدي سروال الجينز، وشعره لا يزال رطبًا، فرمى بنفسه على الأريكة بجانبي. كان ضخمًا فارع الطول عريض المنكبين، وقد صقل بجهد لياقته البدنية ليبدو، كما يرغب ببساطة سائر الرجال، أكثر قوة.

«لم تدعُها»، قلت بينما أقيس طول الشريط بين أصابعي.
«ماذا؟»، أجاب.
أردفتُ، «أنت تكذب، لم تدعُها».
لا أعتقد أنه كان يريد الاعتراف لي -لو كان يملك ترف الاختيار، لاختار ألّا يفعل- لكن انقطاعه عن الكلام لبرهة من الزمن كشف الحقيقة. «لا أريدها هنا، هل هذا مفهوم؟».
«بالطبع مفهوم»، أجبته، وأنا فعلًا أفهم. «لم أدعُ أهلي إلى زفافي».
«تمامًا»، أجابني.
لكنّني أعتقد أنه أساء فهمي هنا، إذ خال أهلنا متشابهين، وخال أننا متشابهان، ولم يكن الأمر كذلك على الإطلاق.
« واصل التبرير، «هي مريضة، ولا أعرف كيف أتعامل مع ذلك يوم زفافي، فهمتِ علي. إن حضرت إلى هنا، فسيتمحور الأمر كلّه حولها. لن تصدقي الأمر؛ كيف يتصرّف الناس حول المرض. عندما أخرج معها يبدأون بالكلام، يريدون كلّهم الكلام، حول باروكتها اللعينة وغثيانها المتواصل والأنظمة الغذائية التي تجتث السرطان. الأمر كارثي. وأعتقد بأنها ترتاح لما يجري: تحبّ جذب الانتباه. أعتقد أنه يعطيها حافزًا، المرض يعطيها حافزًا. على كل الأحوال، من الأسهل ألّا أدعوها بكل بساطة».
«لكنها أمك»، أجبته.
«ماذا؟». كان قد سحب هاتفه من جيبه وراح يتلهّى مع شخص آخر في مكان آخر.
قلت: «لا يمكنك ألّا تدعوها لمجرّد أنها عليلة،هل هي على علم بما يجري؟».
«ربّما»، أجابني، من غير أن يبدو عليه أي درجة من الحرج. «أعتقد أن أختي قد ذكرت الأمر في لحظة ما».

«لكن أليست مصدومة؟».

«لا أدري. لم أسألها. لسنا قريبَيْن».

«هذه قساوة ما بعدها قساوة»، قلت بثقة.

وضع هاتفه على الطاولة الجانبية وراح يمرّر يده في شعره الرطب. قال وهو يجفّف يده بالوسادة، «لا أعتقد أنه يحق لكِ أن تقولي هذا، فأنتِ لم تدعي أهلك أيضًا. وهذا زفافي، وهذا بالتالي قراري. وأنا لا أحب الناس المرضى».

«لا تحبّ ماذا؟»، سألَت مارني، وقد وصل إلى مسامعها آخر ما قاله ليس إلا، بينما كانت تدخل الغرفة حاملة بين ذراعيها صحونًا زرقًا وبيضًا وفضّيات. وضعتها على الطاولة.

«لم أدعُ أمي»، قال لها.

فأردفت: «لأنها عليلة».

«ماذا؟»، سألت مارني، بينما كانت توضّب السكاكين أولًا ثم الشوك. «لأنها عليلة؟ هذا بالطبع سبب يؤكّد على ضرورة دعوتها؟».

«تمامًا»، أكّدت على أقوالها.

«كلا»، أجاب. لم يكن غاضبًا، ليس كما كان من قبل، ليس كما عندما كان في الرواق، لكنه كان حازمًا ومصرًّا. «إنه قراري. لا أريدها هنا. لا أحبّ الناس المرضى».

«وماذا لو أصبتُ أنا بالمرض؟»، سألت مارني بينما كانت تضع الأطباق في مكانها على الطاولة.

«تلك قصة مغايرة».

نظرت إليّ رافعة حاجبًا واحدًا، فدار حوار صامت بيننا، حوار يفيد بأن الأمر ليس مغايرًا كما يؤكّد. ومع ذلك، بينما اعتراني شعور مريع مما يجري، أعتقد أن مارني كانت حانقة تحديدًا عليه. عليها الآن أن تعيد تشكيل قائمة الطاولة.

قالت بلا مبالاة: «طالما أنك تؤكّد ذلك، فسأدّعي أن هذا الحوار لم يجرِ البتة، أعتقد أن هذا أفضل لنا». ثم عادت إلى المطبخ وأدار تشارلز جهاز التلفاز وأنهيت أنا قوائم الطعام، وجلسنا نتناول العشاء كما لو أن هذا الحوار لم يحصل.

لكن ذلك الحوار الغريب لم يفارقني، بل بقي قابعًا في صميمي. لأنه يؤكّد لي أنه ليس مناسبًا لمارني وأنه لن يكون يومًا، وليس باستطاعته أن يكون يومًا. بتّ أملك لحظة ملموسة أستطيع أن أعود إليها، وقد أثبت لي فيها بكل ثقة أنّه ليس الرجل المناسب للمرأة التي على وشك أن يتزوجها.

شعرت بنوع من العجرفة.

هل الأمر سيئ؟

لأنه الإثبات على أنه حقًّا مقيت، وأن كرهي له ليس بلا أي أسس سليمة، أو مبالَغٌ به، بل إنه مبرَّر وعادل. وأكثر من ذلك، لأنه يثبت شيئًا لم أملك ما يكفي من الثقة للتعبير عنه سابقًا: لقد كنت فعلًا أفضل منه. لقد اهتممت بمن احتاجوا إليَّ: لقد فهمت أن ذاك جزء من عقد الحب، والواجب والعائلة.

كان بوسعي أن أرى أنه لا يمثّل ذلك على الإطلاق - أيًا كانت الكلفة، على الإطلاق.

الفصل التاسع

ووصل ذلك النهار الموعود، السبت الأول من شهر أغسطس، وعلى الرغم من التوقّعات التي تفيد بطقسٍ غير مستقرّ، إلا أن الطقس كان دافئًا، والسماء صافية على نحو غير متوقَّع. اجتمع مئات المدعوين، من مختلف مشارب الحياة -من المدرسة والجامعة والعمل- وبعضهم لم يلتقوا من قبل: شركاء، أقارب، أو أصدقاء أهل، أو أطفال جدد يصرخون ثم يضحكون بلا أي مبرر. سافر الضيوف إلى ويندسور من كل أصقاع العالم: وصلت أخت تشارلز وزوجها من نيويورك صبيحة ذاك اليوم، وعمّته وعمّه قطعا إجازتهما السنوية لينضمّا إلينا من جنوب أفريقيا، وعاد أخ مارني من عمله في نيوزيلندا الذي يتطلّب سفرًا دائمًا كي يحضر الاحتفال.

قد يسهل تخيّل أنّني أكذب عندما أقول لك ذلك، لكنّني أعدك بالحقيقة ولا شيء غير الحقيقة: كان فعلًا أحد أفضل أيّام حياتي. قضينا الصباح أنا ومارني معًا في منزل أهلها، فأكلنا التوست والمربّى ونحن بثياب النوم، ثم استحمّت مارني وجلست أنا على الأرض بجانبها أتمدّد على البلاط نستذكر كيف التقينا في ذلك الصف الطويل الرفيع، والأحداث المختلفة التي مررنا بها وأوصلتنا إلى تلك اللحظة تحديدًا.

شاهدتها تتزوّج برجل كرهته لكنها أحبته ولم يكن الأمر على ذاك القدر من الروعة التي تخيّلتها. شاهدتها كما لم أشاهدها من قبل -شعرها الأحمر المشدود كعكة على أعلى رأسها؛ والعقد الماسي؛ والفستان الطويل الأبيض، والطرحة الطويلة المخرّمة- وفرحت

لفرحها. شعرت بفخر أن أكون جزءًا من تلك اللحظة المهمّة في حياتها. أكلت كثيرًا وشربت كثيرًا ورقصت حتى تقرّحت قدماي، ومع ذلك كنت أشعر أنّني بأفضل حال.

كان خطابه جميلًا، حقًّا. كنت أتوقّع أن يكون مثيرًا للغثيان -خلته سيتكلّم عن حبه اللامتناهي، وعن قوة ارتباطه، وعن الطريقة التي سيعزّز فيها الزواج الرابط بينهما- لكنه لم يفعل ولم يكن ذاك فحوى خطابه. بل قال إنه لم يسبق له أن التقى شخصًا على هذا القدر من الإصرار والإبداع والجرأة. قال إنه علم على الفور، في اللحظة التي رآها فيها أنها مختلفة، مميزة، ليست كما الآخرين. قال أمورًا عنها كنت أعلم أنها صادقة، ووجدتني أوافقه الرأي رغمًا عني.

لم أجلس إلى ما بعد منتصف الليل، عندما غادر معظم الضيوف وكانت الفرقة الموسيقية توضّب أدواتها، ووصيفتا الشرف تدفعان الضيوف الثملين إلى داخل سيارات أجرة تعود بهم أدراجهم. وكان المتعهّد يعيد ترتيب بقايا زجاجات النبيذ والبيرة في الصناديق، ومدير القاعة يكدّس الكراسي في غرفة الطعام فوق بعضها البعض. وكانت أبواب المكان لا تزال مفتوحة، والهواء دافئ وعليل يحمل معه طبقة غبار. أما الأنوار، فكانت لا تزال تتلألأ فوق رؤوسنا، فأدركت أنّني ثملة بعض الشيء، لأن البريق لم يكن واضح المعالم بالنسبة لي، كما لو أن الضوء قد تلطّخ وراء الزجاج، نزيف أصفر وسط ظلمة الليل.

جلس تشارلز بالقرب منّي، يشكرني على مساهمتي -تلك كانت الكلمات التي استخدمها- فكدت أشعر بأنه صادق في ما يقوله. كانت صدريته مفتوحة، تنزلق عن كتفيه، وقد أرخى ربطة عنقه الكحلية. أخذنا نراقب مارني وهي تطوف عبر حلبة الرقص. كان فستانها قد بات شبه أسود من الأسفل، وقد لطّخت أوساخ النهار بياض الحرير. وكانت وجنتاها زهريتين وبعض حلقات شعرها أفلتت من تسريحتها لتتدلّى متعرّقة حول وجهها.

«يا لها من امرأة، أليس كذلك؟»، قال تشارلز.

أومأت إيجابًا.

لست أكيدة -إذ إن مرور الوقت قد أثّر على دقة ذاكرتي- مما إذا كان ما حصل لاحقًا قد حصل بالفعل. لربّما كان مجرّد تلفيق نابع من كراهيتي، نوع من الخيال، بفعل فرط من الشامبانيا وكثير من الغضب. لكنّني لا أعتقد ذلك.

جلس تشارلز مستندًا إلى الجدار الزجاجي، ويداه وراء رأسه ثم تنهّد.

«حقًّا امرأة استثنائية»، أعاد مجددًا.

ثم خفض ذراعيه فسقطت واحدة وراء رأسي، وانسحبت إلى عنقي. شدّني نحوه وقبّلني على جبيني. كانت شفتاه رطبتين، واللعاب يسيل منهما، فسقطت الرطوبة مثلجة على بشرتي.

«نحن زوج محظوظ»، قال.

كان يهذي. لا شك في أنّني أفرطت في الشرب، لكنه كان بالتأكيد قد سبقني بأشواط، إذ أمسى مختلفًا، أكثر قذارة عما عهدته من قبل. زحفت يده اليسرى نحو كتفي، وصولًا إلى عظمة ترقوتي، مكتسحة إبطي. التقطت أنفاسي. ثبتت أضلعي. لم أرد أن أتنشق أي هواء، أو أزفر، أو أجبر صدري على الاقتراب من راحة يده. كانت يده تراوح هناك، على بعد سنتمترات من نهدي، تقيّدني إلى المقعد. لم أكن أقوى على الحراك من دون أن أقترب أكثر منه، فأجعله يلمسني، أدفعه إلى مزيد من التحرّش بي.

ضحك؛ تلك الضحكة الخشنة القبيحة.

ثم قال، «آه يا جاين»، وانزلقت أنامله نحو حلمتي عبر الحرير الأصفر الذي كنت أرتديه. خفضت ذقني، وقد هالني أن أنظر إلى حيث صدري. ضغط براحة يده علي، وبينما كان ينسحب، ضغط سريعًا على حلمتي بين إبهامه وسبابته.

أتمنّى لو أستطيع إخبارك أنّني قمت بشيء أو تفوّهت بشيء. أتمنّى لو أنّني تحدّيته. لربّما كان ليصاب بصدمة -ربّما كنت لأرى في عينيه دهشة حقيقة- وكنت لأعرف عندئذ أن ما خلته يحصل لم يحصل على الإطلاق.

لكنّني لم أقم بأي شيء، لذلك يستحيل أن أعرف الآن.

«لا أصدّق أن الحفل شارف على نهايته»، قالت مارني، وهي تجلس بالقرب منا تريح رأسها على كتفه. «يا له من يوم. كان أفضل يوم، الأفضل، أليس كذلك؟».

سحب تشارلز ذراعه ببطء. أحسست بها تنزلق من وراء عنقي، وكتفي، تنسحب بعناية، حتى ما عدنا نتلامس. أحسست بالمساحة بيننا، نسمة الهواء العليل تلك، كما خط النار يفصل دولتين عدوّتين. كانت حلمتي تؤلمني، ظلال ألم.

سألتني وهي تبتسم: «هل كل شيء على ما يرام؟ ماذا يجري هنا؟».

نظر تشارلز إليَّ وإن كنت ممن يعتقد بأنّني على درجة من الثمالة تخوّلني أن أفهم معنى نظرة ما، فإليك هذا: كانت نظرة تفرض عليّ التزام الصمت.

قلت، وأنا أبتعد بضع سنتمترات، إلى طرف المقعد، بعيدًا عنهما وعن حبهما، «لا شيء، لا شيء أبدًا».

تلك كانت الكذبة الثانية التي أقولها لمارني.

كما بوسعك الملاحظة، لم أكن أملك الخيار. ماذا كان بإمكاني أن أقول لها؟ لو كنت صريحة، لكانت أُجبرت على الاختيار بيننا. ومع ذلك، كنت مصرّة على البقاء بجانبها، مهما كلّف الأمر. وفي ذلك الوقت، خلت أن التلاعب بالحقيقة كان من شأنه أن يجعلها سعيدة، ويحافظ على سعادتها ويحمي جذورنا.

هذه هي الحقيقة المطلقة. ذلك اليوم لم يغيّر مشاعري تجاه تشارلز. كنت أكرهه منذ سنوات خلت، وذاك اليوم لم يغير شيئًا.

هل يصعب القول إن حبهما كان أكثر حب عدوانية وصرامة وبغضًا شهدته في حياتي؟ يصعب القول، أنا أعلم هذا. لكن حبهما أثار اشمئزازي. كرهت وجهه؛ تلك الابتسامة المتكلّفة التي ترتسم أعلى شفتيه، والطريقة التي ينفخ بها صدره كلما يتنفّس، والطريقة التي يطرق بها أصابعه على الطاولة كما لو كان يقول، *أنت تشعرينني بالملل*. لقد كرهت الإحساس بيده على بشرتي من خلال النسيج الواهي، لكن ليس بقدر ما كرهت كل وجه آخر من أوجه وجوده.

لكم أحببت أن أمحوه من حياتي. لا بد من أن أحاذر وأنا أقول ذلك الآن، أعلم هذا، لأن الأمر قد يبدو وكأنه مدبَّر. ما عنيته هو أنّني أرغب لو أن حيواتنا لم تملك ما هو مشترك بينها، لو أن حب حياته لم يخط فصولًا من حياتي، لو أن حيواتنا تواجدت فعلًا في الوقت عينه، إنما لم تتداخل يومًا.

لكن هل أندم على وفاته؟ كلا. لا أندم.

لست نادمة على الإطلاق.

الكذبة الثالثة

الفصل العاشر

قلت لها إن لا شيء حصل، لا شيء حصل.

واليوم، أكثر من أي وقت مضى، يبدو الأمر منطقيًا، جزءًا لا يتجزأ من القصة، جزءًا لا يتجزأ من قصتك. لست أتكلّم هنا على الدافع -أرجو محاولة عدم إساءة فهم ما أقول- لكن عندما يحدث أمر ما، أمر غير متوقَّع، أمر مريع، فإن الأحداث التي تقود إلى تلك اللحظة بالذات تصطبغ بصبغة مختلفة.

ثمّة شخص واحد آخر، شخص آخر والآن أنت، علم ما حصل ذاك المساء. أخبرتها في اليوم التالي، قبل أن أخشى القول إن شيئًا قد حصل بيني وبين تشارلز غير الـ«لا شيء».

في الصبيحة التالية للزفاف، كنتُ مستلقية في السرير، أدّعي أنّني لا أعاني صداعًا، ولست يائسة للحصول على كوب ماء، ولا أشعر بحاجة ملحّة للتوجّه إلى المرحاض، وأنّني على أفضل حال، عندما قرع جرس الباب.

كانت الستائر مسدلة لكن الشمس تمكّنت من التسلّل عبر الزوايا، في خطوط رفيعة بيض تعكس خيوطًا من الغبار. رحت أفكّر أن عليّ أن أكنس الغبار، وربّما أمسح الأرض، ومع ذلك كنت أعلم أنّني لن آتي بأي حركة. كانت الفوضى تعمّ المكان -الكتب والمجلّات مبعثرة أينما كان-

لكنّني كنت مخمورة متعبة لا أقوى على الاهتمام بالمنزل. وكانت درف خزانتي مفتوحة على مصراعيها والملابس تقع أرضًا، كميات لا تعَدّ ولا تحصى من سراويل الجينز والسراويل القصيرة والقمصان. وكان كرسي خشبي متهالك يرتكز في الزاوية أمام النافذة، وقد هاله ما تراكم عليه من كوم ملابس نظيفة وملاءات وفوقها كلّها، المشد الذي كنت أرتديه الليلة السابقة. أما الفستان، فكان معلّقًا وراء باب غرفتي، وبقع داكنة تلطّخ منطقة الإبطين، وبقع أخرى أفتح لونًا -ربّما من الشمبانيا- قد غيّرت لون الجزء السفلي منه. كان الهواء في الغرفة سميكًا وعفنًا، مثقلًا برائحة النوم والعرق. لا شك في أن الأمر مقزّز لا يمكن احتماله، ومع ذلك، بدت لي المساحة مألوفة، فوضى مألوفة، رائحة مألوفة.

تيبّست في مكاني، كما لو أن صوت الملاءات قد يتسرّب عبر باب الغرفة، مرورًا بالرواق القصير إلى الممرّ خارج شقتي.

رنّ الجرس مرة أخرى.

ثم سمعت طرقًا -ثلاث مرات- وراح الباب يهتزّ بإطاره.

«جاين؟».

تعرّفت إلى الصوت على الفور. كانت إيما، أختي، التي تصغرني ببضع سنوات والتي تتفوّق على مارني في كونها النقيض المطلق لي. فلو كنت أنا غاية في الظلامية ومارني غاية في النور، فإيما مزيج كلّيّ من الاثنين معًا. فهي لا تتميّز بأفتح لون بشرة وأغمق لون شعر وحسب، لكنها أيضًا قد تصل إلى أعلى مرتبة وتهبط إلى أسفل درك، وتكشف عن أعلى مستوى من الهشاشة في الوقت الذي تبدو فيه لا تقهر، ضعيفة خائفة، ومع ذلك شجاعة مغوارة، مكسورة بطرق عدّة ولا تستلم في آن.

رنّ جرس الباب للمرّة الثالثة. ثبّتت يدها على الجرس ثوانٍ عدّة، حتى لكأن الشقّة بأكملها دخلت ورشة حفر.

«أعلم أنكِ في الداخل»، راحت تصرخ.

بقيت متدثّرة تحت ملاءاتي، أرفض الحراك.

«أحضرت الفطور»، صرخت مجدّدًا.

ارتفعت نبرة صوتها بنهاية جملتها وراحت تغنّي كلمة «فطور». كانت تدرك جيّدًا أنها تكشف أهم أوراقها، فتلعب بأص القبة، وكانت تعلم أنّني أعلم، أيضًا.

في أيام الأسبوع، كان فطوري المفضّل عبارة عن وعاء من الحبوب. وكنت أميل إلى رقائق الشوفان التي تبدو بشكلها وطعمها كما الورق المقوّى المعاد تدويره والعائم في حليب كامل الدسم كثيف كما الكريما. الغريب أنه كان يحتوي على كمّيات سكّر أقلّ من الحليب شبه المقشود. كنت قد جرّبته لأول مرة قبل بضع سنوات، مباشرة بعد وفاة زوجي، عندما كنت أتناول حِمية خالية من السكر، في محاولة لأن أصبح نحيفة جدًّا، شبه مضمحلّة ككائن بشري. وقد كان ذلك خطأ جسيمًا. إذ لا قرار حكيمًا مهما كان صغيرًا يُتّخذ غداة خسارة بهذا الحجم هو بالقرار الصائب. وهكذا سرعان ما نسيت الحلول الوسط الأخرى -مثل الأرز البني وإيقاف عصير الفواكه، وإعداد الكعك من الشمندر.

لكن في عطل نهاية الأسبوع، لطالما سعيت لتناول أصناف تحتوي على سكر.

نادت إيما: «هل تدغدغ رائحة الكرواسان أنفك؟ طازجة من الفرن لم يمضِ على خبزها دقائق. شهيّة، شهيّة».

توقّفَت قليلًا، تحاول أن تنصت لوقع خطواتي. تصوّرتها واقفة على السجاد الرمادي المتهالك، تحت الأنوار الصفر المشعّة، تنقل وزنها من ساق إلى أخرى، وقد عيل صبرها، وبدأ الإحباط يتملّكها ويثيرها تجاهلي لها.

صرخت مرّة أخرى: «هيا يا جاين، لست أملك ترف النهار كله».

نهضتُ جالسة، ومرّرت قدميَّ من جانب الفرشة نزولًا إلى خفّيَّ. كنت أحبّها -أحبّها بحق- لكن لم تكن تلتزم أي حدود. لم تكن تعتبر

أن وقوفها عند بابي في الصباح، من دون سابق إنذار، تجتاحني بقرعها وطرقها وصراخها هو أمر غير طبيعي. لأن الحياة لطالما غمرتنا معًا: من التحدّيات، إلى الصراعات، والتفاصيل اليومية.

مع أن ذلك قد لا يبدو صائبًا. فمن الأدقّ القول إن حياتها قد دلفت بشكل متواصل في حياتي. كنت الإناء الذي يستوعب مخاوفها. كنت الأذن التي تصغي إليها، والكتف الذي تستند عليه، واليد التي تمسكها. كانت تلقي بثقل أعبائها عليّ حتى تشعر بأنها بحال أفضل. عندئذ، أخفّف من روعها وأمنحها قوة كانت بأمسّ الحاجة إليها.

لطالما كان الوضع على هذا المنوال. كنت أنا أعاني نقصًا مدقِعًا في الحب، وكانت هي تعاني فرطًا مبالغًا في الحب، وقد يفاجئك معرفة أن كلا الأمرين متساويان، يصعب تحمّلهما. فلطالما كانت تبحث عن مساحة لها، وقد شعرت بالاختناق من كونها البنت المفضّلة. أما أنا، فقد أصبحت حليفتها، ملاذها الآمن.

كانت تحتاجني. لم أكن أعلم في تلك اللحظة أنّني كنت أحتاجها أيضًا.

صرخت: «هل ستتحرّكين أم ماذا؟ لن آكلها كلها».

سمعتها تضحك. كانت فكاهتها منكّهة ببعض الخبث. ولا تزال تمتلك القدرة على إصابتي بالصدمة، حتى عندما تتآكلني أفكارها ويجتاحني خبثها وتثقلني مصائبها.

ارتديت مبذلي وربطت زناره حول خصري. كان أرجواني اللون باليًا، يتجمّع نسيجه في منطقة الأكمام حيث انسكب عليه سائل ما. كان مبذل جوناثان، لذلك فهو كبير فضفاض لا يناسب حجمي. فدرزة الكتفين كانت تستقر على بعد سنتمترات من ذراعي وتصل حاشيته إلى ما تحت ركبتيّ، فتكاد تبلغ كاحليّ. كان يرتديه كلما استيقظ باكرًا في عطلة نهاية الأسبوع ليعدّ لي الفطور.

فتحت الباب الخارجي. كانت ترتدي بلوزة زرقاء اللون سميكة وسروال جينز فضفاضًا يصل إلى فوق كاحلها. وكان جورباها الأبيضان يبدوان وكأنهما يعودان لطفلة في المدرسة الابتدائية، سميكان برباط مطاطي أعلاهما يتلاءمان مع حافة حذاءيها الرياضيين الأبيضين. وقد قصّت شعرها قصيرًا يبرز خط فكيها وينزلق إلى ذقنها البارز.

قالت إيما: «أخيرًا! تبدين بحالة مزرية».

استدرت لأنظر إلى نفسي في المرآة الصغيرة المعلّقة بواسطة مسمار على جدار الرواق. لم أكن قد أزلت ماكياج الليلة السابقة. كانت عيناي محاطتين بهالات سود، وأحمر شفتيَّ قد بلغ دوائر فمي كلّها.

تجاهلت مظهري. «كانت ليلة جيّدة».

«جيّدة؟ إنه زفاف أفضل صديقة لك وجل ما تستطيعين قوله هو جيّدة؟ هل هذا كل ما في الأمر؟».

أعطتني كيسًا ورقيًّا فيه عدد من المعجنات. استرقت النظر إلى داخله: كرواسان بالزبدة وأخرى بالشوكولا.

«هذا لك»، قالت.

ثم توجّهت إلى الأريكة وتربّعت بين الوسائد، وقد وضعت ساقيها تحتها، تغرق في الأثاث، كما لو أنها في منزلها. سكبت لنفسي كوب عصير ليمون من البراد.

«كانت ليلة عظيمة، فعلًا ليلة عظيمة. هل هذا أفضل؟»، صحّحت قولي.

همهمت: «آه، أسوأ في الواقع، أنت لا تبلين حسنًا على الإطلاق. أخبريني شيئًا مثيرًا للاهتمام. هل من مشكلات؟ أي خناقات؟ من ضاجَعَ وصيفة الشرف؟»

«لم يضاجع أحد وصيفة الشرف، ولا خناقات، على حد علمي».

«هل أحسن تشارلز إذًا صنيعًا وتصرّفًا؟ ألم يتصرّف النذل على حقيقته؟».

«لم يكن سيئًا. ما خلا ما حدث في نهاية الأمسية».

كانت شقّتي محاطة بشقق أخرى من كل الجوانب إلا جانب واحد، لذلك كانت الحرارة دائمًا مرتفعة. وكلما استقبلت ضيوفًا –وهو صراحة أمر نادر– كنت أراقب كيف يبدأون تدريجيًا بنزع ثيابهم في معرض زيارتهم. في البداية، يتخلّون عن المعطف والسترة، ثم يحين دور الحذاء والقميص الصوفي، لينتهي بهم المطاف بلا جوارب.

ولم تكن إيما مختلفة عن ضيوفي. لكنّني صدمت بما رأيت ذاك النهار.

رفعت سترتها فوق رأسها. كانت عظام كتفيها ناتئة تكاد تخرج من لحم كتفيها. كما برزت عظام الترقوة، لتضغط على جلدها وتمدّده، بحيث يبدو رقيقًا جدًّا، شبه شفّاف. أما ذراعاها العلويتان، فهزيلتين، كأجنحة طير، من جلد وعظم بلا دهون على الإطلاق.

أخذتُ نفسًا عميقًا وتنهّدت، فنظرت إيما إلى الأعلى بعينيها الشاخصتين الحذرتين.

قالت وهي تقرأ المخاوف التي بدأت ترتسم على تجاعيد جبهتي وبين حاجبَيَّ. «لا تبدأي، لست مهتمة».

«إيم...»، قلت، لكنها نظرت إليّ بشراسة من غير أن يرمش لها جفن، فأيقنتُ أن ليس ثمّة ما يقال هنا.

كانت إيما في الثانية عشرة من عمرها عندما وقعت صريعة اهتمامنا. لا أذكر أولى أيام مرضها. فقد كنت منهمكة في مراجعة دروسي، أركّز على أمور لم تهمّني يومًا –من المعادلات التربيعية، إلى عمليةالتنفس، ومساحات الأنهار– حتى عجزت عن التنبه إلى تدهور الأمر الوحيد الذي كان يهمني أكثر من أي شيء آخر.

كان شهر يوليو على ما أعتقد. كنا أنا وإيما قد أنهينا الفصل الدراسي قبل الصيف –إن لم تخنّي الذاكرة، أعتقد أن مارني كانت في جنوب فرنسا–

وكان أهلنا منهمكَين، كما كانت الحال دائمًا وأبدًا، يعاجلانزواجهما بالمطرقة والسندان، فينهشان بعضهما بعضًا بالإهانات والنظرات. وكان الطقس حارًّا، أكثر من المعتاد في إنكلترا، مع تخطّي الحرارة الدرجات الثلاثين. توجّهنا إلى حوض السباحة المفتوح وحاولت أن أحشر مناشفنا بين مئات مناشف أخرى، تعود لعائلات تصطحب معها خمسة أطفال يغوصون ويقفزون ويركضون فوق العشب، ولنساء ممتلئات، ولأزواج متقدّمين في السن يجلسون مع صحفهم في كراسٍ قابلة للثني.

أمّا أنا، فكنت أرتدي زي السباحة وأتعرّق تحت أشعة الشمس، بينما ترتفع الرطوبة بين ثديي، وتتساقط القطرات فوق شفتي العليا. في المقابل، كانت إيما ترتدي سروالًا قصيرًا يبلغ حد ركبتها، وبلوزة قطنية وكانت ترتعش. طلبت منها أن تذهب إلى حوض السباحة معي، لكنها رفضت: راحت تتمتم شيئًا حول أغراضنا الثمينة، لكننا لم نكن نملك أيًا من هذا، ما خلا المناشف والملابس وكتاب لكل منا. بدأت بالطبع أتذمّر، لأنّني الأخت الكبرى، وهذا من حقّي، وفي النهاية أذعنَت لي. أذكر أنّها عندما رفعت بلوزتها فوق رأسها تكشّف كتفاها وعظام الترقوة التي كانت أسوأ من الآن بكثير، وكأنها تسعى للهروب من جسدها، فتدفع بجلدها الرقيق الفاتح. ثم نزعت السروال فسقط عن فخذيها وساقيها، لتظهر ساقان بلا أي شكل، خطان مستقيمان من العظام النحيلة تغطّيهما طبقة رقيقة من اللحم، بلا أي مضمون. أخذت تحدّق بي، وكأنها تتحدّاني أن أرد على جسدها النحيل المريع، فلم أنطق بكلمة.

في الأشهر القليلة التي تلت، رحتُ أجبرها على تناول الطعام الذي كانت تأكله طورًا وترميه طورًا آخر. إلى أن شعرت بأنها بحال أفضل، لبرهة من الزمن. ثم شعرت بأنها بحال أسوأ. وتتالت السنوات التالية فصولًا على هذا النحو، فلم تكن يومًا بأفضل حال، ولا كانت بأسوأ حال، إلى أن غادرتُ المنزل لأرتاد الجامعة عندما كانت في الرابعة

عشرة من عمرها. ثم شهدت عددًا قليلًا جدًا من الطلعات وعددًا أكثر بكثير من النزلات. وقد بلغ الأمر حدًّا لم يعد بمقدور أهلي حتى تجاهله بينما يجلسون معًا إلى مائدة الطعام، فأُدخلت إيما إلى المستشفى، ثم أُخرجت، ثم أُدخلت مجدّدًا.

أدرك أن تلك الأحداث قد أثّرت عليها، وكأنّها شخصيّة خاصّة جدًا في قصّة خاصّة جدًّا. لكن، لو التقيت بإيما -أتمنّى لو التقيت بها؛ لكنت أحببتها، على ما أعتقد- فلكنت أيقنت أنها ليست تلك الشخصية على الإطلاق. لم تكن إيما يومًا ضحية. نعم، كانت عليلة، ولفترة طويلة جدًّا، لكن ذلك لا يتعدّى كونه جزءًا صغيرًا جدًّا من قصّة حياتها.

فمرضها متجذِّر في مكان ما في داخلها، داء غريب لم تستطع يومًا السيطرة عليه، متغلغل في عقلها وفي عظامها وفي كل نسيج من أنسجة وجودها. كان جزءًا أساسيًا من حياتها، لكن لا بد من النظر إلى الأمر وكأنه مسار لم يحدث أن اختارته، ولم تُرِده، مع أنها تعلّمت الإبحار عبره بأسلوبها الخاص. حتى إنّها اختارت ألّا تخضع لمزيد من العلاج، وبذلتُ أنا أقصى ما في وسعي كي أحترم هذا القرار.

قالت وهي تتنحنح في جلستها، وتخبّئ نفسها وراء ثيابها: «توقّفي عن النظر إليّ هكذا، كما لو أنَّكِ رأيتِ شبحًا».

رفعت حاجبًا؛ لم أستطع تمالك نفسي.

لسنوات خلت -تقريبًا كامل السنوات التي قضيتها في الجامعة- كانت تراودني كوابيس حول جسد إيما. فكنت أحلم بشيء آخر، وفي منتصف أيّ كان ما أحلم به - من عُطَلٍ إلى محاضرات أو حتى مارني- أكتشف جسد إيما الميت، وأطرافها المتصلّبة المزرقّة، وعينيها الجاحظتين المفتوحتين. فأستيقظ لاهثة أتعرّق وأرتجف تحت ملاءات باردة رطبة.

قالت وهي تعيد البلوزة فوق رأسها. «بالله عليكِ، أنا بخير، أنا بخير».

ولم يكن لديّ خيار سوى أن أترك الأمور تسير كما هي. لم أكن لأربح أي شيء من جدال عقيم، بل يمكن أن أخسر كل ما أملك.

قالت وهي تربّت على المساحة الفارغة من الأريكة بجانبها: «تشارلز، كنت تقولين».

جلست أستعيد أحداث الليلة الماضية. أخبرتها بما تفوّه به، كما أخبرتها عن زجاجات الشمبانيا التي لا تُحصى، وتلك الممتلئة التي لم تفرغ. ثم تكلّمت عن ذراعه الملتفة حول كتفيَّ، ونسيج قميصه الأبيض يلامس عنقي. أغمضت عينيَّ؛ كنت على يقين أنّني أحمرّ خجلًا بينما أصف راحة يده تقع على نهدي، وأنامله تصل حد حلمتي. شرحت المساحة التي امتدت بيننا، وأبيض فستان مارني بينما كانت تقترب ثم تجلس بالقرب منا، وذاك الإحساس بأن شيئًا ما قد عاد سريعًا إلى صندوقه.

جلست إيما شاخصة عينيها، فاغرة فاهها، ثم همست وهي تسأل: «وماذا قالت؟».

«لا شيء، لم تقل شيئًا. لم ترَ أي شيء».

«لم ترَ أي شيء على الإطلاق؟». أخذت إيما تنظر إلى الوسادة التي كانت تشدّها إلى صدرها.

سألتني: «هل أنتِ متأكدة؟ هل أنت متأكدة؟ هل حصل الأمر تمامًا كما وصفتِه؟ ألم يكن ثملًا ليس إلّا، لا يقوى على التحكّم بأطرافه فسقطت يده عليك من غير أن يقصد ذلك؟».

رفعت كتفيَّ مجيبة: «ربّما».

«مع أنه ليس من عادات تشارلز أن يقوم بأي شي لا يقصده، أليس كذلك؟ هذا ليس من عادته، أليس كذلك؟».

ابتسمتُ. لم تلتقِ إيما يومًا بتشارلز. لذا فإن ما تعرفه عنه هو ما سمعته مني.

وهنا أمر، فكّرتُ فيه مرارًا وتكرارًا خلال الأشهر القليلة الماضية. لم تكن إيما تعرف تشارلز. ولم تكن تملك أي سبب لتشكّك في تجربتي، ولا أي سبب كي لا تصدّق أنه منحرف ينتظر أن ينقضَّ على وصيفة الشرف في حفل زفافه أمام أعين عروسه الجميلة. ومع ذلك، كان رد إيما التلقائي أن تسائل ليس طباع تشارلز بل طريقة سردي للأحداث. ماذا يعني ذلك؟ إلامَ يؤشّر؟ هل إلى قدرتي على قول الحقيقة؟ هل إلى قدرتي على قراءة الوضع بدقة؟

هل يعني ذلك، في الواقع، أن تشارلز بريء من أي فعل مشين في تلك الليلة؟ وأن خطأ الحكم هو خطأي، خطأي وحدي؟ لا أعتقد ذلك، لكن الأمر يستحق أخذه بعين الاعتبار. هذه في النهاية وجهة نظري عن الحقيقة. وتلك بالضرورة ليست *الحقيقة*.

ثم سألتني،: «هل ستخبرين مارني أن زوجها الجديد تحرّش بك؟ لأنّني أعتقد حقًّا أن تلك الفكرة سيئة جدًّا».

هززت رأسي نفيًا.

ثم واصلت القول، «ومع ذلك، أعتقد بأن الأمر مشين. بالطبع. عجيب». ثم أدارت الوسادة أمام صدرها، وراحت تضغط عليها من زواياها، ثم تفتلها فتلًا كما الدولاب. وسألتني: «هل كنت خائفة؟».

«من تشارلز؟».

«نعم. أعني هل أخافك الأمر؟».

أجبتها تلقائيًا: «كلا، لا، لم أخف».

وما إن قلت هذه الكلمات القليلة، حتى أدركت أن الواقع كان عكس ذلك. لقد خفت. لكنّني لم أصَب بالذعر. لم يكن الأمر على هذا النحو. إنما كان نوعًا من التوتّر، وعدم الارتياح، وفجأة إدراكي لذاتي ككائن صغير الحجم في حضرة كائن آخر ضخم جامح. وكان شيئًا أكثر من

الخوف البسيط الذي غالبًا ما أشعر به في حالات لا أستطيع التنبّؤ بها. كان أكثر من السير مشيًا على الأقدام إلى المنزل من محطة القطار في وقت متأخّر من الليل، ووقع خطى رجل تلاحقني، وأكثر من شخص يقف قريبًا جدًّا مني عند تقاطع مشاة، وأكثر من مجموعة من الأشخاص ينحشرون على بعضهم البعض في نفق أمام خط سكة الحديد. لأن الذي حدث كان محسوبًا. كان لديه هدفٌ، -وجدوى- ولو كان الهدف منه أن يجعلني أجزع، فقد نجح في ذلك.

«كيف حال أمّي»، سألتها.

نظرت إيما إلى الأرض وراحت تداعب خيط صوف عالقٍ يتدلى من بلوزتها. أجابت: «لم أذهب، لا... لم أستطع».

زفرت زفرة طويلة بطيئة، وأنا أحاول ألا أكشف تململي. كنت قد شرحت مرّات كثيرة لأمي -حتى أنّني دوّنت ذلك على روزنامتها- أنّني لن آتي ذاك السبت، بسبب حفل الزفاف، وأن إيما ستحلّ مكاني.

قالت: «لا تلوميني، أرجوك لا تفعلي. لقد اتّصلت. وأخبرت عاملة الهاتف. أنا لم أستطع ببساطة أن أذهب. فهمتِ؟ لم أستطع».

عندما كنا لا نزال صغارًا في السن، أطفالًا، كانت أمّي وأختي قريبتين من بعضهما بشكل لا يصدَّق. وكان الأمر يبدو بالنسبة لي مثيرًا للاشمئزاز، أن ينصهر المرء كلّيًا في شخص آخر. ومع ذلك، بينما كانت إيما تعاني أحيانًا عندما تشعر بالاختناق -فتهرب قليلًا لتقضي الوقت معي في مكان آخر من المنزل- كانت تحتاج لأمي في أمور مختلفة: عاطفيًا، وعمليًا، وحيث تجد الراحة، حين تبحث عن رفقة.

كانت، تمامًا كما أمي، كثيرة القلق، ولا تشعر بالراحة في حضرة أناسٍ جدد. فكانت تختبئ وراء أمي في أماكن غريبة، تنظر من بين فخذيها. وفي المنزل، كانت تتبع أمي إلى الغرف، تطلب أن تساعدها في المطبخ، وفي أعمال التنظيف، وفي كل ما تفعله أمي. وعند المساء،

كانت تحبّ أن تداعبها أمي وتقرأ لها وتساعدها في حمّامها. كانت إيما بحاجة لأمي، وكانت أمي بحاجة لمن يحتاج إليها.

لكن عندما احتاجت إيمّا أمي بحقّ -عندما احتاجت للدعم الفعلي والحب والقوة- لم تلقَ شيئًا. بل انزلقت مرساتها، وقد ضاعت عند أول امتحان حاجة حقيقي. أنظر إلى الخلف الآن، فأدرك أن أمي كانت بكل بساطة تشعر بالخوف. لم تكن يومًا الأم المثالية، ولا بد من أنها كانت تعي ما يجري وكم الأمر يصعب -وربّما يستحيل- حلّه. لذا تجاهلته، مدّعية أن ابنتها بأفضل حال، فتجدها ترمي الطعام في القمامة من غير أن تطرح أي سؤال، وتغسل الشوكة والسكين من غير أن يكونا مستعملَين.

وازدادت حاجة إيما واتّسع تجاهل أمي، إلى أن بلغت إيما من الغضب والعزلة، وأمي من الخوف على مستقبلها، حتى بات خط العودة ضربًا من ضروب الإعجاز. لم تستطع إيما أن تسامحها يومًا. فغادرت المنزل ما إن ساعدتها صحّتها على ذلك.

كنت أعتقد أنها تلوم أمي على مرضها: ليس على كيفية بداية المرض، لكن على سبب استمراريته. وكنت أعتقد بأن الرابط بينهما قد تفكّك، وأن ما بينهما في نهاية المطاف، ليس حبًّا، بل دمٌ، خيط واحد رفيع يمتد بينهما لا يمكن قطعه. لكنّني كنت على خطأ. فثمّة خيوط أخرى، خيوط أكثر سماكة، تبقي أمي وأختي معًا، خيوط لم أستطع ببساطة رؤيتها.

قالت إيما: «رجاء، جاين، هيا، الآن. لقد حاولت بالفعل».

لم أجبها. أردت أن أطلب منها أن تفكّر كيف تؤثّر أفعالها على الناس الآخرين: أن أشرح أن قرارها جعلني أشعر بالذنب لعدم ذهابي بنفسي، وأن أمّنا لا بد من أنها قد شعرت بوحدة قاتلة. لكن إيما كانت تصارع كَمًّا من المشاعر حتى لاستحال عليها أن تفاوض العالم كله من غير منظورها هي.

عوضًا عن ذلك، سألتها عن مشاريعها الطّوعيّة، وشقّتها وكتاب

حول عائلة مختلّة وظيفيًا كنت قد نصحتها بقراءته، لكنها لم تفعل بعد. استحمّيت وارتديت بيجاما نظيفة ثم قضينا النهار معًا على الأريكة، نشاهد أقراص الـ«دي في دي» التي كانت ملكًا لوالدي في ما مضى -أفلام حركة مع أبطال ذكور ونساء عاجزات مضحكات- أخذتها معي عندما ترك البيت. كنا قد شاهدناها معًا، بينما كان يضعني في حضنه، فأتمجلس هناك وأنام ورأسي على صدره، بينما أمي تثور في مكان آخر.

أخذت إيما عددًا من الأقراص عندما غادرت إلى منزلها في ذلك المساء. قالت إن تلك الأقراص هي ملكها، وكنت أعرف جيدًا أن هذه ليست الحقيقة، لكنّني لم أمانع. ثمّة أمور كثيرة لم يكن بوسعنا الكلام عنها، أو بوحها، لذلك بدا موضوع الـ«دي في دي» بالمقارنة أمرًا جد ثانوي ليس أسهل من تجاوزه. رحت أنظر إليها بينما تغادر وقد وضعَتها في حقيبة ظهرها، وأسعى جاهدة للتركيز على قصة شعرها الحادّة فوق الحقيبة، من غير أن يسقط نظري على ساقين كعيدان الكبريت يطلّان من تحتها.

الفصل الحادي عشر

سافر مارني وتشارلز يوم الاثنين الذي تلا زفافهما إلى إيطاليا لقضاء شهر عسل يمتد على نحو أسبوعين ونصف. وكان تشارلز قد أشرف على كل التفاصيل: من تحديد مسارهما ضمن البلاد، إلى حجز الرحلات، وحجز أفخم الغرف في أفخر الفنادق. أراد أن يكون الأمر مفاجأة، بحسب ما قال، لذلك أرهقني بأدق التفاصيل وأنهك قواي بشغفه المتواصل في الأشهر التي سبقت. وقد استأجر سيّارة بلونها المفضّل، سيّارة كلاسيكية قابلة للكشف. كما اختار فنادق مزيّنة بالمخمل الفخم والثريات المزخرفة، بدل أن يستقرّ رأيه على الألوان التقليدية التي يفضّلها هو. ووضع مسارًا للمناطق الشهيرة بأطباقها، أماكن قدّر أنها ستستمتع بها.

«ما رأيك لو حضرتِ صف طبخ؟». سألني في وقت سابق هذا العام.

«ما رأيكِ بهذا؟». كان يسأل من حين لآخر بينما يتصفّح الموقع الإلكتروني لمطعم جديد فاخر. «هل تعتقدين أنها تحبّ هذا النوع من الطعام؟ وماذا عن المطلّ؟».

« همس ذات مساء بينما كانت لا تزال في المطبخ. «ما رأيكِ بروما؟ هل سبق أن ذهبَت إليها من قبل؟».

لم تزر روما، فأخبرته ذلك، وبنتيجة تلك التبادلات التي لا نهاية لها، أصبحت على اطلاع كامل بمسارهما. وهكذا، ذلك الصباح، تخيّلتهما يصلان إلى المطار، وتحديدًا إلى قاعة المغادرة، فيجلسان جنبًا إلى جنب في رحلتهما، ثم ينتظران لاستلام حقائبهما. كان بوسعي

أن أراهما يضحكان معًا بينما يكدّسان أغراضهما في صندوق سيارتهما الصغير، وكيف سيضع يده على فخذها طوال الطريق. كما أستطيع أن أرى دخولهما إلى أوّل فندق، والأريكة الأرجوانية اللون في غرفتهما الكبيرة، والمسبح الشاسع الذي تحيط به الأراجيح ويشرف على كروم العنب. كنت على دراية بكل خطوة سيخطوانها فشعرت بألم يعتصر معدتي طوال المدة، فأدركت عندئذ أنّني أشعر بالغيرة. كنت أحبّها وأريدها أن تستمتع بأجمل شهر عسل ومع ذلك، كنت أتمنّى لو أستطيع أن أكون جزءًا من تلك المغامرة.

لقد سبق وسافرنا معًا، مرة أو مرتين، فزرنا وجهات ساحلية بخسة الثمن، حيث كنا نُفرِط في تناول الكوكتيلات المشبّعة بالسكّريات مع كل رشفة، وكنت أكسب اللون البرونزي تحت أشعة الشمس بينما تزداد هي في المقابل شحوبًا. كما تقاسمنا سريرًا واحدًا في الليل من دون أن نعير الأمر أي أهمية، وأمسكنا يد بعضنا البعض في رحلات مضطربة، وعبرنا نقطة التدقيق بجوازات السفر معًا. لكن الأمر لا يتوقّف عند هذا الحد. لقد ضحكنا معًا وثرثرنا معًا واعترفنا بأسرارنا لأحدنا الآخر. وقد تحوّلنا شخصًا واحدًا، نحتفظ بنكتنا الخاصة، ونتشارك الحقائب ونشتري أساور لمّاعة لا تكلّف مالًا، إنما تعني كثيرًا.

لكنّنا لم نسافر معًا مذ التقت بتشارلز.

وكل هذه الأمور التي تتشاركها الآن معه: من السرير، إلى الحقيبة، وأسرارها.

فكرت بهما طوال فترة الأسبوعين، بشكل متقطّع، لكن في كل مرة، كان الألم يعتصر قلبي. كنت أشعر بأن جذورنا تتراخى وكان الأمر يبدو لي صادمًا غير مقبول لمجرد أنّني لم أتخيّل الأمر ممكنًا من قبل.

اتصلت بي مارني في وقت متأخر في المساء، بعد أن وصلت إلى منزلها من شهر العسل، وكدت أغرق في نومي. أرادت أن تسمع رأيي

بحفل زفافها، وبالأمور التي كانت بارزة، وباللحظات التي ما زلت أتذكّرها. أخبرتها عن إيلا، ابنة أخيها البالغة ست سنوات، التي تخلّت عن ثيابها واكتفت بالجوارب والسروال بنهاية الرقصة الأولى، وكانت قطرات العرق تتلألأ على جبينها بينما راحت تقفز وتغزل. وأخبرتها عن أخيها، الذي سقط مخمورًا على الطاولة خلال فترة إلقاء الخطابات. وأخبرتها عن موثِّق الزيجات الذي علق في زحمة السير وتأخّر فأخذ يرسل رسائل مذعورة قبل بداية الحفل.

أخذت مارني تضحك عندما أخبرتها أن برج الجبن قد انهار بعد لحظات من قطعه. تنهّدت، فكما لو رأيتها تبتسم، عندما أخبرتها أن أهلها لم ينقطعا عن الرقص، ورأس أمها يستريح على كتف أبيها، حتى بعد أن أنهت الفرقة العزف، ونظّف العمال القاعة من حولهما.

«كم جميل أن أسمع هذه الأمور»، قالت لي. «أشعر بأنه فاتني الكثير في هذا اليوم. لقد خطّطت لأدقّ التفاصيل، لكن لم يسعني أن أكون إلا في مكان واحد. أنا بانتظار باقي الصور. لقد حصلنا على بعض منها. حوالى العشر، بعضها من أفضل الصور، وثمّة صور جميلة لك. هل ستأتين يوم الجمعة؟ سأريك الصور».

«هلا أرسلت بعضها إليّ؟». سألتها.

كنا نتجمّع في زاوية تحت قنطرة من الورود، وكان كلاهما يقفان، ثم كلّنا معًا، ثم مجموعة مصغّرة من الأهل والأقارب والأصدقاء. وقد طلب منا أن نستعد لنأخذ صورة، ثم نستعد للصورة، ثم تم دفعنا خارج إطار الصورة. لم أدرِ إن كان ثمّة صورة لنا نحن الاثنتين معًا، بمفردنا، لكنّني كنت آمل ذلك.

أجابتني: «طبعًا، سأعيد إرسال الرسالة التي وصلتني بالبريد الإلكتروني. ستضحكين على صورة أهلي».

«خلتهما بحال جيدة، ذلك اليوم»، قلت لها.

فأجابتني، «أعلم. لقد راودتني الفكرة نفسها. مع أنّني اكتشفت -والأمر طبعًا هو كما المعتاد- أنهما كانا في فلورانس في الوقت نفسه الذي كنا فيه هناك. كانت أمي تحضر مؤتمرًا، شيئًا حول الحساسية، وقد رافقها أبي. هل قالا لي؟ طبعًا لا. هل أرادا أن نلتقي؟ أن نتناول طعام الغداء أو العشاء معًا؟ طبعًا لا».

كانت ترى الأسوأ فيهما على الدوام، وتبحث عن المواقف التي تثبت لا مبالاتهما.

«لا أدري إن كان الأمر سيّئًا. لكن لربّما لم يريدا التطفّل؟».

«حسنًا، من الجميل التفكير بالأمر على هذا النحو، لكنّني لا أعتقد ذلك».

تثاءبت، آملة أن يعني ذلك إشارة إلى نهاية الحديث، لكن مارني كانت مصرّة على الاسترسال في الكلام.

أضافت قائلة: «هل تدرين أمرًا؟ أشعر بأنّني مختلفة الآن. هل بوسعي أن أقول 'أكثر حكمة' من غير أن أبدو مثل حقيرة متغطرسة؟ أو ربّما لا؟ لست أكيدة أن بوسعي ذلك».

أجبتها: «كلا، لستُ أكيدة أن بوسعك».

«أشعر وكأنّني قد أصبحت راشدة». ثم توقّفت قليلًا. «كلا، الأمر ليس على هذا النحو. أشعر وكأنّني قد شاركت في عرض عام عن مرحلة البلوغ. وكأنّني أدّعي. هل هذا مفهوم؟».

«ليس كثيرًا»، أجبتها.

«على كل الأحوال، لقد اتصلت لأمر آخر. قرّرنا أن نبيع الشقة. أنت تعلمين. الراشدون وما إلى هنالك».

توقّفَت قليلًا عن الكلام، ولم أنطق أنا.

«لقد تكلّمنا عن الموضوع بينما كنا مسافرَين، ونعتقد أن الأمر صائب».

توقّفت مجددًا.

كانت تختبر كل خطوة، وكأنها تضع قدمًا واحدة على الخشب المكسور لترى إن كان سيتداعى تحت وقع خطواتها. أعلم أنها كانت تتساءل -تسأل بطريقة صامتة- ما إذا كان الأمر مزعجًا بالنسبة لي، إن كان تغيير الروتين سيتسبّب بمشكلة. لقد كانا يردّدان منذ فترة طويلة أنهما يومًا ما سينتقلان إلى خارج حدود المدينة، إلى منزل مع حديقة وممشى وغرف نوم تشرف على الحقول. لم أكن أكيدة إن كانت تحاول قول هذا أيضًا بصمتها.

كانت تحاذر عدم ذكر موضوع المال. فقد كان تشارلز ناجحًا جدًا، وأعني بذلك فاحش الثراء، يعمل في شركة أسهم خاصة، حيث يشتري شركات ويبيعها مقابل تحقيق أرباح. وكانت مارني تعمل أكثر من أي وقت مضى، تكتب عن الطعام وتتكلّم عن الطعام. وقد حصلت مؤخرًا على جهة راعية جديدة، هي شركة تبيع حصرًا السكاكين وكل قطعة بسعرٍ خياليٍّ. ويبدو أنهم شهدوا ارتفاعًا ملحوظًا في المبيعات مذ بدأت تذكرهم في فيديواتها لذلك فاوضت حول اتفاقية أفضل معهم.

في المقابل، لم يسبق أن أحسست أنا أن عملي لا يعنيني كما الآن، حيث إن هدفي الأساسي كان التعامل مع شكاوى العملاء وتسديد أقل مبلغ ممكن من التعويض لهم على إخفاقات شركتنا. كنت بالكاد أستطيع دفع إيجار شقتي. وكانت هي أيضًا تشعر بحساسية الموضوع، وتسعى ألا تجعلني أبدًا أشعر بالدونية.

آه.

نعم.

كلا. أنت على حق.

كنت أحاول قدر الإمكان أن أكون صادقة. ومع ذلك، وبلا أي دهشة، لم يبدُ الأمر طبيعيًا بالنسبة لي. لقد أسأت قليلًا تقييم وضعي.

كنت أملك المال -لا أزال أملك المال- لكنه مخبّأ في مكان آخر.

كان جوناثان -بصفته مصوِّرًا يعمل عملًا حرًّا، ومن دون أي تقديمات من أي شركة، وبما أنه كان صاحب تبصّر وفاعلية- قد حرّر بوليصة تأمين على الحياة. وكنت المستفيد الأول لذا تلقيت أنا الدفعة.

لكنّني لم أستطع -وما زلت لا أستطيع- إنفاق المبلغ. أرادني أن أحصل على المال، ومع ذلك، لا أستطيع أن أفكّر أن حياته قد قدّرت بمبلغ من المال. لأن لا مبلغ من المال يستطيع التعويض عن تلك الخسارة. ولا حتى يقترب من الموضوع. كيف يمكن للمرء أن يقيس الضوء في الرواق عندما يدخل المنزل بعد الظلام؟ كيف يسعه أن يسعّر ابتسامة مألوفة تنتظر في وقت متأخّر عند محطة الباص لكي تعود به إلى السرير؟ ما كلفة استبدال شخص يده تناسب يدك، ودفئه يمنحك دفئًا وطمأنينة، وضحكته تثير فيك السعادة، شخص نسج تفاصيل حياته بكامل إرادته على وقع حياتك؟

لو حاولت ذلك، لو حاولت استخدام الخوارزميات لوضع أرقام لأحبابك، لاكتشفت أن رجلًا من أمثال تشارلز تقدّر قيمته بمبلغ أكبر بكثير من رجل مثل جوناثان. وهذا ما يثبت ما أريد قوله.

كانت إيما تعتقد بأنّني بلهاء. كانت تعتقد بأنّه عليَّ استثمار المال. أرسلت لي عشرات الروابط لعقارات: شقق عصرية وسط المدينة، ومنازل بغرفتي نوم وسطيحة في الضواحي، وحتى شقة مطلّة على البحر على الساحل الجنوبي. كما رتّبت موعدًا لي مع أحد أصدقائها -وهو رجل كانت تطوّعت معه في بنك الطعام، وقد ورث مبلغًا صغيرًا عن زوجته المتوفّاة- حتى نناقش معًا العوائد على الاستثمار وسوق العقارات وعالمًا جديدًا لم أكن أهتم به البتة. قلت لها إنّني لا أريد الخروج في أي موعد، لكنها أصرّت أنه موعدٌ لدواعٍ مالية، فقلت إن لا شيء واردًا من هذا القبيل ورفضت. فذكرَت عندئذٍ عبارة «الجانب

الإيجابي»، ولم نتناول الموضوع مرة أخرى أو نقرّ بأن المال موجود أصلًا.

ومع ذلك لا يزال المال مودَعًا حتى تلك اللحظة في حساب مصرفي.

واصلت مارني: «أعتقد بأنه لأننا أصبحنا الآن زوجًا وزوجة، نشعر بأن الشقّة ربّما لم تعد مناسبة لنا، تفهمين؟ نشعر بأن منزلًا مستقلًّا قد يكون أكثر ملاءمة. أحبّ هذه الشقة، لكن ثمّة حجّة هنا، أليس كذلك، وربّما قد حان الوقت الآن للبدء بالتفكير في الخطوة التالية. مساحة إضافية للتوسّع وما إلى هنالك. ربّما في سبتمبر. أعتقد بأن تلك الفترة تكون مناسبة للبيع».

قلت: «عليك القيام بما ترغبين بفعله، ما ترينه مناسبًا».

أجابت: «أنتِ تبدين مثل تشارلز، كلاكما بالغ الحساسية. يصرّ على أننا تزوّجنا للتو، وأنه لدينا متّسع الوقت للقيام بهذه الأمور، وأن ما من ضغط على الإطلاق. لكنّني أعتقد بأنه يريد القيام بذلك أيضًا، إنما لا يريد أن يضغط. أعتقد بأنه يحبّ فكرة المزيد من المساحة. قد أحضر له كلبًا -أنت تعلمين النوع الذي يحبه-؛ هل هو هاسكي؟ لكن كما يقول، لدينا متّسع من الوقت، والكلاب متعِبة تحتاج لكثير من العناية، أليس كذلك؟».

لم أجبها.

«جاين؟».

أطفأت المصباح بجانب سريري وأغمضت عينيَّ.

قالت: «سحقًا، أنا أعتذر. هل تطرّقت إلى أمر حسّاس؟ ليس لدينا دائمًا متّسع من الوقت. أنا أعلم ذلك. لذلك أنا أفكّر على هذا النحو، بسبب جوناثان. أعرف أن الحياة قد تتغيّر أحيانًا بطريقة غير متوقّعة، وأن خياراتنا قد تنقلب. سحقًا. جاين. أنا آسفة. كنت... جاين؟».

أجبتها: «لا بأس، حقًّا».

أردت أن أخلد للنوم. لم أرِد أن أكمل هذا الحديث.

كنت أرى حياتها تتوسّع بينما حياتي تضيق. لقد أجريت في ما مضى تلك الأحاديث التي تجريها هي الآن -وطرحت على نفسي الأسئلة ذاتها- ورحت أتطلّع إلى حياة قدّمت لي أجوبة.

لطالما أراد جوناثان أن ينتقل للعيش خارج المدينة، في الريف؛ أراد أن يربّي دجاجًا، وأن يمتلك عدد غرف نوم يفوق عدد أولاده، وأن يبني عرزالًا في آخر الحديقة.

«أترين الضباب الدخاني خارج الشقّة؟ حسنًا، لن تشاهدي أيًا من ذلك هناك». كان يقول لي في محاولة لإقناعي.

«هل سمعت هذا؟». كان يهمس، في منتصف الليل، ردًّا على زجاجات تنكسر أو دواليب تصرّ في الشارع خارجًا. «لا تسمعين هذا في الريف».

وكان يتوجّه إلى السوبرماركت، وبينما ينزع الغلاف عن الخضار، وكل واحدة منها موضّبة صحيًا بالبلاستيك، كان يقول: «بإمكاني أن أزرعها بيدي».

وكنت أعلم أنّني في النهاية سأقول له: «حسنًا، فلنقم بذلك».

لكن تلك اللحظة لم تأتِ.

الفصل الثاني عشر

إليك ما يجري. عندما يحسّ المرء بأنه بدأ يفقد السيطرة على أمر ما، قد يغدو من المستحيل أن يفكّر بأي أمر آخر، وينحصر تركيزه كلّه على هذا الأمر عندما كان في أفضل حالٍ. حاولت أن أخلد للنوم، لكنّني لم أجد له سبيلًا. لم أقوَ إلا على العودة بالذاكرة إلى الوراء، والتفتيش في حنايا صداقتنا، والبحث عن لحظات بدت على درجة من الهشاشة.

نشب بيننا خلاف واحد في المدرسة، واحد لا غير. كان خلافًا حول أمر سخيف، جريًا على عادة الخلافات بين الأصدقاء. كانت دائمًا تضغط كبسة الإغفاءة على منبّهها، ما لا يقل عن المرّات الخمس، إلى أن تُصاب بالهلع وتبدأ بالركض فتنهار وصولًا إلى الصف. وكنا شريكتين في كل درس، وصفّ الدراما أول الصفوف صباح الخميس. وكان كلّ نشاط يتطلّب شريكين: فشخص واحد لا يكفي بكل بساطة. ونادرًا ما اعتذرت على وصولها متأخِّرة. في النهاية، فقدت أعصابي. كنت أراها أنانيّة لا تفكّر بي، وتتجاهل كيف يؤثّر سلوكها على الآخرين. قلت لها إنّني قد أعيد النظر بكونها شريكتي. أجابت لا بأس، إن كان هذا ما أريده، وعصفت خارجًا ومشلحها يتطاير وراءها وكتابها لا يزال عالقًا في قبضتها.

دام هذا الخلاف اليوم بأكمله. لم نجلس معًا ومشينا منفصلتَين إلى الصفوف. كانت العدائية بيننا غير مسبوقة. فقد كنا، في العادة، ذلك الشذوذ المتناغم بين نزاعات مراهقة لا تعد ولا تحصى. وقد صدمت معلّمتنا عندما علمت بالوضع فجلست معنا بعد آخر صف، وحلّت

المسألة -بكلمات مثل: المسؤولية والتعاطف- وأصرّت على أن نتوقّف عن التصرّف بطريقة لا واعية ونتعلّم أن نواجه مشكلاتنا كالراشدين.

وهكذا كان. الخلاف الوحيد. سامحنا بعضنا البعض، لكننا لم ننسَ. عوضًا عن ذلك، حملنا ما حصل بيننا نيشانًا على صدرنا، خلافًا واحدًا أوحد في تاريخ صداقة طويلة يستحقّ الاحتفال.

مذاك الحين، لم تشهد علاقتنا أي انتكاسة. انتقلنا إلى مدن منفصلة لمتابعة الدراسة عندما بلغنا الثامنة عشرة من عمرنا، لكن بدا الأمر وكأننا بالكاد انفصلنا، إذ كنا دائمًا نجد سببًا للاتصال، وقصّة نتشاركها، وأمرًا هي وحدها قد تفهمه. والتقينا بعد ثلاث سنوات. وكنا بحال أفضل مما كنا عليه سابقًا، فريق صلب يقف في وجه عالم يبدو مُرْبِكًا.

في السنة الأولى في شقة فوكسهول -ربّما بعد شهر أو اثنين على تعرّفي بجوناثان- قرّرت مارني أن تترك وظيفتها. كانت قد أعدّت كتاب الاستقالة، لكن مديرها، ستيفن، رفض قبوله. وعادت إلى الشقة عند المساء مشوّشة، قانطة، إنما مصرّة على إيجاد حلٍّ. كانت تكره عملها والناس ومديرها على وجه الخصوص، لا سيّما وأنه يخال نفسه لا يقاوم من قبل النساء الشابات، وهو ما لم يكن الواقع البتة. كنت قد التقيته مرّات عدة سابقًا -في مختلف حفلات المناسبات في عملها- وكان من الواضح أنه لا يزال يعتبر نفسه وسيمًا كما كان قبل ثلاثين سنة خلت.

حاولت مارني مجدّدًا في الأسبوع التالي. لوت ذراع مديرها وواجهته برسالتها أمام مديرته الأعلى.

قالت بصرامة: «كما سبق وتناقشنا، إليك استقالتي».

ردّت آبي: «آه، يؤسفني سماع ذلك»، لا بد من أنك محبط يا ستيفن».

«كثيرًا»، أجابها وهو يستلم المغلّف بإذعان.

«آمل أنك تنتقلين إلى وظيفة أكثر إثارة للاهتمام»، قالت آبي وهي تبتسم. كانت قد عيّنت قبل أشهر قليلة. كانت فارعة الطول مفرطة

الطموح. وتثير إعجاب الشابّات في الشركة كلّهن؛ إنما ليس الرجال المتقدّمين في السن.

غير أن ستيفن لم يكن ينوي تمرير الأمر بسهولة؛ فقد كان مصرًا على جعلها تعاني لمجرّد ارتكابها جريمة الإيحاء أنها ليست سعيدة بالعمل معه.

سحب مارني جانبًا في وقت لاحق من ذاك النهار، وأبلغها أنه يتعين عليها تقديم فترة إنذار تبلغ ستّة أشهر وأنه ينتظر منها أن تعمل طوال تلك الفترة. حاولت مارني مقارعته مصرّة على أن الأمر سخيف -وأنّها لم تعلم علام وقّعت، ومن غير المنطقي أن يتم فرض فترة الإنذار هذه على موظفة برتبة معاونة ليس إلا- لكنه كان مصرًّا على موقفه.

ذاك المساء، رمت بنفسها على الأريكة ودفنت رأسها بين الوسائد وراحت تندب أن لا عدل في ما يجري، وأنها لن تسمح بذلك، لأنها لا تستطيع القيام بالأمر، ولا تقبل القيام بالأمر، ولا يمكن أن يتوقّع أحد منها أن تعمل لهذا الرجل المشين لفترة ستة أشهر إضافية.

«ساعديني»، راحت تتوسّل إليّ، وهي تسترق النظر من بين وسادتين. «سأموت لو قضيت شهرًا آخر مع هذا الرجل. أستطيع أن أشم رائحته على ملابسي، وأنصت إلى ضحكته الرخيمة تخدش خلايا ذهني طوال الوقت، حتى عندما لا نكون معًا، حتى في عطلة نهاية الأسبوع. ساعديني يا جاين».

هكذا أعددنا خطة. كنت بالطبع، قد فعلت ذلك من قبل، من دون مساعدتها، للانتقام من صديقها الأول الذي كان يبدو ساحرًا للجميع لكنه متطيّر عنيف عن قرب، لكن الأمر كان مختلفًا الآن، ملؤه الإثارة والتشجيع في التواطؤ والتشارك في التحضير واستباق الأحداث. كانت حفلة الصيف السنوية في شركتهم مقرَّرة في نهاية الأسبوع التالي. وكانت عبارة عن حدث ضخم أُعِدَّ لجذب المزوّدين والمستثمرين

ولشكر الموظفين وتسلية الشركاء. وكان يُقام على النهر في حديقة أكبر حانة لدى الشركة، وكانت العناية بالتفاصيل ملفتة. فكما كل عام، كان الحفل يدور حول موضوع معين، وكان التركيز هذا العام على السيرك.

وصلنا باكرًا. أقيمت بوّابات عملاقة مرشوشة باللون الذهبي في مرأب السيارات، وقادنا مهرّجان إلى السيرك بحدٍّ ذاته. كانت قد أقيمت خيمة ضخمة زرقاء بلاستيكية، وراح رجل يمشي على ركائز يتنقّل أمام الضيوف حاملًا مشاعل حمر ساطعة، ينظر أمامه مباشرة، كما لو أنه لا يدري ماذا يجري في الأسفل أمام قدميه، لا يكترث لصغار القوم الذين يتنقّلون عند مستوى الأرض.

أمسكت مارني يدي، فعبَرنا معًا وسط الحشود. كانت ترتدي ثوبًا لاصقًا أسود وجوارب سودًا شفافة، وكانت تبدو غاية في الأناقة والثقة، كما لو كان جسدها جل ما تريد أن تكونه. أما أنا، فكنت أرتدي تنورة طويلة زهرية، وكرة كريستال صغيرة حول عنقي. كنت أفضل لو ارتديت سروال الجينز.

توقفت مارني قليلًا أمام البار وأشارت إلى امرأة طويلة ترتدي سترة جلديّة حمراء مقلّمة بالشرائط الذهبية مع طيّات جلدية سوداء. وقد أكملت إطلالتها بقبعة حمراء صغيرة وضعتها على رأسها وحملت في قبضتها سوط ثور.

«هناك»، قالت لي: «هناك، هذه هي، هذه آبي».

أومأت برأسي. «وأين أجدك؟»، سألتها.

أشارت مارني بيدها إلى المقصورة الخشبية وراء منصّة البوشار. كانت مطليّة بالأخضر وعلى جانبيها شرائط صفر لماعة. قالت: «وراء هذا، بعد خمس عشرة دقيقة».

اقتربت من آبي. وقاطعت حديثها. عرّفت عن نفسي أنّني بيبا دايفس. تعرّفت إلى الاسم مباشرة. كانت بيبا دايفس ابنة أهم المزوّدين

لديهم. وقد اتّصلت بيبا الأسبوع الماضي بمارني وأكّدت أنها لا تستطيع المجيئ، فاختارت مارني ألّا تعدّل لائحة الحضور.

سرّت آبي بلقائي. وقادتني عبر السيرك -أرادت أن تعرض لي الموقع، والحانة الرئيسية، وحجم أعمالهم- وكانت مثالية بينما راحت تبيع نجاحاتهم وطموحهم. تبعتها بكل رحابة صدر، ببطء، ودراية، وأنا أركز على المرور أمام منصة البوشار نحو المقصورة الخضراء.

«هذه غاية في الأناقة»، قلت وأنا أدور من حولها.

«بالطبع»، قالت آبي، وقد تفاجأت بهذه الانعطافة غير المتوقّعة. «أفترض أن أباك قد ذكر الحفلات التي نقيمها للعملاء أيضًا: حفل القديس باتريك، وحفل البربارة، وحفل آخر السنة».

توقّفت وأخذت أحدّق. لقد نجح المخطّط. كان بإمكاني أن أراهما يتشاجران فتنحنحت قليلًا. نظرت مارني إلى الأعلى، فسوّت وقفتها، وراحت تنقِّل وزنها من رِجل إلى أخرى، واقتربت أكثر منه واضعة يدًا على كتفه. بدا الأمر غير شرعي، وغير لائق، فشعرت بالقرف والسعادة في آن.

«نعتبر العناية بالتفاصيل أساسية، هذه إحدى النقاط التي تميزنا عن منافسينا و...».

نظرت إلى الأعلى، وشهقت شهقة خفيفة، وعلت يداها لتضغط على شفتيها، بينما سقط سوطها أرضًا بجانبها.

قالت: «ستيفن، ماذا يجري بحق الجحيم؟ ما هذا؟».

أخذ يعقد حاجبيه -بدا في تلك اللحظة فعلًا وسيمًا- وألقى نظرة خاطفة علينا نحن الثلاثة، وقد تملّكته الصدمة وبات عاجزًا عن معالجة ما يجري فعلًا، لا يفهم لمَ تنظر مديرته إليه مصدومة، مذعورة. ثم استوعب ما يجري. نظر إلى مارني، ورفع حاجبًا، ودار برأسه إلى جهة كما لو أنه على وشك الصراخ، ثم أدرك أن ثمّة أمرًا أكثر أهمية، ثمّة شخصًا عليه أن يوجّه حديثه إليه.

«آبي»، قال وهو يتراجع قليلًا بعيدًا عن مارني. «الأمر ليس كما يبدو لك. الأمر...».

قالت مارني، بينما تمد يدها. «لا تفعل، رجاء. فلنكن صادقين. لم نعد نقوى على الاحتفاظ بهذا السر، ليس الآن، ليس بعد اليوم».

لم تكن ممثّلة عظيمة، ولربّما لم تكن جيّدة على الإطلاق، وكانت كلماتها مبسّطة وحادة، وحركاتها مفتعلة. لكنه كان يؤدّي دوره بشكل ممتاز. كانت عيناه الجاحظتان تمسحان الحديقة عن جانبينا، بحثًا على الأرجح عن زوجته. وكان فمه يفتح ويطبق، غير واثق ممّا قد يقوله، وغير أكيد من أين يبدأ.

واصلت مارني: «أنا آسفة. كان يفترض بنا أن نخبرك، لكن لأسباب واضحة، كنا نحاول الإبقاء على الأمر سرًّا. لكن عليك أن تعرفي، أعتقد، أننا أنا وستيفي... نحن في علاقة».

«علاقة؟»، سألت آبي.

«ماذا؟»، صرخ ستيفن.

«أعلم -سبق وتحقّقت من سياسة الشركة- أنّه يتعيّن على أحدنا الاستقالة. أتفهّم ذلك، وأنت تعلمين أنّني كنت أفكر في خطواتي التالية و...».

«استقالة سارية المفعول مباشرة؟». سألت آبي، في محاولة ظاهرة لإيجاد الحل الأكثر ملاءمة والتخفيف من حرَجها.

أجابت مارني: «بالطبع، سأجمع أغراضي يوم الاثنين».

«حسنًا»، قالت آبي. واستدارت نحوي واضعة يدها على ذراعي، ومقدّمة شتى الاعتذارات على سلوك موظّفيها، وواعدة بمواجهة الأمر فورًا، طالبة أن أعذرها حتى تتمكّن من التكلّم مع زميلها. ثم توجّهت نحو ستيفن وسارت به إلى داخل الحانة.

ركضت مارني نحوي وهي تصرخ، وألقت ذراعيها حول عنقي،

وأخذنا نضحك لأن اللحظة كلّها كانت مثيرة للضحك، ولأننا لم نصدّق أن المخطط نجح، لكنه فعل، ولأننا كنا نشعر بقوة واندفاع غريبين، ولأننا شعرنا في تلك اللحظة بأننا أسياد حياتنا ولسنا مجرد امرأتين شابتين. لقد كنا متّحدتين. ما حدث ربطنا بطريقة بالغة الإثارة: ثمّة سر نتشاطره، نصر ثنائي، إحساس أننا معًا، لا سبيل لإيقافنا.

توجّهنا إلى الحانة ونحن في طريقنا إلى المنزل واستولينا على كرسيّين مخمليّين في إحدى الزوايا. كان لا يزال الوقت باكرًا عند المساء، وكان عدد الزبائن قليلًا، لكن الفرقة الموسيقية بدأت التمرين على العزف، وكان موظفو الحانة يضيئون الشموع وينظّفون الكؤوس. طلبت زجاجة شامبانيا، لأنه على الرغم من أن راتبي كان متدنّيًا وراتبها هي بات في علم الغيب، إلا أنّنا كنا نملك سببًا وجيهًا للاحتفال.

سرنا إلى المنزل في وقت متأخّر من ذلك المساء، وهي تتأبّط ذراعي، وأخذنا نستعيد جنون اليوم. وراحت تصفّق بيديها بحماسة عندما ذكّرتها بأن لا عمل بعد اليوم، وأنها حرّة من التاسعة صباحًا وحتى الخامسة بعد الظهر، بدل الجلوس في مكتب. نفثت هواء ساخنًا على المرآة في المصعد ورسمت عليها وجهًا مبتسمًا بإصبعها. ثم قفزت على أريكتنا وأصرّت على أن أقفز معها. اللحظة مضحكة. اللحظة مسلّية. أمسكت بيديّ بينما رحنا نتأرجح. أذكر أننا كنا نضحك من قلبنا وقد بدا طبيعيًا أن نضحك ونقهقه معًا. أما الآن؟ أجهد لأتذكّر ما كان هذا الشعور، شعور أن أكون معها على هذا النحو، أن أستسلم لنفسي في حضرتها، أن نلتحم شخصًا واحدًا بلا أي عناء.

الفصل الثالث عشر

زرت مارني وتشارلز يوم الجمعة التالي -مباشرة بعد عودتهما من شهر العسل- وكنا نجلس، ثلاثتنا على الأريكة. كانت الثريا فوق رأسنا مطفأة وإنارة الجدار ترسل ظلالًا ذهبية على الجدران. وكانت الشموع منثورة في كل مكان، ونيرانها تتأرجح حول فتائلها. أما الشرفة، فاختفت وراء ستائر حمر سميكة عُلّقت على شكل أمواج.

لقد سجّل فصل الصيف هذا أكثر معدل رطوبة وأمطار منذ زمن -وهذا كان رأي الجميع: من ساعي البريد، إلى مقدّم نشرة الطقس، وزملائي- وكان الفصل الأكثر بؤسًا في الذاكرة الحيّة. فقد شهد كل يوم من هذا الأسبوع أمطارًا غزيرة كثيفة؛ قطرات ضخمة كانت ترتد عند ارتطامها بالرصيف أو بغطاء السيارة.

«المطر!»، قالت مارني. «لم نشهد أي مطر لأسابيع، ولا حتى نقطة واحدة. الجميع قال لنا إن الصيف في إيطاليا جنون، وأننا سنُشوى وكانوا على حق. لذلك لم نكن نرتدي الملابس المناسبة عندما حطّت بنا الطائرة. تبلّلنا بالمطر بمجرد سحبنا الحقائب من سيارة الأجرة إلى ردهة المبنى. أليس كذلك يا تشارلز؟ ألم نتبلّل؟

أخذ يومئ برأسه مع وقع كلماتها. وأجاب: «تمامًا، لقد أصبنا بالبلل من رأسنا حتى أخمص قدمينا».

أخبراني أنهما خرجا مرّة واحدة في اليومين الماضيين، ليقوما بزيارة خاطفة إلى السوبرماركت لشراء بعض المواد، وقد أبقيا على الستائر مغلقة والنوافذ مقفلة في محاولة لإبعاد المطر عنهما قدر الإمكان. وقد

زارتهما ريبيكا مع جايمس -تعرّفت إلى أصحاب الأسماء- البارحة لتناول طعام الغداء.

شرح تشارلز: «أخذا إجازة عائلية مشتركة، كلاهما لا يعملان. إنه أغرب شيء أسمعه».

سألتني مارني: «هل أخبرتك أنهما رزقا بطفل؟ تبلغ من العمر أربعة أشهر. لم أرَ في حياتي طفلة أكثر جاذبية. إنها رائعة. يا لهاتين العينين الزرقاوين البراقتين...؟».

أشار تشارلز إلى كأس النبيذ الفارغة في يدي. وسألني: «المزيد؟» فأومأت إيجابًا.

«تعامل معها بطريقة رائعة»، همست مارني، بينما ذهب هو إلى المطبخ. «صراحة، ليس ثمّة ما هو أكثر جاذبية من رجل ساحر مع طفل. أعلم أنه يوحي بالثقة وبنوع من التبجّح، لكنه كتلة من الأحاسيس. أراد أن يحملها بين ذراعيه طوال الوقت. بالكاد سمح لي أن أحملها».

ابتسمت موافقة، مع أنه لم يسعني أن أتخيّل الأمر.

«هل ملأت كأسي؟»، سألَت مارني بينما كان تشارلز عائدًا مع الزجاجة.

«بالطبع»، أجابها.

قالت وهي تقف لتقبّله. «شكرًا، سأتأكد من جهوزية الطعام».

ملأ كأسي ثم وصل هاتفه بجهاز التلفاز الجديد الفخم، الذي اشتراه، بحسب ما شرح، بواسطة قسائم هدايا الزفاف.

«سأريك بعض الصور»، ثم راح يشرح التفاصيل الدقيقة لهذا النموذج الخاص - الشاشة، شيء عن عناصر الصورة ودقتها، قوّة المحرّك ومختلف التسميات التي لا تعني لي شيئًا. كنت أومئ برأسي وأبتسم محاولة أن أبدو مهتمة. وأكثر ما كان يلفتني هو حجم التلفاز؛ فقد كان يمتد فوق كامل المدفأة بالعرض.

أخذت آلة التحكم عن بعد التي كانت موضوعة في سلة صغيرة على

الطاولة الجانبية. كان تشارلز يقف أمام الشاشة، يواجهها، معيقًا نظري، ومع ذلك، لا بد من أنّه سمع حركتي لأنه قال من دون أن يستدير: «ضعيها جانبًا».

«ألا تحتاج أن...»، بدأت قائلة.

«آلة التحكم؟ لا. لو احتجتها، فسآخذها. إن كنت لا تمانعين يا جاين».

واستدار، ينظر إليّ من فوق كتفه، يدقّق بي، ويحدّق بآلة التحكّم عن بعد التي كانت لا تزال في قبضتي. وضعتها على وسادة الأريكة.

ابتسم. «ثقي بي. ستصابين بالدهشة عندما تدركين ما يستطيع هذا الجهاز القيام به».

ثم ضغط على أزرار عدة وبدأ يقلّب بصور شهر العسل. وجدت نفسي على حين غرة، مفتونة بمختلف المواقع، والمشاهد الجميلة، ذاك الإحساس بغير المألوف. لكنّني لم أكن أحبّذ تعليقاته المتواصلة -»وهنا فعلنا كذا... وهنا زرنا هذا الشاطئ...»، و«هذا الحمّام في الفندق الثاني»- لكن الصّور بحدٍّ ذاتها كانت قصّة أخرى. كنت أجيب على أسئلته وتوصيفه وثرثرته الفارغة بـ«يا لجمال هذه الحقول»، و«عفوًا أين كان هذا؟». لكنّني لم أكن أصغي بحق.

عوضًا عن ذلك، كنت أتخيّل نفسي في رحلتهما؛ أقف لأخذ صورة إلى جانب مارني على السلالم الإسبانية، وأبتسم على متن درّاجة أعلى التلة، ومحاطة بعشرات كؤوس النبيذ في كرم. والمفاجأة أنّني كنت أجد سهولة بالغة في إزالة تشارلز من كل صورة، ومحو وجوده بالكامل، حتى لكأنه بالكاد يحيا. كان باستطاعتي أن أغض الطرف عن كتفيه العريضين وقمصانه الضيّقة وأسنانه البيض التي ترسم ابتسامة مثالية. وكان باستطاعتي أن أتجاهل شعره الأملس المرفوع إلى الوراء بواسطة الجيل، وعضلاته المفتولة وسحنته الذهبية.

كنت أسمع مارني في المطبخ، فضاعفتُ من ضوضائها كي أطمس

صوته. كانت تتكلّم إلى الكاميرا، تصوّر نفسها وهي تعد العشاء، تصف كل خطوة تقوم بها، وكل صنف تضيفه، وكل شرحة، وكل تحريكة وكل عجنة.

«أغسل يدي دائمًا بعد فقش البيض، خاصة عندما أفصل الصفار، ومع أنّني أقوم بهذه المهمة منذ فترة، إلا أنك ترى البيض أينما كان».

«هل عليك رمي السباغيتي إلى الحائط للتأكّد من أنها تلتصق؟ أعني، يعود الأمر بالكامل لك، لكنّني أؤمن بصدق أن تلك أدقّ طريقة للتأكد مما إذا كانت الباستا مطبوخة كما يجب، واه -صراخ- يبدو أنها مطهوة جيدًا!».

«هل يجب وضع البندورة في سلطة خضار؛ بالطبع لا».

«دقيقتان»، صرخت. ثم أضافت بصوت أكثر هدوءًا: «عندما يحضّر أحدهم الطعام لي، أحب أن ينذرني قبل أن يحين الوقت بقليل، لإنّني -ربّما هذا طبعي أنا وحسب؛ أخبروني في التعليقات إن كنتم تشاطرونني الرأي- أحتاج للذهاب إلى المرحاض قبل تناول الوجبة. لا أعرف السرَّ وراء ذلك، لكن هذا ما أفعله!

نظر تشارلز إلى الأعلى وراح يكوّر بعينيه -برفقٍ وحبٍّ- فابتسمت في المقابل.

قال: «حسنًا، دعينا نقلّب آخر مجموعات الصور قبل وقت العشاء. لم تشعري بالملل، أليس كذلك؟».

هززت رأسي نفيًا، فراح يقلّب الصور سريعًا، مشاهد غروب جميل، يتنقّل من البرتقالي إلى الأصفر والزهري والأرجواني؛ وتلال متموّجة، ترتدي حلّة كل خضرة ممكنة، وحقول خشخاش، عبارة عن قماشة حمراء تتناثر عليها حبوب سود صغيرة. زبديات باستا، وأطباق لحوم وأجبان معالجة، وبيتزا بحجم غطاء سطل القمامة. تشارلز في القطار، وعيناه مغمضتان، ولعبة كلمات متقاطعة نصف منجزة على الطاولة أمامه. (قد يفيد أن أخبرك أن الكلمات المتقاطعة هي المشترك الوحيد

الذي يمكن أن نتناقش به أنا وتشارلز أو نقوم به معًا، من غير أن نشعر بالهواء ثقيلًا بيننا).

واصل تقليبه على هاتفه، لكن التلفاز أصيب بالجماد وثبت على صورة واحدة بقيت لا ترمش على الشاشة. كانت صورة لمارني، تجلس على إحدى كراسي التشمس، وساقاها على جانبي الإطار الخشبي، تبتسم بينما تدهن كريم الشمس على ذراعيها. كانت تضع على رأسها قبعة من القشّ، بينما أزيح البيكيني قليلًا ليكشف لون بشرتها الفاتحة تحت ثدييها. كانت تبتسم، تضحك، على ما أعتقد، وكان بإمكاني تخيّلها تنهر تشارلز، كما تنهر الأم ابنها، تطلب منه ألّا يصوّرها، ليس في تلك اللحظة، فقط عندما تصبح جاهزة.

لكنّني كنت لألتقط لها هذه الصورة في هذه اللحظة أيضًا. لأن مارني تكشف وجهها الصادق عندما لا تكون على دراية مطلقة بالكاميرا، فلا تتمدّد ولا تستقيم ولا تتحضّر، بل تعود المرأة التي كلانا يعرفها وكلانا ربّما يهواها.

«ذلك كان آخر فندق»، قال تشارلز، وهو يطفئ جهاز التلفاز، لتعود الشاشة إلى أسودها المعتاد. «كان يحتوي على أكثر المطاعم روعة وهو حائز على نجمة ميشلان. جرّبنا قائمة التذوّق، التي كانت باهظة الثمن بعض الشيء، لكنها تستحق بالكامل، لذيذة شهيّة، حقًّا».

رحت أتساءل إن كنت سأذهب يومًا في شهر عسلٍ ثانٍ. ثم اعتبرت الأمر غير وارد في تلك اللحظة، وضربًا من ضروبٍ المستحيل كلما أفكّر فيه الآن.

دعتنا مارني إلى الطاولة.

قالت: «لقد أعددت الكاربونارا، ثم نظرت إليّ وهي تسحب كرسيّها. «لكن ليس الكاربونارا المعتادة، ليست تلك التي اعتدنا على تحضيرها في الشقة». ثم استدارت نحو تشارلز. «إنها نوع من التكريم لشهر عسلنا، مع الوصفة من ذلك المحل أعلى التلة. هل تذكره؟ هل أريت

جاين الصور من الأعلى؟ الطعام كان هناك...». وضعت أصابعها على شفتيها وراحت تقبّلها: قبلة صاخبة رطبة. «اضطررت أن أرجو الشيف كي يعطيني الوصفة -يبدو أنّها وصفة عائلية كلاسيكية- لكنّها مميّزة، أعتقد. أفضل من تلك التي كنا نعدّها في الشقة. سأتوقّف عن الرغي وأدعكما تتذوقانها».

سكبت كمّية كبيرة في زبديّتي وكمّية مخيفة في صحن تشارلز. لم يكن يحب تناول الأكل في الزبديات. لم يكن يحب عندما تمتزج مكونات الوجبة مع بعضها البعض. لم يكن يريد أن يحصل على السباغيتي والسلطة في لقمة واحدة.

لففت شوكتي عند حافة الزبدية، فأحسست على الفور بأن التركيبة مختلفة. كان البَيض قد شكّل طبقة حريرية حول كل حبل من حبال السباغيتي. أما الكاربونارا الخاصة بنا -وهنا لا بد من عدم إساءة فهمي، أحبّها، ولا أزال أعتقد أنها المفضلة لدي- فكانت تحتوي على كتل من البيض المخفوق.

قال تشارلز: «رائعة بصراحة، مذاقها هو نفسه مذاق تلك التي تذوّقناها».

أخذت مارني تصفّق بيديها. «هذا ما انتظرت سماعه منك. جاين؟ هل أحببتها؟».

«حسنًا، لن أقول إنّني أفضّلها على الكاربونارا الخاصّة بنا، لأن ذلك يعتبر خيانة، لكنها لذيذة جدًا».

ابتسمت مارني. «كنت على ثقة أنك ستحبّينها». وأعادت ملء كأسي بالنبيذ وأضافت: «أحضرنا هذه الزجاجة معنا، اعتقدت الأمر نوعًا من الجنون -كما تعلمين، لن يكون مذاقها نفسه أبدًا- لكنها في الواقع قد سافرت ووصلت بحال أفضل مما توقّعته لها. ما رأيكما؟»، سألت.

أومأ تشارلز برأسه موافقًا. وأجابها: «تمامًا، باستا عظيمة، نبيذ رائع. لولا المطر، لخلتنا ما زلنا هناك».

قد يبدو الأمر غريبًا -وربّما لن يكون بالإمكان تصديقي- لكنّني حتى تلك اللحظة لم أشعر يومًا أنّني ضيفة غير مرحّب بها في علاقتهم. كنت أدركُ جيدًا العلاقتين المتنافستين. لكنّني كنت أفترض أن بإمكانهما أن يتعايشا، نوعًا ما، جنبًا إلى جنب. ومع ذلك، أصبحت أكثر إدراكًا لواقع أن صداقتي مع مارني باتت وكأنها فقرة في قصّتهما، وأن لا مساحة إضافية لما يتعدّى ذلك الحب الأوحد بينهما.

كانت الأشهر القليلة الأولى التي تلت وفاة جوناثان ضبابية؛ لا أستطيع تذكّر الكثير ممّا فعلته أو أين ذهبت ومع من تكلّمت. لكن في النهاية، عدت إلى عملي، ودعتني مارني إلى العشاء بنهاية ذاك الأسبوع الأول. كان تشارلز يعمل متأخرًا -غالبًا حتى ما بعد الساعة الحادية عشرة، وأحيانًا لا يعود إلى شقّتهما قبل انبلاج ساعات الفجر الأولى- لكنه كان مصرًّا على ألّا يعمل أبدًا حتى وقت متأخّر من مساء الجمعة. كان يقول إن عطلة نهاية الأسبوع مقدّسة بالنسبة إليه، وإن الأمر عبارة عن إيجاد التوازن السليم. لكنه كان دائمًا مرهَقًا عندما يعود في حوالى الثامنة، وربّما التاسعة بنهاية الأسبوع. لذلك، لم يكن يحب الخروج، أو رؤية الأصدقاء، أو حتى القيام بأي نشاط. كان يريد البقاء في المنزل ليس إلا. وهكذا، تحوّلت زياراتي الأسبوعية إلى فعل تكرار، نمط تواصَل وقلما شهد أيّ تغيير.

لكنّني شعرت بأن زواجهما قد يؤشّر إلى النهاية الطبيعية لذلك الروتين. لقد استمر الأمر لسنوات، لكنّني كنت على يقين، أكثر من غيري، أن كل شيء يتغيّر في النهاية.

عند العاشرة والنصف، وقفت مارني قائلة، «حسنًا».

بقيت في مكاني. رفعَت زبديات الحلوى الثلاث عن الطاولة، وكدّستها في زاوية ذراعها، مستندة إلى كوعها. ثم حملت زبديّة الفاكهة التي فرغت، وإبريق الكريما واختفت في المطبخ. سمعناها تدير الراديو، فتتدفّق أنغام الآلات الوتريّة، وتقرقع أطباق السيراميك الواحد مع

الآخر. أخذنا نستمع إلى وقع خطواتها، بينما تنتقل من مكان إلى آخر في المطبخ، فتفتح البراد وتغلقه، قبل أن تتوجّه إلى الجلاية والخزائن وتقوم بالمثل.

كان يفترض بي أن ألحق بها، لكنّني لم أفعل.

قلت، «حفل الزفاف»، ولا أعرف لماذا، لأنّني أدركت تلقائيًا أنها فكرة خاطئة، ومع ذلك ما إن بدأت، حتى لم أعد أعلم كيف أتوقّف.

«يا له من يوم جميل»، قال تشارلز وهو يتثاءب ويمد يديه فوق رأسه، تمامًا كما فعل ذاك المساء، الحركة نفسها بالتحديد، ومرة أخرى يخرج قميصه من تحت حزامه. «أفضل يوم».

«ومع ذلك، النهاية»، قلت.

«النهاية؟». أعاد التكرار. «ماذا عنها؟».

بدا مصدومًا بحقٍّ.

والآن، سريعًا، فلأوضح أمرًا واحدًا قبل أن أكمل. ولربّما كان الأجدى بي لو شرحت هذا سابقًا. قد يكون من السهل أن ينسى المرء لو كذب مرّات قليلة جدًا في حياته. غير أنّني أنا كذبت مرّات أكثر بكثير. لذلك، قد يكون من الممكن تعلّم شيء من تجربتي.

إن أول الأشياء التي يتعيّن عليك التفكير بها، هي أن الكذبة مجرّد قصة. هي قصّة مختلقة، خيال. وثاني الأشياء هو أن حتى أغرب خيال، والكذبة الأكثر إثارة للسخرية، قد تبدو حقيقيّة بالكامل، لا بل حتى ممكنة. نحن نريد أن نصدّق القصة. وثالث الأشياء أن الأكاذيب القابلة للتصديق ليست بالإنجاز البطولي. لكن الأهم من ذلك كلّه، وهو ما لا يفترض بك نسيانه أبدًا، هو أننا لسنا بمنأى عن الأكاذيب التي نحيكها بأنفسنا. نحن نراجع قصصنا، ونعدّل في اللحظات المشوّقة، ونزيد من حدة التوتّر، ونضخم الدراما. وفي النهاية -بعد أن نسرد هذه النسخة المعدّلة عددًا من المرات، ونحسّنها مع كل عملية سرد -نبدأ حتى بتصديقها. لأننا لا نراجع قصصنا وحسب، بل ذكرياتنا أيضًا. فخيالاتنا-

وهي لحظات ابتدعناها وتخيّلناها- تضحى حقيقة. هكذا يتكشّف الوضع أمامك، وتبدأ المراجعة كما لو أنها حدثت بالفعل، ويبدأ طرح التساؤلات حول أين تنتهي الحقيقة وأين تبدأ الكذبة.

سألني: «بيني وبينك؟ جاين، هيا، حقًا. ما القصة؟».

كما يبدو لك، فات الأوان. لقد منحته ما يكفي من الوقت ليراجع ذكرياته، ويقرّر عمدًا ألا يتذكّر تلك اللحظة. لم يعد هناك من حقيقة واحدة ثابتة. هل أعاد تصوّر القصة مرارًا وتكرارًا؟ هل أخذ يغيّر أفعاله مع كل إعادة؟ هل بات يصدّق قصته المعدّلة، حتى ليبدو غموضه وإرباكه حقيقيَّين؟

شعرت بالغباء، كما لو أنّني أتفوّه بترّهات، ثم رأيت شيئًا، طيفًا يظلّل وجه تشارلز. برزت تجاعيد على جبينه قبل أن يمسحها سريعًا. وقد رفع حاجبه الأيسر، مرة واحدة. واصطبغت وجنتاه بحمرة، لربّما خجلًا، ولربّما غضبًا. ثم قام بلعق شفتيه، قبل أن يزمّهما بين أسنانه حتى تتحوّل أطرافهما بيضاء. وسمعت صوتًا قصيرًا غير مقصود، أفلت من زاوية شفتيه.

لم أعد أكيدة من أيّ أمر.

«أنت تعلم جيّدًا ما أعني»، قلت له.

«لا أعتقد ذلك»، أجابني. ووضع راحتيه على الطاولة، ممدّدًا أصابعه.

«بل تعلم». ولم أدرِ إن كان حقًا يعلم لكنّني كنت أعتقد أنه فعلًا يفعل.

«أنا آسف جاين»، رَدّ، وقد تحوّل وجهه حجرًا، وتصلّبت معالمه، جامدة لا تتحرّك. «أخشى أنّني لا أفهم ما تعنين».

«لا تفهم؟»، سألته، وأنا آمل أن يرتكب خطأ ويكشف الحقيقة.

«ماذا تعنين؟»، سألني، وقد لوى رأسه إلى اليسار قليلًا، كما لو أنه فضولي بحق، كما لو أنه مصدوم بسؤالي.

«أعتقد...»، لكنّني لم أدرِ بما أفكّر. «لمستني». قلت عوضًا عن ذلك. «هل تذكر؟ كنت ثملًا لكنك... لمستني».

غيّر ملامح وجهه وارتدى وجه مصدوم. بدا الأمر زائفًا. كان حاجباه مرتفعين أكثر مما يلزم فوق جبينه، وعيناه جاحظتين، وذقنه يتهاوى راسمًا تكويرة مصدومة بشفتيه.

«جاين، ماذا تعنين بـ«لمستني»؟ أنت لا توحين أنـ...».

قاطعته قائلة: «أنت تذكر، أعلم أنك تذكر».

لان وجهه وقد ارتسمت على ملامحه نظرة قلق غريبة.

«جاين، أنا آسف، ولا أريد حقًا أن أكون فظًّا معك، لكنّني لا أعلم عمَّ تتكلّمين. أريد فعلًا أن أساعدك... وأكره أن تعتقدي... لمَ لا تبدأين من الأول؟ أخبريني ماذا جرى برأيك».

في النهاية، أجبته. «عندما كنّا جالسَين معًا».

شيء ما بدا مختلفًا؛ شيء ما بدا مغلوطًا.

«هيا، أكملي»، قال لي.

«وضعت ذراعك حول كتفيَّ»، أكملت قائلة.

كان بإمكاني القول إن الظلام قد حلّ خارجًا لأن الستائر الحمر كانت تبدو سودًا على الجدران الباهتة اللون. وكانت الشموع تذوب رويدًا رويدًا، وهي ترتعش على أطباقها المعدنيّة.

بدأ يقول: «أعني، لو أردت أن أكون صادقًا معك، فعليَّ أن أقول إنّني لا أذكر شيئًا من هذا القبيل. لكنّني أفترض، نعم، لست متفاجئًا. أعتقد أنّني عانقت كل شخص تقريبًا طوال ذاك اليوم. كانت حفلة، وكان احتفالًا. وأنا... هل هذا ما تعنينه يا جاين؟ ذراعي حولك؟ هل هذا ما جعلك تشعرين بعدم الراحة؟ لأنّني لم أكن لأفكّر بذلك... لكن لو فعلت... أنا حقًّا لم أقصد أي إساءة لك».

أجبته: «كلا، ليس هذا ما في الأمر، على الإطلاق. أنا لا أتكلم عن ذراعك حول كتفيَّ. بل يدك. كنت تلمسني».

ثم لاحظت أنه لم يعد ينظر إليّ. عوضًا عن ذلك، كان ينظر فوق رأسي، إلى ما بعد حيث كنت جالسة، إلى شيء -أو أحد- ورائي. أدركت

عندئذ أن الراديو لم يعد يصدح، ولم أعد أسمع وقع خطوات مارني على أرضية المطبخ ولا قرقعة الأطباق والصحون، أو صوت البراد وهو يفتح ثم يضغط مقفلًا. جل ما أمكنني سماعه كان هدير الجلاية.

لم أكن أملك أي دليل يرشدني إلى الفترة التي قضتها مارني واقفة هناك، تستمع إلى حديثنا؛ لم أعلم كم سمعت. لكنّني كنت على يقين مطلق أن تشارلز كان يتلاعب بالحديث بما يصب في مصلحته، فيقدِّم نسخة عما حصل كما يريدها أن تراها، وليس معادلها، الحقيقة، التي كان يفترض قولها لو كنا أنا وهو وحدنا.

بدا مستهجنًا -لم يحتج لاستخدام الكلمات لإيصال ردة فعله: *لا أملك أدنى فكرة عما تقوله*- فنظرت إليها وأنا أدير رأسي فوق كتفيَّ.

كانت لا تزال ترتدي مئزرها. كان رماديّ اللون مع بعض التفاصيل البيض ورباط أبيض مربوط حول وسطها وآخر حول عنقها. وكانت تحمل منشفة مطبخ بين يديها، مبلّلة بالماء، جاهزة لمسح المفارش. أما رأسها، فكان مائلًا إلى اليسار، وعيناها مزمومتين تحدّقان بي من فوق طاولة الطعام.

«ماذا يجري؟»، سألت. وكانت تنظر إليّ مباشرة.

لكن قبل أن أستطيع الإجابة على سؤالها، استدارت إلى تشارلز وسألته: «هل أنتَ على ما يرام».

ملامح الاستهجان مجدّدًا بدت على وجهه.

سألت: «جاين؟ ما هذا؟».

لقد فات الأوان.

«لمسك. هذا ما تقولينه، صحيح؟ متى لمسك على وجه التحديد؟».

كنت أعرف أنها غاضبة، لكنّني كنت على درجة من الغباء حالت دون أن أدرك أنها لم تكن غاضبة من أجلي. كان قلبي يتخبّط في صدري. وكنت أعلم أنّني لو أخفضت بصري، لوجدته يرتعش تحت ملابسي وتحت جلدي. وكانت راحتا يديّ مسمّرتين نديّتين.

أردت أن أقول، *آه، لا شيء*، لكن تشارلز كان يتلاعب بي وقد حشرني في الزاوية وفات أوان ادعاء أنّني قلت شيئًا غير ما قلته بالفعل. وكان ذكيًا. كان كاذبًا من الطراز الرفيع. لربّما كان على درجة من الفطنة حتى لبات يصدّق ترهاته وربّما كان غاية في الإقناع، لكن في كلتا الحالتين، كان على درجة من الدهاء تمكّن من خلالها من إيقاعي في فخ حقيقتي.

لقد ناور عليّ حتى أوقعني في الشرك، ولم يكن بوسعي أن أهرب بواسطة كذبة.

«ما الذي تتّهمين به زوجي على وجه التحديد؟».

كنت آمل أن تستقبل الحقيقية بنوع من التعاطف؛ أن تختار أن تثق بي، وأن تصلح المشكلة معي. لكنّني أدركت أي جهة تفضّل، وأيقنت أنها ليست جهتي أنا. و-بصراحة- كم كنت غبية عندما أملت حصول عكس ذلك. لقد وجدت إيمّا سببًا لتشكّك بي. لذلك، لا شك في أن مارني ستحذو حذوها. وربّما أنت أيضًا.

أخذت أصابعها ترتعش بينما تضع المنشفة على الطاولة. وتحوّل وجهها الشاحب أحمر قانٍ، كما ظهرت بقع حمر على عنقها وراحت تتمدَّد نحو صدرها.

«إذًا؟»، قالت بإصرار.

أجبتها: «لقد هاجمني في حفل زفافك. أنا آسفة يا مارني، لكن...».

«هاجمك؟»، سألت بصوت ثابت أجشّ أكثر عمقًا من العادة.

كانت عيناها تتنقّلان كما السهام بيننا.

نظرتُ إلى تشارلز وكان جامدًا بلا أي انفعال؛ يفوقني ذكاء ويتخطّاني استعدادًا بأشواط. كان وجهه المزيج الأمثل للذعر -كانت عيناه تقولان، *تحتاج للمساعدة*-، والإحباط -وكان فكّه المقبوض يوحي، *لا يمكنك أن تصدّقي هذا الهراء، أليس كذلك؟*- ووقفته تصرخ، *لا أملك أدنى فكرة لعينة عما يجري*.

أجبتها وأنا أنظر إلى الأسفل إلى يديّ المعقودتين في حرجي».نعم، هاجمني».

«ذراع حول كتفيك؟ هل هذا ما في الأمر؟ كتفاك؟». كانت قد بدأت تصرخ، بعد أن فقدت نبرة صوتها ثباتها، كما لو أنّها على شفير البكاء. «حقًّا يا جاين. هل هذا ما ترينه؟ هل هذا ما في الأمر؟ لأنه حقًّا، إذا كان الأمر على هذا النحو، فأنتِ بحاجة لـ...».

قاطعتها قائلة. «كلا، ليس هذا ما في الأمر. أبدًا. لقد تحرّش بي. وضع يده فوق ملابسي، فوق فستاني. ولم أقل شيئًا؛ لم يبدُ لي الأمر مناسبًا، ليس يوم زفافك. لكن كان عليّ أن أقول شيئًا. ألا ترين أنه كان عليّ أن أقول شيئًا؟».

لوت برأسها ونظرت إلى تشارلز ثم رفعت حاجبًا، تسأله سؤالًا صامتًا. لم أستطع تفسير تلك النظرة، فواصلت السرد.

«أعتقد أنه كان على وشك أن يكمل، لو لم تأتِ أنتِ. أعتقد أنه كان... بما كنتَ تفكر يا تشارلز؟». واستدرت إليه. «لو شجّعتك. هل كنتَ لتكمل؟ أو كنتَ تريد أن تجعلني أشعر أنّني صغيرة ليس إلّا؟ هكذا هو الأمر دائمًا، أليس كذلك؟ لأنك تحب أن تشعر أنك كبير وأفضل من الجميع».

قاطعني: «جاين...، لست أكيدًا... لا أعرف ما حدث هناك، لكنّني لم أكن أبحث عن أي شيء».

نهض وتوجّه ليقف إلى جانب مارني، واضعًا ذراعًا حول خصرها، حاشرًا يده في مئزرها، وراح يفرك النسيج بين أنامله. شعرت وكأنّني طفلة، علِقَت في جدال في مواجهة أهلها، يجلسون قبالتها، يوبّخونها، يواجهونها بالوقائع، وأنا أذوي أمام هذه المواجهة.

ثم تغيّرت نبرة صوته وأخذ يجيش من الغيظ.

«بالله عليك يا جاين»، راح يصرخ. وارتجفت مارني. «كان يوم زفافي. وأنتِ صديقة زوجتي المفضّلة. لا أدري ماذا تخالين قد حدث لكن... بالله عليك. يا إلهي. لا».

أومأت مارني برأسها ببطء، ولم يعد يهم إن كان يصدّق قصته أو لا، لأنها لا شك باتت تصدّقه. كان وجهها عاصفًا، وعيناها مشتعلتين كما شموع عيد الميلاد، تقدحان شررًا.

اعتبر نفسه قد حشرني، لكن ثمّة دائمًا كذبة أخرى، كذبة أفضل.

يومًا ما، في لحظة ما من مستقبلك، سيقول لك أحدهم إن *الأكاذيب* تستتبع *الأكاذيب* وسيكون على حقّ، لكنه يقولها وكأنها مشكلة، لكنها في الواقع الحل.

أضفت: «قال إنه يريدني، وإنه لطالما أحب التكلم معي؛ سألني إن كنت أبادله الشعور نفسه، كانت يده تلمسني من خلال فستاني وكان يتلاعب بطرف القماشة، بأصابعه، يمرّرها على الدرزات. عندما بلغت يده جسدي، تلمَّسني، لم أعد أكيدة، تفهمينني؟ قد يكون السبب الإفراط في الشرب، وعدم التفكير، وعدم إدراك ما يقوم به. لكن عندما بدأ الكلام، عندئذ علمت. علمت أن ما يجري مقصود».

وهنا عاد الشك يتسلّل إليها.

هل كانت هذه كذبة؟ حقًّا؟ لأنّني أعتقد حقًّا أننا لو قضينا دقيقتين إضافيتين بمفردنا، لكان هذا ما سيحصل، لكان تفوّه بشيء من هذا القبيل -أعلم هذا- لأن هذا هو الرجل الذي اسمه تشارلز. كان يعلم كيف يستخدم كلمات يتلاعب فيها، لبناء رواية. والكلمات تعطي مصداقية لفعل كان يعتبر بمفرده غير قائم، وغير مهم، ولا يستحق حتى عناء الالتفات له.

لكن، نعم، حسنًا. تلك كانت كذبة. تلك الكذبة الثالثة التي أخبرها لمارني.

تلك الكذبة الأخيرة التي أخبرها بها في حياة تشارلز.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الرابع عشر

طلبت مني مارني أن أغادر. بعد كل ما قيل وما لم يُقَل، وقفَت منتصبة وقالت: «أعتقد من الأجدى أن تغادري الآن».

جلست مصدومة لا أقوى على الحراك.

كرّرت: «تستطيعين أن تغادري، الآن. لو سمحت».

نظرنا أنا وتشارلز إلى بعضنا البعض من غير أن أتمكّن من تحديد ما إذا كنا على نفس الموجة، نفكّر بالأمر نفسه، ومن غير أن يتمكّن أي منّا من تفسير تعابير وجه مارني. لكن كان بإمكاننا أن نرى أنها ليست سعيدة، على الإطلاق. ومع ذلك، كان الغضب قد تلاشى، ليحل محلّه شيء أقل وضوحًا. لم يكن بإمكاني أن أفسّر الحدّة في عينيها، وشفتيها المزمومتين، المحمرّتين كما لم أرهما من قبل، والمضغوطتين على بعضهما البعض. كانت بشرتها مثقلة ومشدودة، تغرق بين فكيها.

رأيته يشد قبضته على وسطها، يضغط عليها برفق.

لم تستجب له. كانت متصلّبة في وقفتها، وقد ثبتت يديها على وسطها.

وقفت.

قلت: «حسنًا. سأذهب، لكن هل أنت أكيدة أن هذا ما تريدينه؟».

هل خلتها ستعيد التفكير بالأمر؟ بالتأكيد أملت بذلك. لكنها لم تفعل.

عوضًا عن ذلك، أجابتني، «أنا أكيدة».

مشيت في الرواق، وانتزعتُ معطفي من على صف الأوتاد. كانت

مظلّتي تستند إلى المدفأة، وقد خلّفت بركة مياه صغيرة على الأرضية الخشبية. وضعت يدي على مزلاج الباب ثم استدرت لأنظر إليهما. كانا يقفان تمامًا كما كانا من قبل، جنبًا إلى جنب، يده حول خصرها، لكنهما كانا يسترقان النظر يحدّقان بي، كما لو أنهما يريدان التأكد أنّني غادرت فعلًا.

خرجت ورحت أسير إلى المنزل. استغرقتني الرحلة ساعات، مشيتها تحت مطر لم ينقطع، لكن كان هذا ما أحتاجه تحديدًا في هذه اللحظة. كنت بحاجة لأن أشعر بالمياه تبلّل حذائي، وتخترق جواربي فتتجعّد قدماي. كنت بحاجة لأن أشعر بالريح تعصف بي وتقتلع مظلّتي من يدي، فأضطر لمصارعتها. كنت بحاجة لأن أمشي، وأدوس، وأشعر بالمياه تتناثر فوق كاحلي، بينما يكشط كوعي عظام وسطي.

وقفت خارج باب شقتي، أبحث في حقيبتي عن المفتاح، وعندما وجدته ودخلت، كانت كمية من المياه قد سالت على السجاد حتى لتشكّلت بقعة على النسيج الرمادي اللون جعلته رطبًا مائلًا إلى البنّي. أخذت حمامًا ساخنًا وأدرت المدفأة واستلقيت في السرير، من غير أن يبلغ النعاس مقلتيَّ. كان لا بد لي من أن أكون في مكان آخر. لندن فاحشة الكبر وكثيرة الضوضاء، والناس فيها محمومو المشاعر مستنفَدون، وهواؤها مثقل ومشحون.

وضعت المنبّه، وكنت لا أزال على يقظة عندما أخذ يصدح في أرجاء غرفتي بعد ساعات. كانت الشمس قد أشرقت أخيرًا فتوجّهت لزيارة أمي -بإيجاز، لم تتعرّف إليّ، ولم أملك من الصبر ما يكفي لأن أتحمّل أسئلتها اللامتناهية وشططها العام- فاستقلّيت قطارًا ثانيًا، لا لأعود إلى المدينة، بل لأتوجّه بعيدًا، على خطى نسخة شابّة منّي.

وصلت إلى «بير» في بداية فترة بعد الظهر. كنت لا أملك سوى حقيبة ظهر صغيرة. توجّهت مباشرة إلى فندقنا، وبالكاد أعترف أن قدميَّ كانتا

تدفعانني في هذا الاتجاه. كانت غرفتنا شاغرة، لليلة واحدة، على الطابق الأول بنهاية الممر مع النوافذ التي تطل على البحر.

تركت حقيبتي على السرير وتوجهت خارجًا، نحو الشاطئ.

وقفت أحدِّق بالأمواج تتلاحق مدًا وجزرًا؛ كانت الشمس لا تزال في أوجها، ومع ذلك كانت الأمواج غاضبة، تتخبّط وتتكسر على شاطئ الحصاة.

سمعته يقول:»من هنا، فلنذهب من هنا».

استدرت نحو المنحدرات، أعيد رسم المسار الذي مشيته قبل أربع سنوات. كان الشاطئ مزدحمًا، يستقبل عائلات شابة في عطلة الصيف وأزواجًا مغرمين في العشرينات أو الثمانينات من عمرهم، أو ما بين بين. وقلة قليلة من النساء الشابّات كنّ بمفردهن، مع أنه لا يمكن أن أكون أول من يجلب إلى حضرة هذا الشاطئ وجع قلبه. وقد افترشت المظلّات وقصور الرمل المكان بأكمله، بينما الأطفال وقفوا يرتعشون في مناشف مقلّمة. أما مضارب تنس الريشة والسترات الواقية والمجارف، فتناثرت بألوانها الحمر والصفر والزرق.

مشيت بعيدًا عنها كلها. صعدت الطريق، على درب المسار المعبَّد. كانت النوارس لا تزال هناك، تزعق وترفرف بأجنحتها فوق رأسي، فرحت أتساءل ما إذا كانت تذكرني كما أذكرها أنا.

شعرت أنّني أكثر قربًا من جوناثان مما كنته في أشهر. لم أدنُ من منزلنا الصغير منذ صبيحة يوم سباق الماراثون: لم أعد يومًا. تم توضيبه وبيعه من دون أي تدخّل مني. ولا أزور أبدًا الأماكن التي نحبّها. لم أذهب إلى حانة ويندسور كاسل مذاك المساء، وبالكاد أمر في شارع أكسفورد سيركس. ومع ذلك، هنا، في مكان يرتدي حلة المألوف، شعرت وكأن وجعي يمكن أن يخفت.

بلغت المقهى في القرية المجاورة وجلست على المقعد نفسه،

ورحت أتفرّج على البحر من البقعة نفسها، ولكم أخافني كم تغيّرت حياتي. وكم كنت أمقتها. لكم تمنّيت لو أعود أنا الأخرى، تلك التي جلست هنا مع زوجها في بداية حياتهما معًا. كانت متفائلة -على عكس شيَمها- تتطلّع إلى ذكريات مستقبلية تجمعهما، ومنازل جديدة تأويهما، وأطفال وحياة من الضحك والحب. لم أرِدْ أن أكون تلك النسخة الجديدة مني: المريرة، الباردة التي تشعر دائمًا وكأنها انسلخت عن مرساة حياتها التي كان يفترض بها أن تعيشها.

أتمنى لو أستطيع أن أقول لك إنّني وجدت سبيلًا لتخطّي تلك النسخة من نفسي. أليس من الجميل لو أستطيع القول الآن إنّني وجدت سبيلًا للتخلّص من الحزن والغضب، وإنّني وجدت شيئًا يجعلني أكثر ثباتًا واستقرارًا وإحساسًا بالأمان؟ لكنّني لم أفعل. ليس بعد.

لم أجد أي صيّاد؛ لا بد من أنهم كانوا هنا في وقت باكر من النهار، عندما كنت لا أزال مستلقية في سريري أنتظر منبّهي، على بعد مئات الكيلومترات من هنا، في عالم يضج بزعيق السيارات ويعبق بالضباب. سرت على طول الشاطئ مجدّدًا، تحت المنحدرات، والحصاة تقرقع تحت نعليَّ، مبلّلة من مدٍّ ذاك الصباح.

لاحظت الفتحة عند قدم المنحدر المعشوشب. كانت الشجيرات الشوكية كثيفة، والفتحة بالكاد مرئية، لكنّني أعتقد أنّني كنت أبحث عنها، في محاولة مني لإيجاد سبل تقرّبني منه. أذكر أنه كان يسير إلى الأمام، يتعرّج مع المسار، يقفز فوق نبات القرّاص، ولا يكترث إلا للتسلق.

أخذت كامل وقتي.

كانت الأرض مبلّلة نتيجة المطر، والمسار لا يزال زلِقًا، والوحل يعلق بين الصخور وفي التجاويف حيث خفس المسار. وكانت جذوع فارعة الطول تظلّل الدرب بفروعها من كلتا الجانبين فرحت أتساءل كم يلزم الشمس حتى تجفّف هذه القطعة الصغيرة من المسار. لم يكن

بإمكاني أن أرى البحر، لكنّني كنت أسمعه. لم يكن بإمكاني أن أرى النوارس، لكنّني كنت أسمعها أيضًا. كنت وحيدة، لكنّني كنت أعلم أن العالم لا يزال موجودًا هناك، على بعد دقائق معدودة مني.

سرت على درب الخطوات المحفورة في الأرض، متوجّهة يسارًا نحو الضفة في الأعلى. تلك كانت الطريق التي اخترتها في المرة الأولى. أخذتني بعيدًا عن جوناثان، وإن لدقيقة واحدة أو اثنتين. لكن الآن، ما من شيء لست مستعدة لأن أتخلّى عنه -ما من تضحية فائقة- مقابل دقيقة واحدة أو اثنتين نجتمع فيها.

قرّرت أن أستدير يمنة. في هذا الاتجاه، لا خطوات، مجرّد درب موحل، بات الآن أكثر جفافًا كلما صعدت أكثر، لكنه لا يزال زلِقًا وغير ثابت. رحت أتخيّل أين وطأت قدماه ورحت أضع حذائي مكان خطواته التي اضمحلّت منذ زمن بعيد. وحشرت نفسي على حافة المنحدر، متسائلة إن مر جسمه من هنا، فعانق تلك الصخور على وجه التحديد. وتذكّرت إحساس يده على ظهري. كان قلبه لينبض بهدوء وثبات، بينما قلبي يتخبط في صدري.

رأيت نبات القرّاص أمامي، ومع ذلك، كنت واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام هذه المرة. كانت السماء من فوقي تمتد بعظَمة زرقتها، صافية تغيب عن أفقها أي غيمة، ومع أنّني لم أكن يومًا شخصًا روحانيًا -على الإطلاق- إلا أنّني أدركت أنه في الأعلى، يرافقني. استدرت، وقد أسندت ظهري على الصخرة، وسرحت بنظري إلى البحر، حيث الأمواج تتكسّر في الأسفل. شعرت بنوع من الدوار، كما لو أنّني ثملة، وأحسست بدوخة من فرط الأدرينالين.

خلتني أستطيع القيام بالأمر. خلتني أستطيع أن أتحلّى بالشجاعة التي تحلّى بها في ما مضى.

لكنّني كنت على ضلال.

واصلت التسلق، وراحتا يديّ تتعلّقان بالمنحدر إلى اليسار، وقدماي، واحدة أمام الأخرى، في خط مستقيم، على أكبر تماس ممكن مع الصخور. رحت أتقدّم بحذر فوق القراص، وعيناي شاخصتان إلى الأعلى، أنظر إلى الأمام.

«سألاقيك في الأعلى»، همست، لذاتي على وجه الخصوص، إنما للفضاء الشاسع فوق البحر أيضًا. وأضفت، «يومًا ما، سأجدك وألاقيك في الأعلى».

لاحظت أن يديَّ كانتا ترتعشان قليلًا، ووجدتني على حين غرّة أبكي. تنفَّسي، رحت أقول لنفسي، لكنّني لم أجد لذلك سبيلًا. كان الهواء يصطدم بخلايا حلقي، واكتشفت أنّني أتنشق، وألهث، مرارًا وتكرارًا. وواصلَت أنفاسي تزفر من رئتيِّ وتتجمّد في فمي، متدافعة بسرعة وصعوبة حتى بتّ أرتعش ارتعاشًا، كما لو كانت عظامي تنفصل بعضها عن بعض.

حاولت أن أوازن جسدي المرتعش على حافة المنحدر، أن أُبقي قدميّ ثابتتين في مكانهما، لكنّني لم أستطع. فتقلّصت على نفسي، وجلست، في محاولة لأن أكون أصغر ما يكون، وعلى أمل ألّا أقع. وبقيت مكبّلة هناك، حتى استكان جسدي، ما خلا الأنفاس الهادئة التي كانت تلهث في صدري، كما الحازوقة، مرّة ثم أخرى ثم أخرى.

أخيرًا، وقفت وأعدت رسم خطواتي نفسها، في خط الرجعة، أمرّر يدي على الحافة الصخرية، من دون أن أفكّر، ومن دون أن أشعر، بل أبذل قصارى جهدي كي لا أتألم. ثم سلكت الدرب الأخرى –الخطوات إلى اليسار، درب المرة الأولى– وصعدت إلى الأعلى.

لقد فشلت. مرّة أخرى.

صعدت إلى أعلى المسار المعشوشب. وجلست ممدِّدة ساقي أمامي، مواجهة البحر.

ثم شرعت بالبكاء.

قليلة هي علاقات الحب التي خضتها في حياتي، لكن من الإنصاف القول إن أعظم حب عشته قد عُمِّد بالموت. لقد كنت أعشق جوناثان عندما مات. لم تصبنا الأمواج المتلاطمة، ولا صرعتنا صدمات الحياة الحادة الطويلة الأمد. ولم نعانِ تكرارًا مبتذلًا لحياة لم تعرف إلا حبًا عاديًا. بل كنا لا نزال مهووسين أحدنا بالآخر؛ وأكثر ما كنت أعشق - تحذلقه، وسرعة بديهته، وطريقته الفريدة في طي جواربه، وشعره الأشعث في الصباح- أمورًا لم تغدُ بعد مملّة أو منفِّرة.

لو أردت أن أكون بكامل صراحتي، لا أعتقد بصدق أنها كانت لتغدو يومًا مملّة. كان دائمًا الأفضل. عندما كان يسكب كوبَيْ عصير ليمون في الصباح فيعطيني الكوب الأول ويحتفظ بالثاني لنفسه، لأنه كان يعلم أنّني لا أحب العصير الأكثر كثافة ومرارة أسفل العبوة. وعندما كان يسمح لي باستعمال قفازَيه لأن يديّ باردتان مع أنه لا شك في أن يديه كانتا باردتين أيضًا. وعندما كان يقود لمسافات طويلة، لأنّني أرفض أن أتعلّم القيادة، لأنّني أكره فكرة جلوسي بلا حركة لفترة طويلة.

وعندما كنت أعود إلى المنزل من عملي، لتدغدغ أنفي رائحة المنظّف وملمّع الأثاث، فأدرك على الفور أنه نظّف المنزل بأكمله كي يعفيني من هذه المهمة، بينما كنت أقضي وقتي مع مارني، أتسلى وأشعر بالسعادة. وعندما كان يطفئ الأنوار كل ليلة عندما نخلد للنوم، حتى لا أضطر إلى صعود السلالم في الظلام. كان يحبني بألف طريقة وطريقة. كان يؤمن بحب يثبت نفسه، مرة تلو الأخرى، بحب موجود وكريم لا يفقد قيمته في أدنى تفاصيله. ذلك الحب أصيب بالجماد كما أصبح إلى الأبد عندما رحل.

كانت مارني حبّي الثاني العظيم. ومع ذلك، شعرت أنّني خسرتها هي أيضًا. لكنّها كانت خسارة من نوع آخر. لقد اختفى جوناثان فجأة ودفعة

واحدة. أما هي، فكانت تذوي قطعة قطعة. وأنا كنت الرمل: صلبة، ثابتة، عالقة في نقطة واحدة. وكانت هي البحر: ثمّة من يمتصّها منّي، قوة أكبر منّا نحن الاثنتين، تشفطها بعيدًا عني.

ثمّة لحظة قد تكون اختارتني فيها. كان يمكنها أن تسأله الرحيل عوضًا عنّي. كان يمكنها أن تبتعد عن ذراعه الملتفّة حول خصرها. ومع ذلك، لم تفعل. لأنها صدّقت ما قاله، صدّقت أنه بريء، وأنّني أنا الكاذبة. ثمّة كوارث طبيعية تكون على درجة من الدمار حتى ليستحيل بعدها استعادة ما فقد جرّاءها.

وقفت ورحت أمشي على طول الحشائش عائدة أدراجي إلى الفندق. فكّرت بتسديد الفاتورة والتوجّه مباشرة إلى لندن. لكنّني كنت قد التزمت بتسديد ثمن الغرفة، لذلك أفرغت حقيبتي الصغيرة وملأت حوض الاستحمام بمياه ساخنة لاهبة حتى تكوّن البخار وشكّل طبقة ضبابية على الصنابير المعدنية والمرآة واجتاح الغرفة بأكملها. نزعت ملابسي وانزلقت تحت المياه، أشعر بها تشد شعري، بينما صعد وجهي مجدّدًا إلى سطحها. كانت الشمس قد باتت خجولة في السماء، تزيّن البلاط بظلّها. تناهت إلى مسامعي أصوات من الطريق تحت شبّاكي؛ فتاة صغيرة تصرخ بفرح وضحكة رجل راشد يتردّد صداها في الأرجاء.

وقفت في الحمام، والمياه تلتفّ حول بطّتي ساقيّ، فأخذت أسترق النظر من وراء الزجاج المرقّط، أضغط بجسمي على الجدار كي أحفظه بعيدًا عن الأعين. كانت فتاة صغيرة، لربّما في السابعة أو الثامنة من عمرها، وكانت لا ترتدي سوى زي السباحة. وكان والدها يرتدي سروالًا قصيرًا للسباحة، لا يزال مبللًا، والمياه تسيل من حافة قميصه، فتذكّرت عندما كنت أمشي مع والدي هكذا، أيام عطلات البحر في كورنوول، بعد يوم كامل قضيناه في الرمال. وكانت امرأة -والدتها- تسير وراءهما، وقد لفّت منشفتين حول كتفَيها، بينما تتأرجح سلة منسوجة كبيرة بالقرب

من كاحليها. بدأت الفتاة تضحك مجدّدًا، وانحنت حتى وسطها، انحنت حرفيًا بالكامل، غير قادرة على المشي نتيجة إفراطها في الضحك. وكان والدها يضحك أيضًا- يضحك على شكلها-، يضحك على فرَحها، يضحك على جرأتها، يضحك على ضحكتها الصارخة. لكم أردت أن أكون جزءًا من هذه العائلة.

سحبت المبذل، ثم أخذت مجفّف الشعر من تحت المغسلة، وعدت إلى غرفة النوم. وضعته في الكهرباء. سأجفف شعري. ثم أرتدي ملابسي. سأكون جزءًا من هذه العائلة.

لا أعني ذلك حرفيًا. لن أكون حرفيًا جزءًا من هذه العائلة.

لكنّني كنت مصرّة أن أكون جزءًا من شيء غير ذاتي.

مشيت على طول الممر باتجاه ردهة الاستقبال. ثم خرجت من الأبواب إلى الطريق الضيقة، التي تنتهي بجانبيها إلى طريقين فرعيين صغيرين. كانت الأنوار ساطعة في كل مكان: في الحانات وفي المطاعم وفي الفنادق الأخرى. مشيت نحو البحر، على طول ممر بمنحدر حاد نحو شاطئ الحصاة. كان الأولاد عراة باستثناء منشفة حول كتفيهم، يقفزون، ويركضون إلى الأعلى ثم يعودون لملاقاة أهلهم، الذين كانوا يسيرون بوتيرة أكثر تباطؤًا وقد أنهكهم نهار طويل قضوه على الرمل وفي البحر يلعبون. وكان ثمّة رجلان يحملان مظلّات شمس وسترات واقية وقد ارتفعت النظارات الشمسية فوق رأسيهما.

وامرأتان شدّتا شعرَيهما في ضفيرة، ومثلثات زي البيكيني المبلّل تبدو واضحة تحت قمصانهما. حاولت أن أتخيّل نفسي مكان إحدى هاتين السيدتين، حقيبة على ظهري، وأطفالي يدورون من حولي، والرمل محشو في أكواعي، ولم يسعني إلا أن أتخيّل جوناثان إلى جانبي، يحمل فوق كتفه مظلّة مزركشة بألف لون ولون.

حتى في تلك اللحظة، لم يكن بإمكاني أن أتخيّل مستقبلًا لي لا يكون

هو جزءًا منه. الأمر الذي كان غاية في السخافة. لأنه في تلك اللحظة، كان قد مضى على وفاته أكثر مما مضى على تعارفنا.

ومع ذلك، يبدو وكأن الوقت لم يمض.

قبل أن يرحل، لم أعِر فكرة الترمّل الكثير من اهتمامي. مع أنه لو سألتني في ذلك الحين عن رأيي، لكنت قدّمت إجابة واثقة معتبرة. فقد خسرت أجدادي وكنت أعي جيدًا ثقل ذلك الوجع العائلي. فتلك الخسارات كانت جوهرية -نتاج حيوات طويلة عاشوها بالطول والعرض- ومع ذلك، لم تكن تلك الوفيات بالمأساة. فحادثة وفاتهم بحد ذاتها، لم تكن بذات أهمية. لم يصبحوا أشباحًا.

أما جوناثان، فبات شبحًا. لا أزال أذكره في كل حوار لي. لا أزال أستحضره في كل جلسة حول مائدة. أنا المرأة الشابة التي توفّى زوجها. كان شبحه يجلس إلى جانبي في الأفراح -*هل تعرف أنّها كانت متزوّجة؟*- نعم، *كانت متزوجة، لكن زوجها مات* -وفي الأتراح- دفنت *زوجها قبل سنوات قليلة، هل كنت تعرف هذا؟* نعم، *توفّى زوجها.*

إنه هناك في كل مستقبل، وفي كل أمل، وفي كل حلم.

يطاردني، دائمًا وأبدًا.

الفصل الخامس عشر

زرت إيما وأنا في طريقي إلى منزلي. كانت تعيش في استديو جنوب النهر، يقع على بعد عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام من أقرب محطّة قطارات، وعلى بعد عشر دقائق من أقرب محطة باصات، مقابل موقف للسيّارات غير مضاء. لم أكن أملك ما يكفي من المال كي أدّخر، لكن حتى مع مساهمتي الخجولة، والدفعة المتبقّية من حساب أمي، كان هذا كل ما تستطيع إيما تكبّد ثمنه.

تقرّبنا من بعضنا البعض أكثر مذ غادرت منزل أهلنا. فبعيدًا عن أمي -التي لطالما أصرّت على أن تشارك في أي نشاط نقوم به معًا- اكتشفنا أنّنا نحبّ فعلًا بعضنا البعض. كانت ملفتة في صدقها وصراحتها، كما وحدها الأخت تستطيع أن تكون. وأعتقد -وأتمنّى ألا يبدو ذلك وضيعًا- أن احتياجها لي كان مجزيًا بالنسبة إليَ.

لم تعد تعمل بانتظام. لقد عملت محرّرة مستقلّة لفترة من الزمن، وكانت منهمكة بعملها ليل نهار، حيث تكدّست المخطوطات على البلاط المشمّع، تعمل بكد من أجل الالتزام بالجداول الزمنية، وكان يزداد الطلب عليها. وكانت تنكبّ على عملها، تصب كل تركيزها عليه، لا تهاب أبدًاالمشاكل، ولا طرح الأسئلة الصعبة. لكن تركيزها قد تراجع، وبدأت تستغرق وقتًا مطوّلًا في كل نصٍّ، لا تقوى على اتخاذ قرار، وتخشى أن يفلت منها الإيقاع، حتى توقّف الجميع عن تكليفها بمشاريع جديدة. فانتقلت عندئذ إلى العمل في معظم وقتها مع الجمعيات المحلّية. لكنه كان عملًا طوعيًا.

وقفتُ على الشرفة أمام شقتها وطرقت على الباب الأحمر الصارخ. كان الجرس موصولًا بإطار الباب، لكنه لم يعمل يومًا.

راحت تصرخ عندما طرقت للمرة الثانية. «ا أنا آتية، التزم أيها الطارق بعض الآداب».

عندما فتحت الباب قالت، «آه، لم أتوقّع حضورك».

أجبتها: «هذا واضح، هل هكذا ترحّبين بالزوار؟».

كان الباب الخارجي يفتح على الغرفة الواحدة: الصالة، والمطبخ، وغرفة الطعام وغرفة النوم، كلّها متشابكة في مساحة صغيرة واحدة. كان المطبخ في إحدى الزوايا؛ وكانت الخزائن البيض جديدة نسبيًا، إنّما بلاط الأرضية تحوّل برتقاليًا. أما الستائر، فمصنوعة من البلاستيك، تجمع في ما بينها حبال بيض رفيعة. وكان ثمّة طاولة جانبية صغيرة، وأريكة، وجهاز تلفاز صغير، وخزانة ملابس وبضعة رفوف للكتب. وإلى جانب الباب الذي يقود إلى الحمّام الصغير، في إطار فوق المدفأة، رسم ضخم لامرأة نحيلة جدًا. لم يكن ذلك بالكثير، لكن إيما لم تحتج يومًا للكثير.

قالت: «لا يزورني أحد، باستثناء من يحاول بيع بعض البضائع». ثم تراجعت لتفسح لي المجال للدخول. «لماذا أنتِ هنا؟»، سألتني.

«يا للكياسة»، أجبتها.

«لا أعني بهذه الطريقة».

«كنتُ في بير».

«بير؟ في ديفون؟».

«حيث ذهبنا أنا وجوناثان. هل تذكرين؟».

«ولماذا ذهبت إلى هناك؟».

«تشاجرنا أنا ومارني».

«أخبرتِها».

أومأت برأسي إيجابًا.

أشارت باتجاه الأريكة.

«طلبت منك ألا تتفوّهي بكلمة»، قالت لي.

فأجبتها، «كان عليّ ذلك».

«بالطبع لم يكن عليك ذلك»، قالت وهي تأخذ ثلاث قطع بسكويت بالشوكولاته الداكنة من علبة، وتضعها أمامي على محرمة. «انتبهي إلى الفُتات».

أومأت برأسي وجلست على طرف الأريكة الرمادية اللون التي كانت تفتحها لتحوّلها إلى سرير كل ليلة.

وأضافت قائلة: «كان بإمكانك أن تدّعي أن الأمور طبيعية، كما طلبت منك. لما كنت وجدتِ نفسك في هذا الوضع».

«لكن كان عليها أن تعرف حقيقة زوجها. ألن تطلبي أن تعرفي حقيقة زوجك؟». بدا لي بديهيًا أنه لو كان ثمّة شيء لا يقال ومع ذلك يفترض قوله، فلا بد من قوله.

جلست إيما على الأريكة بالقرب مني. ارتفع السروال عند قدمها قليلًا فظهرت العظام التي تشكّل كاحلها. أخذت كوب شاي دافئ بين يديها. قضمت من البسكويت الذي كان أكثر طراوة مما تخيّلته، كما لو كان رطبًا من الداخل.

كانت صامتة، تفكّر.

قالت بعد حين: «كلا، لا أعتقد أنّني أريد أن أعرف».

سألتها: «إن كان زوجك منحرف؟ ألا تريدين أن تعرفي ذلك؟ وتخيّلي لو كنتُ أنا أعرف أنه منحرف. ضعي نفسك مكان مارني. ألن تتوقّعي مني أن أقول شيئًا؟».

«لن أصدّقك»، أجابتني.

جلست منتصبة، فأفلتت بعض الفتات من المحرمة وسقط على أريكة إيما. انحنت لتنظّف المقعد.

سألتها: «ماذا تعنين؟ لما لا؟».

«لأن»، توقّفت قليلًا قبل أن تقول في النهاية، «آه، لا تكوني على

هذه الدرجة من البساطة. لو أخبرتك أن جوناثان قد تحرّش بي، لن تصدّقيني، ولا لحظة واحدة».

«كنت على الأقل سأصغي إلى ما لديك لتخبريني به ثم...».

«ثم تقفين في صفّه. تعرفين ما يقولون، وما يقوله الجميع دائمًا، ألّا تتخلّي عن أصدقائك من أجل رجل، لكن الأمر ليس بذات أهمية، إذ هذا ما يفعله الجميع. الصداقات شيء، لكن ماذا عن الحب الحقيقي، الحب الرومانسي؟ هذا شيء آخر ينسف كل ما سبق. ولطالما فعل. وسيفعل دومًا. قد تودّين التفكير عكس ذلك، لكنك كنتِ لتكرهيني».

قلت: «الأمر مختلف، جوناثان كان... لم يكن أبدًا لـ...».

قاطعتني قائلة: «آه، هذا ما يخاله الجميع. لهذا السبب، لا يمكنك أن تلوميها لأنها اختارته هو». وتنهّدت. «هم لا يدركون أنّهم يفكّرون على هذا المنوال، لكن هكذا هو الأمر دائمًا وأبدًا، كلّما وقعت واقعة لشخص آخر، ثمّة صوت صغير يهمس، *لكن الأمر لن يحصل لي*».

ضحكت وتساقط المزيد من الفتات من على قميصي. قلت: «يا للفخامة».

وابتسمت إيمّا. كان كلانا يدرك جيّدًا ما يعني أن نكون الأشخاص الذين تقع عليهم دائمًا الواقعة. لم تكن الأمور على هذا النحو في الجزء الأكبر من طفولتنا، لكن شيئًا ما قد تغيّر في مرحلة شبابنا. فقد أصبحت علاقة أبي بعشيقته ذائعة الصيت، وأصبحنا تلك العائلة، أولئك الفتيات، بنات ذاك الرجل. أصيبت إيما أولًا: أصبحت تلك الفتاة، الفتاة النحيلة، التي لا تأكل. وتوفّي زوجي. وغادر أبي. وتم تشخيص أمّنا. ربّما لحظة تبدأ -لحظة تصبح أحد هؤلاء الناس- لا يمكنك أن توقف العجلة أبدًا.

إيما وأنا نتشارك ونتّحد بفعل تاريخ من التحديقات والأسرار والهمسات. ربّما لهذا السبب اختارت كل واحدة منا أن تعيش حياة مجهولة في مدينة كبيرة تبتلعنا.

سألتها: «هل تعتقدين أنها ستسامحني؟».

فأجابتني: «لا أعرف».
«أعتقد ستفعل. أعتقد أنّني أستطيع أن أدفعها لذلك».
«هل ستقومين بتسجيل أفعاله ثم ترسلين لها الشريط؟»، سألت إيما ساخرة. لقد أحبّت تلك القصة.
«قلتِ إنك لن تأتي على ذكر هذا مجدّدًا، ولا، لن أفعل» أجبتها. كانت دائمًا تسخر مني، في محاولة منها للتخفيف من حدّة التوتّر بيننا.
فأصرّت قائلة، «لا بل كنتِ لتفعلي ذلك لو استطعت إليه سبيلًا. أنا أعرفك. لا يزال هذا أسلوبك. تتسلّلين في سكون المكان، وتختبئين في عتمة الخزانة. *التحري الأسود*. سررت بمعرفتك. *صفوف الفن القتالي* كلها. هل لديك زي أسود لاصق؟».
أجبتها: «إنه فائق الذكاء، لن يقول ما يورّطه».
« آه سحقًا، لقد فكّرتِ فعلًا بالموضوع».، قالت وغرقت في ضحكة مدوية.
«الآن ليس إلّا لأنك أتيت على ذكره». إنها هي لا محالة. كانت فكرتها، وها هي تلومني عليها.
«ارتاحي. أنت تملأين المكان بالفتات».
«لكنّك تعتقدين أن الأمر سيكون على ما يرام، أليس كذلك؟»، سألتها.
«ربّما. ستعود إلى رشدها في النهاية».
«ماذا تعنين؟».
«حسنًا، لن يدوم الأمر طويلًا، أليس كذلك؟ أعني الزواج؟».
«ما الذي يحملك على قول ذلك؟».
ضحكت إيمّا مجدّدًا. «أنتِ! كل ما قلتِه. كل ما قام به. الغطرسة، والثقة، والتكلف، والعبارات الطنّانة المزعجة التي تعتبر اعتداء صارخًا لكنه لا يراها على هذا النحو. العبارة المفضّلة لديّ هيتلك التي قالها عندما كان في الحانة. احتاج أن يحشر نفسه ويمر أمام سيدة فلم يقل

عذرًا كما قد يفعل أي رجل طبيعي، بل وضع يده على ردفيها ليدفعها جانبًا -هل تذكرين عندما أخبرتني الأمر- فاستدارت السيدة وسألته: «ما هذا؟ ماذا فعلتَ لتوّك؟». وكانت تستشيط غضبًا، وتصرخ في وجهه فأصيب بالذعر ونعتها بالغبية فقالت له اغرب عن وجهي. ربّما عليك أن تكثري من قول اغرب عن وجهي في وجهه».

أجبتها: «بالطبع، عندئذ مارني ستصفح عني بالتأكيد».

أجابت: «نقطة جيدة، وعلى كل الأحوال، لو واصل أناس آخرون القول له «اغرب عن وجهي»، فعاجلًا أم آجلًا ستصلها الرسالة. ارتاحي. سيُحَلّ الموضوع تلقائيًا.

ما رأيك؟ في أي صف قد يقف المرء في هذه الحالة؟ هل يقف في صفّي أو صفّه؟

سأفترض أن خيارك كان ليقع عليّ أنا، وبصراحة، من الغباء القول عكس ذلك لأنه قد مات.

أعتقد أنك لو تعرفت إليه، لو امتلكت تلك المساحة التي يمكن فيها تكوين رأيك الخاص، لكنت أصغيت إليّ، ووافقتني الرأي، ووثقت بي. أعتقد أنك كنت وجدته متعجرفًا محبًا للثأر. كنا لنجلس معًا ونسرد لائحة أخطائه العديدة، ونضحك على كل واحدة منها. كنتُ لأكون حليفتك.

لكن ذلك لن يحصل أبدًا. إذ لن تسنح لك الفرصة للتعرّف عليه أبدًا. لذلك، من الأهمّية بمكان بالنسبة إليك أن تصغي لهذه القصة. لن أقولها إلا مرة واحدة، ولا بد من أن تكون الآن.

هكذا مات.

أرجو الإنتباه.

الكذبة الرابعة

الفصل السادس عشر

أنهيت عملي باكرًا يوم توفّى تشارلز. أذكر ذاك اليوم جيّدًا، بوضوح تام، بكل جزء منه، من المنبّه الذي رنّ في الصباح، واكتشافي أن لا حليب أشربه مع رقائق الفطور، إلى لحظة وصولي متأخرة مساء تلك الليلة بعد حصول ما حصل. أستطيع أن أعيد شريط الصور كما في فيلم، وكنت أود لو أقول إنها تؤثّر بي، فتدفعني إلى الندم، أو الذعر أو الخزي، لكنها لا تفعل. لقد كان يومًا كسائر الأيّام، يمر مرور الكرام.

هل هذا صحيح؟ أبذل جهدًا بالغًا كي أكون صادقة. لكن أحيانًا، يصعب أن يعي المرء كيف يفكّر بصدق بأمر ما. على سبيل المثال، أتساءل إن كنت أخبرك أن اليوم كان رتيبًا لأنّني أفضّل ألّا أخبرك عن ذلك اليوم بالمطلق. لا يهم في كلتا الحالتين؛ لقد وعدتك أنّني سأخبرك الحقيقة ولا يمكن مناقشة الوقائع بحد ذاتها.

لقد كان العمل هادئًا على غير عادته في الأسابيع الأخيرة. وقد كانت أشهر فصل الصيف ماطرة فاقت توقّعات الأرصاد الجوية، لكن شهر سبتمبر جاء مشرقًا دافئًا. وكنّا نتلقّى اتّصالات أقل بعشرة بالمائة مما اعتدنا عليه في الفترة نفسها من السنة السابقة. لذلك أفترض أن الناس فضّلوا الخروج من منازلهم، يستمتعون في الحدائق والحانات والمنتزهات.

كان يوم جمعة وقرّرت أن أغادر باكرًا، قبل ثلاثين دقيقة من توقّف خطوط الهاتف رسميًا لعطلة الأسبوع. حملت بكل بساطة حقيبة يدي، بطريقة جدّ لا مبالية، وخرجت من المكتب. تساءلت إن كان سيلاحظ أحدهم غيابي لكنّني لم أعتقد أنهم سيفعلون ولا يهمّني في مطلق الأحوال.

كانت الطرقات هادئة. لم يبدأ بعد خروج المساء الجماعي من العمل. فكرت في التوجّه نحو محطة القطار المعتادة، والصعود في خط السير الذي يقودني إلى المنزل، ثم قرّرت عكس ذلك. في النهاية، كان يوم جمعة. وأنا لا أتوجّه أيام الجمعة إلى المنزل. كنت أذهب إلى مارني وتشارلز.

توجّهت نحو محطّة مختلفة. كانت طريقًا أطول، لكنّني لم أكن بحاجة لتغيير القطار في منتصف الطريق. انتظرت دقائق معدودة واخترت مقعدًا في الوسط، كي لا يزعجني الكبار في السن بعصا المشي الخاصة بهم، أو النساء الحوامل ببطونهن المنتفخة. كان شابَين يجلسان في الجهة المقابلة، يرتديان ثيابًا غير رسمية، هو في سروال رياضي، وبلوزة مناسبة، وهي في سروال ضيق وبلوزة زرقاء فضفاضة. كانا يبلغان حوالى السادسة عشرة من العمر -تساءلت إن كانا خارجين لتوّهما من المدرسة- وقد بدوَا رائعَين. كانا على درجة من الاستقلالية والانشداد الواحد تجاه الآخر. كان يضع يدًا على فخذها، في منطقة أعلى مما هو مناسب، ومع ذلك بدا الأمر رومانسيًا أكثر منه غير لائق. وكان رأسها يستند إلى صدره؛ أعتقد أنه بإمكانها أن تسمع ضربات قلبه. خفض ذقنه وراح يضغط بشفتيه على جبينها مرّة ثم أخرى، من غير أن يقبّلها فعليًا، إنما يلمسها لمسًا. كانا يبدوان وكأنّهما منفصلان بالكامل عن محيطهما، لا يكترثان لمن ينظر إليهما، بينما يتمنّى كل فرد أن يكون مثلهما، غافلًا عما يجري، هائمًا في الحب، بريئًا.

استحوذ مشهد الشابَين على انتباهي فلم أعد إلى أفكاري إلّا عندما وقفَا ونزلَا من القطار، فرحت أتساءل كيف سيكون استقبال مارني وتشارلز لي. هل سيسمحان لي بدخول الشقة؟ هل سيفتحان لي الباب؟ كنت معتادة على حمل مجموعة من المخاوف معي، مثل تلك التي تساورني. لكنها كلّها بدت الآن غير ذات معنى: حال أظافري، والقيل والقال في المكتب، والأمور التي تفوّهت بها أمي، وتلك التي لم تأتِ على ذكرها. لقد علّمني جوناثان أن أعبّر عن مخاوفي عبر وضعها في سياقها: فعلى سبيل المثال، أظافري لا تهم أحدًا غيري، حتى إن أسوأ الشائعات في المكتب لن تكلّفني أكثر من خسارة وظيفتي، وكلمات أمي لا يمكنني السيطرة عليها. حاولت أن أطبّق هذا المنطق على القلق الذي برز حديثًا، ومع ذلك، لم يؤدِ إلى التهدئة من رَوْعي، إنما ضاعف من حجمه. لأنه في السياق الأوسع، لا يعني الأمر ما إذا كانا سيفتحان لي الباب أو سيعاملانني بقسوة.

للأمر علاقة بمسار إحدى أهم العلاقات في حياتي. لم يعد بإمكاني التراجع كما كنت أفعل مع أمي، والإقرار ببساطة أنها في مكان رهيب. لم يعد بإمكاني الادعاء أن أسوأ محصّلة لن تطال إلا زاوية صغيرة من حياتي. لأن ثمّة عددًا لا يحصى من الزوايا الصغيرة التي يمكن إفراغها، قبل أن تتحوّل الغرفة جرداء فارغة.

لم نتكلّم أنا ومارني طوال أسبوع. قد لا يبدو الأمر وكأن تلك الفترة كارثية، لكنّها تفوق ما اعتدنا عليه من قطيعة أنا وهي. ففي المدرسة، كنا دائمًا معًا: تصدح ضحكاتنا في الباص، ونجلس جنبًا إلى جنب في مقعدين مجاورين، ونتناول الغداء معًا في قاعة الطعام. وفي الجامعة، كنا نتكلّم مع بعضنا البعض يوميًا، لأن أمورًا كثيرة كانت تجري، ولحظات عديدة، اعتبرنا فيها، أنها ستجد ذلك *مضحكًا*، *أو مثيرًا للاهتمام*، *أو* وثيق *الصلة* بشكل أو بآخر. وحتى عندما بلغنا سن الرشد، كنا نتواصل أقله مرة في اليوم، ليس عبر اتصال هاتفي وحسب، بل أحيانًا عبر رسالة

نصّية أو إلكترونية، أو مجرّد صورة، لكن -كما الأطفال الذين يتواصلون عبر الأكواب الورقية وحبل يمتدّ عبر نوافذ غرف نومهم- كانت ثمّة قناة اتصال لا تنقطع بيننا.

لم أكن أعرف كيف أستعيد محادثة ما. وكلّما فكرت بالأمر، شعرت بموجة ذعر تجتاحني. لم أكن أريد أن أقرّ لنفسي أنها أجبرت على الاختيار، ولم تخترني أنا. لم أكن أريد أن أعترف أنها طلبت مني، للمرّة الأولى، أن أغادر شقتها. لم يكن بوسعي أن أبدأ بالتفكير أن ما حدث قد لا يمكن إصلاحه. أردت أن أرسل لها صورة عن عشائي الذي كان يتألّف من توست وحبوب الفاصوليا، أو عن الشمس بينما تنغمس في أفق البحر، أو عن الخصلة الغريبة في شعري ذلك اليوم.

فكرت في النزول من القطار، والعودة أدراجي عوضًا عن ذلك. كنت لأكون على ما يُرام في المنزل، على ما أعتقد. كنت لأطلب الطعام وأشاهد فيلمًا سينمائيًا. لكنّني لم أفعل. أردت أن أرى مارني. كنت بحاجة لأن أرى مارني.

كنت تائهة بين الادعاء أنّني مرتاحة على وضعي -كانت محطة القطارات مألوفة بالنسبة لي، والسير مشيًا على الأقدام مألوفًا، والمبنى مألوفًا- وبين سيل الذعر الذي كان يجتاحني. وكنت على يقين، أنا أكيدة، أنها لن تضحّي بصداقتنا بالكامل. ومع ذلك، أتساءل الآن إن كنت على درجة الثقة التي كنت أخالني أتمتّع بي.

لو كنت أكيدة، لو كنت أكيدة بما يصل حدّ اليقين، هل كنتُ فعلت ما فعلته؟

«مرحبًا، سيّدتي»، قال لي الناطور بينما كنت ألج المبنى.

«مساء الخير يا جيريمي»، أجبته وأنا أبتسم. لم يقف ويمشي باتجاهي ويعلن أنه لم يعد مرحّبًا بي في هذا المبنى ويطلب مني المغادرة على الفور، لذا بدأت أشعر ببعض الراحة بينما كنت واقفة أنتظر المصعد.

كنت آمل أن يكون تشارلز لا يزال في عمله، حتى أتمكّن من التكّلم مع مارني بمفردنا، وأشرح لها الوضع كما كنت أراه. كنت أكيدة أنّني أستطيع أن أجعلها تفهم.

كان المصعد شاغرًا، فأخذت أتأمّل وجهي في المرايا بينما يقودني صعودًا. أعتقد بأنّني لطالما رأيت أن مصير مارني هذا المستوى من الحياة، أرضيّات خشبية، وشمعدانات ونواطير ومصاعد بمرايا زجاجها نظيف يلمع، لا تشوبها بصمة ولا لطخة.

اقتربت من بابهما وقرعت الجرس، لكن لم ألقَ أي إجابة. كانت اللمبة العلوية مطفأة، وكان ظلّي يكتنفني، بينما أقف في بركة رمادية اللون، يحيط بها من الجانبين ظلالٌ ذهبيةٌ ناجمة عن الأنوار من الأبواب المجاورة. كان المشهد غاية في الجمال، ظلمة بين نور، ومثيرًا للقلق نوعًا ما. وقفت أتأرجح من ساق إلى أخرى، أنتظر ما بدا وكأنّه فترة زمنية مناسبة قبل أن أقرع الجرس مجدّدًا، لفترة أطول هذه المرة.

مرّة أخرى، لا جواب.

ضغطت أذني على الباب. أردت الإنصات لصوت مارني أو للراديو أو لصوت السيارات تمر سريعًا تحت شرفتهما. لكنّني لم أسمع إلا صوت بشرتي تخدّش الباب الخشبي الضخم. تراجعت قليلًا ورحت أمرّر نظري من جانب إلى آخر. لم أجد أحدًا؛ لا مقيمًا ولا زائرًا لأي من الشقق الممتدّة على طول الرواق.

رحت أفتش في حقيبة يدي: كنت على ثقة أنه لا يزال هنا. لم أستخدمه منذ فترة طويلة -إذ لم أحتج لذلك- لكنّني خلته قد يفيدني يومًا ما، فاحتفظت به. وجدت المفتاح في أسفل الحقيبة الصغيرة المخاطة في الجيب الداخلي لحقيبتي، ذلك القسم المخفي حيث أحتفظ بالمسكّنات والفوط الصحية ومرطّب الشفاه.

توقّفت مجددًا، أصغي لأي حركة، ثم أدخلت المفتاح في القفل. ثم

سحبت يدي، ونظرت من حولي، أتأكّد مرة أخرى من خلو المكان من أي جار. كنتُ لا أزال بمفردي.

أريد أن أؤكّد هنا أنّني لم أكن أخطّط لأي فعل شر. لم أكن أدري في تلك اللحظة ماذا سيجري لاحقًا، فما من سبيل لي كي أعلم. وأفترض أنّني لم أكن أفكّر حقًّا بهذا الأمر، ليس عندما تذكّرت أنّني أملك المفتاح، ولا لاحقًا عندما وجدته.

كما أود أن أقول إنّني أردت أن أترك بعض الورود، أو ربّما أترك بطاقة جميلة. كنت أود حتى لو أمكنني القول إنّني أخطّط لإعداد وجبة لهما، طبق مميّز.

لكنَّ هذه كلّها محض أكاذيب -من النوع الذي سبق وحذّرتك منه-، تلك التي تبلغ من الإثارة ما يجعلك على وشك الإيمان بها وتصديقها.

لم أكن أملك أي سبب يحملني على التفكير أن تشارلز سيموت بعد أقل من عشر دقائق.

ودخلت. أفترض أنّني كنت أخطّط -ومن المهم معرفة هذا الآن، وفهم نواياي- لأن أنظر سريعًا إلى الأسفل ثم إلى الأعلى، قبل أن أتوجّه إلى الرواق لأنتظر عودة أحدهما إلى المنزل. لم أكن أنوي أن أحرّك أي غرض أو آخذ أي شيء أو أتجاوز ترحيبي.

ولم أكن بالطبع أخطّط لقتله.

كنت أخطّط للتحقّق من المطبخ. أردت أن أبحث في البراد. كنت سأعلم إن كان مرحَّبًا بي. لو كان لديها حبيبات فريز مخزّنة في درج الخضروات، فهذا يعني أنها تتوقّع مجيئي. ولو كان لديها علبة آيس كريم غير مفتوحة في الثلاجة، فهذا يعني من دون أدنى شك أنها تقف إلى جانبي. لن تشتري الأيس كريم لسواي. وكنت لأدرك أن الأمر لم ينتهِ بيننا، وأن صداقتنا لم تتفكّك بالكامل، وأنها غير مستعدّة للتخلي عني.

كانت صورنا معًا موضوعة على رف الموقدة في غرفة المعيشة،

وصورة جديدة، من حفل الزفاف، في إطار فضّي على حافة السلالم. لو اختفت هذه الصور، فكان لا بد لي من أن أشعر بالقلق. وثمّة أغراض قد اشتريتها لها على مر السنين: من مظلّة أرجوانية اللون لطالما استندت إلى الخزائن تحت السلالم، إلى مصباح زهري اللون على مكتبها، وساعة وقواق في الحمّام السفلي.

أعتقد أنّني كنت آمل أن أجد دليلًا على تغيير لحق بعلاقتهما خلال الأيّام السبعة الماضية. لكان جميلًا، على سبيل المثال، لو وجدت خزانة تشارلز فارغة، وملابسه وأحذيته وبزّاته قد اختفت، ومجلّاته وكتبه وأقراصه المدمجة قد أزيلت من على طاولة سريره الجانبية.

كنت أتخيّل مارني عائدة إلى المنزل، وأنا، وقد عدت إلى موقعي في الرواق، أنتظرها. كنت لأدّعي أنّني لم أعلم بعد؛ وأن لا سبب يدعوني للاعتقاد أنها فضّلتني عليه. وستغرق هي في موجة بكاء، وتعترف لي، وتقول إن الأمور لم تكن سليمة معه، وإنّها لطالما أحسّت أنه يسعى لفرض سيطرته عليها وإنه يكون أحيانًا بعيدًا والحمد لله أنني تحلّيت بما يكفي من الشجاعة لأكون صادقة معها.

لكنّني لم أصعد إلى الأعلى ولم أبحث في خزانة تشارلز. لم أتوجّه إلى المطبخ ولا نظرت في الثلاجة. ولم أنظر إلى رف الموقدة. لم أبلغ هذا الحد.

الفصل السابع عشر

في تلك الفترة، كُتبت مقالات صحافية أخذت تؤكّد عكس ذلك. فراحت توحي بأنّني تلاعبت بالوضع بعناية بالغة، ملمّحة إلى أنّني قد ارتكبت جريمة كاملة. لكن هذا ليس ما حدث.

فتحت الباب، بعناية مطلقة، لئلا أحدث ضجّة، أو لتكون حركتي على أكبر قدر من الخفّة. ودخلت الشقّة، وأنا أستدير لأمسح الرواق بنظري مرّة أخرى إضافية. لم أكن أريد أن يراني الجيران، ثم يذكرون، عرَضيًا، في الأسابيع القليلة المقبلة، الفتاة الشابة التي ظهرت وسمحت لنفسها بدخول الشقة. لحسن الحظ، كنت بمفردي. أغلقت الباب بسرعة ووضعت السلسلة. لربّما قمت باحتساب ذلك قليلًا. فلو عادا، كنت لأهرع وأتناول المرشة من تحت مغسلة الحمام، وأدّعي أنّني كنت أهتم بالنباتات. أو لربّما كنت لأسرع إلى المطبخ وأضع إبريق الماء على النار، أو ربّما أبدأ بالغسل -أو أقوم بأي شيء مجدٍ أو ربّما مقبول- حتى لا يجداني وأنا أعبث بأدراجهما.

كانت الأنوار في الشقة مطفأة. احتجت لبضع ثوانٍ حتى أعتاد الظلمة. لم أره مباشرة. لم ألحظه هناك عند عتبة السلالم.

قفزت واصطدم ظهري بالباب، لترتطم أضلعي السفلية بالقبضة. انحنيت تلقائيًا إلى الأمام، فانزلقت حقيبة يدي عن كتفي، وقرقع القفل المعدني وهو يقع أرضًا. نظرت إلى أغراضي تتبعثر وتتدحرج على الخشب: أحمر شفاه، ومحفظتي، ومفاتيحي، محدثة ضوضاء عاليًا.

تساءلت إن كان ميتًا. وشعرت بإحساس غريب من الفرح -نوع من الإثارة- كما لو أن ذلك ليس أسوأ ما في العالم.

وعندما نظرت مجدّدًا، كانت عيناه شاخصتين. كان مستلقيًا على

ظهره، لكن كاحله الأيسر مفتول وكتفه ملويّة بزاوية غريبة. وكان ثمّة بقعة دماء جافة على جبينه، وبقعة أرجوانية اللون داكنة على الأرضية الخشبية. كان يرتدي سروال النوم من الفلانيلا الزرقاء المقلّمة، وفوقه قميص صوفي فضفاض. لم أره يومًا يرتدي ملابس يومية كهذه.

راح يئن.

شعرت للحظة بخيبة أمل تجتاحني عندما اكتشفت أنه لم يمت فعليًا. ثم تحوّلت خيبة الأمل تلك إلى نوع من الغضب.

أليس هذا من شيم تشارلز وصفاته أن يبقى على قيد الحياة؟ أي سقطة مماثلة قد تقتل أي شخص آخر لكن لا، ليس تشارلز. فإصراره كبير، وهو دائمًا هنا، لا يبارح مكانه، حاضر دائمًا وأبدًا.

سعل سعالًا مخنوقًا.

«جاين»، صاح بصوت أجش.

ثم تنحنح وجفل بينما راحت حركة صدره ترسل تردّدات عبر كتفه.

«آه جاين، الحمد لله».

أشعلت الأنوار فراح ينظر بعينين مطرفتين مرّات عدة متتالية.

راح يخبرني. «وقعت، لا أعلم متى... كنت... كم الساعة الآن؟ كتفي. لقد انزاح من مكانه. و... لم أستطع النهوض. كاحلي. أعتقد أن ظهري... آه، أنتِ هنا. كم أنا مسرور بمجيئك. هاتفي. سيارة إسعاف».

أخذ يفرك جبينه. كان مربَكًا. لربّما لأنّني كنت لا أزال واقفة لا أُقدِم على أي حركة، وظهري يستند إلى الباب ومحتويات حقيبتي متناثرة عند قدميّ، لا أقوم بأي فعل قد يقوم به أي شخص طبيعي في حالة مماثلة.

أذكر أنّني رأيت جوناثان يطير. لقد سلبت سيارة الأجرة قدمه منه ودفعته قوة الارتطام إلى الأمام وعلى الرصيف على بعد أمتار عدة. لم أفكر حينئذ كيف أتصرف! بل ركضت تلقائيًا إلى جانبه، وجثوت أمامه، ألمسه، أحاول أن أوقف نزيفه، أبحث عن الكسور، كما لو أنّني أملك القدرة على إنقاذه. أردت أن أصعد إلى داخل جسده. أردت أن أرمّمه من الداخل. كنت أصرخ

عليه -بطريقة محمومة مجنونة، كما يظهر في الأفلام- وأطلب منه أن يبقى معي، أن يبقي عينيه مفتوحتين، ألّا يخاف، أن كل شيء سيكون على أحسن ما يرام، لو أمكنه أن يبقى معي، أن يبقى معي.

لكنّني لم أهرع لنجدة تشارلز. لم أطرح عليه الأسئلة، السؤال تلو الآخر، حول ما جرى وأين يتألّم وما بوسعي أن أفعل له. لم أمسك هاتفي عن الأرض أو أقترب لأحمل هاتفه الذي كان مرميًا على بعد أمتار قليلة منه بعيدًا عن مناله.

لم أكن أؤتي بأي حركة.

«جاين»، قال. كان جبينه معقودًا، وعيناه شاخصتين مذعورتين، وكان ينزف مجدّدًا عندما رفع رأسه عن الأرض قليلًا فأعاد فتح الجرح.

«تشارلز»، أجبته.

فقال لي: «جاين، أحتاج للمساعدة. هل يمكنك الاتّصال بأحد؟ اتّصلي بالإسعاف. أو فقط... أعطني هاتفي، لو سمحت. إنه هناك. لو أمكنك...».

كان يفترض بي أن أتّصل بسيارة الإسعاف. أدرك ذلك الآن، وقد أدركته في ذلك الحين. كان ثمّة رجل مرمي على الأرض، عظامه ملتوية، وجسمه مصاب، وجبينه ينزف، وكان من الواضح أنه بحاجة للعناية الطبية الفورية. ومع ذلك لم آتِ بأي حركة. كان فعلًا غريزيًا. كان رد الفعل اللاإرادي نفسه الذي خبرته مع جوناثان، لكنّه قادني باتجاه مغاير تمامًا. هناك، حاولت تلقائيًا أن أقوم بكل شيء. هنا، لم أفعل شيئًا.

قال: «جاين، أرجوك. أنا أحتاج حقًا لكي...».

قاطعته: «ماذا حصل بعدما غادرت؟ الأسبوع الماضي». وكررت، «عندما غادرت. ماذا حصل؟».

قد يبدو الأمر غريبًا، أنا أعلم، لكنه بدا لي منطقيًا. فلهذا أنا، في النهاية، جئت إلى هنا. لهذا السبب، سمحت لنفسي بدخول شقّتهما. أردت إجابة. أردت أن أفهم ماذا حصل. كنت بحاجة لأن أطمئن أن

الأمور ستكون على ما يرام، وأن مارني وأنا لا نزال صديقتين وأن علاقتنا ستستمر كما المعتاد.

قال: «هيا يا جاين، أحتاج للمساعدة». وراح يتلوّى وجعًا. «هل يمكنك... اعطني هاتفي فقط. رجاء يا جاين».

تقدّمت باتجاه الهاتف وركلته بعيدًا عنه. لم أكن أدرك أنّني سأقوم بالأمر حتى قمت به بالفعل. لم يكن جزءًا من المخطط. شعرت وكأنّني بطلة في فيلم، تلتقي عدوّها في أضعف لحظاته، وبدا لي ما فعلته الأمر الصائب. لذلك فعلته.

قلت له: «طرحت سؤالًا، هل يمكنك أن تجيب، لو سمحت؟».

أجابني: لا شيء، لم يحصل شيء. جاين. هيا، الآن... هذا جنون. أعتقد أنّني مصاب بارتجاج. كم الساعة؟ جاين. لا أدري منذ متى أنا هنا». سعل قليلًا فانقبض جسده على نفسه وراح يصرّ بأسنانه. «أغفو وأستيقظ ثم... آه بحق الجحيم يا جاين. حسنًا، نعم. كانت مارني تغلي، مفهوم؟ لم تكن تدري ما تصدّق، ولا تزال عاجزة حتى اليوم، وقد شرحت لها القصة من وجهة نظري مرارًا وتكرارًا، لكنها لا تزال تفكّر بالترّهات التي أخبرتِها بها».

ابتسمت. شعرت بنوع من الانتقام. لقد بالغت قليلًا بما جرى بيننا ويبدو أنّني كنت محقّة في ما فعلته.

أردفت قائلة، «أكمل».

«هذا كل ما في الأمر!». راح يصرخ ثم تلوّى مجدّدًا. «لا شيء أضيفه. كانت مشتعلة وباردة تجاهي طوال الأسبوع، ولا يسعني القول إنّنا كنا نتوقّع حضورك هذا المساء، على الرغم من أنّني مسرور أنك أتيت... لكن لا أعرف. كانت غاضبة حانقة، نعم. من كلينا. لكنّها لا تخال قد حدث أي شيء -لأنه لم يحدث أي شيء، يا جاين، لم يحدث- ولا تنفكّ تستعيد الموضوع، نعم، لكنّني أعتقد بأن الأمور ستتحسّن، حسنًا، لكلينا، لكن لو أمكنك فقط أن... يمكننا أن نناقش الموضوع في وقت آخر. أعدك بذلك. يمكننا أن نتكلّم في الموضوع. لكن رجاء...».

بدأ يرتجف. ورحت أتساءل إن كان يعاني صدمة. لم أكن أفهم حقًّا ما يعني ذلك، لكن المسعفين والأطباء والممرّضات قد أشاروا إلى ذلك، عندما كنت أنتظر في المستشفى كي يعلنوا لي أن جوناثان مات.

جثوت على الأرض. كانت الأرضية الخشبية باردة تحت يديّ. بدت الشقّة مختلفة في غياب مارني. كنت قد أحببتها في المرّة الأخيرة: غياب الأنوار، والصمت المجرّد من أي عطر. كنت قد أحببت فراغها.

لكن ها هو تشارلز يفسد كل شيء. في حضرته، بدت الظلمة خانقة. كان نور وحيد يسطع فوقنا، يشع من لمبة تضيء نورًا أصفر داكنًا. لم أشمّ رائحة شموع عطرة، ولا رأيت نورًا برتقاليًا دافئًا ينير الغرفة. لم تكن الغرفة فارغة. ومع ذلك، لم يكن تشارلز يملأها كفاية.

«لم نقضِ الكثير من الوقت معًا بمفردنا في ما مضى، من دون مارني». قلت له.

«ربّما يمكننا القيام بالأمر في وقت لاحق»، أجابني.

«ربّما».

كان بإمكاني أن أرى الألم يزداد أشواطًا. كان يحاول ألّا يحرّك ساكنًا، ومع ذلك، كان يفعل لا إراديًا، عندما يتكلّم أو تعلو نبرة صوته فيتلوّى وجهه لثانية أو ثانيتين.

«كيف يُعقل أنك في المنزل باكرًا؟».

نظر إليَّ وقال: «أحتاج حقًّا لمساعدتك، أرجوك يا جاين».

«ألم تذهب إلى عملك؟».

«أصبت بصداع نصفي. أعتقد بأنّني وقعت لهذا السبب. هذا كل ما في الأمر يا جاين».

«هل تصاب كثيرًا بنوبات الصداع النصفي؟»، سألته.

«أحيانًا، كل بضعة أشهر. الآن...».

«لا أعتقد أنّني عانيت يومًا صداعًا نصفيًا». لم يكن بوسعي أن أسمع السيارات في الأسفل. فأضفت متسائلةً: «أنت لم تفتح الأبواب، التي تقود إلى الشرفة».

«لازمت الفراش».
«ألم تشغِّل جهاز الراديو؟».
«كنت نائمًا يا جاين. ذهبت مارني إلى المكتبة لتعمل على تحرير مقابلة وبقيت أنا في فراشي. جاين، لا أشعر أنّني بخير أبدًا. ولا أعلم لماذا أنت لا...».
«ومتى تعود؟».
«قريبًا، أعتقد. كم الوقت الآن؟ أعتقد بأنها ستعود قريبًا إلى المنزل».
قلت: «لست أكيدة من الوقت، لقد جئت باكرًا».
فاقترح عندئذ: «لماذا لا تتّصلين بها؟ اسأليها. دعيها تعلم أنك هنا واسأليها متى ستعود. لربّما كانت في طريقها إلى المنزل. أنت تريدين أن تريها، أليس كذلك؟ استخدمي هاتفي. رقمها مسجّل في قائمة الأرقام المفضّلة. اتّصلي بها. الآن. ضعيها على مكبّر الصوت حتى أسمعها أنا أيضًا. هيا، يا جاين. أو هاتفك. إنه وراءك...».
وضعت اصبعي على شفتيَّ، فالتزم الصمت.
كنت بحاجة أن أفكّر.
أذكر الذعر يتملّكني ويغلي في معدتي، كما لو أنّه يجيش بطيئًا، بدايةَ شيء كنت أدرك أنه يفترض بي أن أشعر به. أذكر أنّني أخذت نفسًا عميقًا -كما طلبت مني الشرطيّة في المستشفى- من خلال أنفي لستّ مرات متتالية، ثم أحبس وأعد لستّة، ثم أزفر من فمي وأعدّ لستّة.
لا بد من أن الأمر قد هدّأ من قلقي بسرعة ملحوظة. لأنّني لم أعد أشعر به مجدّدًا. أخذت أحبو على الأرض، خطوات قليلة، حتى أصبحت بالقرب منه، قريبة بما يكفي كي ألمسه. ورحت أنظر إلى تفّاحة آدم تتأرجح في عنقه، بينما أخذ يغمغم ويتوسّلني.
ثم أخذ ينشج فخلته على وشك أن يبكي.
لكن عوضًا عن ذلك هاج بقوّة.

الفصل الثامن عشر

قال: «جاين، لا تتصرفي بجنون. هل ستساعدينني أم ماذا؟».

جفلت. لم أكن أدري كيف سأتصرف بعد. لم أكن أخطّط لعدم مساعدته لكنّني لم أكن مستعدة لتقديم المساعدة في الوقت نفسه.

نظر في عينيَّ وأضاف:

«هل ستتركينني أتألّم؟ هل ستجلسين هنا وتحدّقين بي؟ هل هذا كلّه لأنّك تعتقدين أنّني تحرّشت بك؟ حسنًا، فلنسوّي الأمر، أليس هذا ما تريدينه؟».

بالطبع، لم أكن لأومئ برأسي موافقةً، ولم أكن لأتقبّل سوء المعاملة الذي أبداه.

«هل قمت بذلك؟ هل تحرّشت بكِ؟».

كان بإمكاني أن أرى كيف أن تخبّطه وغضبه وفورانه يسبّب له ألمًا، ومع ذلك لم يهدأ أبدًا، ولا لحظة واحدة.

«حسنًا، دعيني أقول لك إذًا. أنا لن أسمح ليدي بأن تلمسك حتى لو كنتِ آخر امرأة في العالم. فلا يمكن أن أفكّر بما هو أفظع من ذلك. إن مجرّد التفكير بالموضوع يصيبني بالغثيان». توقّف قليلًا، لاهثًا. «أو قد يعود السبب إلى إصابتي اللعينة في رأسي». وأضاف محبَطًا: «لا يبدو أنّنا ننوي معالجة الأمر، الآن، أليس كذلك؟».

تلوّى من وجعه مجدّدًا. أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا. اعتقدت بأنه انتهى من كلامه، لكنه لم يفعل.

«هل قلتُ لكِ إنّني أريدكِ؟ مستحيل. لكن كم هذا رائع. رائعٌ أن

تعتقدي بأن أحدًا يريدك. هذا جميل، أليس كذلك؟ هذه الثقة بالنفس». زمجر وجعًا ثم زفر آخر جرعة من الهواء من رئتيه دفعة واحدة قبل أن يكمل. «حسنًا، سأخبرك أمرًا آخر. ستحتاجين لذلك لأنّك تريدين أن تعرفي ما الذي سيجري لاحقًا؟ سأذهب إلى المستشفى وستوافيني مارني، زوجتي، وتكون إلى جانبي. ولن تسرّ بسماع ما جرى ويجري. أنت في الوقت الإضافي يا جاين، في الوقت الإضافي». صرخ صرخة ملء جوارحه لكنّها لم تجهز عليه. «إذًا، هذا جيد»، واصل، «فلننتظر. لأن كلانا يعرف من سيربح في النهاية هنا، وبالطبع ليس أنتِ».

«هذا ليس صحيحًا»، أجبته.

كنت قد بدأت أشعر بنوع من الغضب، لكن الإثارة التي كنت أشعر بها كانت تفوق غضبي بأشواط.

أردته أن يتوقّف، لم يفعل.

«حسنًا، فلننتظر ونرى. لأنّني أعرف ما سيجري لاحقًا، يا جاين. الأمر حتى لا يخصّكِ. الأمر يخصّني. أنا مَن يقرّر».

مددت يدي ووضعت أصابعي على عنقه. جفل مني وحاول إبعاد يدي وهو يئن في نوع من التذمّر المتواصل الذي يغلب عليه الألم. كانت وجنته متورّمة، وبشرته منتفخة مشدودة كما لو أنّها بالون، وعينه محتقنة بالدماء.

عادت أصابعي لتلفّ على عنقه، لكن هذه المرة لم يتحرّك. وقال:

«هيا يا جاين، ماذا تفعلين؟ هيا. هذا يكفي الآن. أرجوك».

كان يتكلّم عبر أسنانه وهو يحاول أن يشد في مسعى منه للتخفيف من حدّة ألمه، أو ربما التخفيف من ذعره. وكان بإمكاني أن أشعر به يرتجف تحت أصابعي.

«ماذا تفعلين يا جاين؟ أنا بحاجة للمساعدة. هل يمكنك فقط أن...»، وتلوّى مجدّدًا من الألم. «هل يمكنك أن تنزعي يديكِ عني؟ انزعيهما عني. الآن. هيا».

بدا الأمر رائعًا.

أنظر الآن إلى تلك اللحظة، ولا أتعرّف إلى تلك المرأة التي كانت جالسة هناك على الأرض، وأصابعها على عنق رجل مصاب. لا أتعرَّف إلى ابتسامتها. لا أتعرّف إلى عينيها. تبدو وكأنها شخص مختلف بالكامل.

داعبت عنقه بسبّابتي ثم براحة يدي كلّها. كان صامتًا ولم يعد يأتي بأي حركة. كنت أشعر بشعيراته القصيرة التي تنبت على ذقنه نتيجة عدم الحلاقة ليوم أو يومين، وأرى ظل الساعة الخامسة عصرًا ينعكس على وجهه. أغمض عينيه. كنت أرى صدره ينتفخ ثم يهوي، وأسمع أنفاسه بينما يشهق ويزفر. أخذت أمرّر راحة يدي على مساحة وجنته.

تساءلت إن كانت راحة يد مارني فعلت ما أفعله في صباحات قضياها في السرير معًا، أو عند قبلتهما الأولى. وضعت راحة يدي الأخرى على الجهة المقابلة من وجهه وأمسكت رأسه بثبات. ثم مرّرت أصابعي بين شعره، أتلمّس الطبقة الدهنية عند الجذور.

همس: «رجاء جاين، هذا يكفي. أنا آسف. لم أعنِ ما قلت. فلننسَ هذا كله. أعدك».

«لا أستطيع أن أساعدك»، أجبته. «أنا آسفة. لا أستطيع».

ردَّ غاضبًا: «فلتذهبي إذًا، اذهبي. يكفي هذا. اخرجي من هنا».

ثار غضبي. هل فعلًا أنا أُطرد من هذه الشقة للأسبوع الثاني على التوالي؟ كلا. أنا لا أُطرد. يستحيل أن أُطرد. لأنّني الشخص الذي في موقع السيطرة وأنا التي سأتّخذ القرارات. لن يملي عليّ أحد أين أذهب أو ما سأفعل أو إن كان يسمح لي بالمكوث هنا بعد الآن. وبالطبع ليس تشارلز. لقد قال ما عنده، وقد حان دوري الآن. تلك هي لحظتي.

أخذت نفسًا عميقًا.

قلت بهدوء يُخفي الغليان في داخلي: «لن أذهب يا تشارلز»، لم أرده أن يشعر بمزيد من الخوف. وأضفت: «أريد أن أبقى، وسأبقى».

أعتقد أنّني أدركت في تلك اللحظة ما سأفعله. لم أرد أن أخفّف من إحساسه بالخوف نتيجة شعور لا مبرّر له بالتعاطف أو الرأفة. لقد أردت أن أقلّل من خوفه حتى تكون آخر موجة ذعر تنتابه فائقة القوة.

قال: «حسنًا، ابقي إذًا. فأنا لا أستطيع أن أقوم بما يمنعك من ذلك».

أكّدت: «كلّا، لا تستطيع القيام بأي شيء على الإطلاق».

أغمضَ عينيه.

لم تكن تلك أفضل ساعاتي. لا أحتاج لأن أخبرك بذلك، أنا أعلم. ولست أجد ما أقوله للدفاع عن نفسي. لقد كنت بكل بساطة أستمتع وأنا أشاهده يتألّم. أحببت كيف أن كتفه قد أزيح من مكانه، وكيف أن ذراعه اليمنى ما عادت تنفعه، وأنّها كانت تسبّب له ألمًا مبرّحًا. أحببت رؤية الدماء على جبينه، وفكرة تمدّده هنا غائبًا عن الوعي لساعات، وفكرة تعرّضه لارتجاج في الدماغ. أحببت كيف أن كاحله مكسور ووجنته متورّمة وعينه دامية. أحببته كما لم أحبّه يومًا من قبل.

أمسكت رأسه بثبات بين يديّ، وراحتا يديّ على بشرته. كانت قطرات من الدمع تسيل من طرف عينيه.

لا يمكن لأي امرء أن يكره أي شخص كما كنتُ أنا أكره تشارلز، لذلك أدرك جيدًا أن ليس من السهل استيعاب كم هذه اللحظة عزيزة بالنسبة إليَّ. كنت أشعر بذاك الشعور الغامض!كأنّني ثملة. كنت في حالة غبطة مفرطة. كان إحساسًا لم أتوقّع أن أحسّه يومًا في حضرته.

حرّكت يديّ قليلًا، فأخذ يئنّ.

«عفوًا»، قلت له همسًا.

«جاين»، ردّ مزمجرًا.

ركعتُ على ركبتيَّ، حتى صار ثقلي كلّه فوقه وعنقه تحت يديَّ. أدرَك، على ما أعتقد، ما كنت سأقدم عليه. أدرك جيّدًا ما سأفعله.

أخذت نفسًا عميقًا. حبسته داخلي وأنا أعدّ لستّة، ثم زفرته وأنا أعدّ

لستّة. نظرت إلى الأعلى، باتجاه السلالم، ثم إلى سجادة السلالم؛ بلونها العاجيّ الذي يحيط به خطٌّ أزرق، وإلى الدرابزون الخشبي الذي تميّزه تعريقات لون الخشب. وفي حركة خاطفة واحدة، لويت رقبته بقوة، فسمعت قرقعة، وتحطّم عنقه بين يدي.

عندما نظرت إلى الأسفل، كانت عيناه مغمضتين، وكان ينظر بسلام، وفكّه مرتاح، وجبينه يخلو من أي تجعيدة؛ لقد تحرّر من الألم.

نجح الأمر. لم أكن متأكدة من أنّني سأنجح.

.. نقدم لك خريطة كنز
تمنيت كثيرا وأنت صغير لو تحظى بها
وأنت تشاهد البحث عن جزيرة الكنز
هذه الخريطة رموزها أسهل حلا
... فقط
ادخل تيليجرام
في خانة البحث
اكتب مايلي
@t_pdf
من دون أن تقول افتح يا سمسم
ستصل إلى مكتبة

الفصل التاسع عشر

أخذت أدور حول نفسي أعيد جمع أغراضي -من الهاتف إلى مفاتيح المنزل- وأضعها في حقيبة يدي. ثم تناولت المفتاح الذهبي الصغير، ذاك الذي خوّلني الدخول إلى هذه الشقة كلّما كان يحلو لي، -لم أفهم ما الذي كان يجعلني على هذه الدرجة من الهدوء؛ لقد بدا الأمر ببساطة مناسبًا- ووضعته بكل هدوء في الوعاء الصغير الموضوع جانبًا وفيه مجموعة من المفاتيح الأخرى.

أطفأت الأنوار. ومسحت كبسة زر الكهرباء بقميصي. لقد كنت على يقين أن بصماتي في كل مكان في هذه الشقة، لكنّني شعرت أن من الأنسب أن أقوم بمسحها عن كبسة الإضاءة. ثم نزعت السلسلة عن الباب ومسحت المعدن بعناية، حتى إنّني دفعت بقماش قميصي الصوف داخل حلقات السلسلة. ثم فتحت الباب، ومسحت المسكة من الداخل، وهربت. وطأت الردهة متوجّهة إلى بقعة الظلام. أغلقت الباب ورائي. وأنا أنصت إلى القفل يطبق بهدوء، تنفّست الصعداء.

مشيت خطوات قليلة في الممر، باتّجاه باب شقة جيرانهما، وجلست على الأرض، أستند بظهري إلى الجدار، وأضع ركبتيَّ أمامي. كان المكان أكثر إضاءة هنا؛ ولم يكن يوحي بأي داعٍ للخوف.

أخذت كتابًا من حقيبة يدي وفتحته مسندة إيّاه على فخذي. لم أكن أقرأ -كانت العلامة الفاصلة موضوعة على بعد فصول عدّة- لكن ذلك الشعور القائم على الادّعاء بالقيام بشيء ما بدا مطمئنًا. كنت أنصت إلى تكتكة ساعة يدي بينما تنزلق كل ثانية بطيئة بطيئة. لم تكن مارني

تتوقّع حضوري، لذلك، لربّما تستغرق المزيد من الوقت، ربّما توجَّهَت لاحتساء مشروب مع صديق، أو كانت تجلب طعام العشاء في طريق عودتها إلى المنزل، أو تعود سيرًا على الأقدام، لتستفيد من أشعة الشمس الساطعة. كان يستحيل عليّ أن أعرف، لذا جلست ببساطة أنتظر.

ومع ذلك، كنت على يقين مريع بأن جثة تشارلز تقبع على بعد أمتار مني، وراء بابهما. كان بإمكاني أن أتصوّره -تمامًا كما كنت أعرف- ممَدّدًا مع كاحل ملويّ، وعنق ملويّ. جثة يابسة لا روح فيها. جهدت لأفهم مشاعري أو بالأحرى لأجد تفسيرًا لها. لم أشعر بأي حزن، على الإطلاق. ولا شعرت بأي رضى. لم يكن يراودني أي شعور من أي نوع كان.

حاولت التركيز بجهد مدّعية بيني وبين نفسي أنّني لم أكن أعلم أنه هناك. كنت أسِرّ لنفسي أنّني لم أدخل إلى شقّتهما -لم أكن أملك مفتاحًا، أليس كذلك، لذا ليس باستطاعتي أن أدخل حتى لو أردت ذلك- وبالتالي، بحسب علمي، هو لا يزال حاضرًا دائمًا وأبدًا بقدر ما يبعث حضوره ووجوده فيّ الألم. كنت أقنع نفسي بأمور كنت على دراية بأنّها خاطئة. لم أسمع أي ضوضاء من الشقة: لقد قرعت الجرس مرتين، ومع ذلك لم أحصل على أي ردّ، وبحسب ما أعرف، كان كل من مارني وتشارلز لا يزالان خارجًا، هو في عمله، وهي في مكان آخر: ربّما في السوبرماركت أو عند بائع الزهور أو حتى في المكتبة. لم أرَ شيئًا: فأنا جالسة هنا، أقرأ، ولا علم لي بأي شيء.

كلا. لا داعي للابتسام. حذارِ الآن.

هذا لا يعني أنّني لا أعرف سبب تلك الابتسامة. لكن لو أردتني أن أكمل بهذه القصة، فعليك رؤية الأمور من وجهة نظري أنا. كان قرارًا متسرّعًا. لم يكن قرارًا، ولم أختر القيام بما قمت به. لقد قمت بالأمر، لذا لا داعي للاستفاضة في نظريات مثل الدافع والنية، لأن لم يكن لا من نية ولا من دافع. لقد حصل الأمر بمحض غريزة.

السؤال الذي يتعيّن عليك طرحه -ولو كنت في حال تركيز على ما أقصّه عليك، لكنت طرحته- هو ما إذا كانت تراودني، في تلك اللحظة، أي مشاعر بالندم.

حسنًا، لن أجيب على ذلك الآن.

لو طرحت عليَّ السؤال، لكنتُ أجبتك بالحقيقة. لكن ما يهمّك الآن هو الحكم عليّ، أليس كذلك؟

على كل الأحوال. أين كنّا؟

كنت أعفي نفسي -على نحو غير واعٍ تقريبًا- من أي مسؤولية، وأعيد في ذهني تكرار الكذبة، وأدّعي أن الحادث بحد ذاته لم يحصل أبدًا.

مسحت بنظري الصفحة المفتوحة من كتابي، ومررت بعينيَّ على الأسطر المخطوطة بالحبر الأسود، من غير أن أركّز على أي من الكلمات، ومن غير أن يرتدي أي منها معنى منطقيًا، بينما كنت أقفز من فقرة إلى أخرى. ورحت أقلّب الأوراق وأدرس شكل الأحرف: التواءها، ونتوءاتها، وتكسيراتها. لا يسعني أن أخبرك كم بقيت هكذا، جالسة هناك، أقطّع الوقت بعبارات فارغة وخطوط نصوص أقتفي أثرها بإصبعي.

ظهرت مارني أخيرًا في طرف الممر. كانت ترتدي معطفًا يقيها من المطر وقد أحكمت أزراره حتى ذقنها ووضعت قبّعة فوق رأسها. وكانت تحمل في يديها أكياس تسوّق. راحت تبحث في جيوبها -أخرجت محرمة ثم بطاقة قطار برتقالية اللون- قبل أن ترفع رأسها وتراني.

«آه، هذه أنتِ». توقّفت على بعد خطوات من بابها.

وقفتُ مسمّرة في بقعة الضوء، لا أزيح قيد أنملة من موقعي. «هل تمطر خارجًا؟»، سألتها

وأجابت: «لقد بدأت لتوّها». ثم أعادت المحرمة والبطاقة إلى جيبها. «لم أكن أتوقّع حضورك. هل مضى على انتظارك مدة طويلة؟».

هززت رأسي نفيًا ثم تذكّرت أن البواب رآني في بداية المساء. فقلت: «حوالى الساعة تقريبًا. أنهيت عملي باكرًا ومعي كتابي».

«هل... هل تتوقّعين أن نتناول طعام العشاء؟».

اقتربَت من الباب وأخذت تفتش في حقيبة يدها على مفتاح الشقّة.

لقد كنت على درجة فائقة من الهدوء، أتنفس أنفاسًا متوازنة، بينما ينبض قلبي نبضات بطيئة نسبيًا. لكنّني بدأت أشعر بقلبي يقفز في صدري والعرق يتجمّع على شفتي العليا.

لا بد لي هنا من أن أقول إنّني لم أكن خائفة من أن ينكشف أمري، ليس في هذه المرحلة على كل الأحوال. لقد كنت على دراية أن افتضاح أمري احتمال ضئيل، لكنّني كنت على درجة من الغرور، والاعتداد بالنفس والثقة بأنّني فعلت كل ما يجعل افتضاحي أمرًا غير وارد. عوضًا عن ذلك، كنت خائفة من ردة فعلها. لا بل كنت مرعوبة -لو أردت أن أكون صادقة- مّما سيجري لاحقًا.

«كلا، لا أفكر بالعشاء، فأنا أريد... أنا أريد أن أتكلّم معك ليس إلا».

كنت لا أزال أمسك بكتابي الذي كان يتدلّى من يدي ويتأرجح إلى جانب فخذي.

تنهّدت مارني، وقالت: «أحب هذا الكتاب، هل وصلتِ إلى حيث...».

«لا تفسدي عليّ الأمر!»، صرخت بها، وقد شعرت بالراحة لإخراج صوت من أعماقي وطرد بعض من الفوضى التي كانت تتآكل أحشائي.

قفزت مارني إلى الوراء، في حال من الذهول.

«يا إلهي، اهدئي».

تنهّدتُ تنهيدة عميقة -شهيق، زفير. لا يفترض بي أن أفقد أعصابي الآن. ضحكت وقد بدت ضحكتي غريبة، فيها الكثير من الرياء والمبالغة.

قالت: «اسمعي، لست أكيدة إن كنت جاهزة للتحدّث بالأمر. لكن

يمكنك الدخول وقد نحاول. لكن تشارلز عليل وهو يقبع نائمًا في السرير النهار بأكمله، ولا أريد مطلقًا أن أقلق راحته. إنّها إحدى نوبات الصداع النصفي، والأصوات العالية تزيد وضعه سوءًا، لذلك لو... لو طلبتُ منك أن تغادري، فستغادرين، مفهوم؟».

أومأت برأسي موافقة.

استدارت مارني نحو الباب وحملت مفتاحها تضعه في القفل. سمعته يقرقع، بينما يجد طريقه في الفجوة.

قالت: «يسرّني أن أراك، أنا سعيدة بقدومك. أنا فقط...».

قاطعتها: «لا بأس، أفهم الوضع. إنه معقّد».

«نعم»، قالت، ونظرت إليّ مبتسمة. «نعم، هذا هو بالتحديد. الوضع معقّد».

ودفعت الباب لبوصة أو بوصتين وهي تنظر إليّ. «وأهلًا بك تتناولين معي طعام العشاء، بالطبع أهلًا بك. أريد أن تعود الأمور إلى مجاريها، كما كانت من قبل. أنتِ صديقتي المفضّلة». قالت مع ابتسامة عريضة.

«حسنًا، سأسكب لنا بعض النبيذ وسأعد بعض الباستا، ثم نجلس ونتكلّم».

«ممتاز»، أجبتها وأنا أبتسم أيضًا، متجاهلة الحريق الملتهب الذي يعتمل في مؤخّرة حلقي. «شكرًا لك»، وأكملت، «أنا حقًّا سعيدة أنّني هنا. أريد أن تعود الأمور كما كانت من قبل أيضًا».

دفعَت الباب مجدّدًا فأغمضتُ عينيّ.

أليس في الأمر ضربٌ من ضروب الجبن؟ ما إن أدارت لي ظهرها حتى أطبقت عينيَّ بالكامل وعلى نحو لا إرادي، فقد شعرت بالضعف. لا بل كنت أشعر بالذعر من ردة فعلها. كنت أعرف على وجه التحديد ما هي مقبلة على اختباره -فأنا أعرف جيّدًا كيف هو شعور أن تري زوجك مستلقيًا ميتًا على الأرض أمامك- وأعرف جيّدًا ما قد تفعله تلك الصدمة

بالإنسان. أعرف ما يتراكم داخل المرء من شعور بالانهيار حتى تضيق سبل الخيارات أمامه، فيصدّق ما حصل. أعرف كيف يتطوّر الأمر إلى أسى، تلك الطبيعة المتواصلة النهائية للأشياء. أعرف جيدًا أن قلبها على وشك أن ينفطر.

«تشارلز؟»، قالت بهدوء قبل أن تصرخ بملء جوارحها، «تشارلز!».

سمعت وقع خطواتها على الأرضية الخشبية، وقرقعة الأكياس بينما تسقط من يديها، وركبتاها تجثوان على الأرض.

فتحت عينيَّ. تبعتها إلى الداخل؛ توقّفت لحظة عند الباب.

كان ميتًا بلا أدنى شك. لقد تغيّر لون بشرته. لم تعد تلك البشرة الزهرية الفاتحة، بل أضحت صفراء رمادية. كانت منحنية فوق جسده، تضع يديها على كتفَيْه، تهزّه بعنف. لو كان على قيد الحياة، لكان صرخ وجعًا، بفعل ما كانت تفعله به، وكتفه مخلوع. لكنه كان ميتًا، لذا افترضت أن الأمر لم يعد يهم كثيرًا.

«ما الـ...»، صرخت قائلة. لاحظت دبوس شعر قابع تحت المدفأة -وأدركت أنه يعود إليَّ- فقمت على الفور بإفراغ حقيبة يدي على الأرض، فسقطت أغراضي كلّها وراحت تتدحرج على الأرض، فتداعى كتابي بجلبة كبيرة واستقر هاتفي إلى جانبه. أخذت الهاتف مجدّدًا، وطلبت رقم خدمات الطوارئ، وضغطته على أذني قبل أن أبدأ بالصراخ، «سيّارة إسعاف»، ما إن سمعت صوتًا في الطرف الآخر، وقبل أن يتفوّه المجيب بأي كلمة. «أنا بحاجة لسيّارة إسعاف».

«إلى أين لو سمحت؟».

ذكرت العنوان للصوت، وأردفت: «بسرعة، أرجوكم، عليكم أن تأتوا بسرعة».

كانت مارني تبكي، ورأسها مدفون في صدر تشارلز. راحت تصرخ: «لقد مات، مات يا جاين!».

«نعتقد أنه ميت»، صرخت للشخص في الطرف الآخر من الخط، لأنّني لم أكن أملك أدنى فكرة عمّا يجب قوله أو فعله، وكنت قد بدأت أصاب بهستيريا حقيقية مع كل صرخة من صراخ مارني.

«ما الذي يجعلك تعتقدين بأنه ميت؟ أعطني معلومات قدر الإمكان. المسعفون في طريقهم إليكم».

«مارني، كيف تعلمين...؟ لونه غريب عجيب، أصفر وجسده ملتوٍ. لقد سقط عن السلالم».

أخذت مارني تصرخ من جديد، ثم نظرت إليَّ مباشرة، وكانت عيناها جاحظتين وزائغتين، ثم راحت تنادي، «قولي لهم نستطيع إغاثته»، ثم رفعت نفسها فوقه، ووضعت يديها وسط صدره وراحت تضغط بقوة.

«نقوم بإنعاش قلبه ورئتيه»، قلت عبر الهاتف. «ثمّة بوّاب، اسمه جيريمي، يمكنه، ثمّة مصعد، يجب أن يستقلوا المصعد».

«إنّهم في طريقهم. سيصلون في أي لحظة».

«هيا أكملي يا مارن»، قلت لها. «هل أنتِ...؟ إن كنت تعبة، أستطيع... أستطيع أن أقوم بالأمر أيضًا». كنت ألهث والأدرينالين يتدفق في شراييني، ويفيض في جسدي.

سألني عامل الهاتف: «هل يتنفس؟ هل يمكنك أن تخبريني إن كان يتنفّس؟».

صرخت: « يتنفّس؟ كلا، كلّا، لا أعتقد أنه يتنفّس».

«إنّهم في طريقهم».

«يجب أن يصلوا بسرعة أكبر»، رحت أصرخ، وكنت حقًّا مؤمنة بذلك. أردتهم أن يحثّوا الخطى، وأن يقودوا بسرعة، وأن يصلوا إلى هنا، مع أنّني كنت على يقين أن ما من شيء يمكنهم القيام به، مع أنّني كنت على ثقة أن الأوان قد فات.

«سيصلون إليكم في أي لحظة»، قال لي الصوت عبر الهاتف. «استمرّوا في القيام بما تفعلون. أنتم تبلون حسنًا».

سمعنا صوت صفّارة سيّارة الإسعاف، وكانت مارني قد بدأت تنتحب وتتعرّق في معطفها، وكنت أنا أقف، والهاتف في يدي وعلى أذني، أستمع إلى عبارات فارغة وأذرع الغرفة بخطى محمومة.

«وصلوا»، قلت لها. «إنّهم هم. لقد وصلوا».

توقّفت مارني عن محاولة إنعاش صدر تشارلز وانهارت فوقه، تنتحب. كانت تعلم، على ما أعتقد، أنه رحل. لقد علمت ذلك مذ فتحَت الباب ورأته مستلقيًا، وكاحله ملويًا وكتفه مخلوعةً، وعنقه مكسورًا.

جثوت أرضًا وأخذت أفرك ظهرها -في حركات دائرية صغيرة كنت آمل أن تفهمها أنّني هنا لأدعمها، دائمًا هنا لأساندها، أيًا كان ما تحتاجه- إلى أن سمعنا أخيرًا المصعد يتوقّف عند طابقنا وبابه يفتح.

قفزت من مكاني متوجّهة إلى الباب، وناديتهم: «نحن هنا، من هنا».

ركض ثلاثة مسعفين نحوي. رجل طاعن في السن، سمين، اختفى عنقه بين طيات جلده. ورجل شاب، أكثر سرعة ورشاقة، مرّ سريعًا من أمامي. وشابة، تلكّأت في مشيتها، وقد بدا عليها التوتر، لربّما كانت جديدة، لم تنبس ببنت شفة ولا دخلت الشقّة.

صرخ المسعف الشاب: «هل يمكنكما أن تقولا لنا ما اسمه؟».

«إنه زوجي»، قالت مارني، وهي تزحف بعيدًا عن جسد تشارلز الميت حتى يتمكّن المسعفون من بلوغه. وكررت: «تشارلز. اسمه تشارلز. يبلغ من العمر الثالثة والثلاثين. ويعاني صداعًا نصفيًا».

ضحكنا حول هذا الموضوع بعد أسابيع قليلة. فقد قالت لي: «لا أزال لا أصدق أنّني قلت وقتذاك إنه يعاني صداعًا نصفيًا. أعني، يا إلهي، الصداع النصفي».

إليك أمر يمكنك تعلمه بعد بلوغك سنًا متقدمة، واختبارك الموت بأوجه عديدة، بحيث يصبح جزءًا من عالمك. يصبح الموت أكثر لطفًا في الأشهر والسنوات التالية. يخسر زواياه المسنّنة؛ لا يعود يحفر فيك

عميقًا، ويتسبّب لك بالنزيف بالطريقة نفسها. أحيانًا قد يبدأ المرء بالضحك على أمور أبكته قبل أيام قليلة معدودة. لكن الزوايا المدوَّرة لا تزال زوايا، تعود إلى حِدّتها على حين غرّة، نتيجة تعليق في غير محله، أو عيد ميلاد، أو ذكرى لحظة سعيدة. لا منطق في الحزن، ولا مسار واضح الخطى علينا كلّنا اتباعه؛ ثمّة بكل بساطة أوقات يصعب على المرء فيها تحمّل آلامه، وأوقات أخرى يتكيّف فيها مع مصيبته.

سمعتها تقول تلك الكلمات -الصداع النصفي- ورأيت السخرية فيها حتى في تلك اللحظة. كنت أعلم أن الأمر أسوأ بكثير من مجرّد صداع نصفي، ومع ذلك، كانت هذه هي الكلمات التي قضت عليّ. لقد رأيتها تراه، وراقبتها تحاول يائسة إنعاشه، وسمعتها تصرخ، ومع ذلك، لم أشعر إلا بإثارة غريبة - وحتى طائشة. لقد علقت ما بين الذعر والهستيريا، على بعد ثوان معدودة من الجنوح إلى ضحكة محمومة كما تلك الفتاة الصغيرة على الشاطئ.

لكن تلك الكلمات غيّرت كل شيء.

فجأة، لم يعد الأمر يدور حول تشارلز. لم يعد حول جسده المتصلّب الملقى على الأرض. لم يعد حول سلوكه أو كرهي أو التوتر الذي ساد بيننا. لم يعد حول واقع أنه ميت، أو حول حقيقة موته. لم يعد الأمر حول تشارلز على الإطلاق.

أصبح الأمر يدور حول مارني.

لقد فعلتُ بها ما فعله العالم بي.

كان يفترض بك سؤالي إن كنت نادمة. تلك هي اللحظة الأولى التي شعرت فيها بنوع من الندم.

كانت الفاكهة من أكياس التسوّق قد تدحرجت في الممر باتجاه المطبخ، والدجاج الذي لا يزال مغلفًا بالبلاستيك يقبع على الأرضية الخشبية، بينما دبّوس شعري يلمع تحت المدفأة. لكن أيًا من هذا لم يعد

مهمًا. جل ما استطعت التفكير به كان مارني. كان المسعفون يعملون ضمن دائرة نظري، يقومون بإجراءات هي على الأرجح بلا أي فائدة. وكنا كلّنا ندرك أنهم سرعان ما سيقفون ويتراجعون ويتنحنحون.

جلست مارني متكوّرة على نفسها أسفل السلالم. معطفها كان قد سقط عن كتفيها، وعلق عند وسطها، يلف ذراعيها. توقّفَت عن البكاء. لكنّها كانت ترتجف، وترتعش كما لو أن شيئًا داخلها يحتاج للهرب. كان فكّها متراخيًا وعيناها متورمتين حمراوين، وما انفكّت تصدر تلك الأصوات الغريبة، أصوات نشيج صغيرة، كما طفل يختنق. كانت تبدو صغيرة، وركبتاها تقابلان كتفيها، وتحيط نفسها بذراعيها.

لقد كسرتها. أدركت حينئذ أنّني كسرتها.

رجاء لست بحاجة الآن لسماع أي تفاهات أو هراء. أولئك الأشخاص، الذين يدّعون أنهم يفهمون بينما لا يفقهون شيئًا، هم أسوأ أنواع البشر. وأنت لا أريد أن أعتبرك أحدهم.

أدركت حينئذ أن الخطأ خطئي بالكامل. لقد قدتها إلى تلك اللحظة. كانت تلك كلماتي، وأكاذيبي. وأمامك أنت، لا يسعني أن أنكر أنّني كنت أنا من أدار رأسه وكسر عنقه.

فاجأني إحساسي بالندم. ولربّما كان حجمه ليتخطّاني وليجعلني أندم على أفعالي، لو لم تخفّ وطأته بفعل بصيص أمل. لقد انفصلنا عن بعضنا البعض أنا ومارني بفعل حب رومانسي. تلك الفجوات باتت الآن فارغة، هي تصدّعات يمكن إعادة سدها وإصلاحها، إلى أن تبدو وكأنّها لم توجد يومًا. لقد خلقت هذه الفرصة. شعرت بالحزن على معاناتها وعلى ما ستختبره في الأيام التالية، لكنّني لم أشعر بالذنب. شعرت ببعض الندم، هذا صحيح، لكنّني شعرت بالراحة أيضًا.

تغيّرت الأمور بشكل جوهري مذاك اليوم؛ وأنت أكثر من يعلم ذلك، أكثر من أي شخص آخر. أعتقد أنه قد مضى على تلك الحادثة حوالى السنة الآن. لكن الأمور قد تبدو وكأن الوقت أطول بكثير.

في وقت لاحق من تلك الليلة- بعد الانتهاء من الشرطة والطبيب والمسعفين- عدنا إلى شقتي.

بينما كنا في المصعد وخرجنا إلى الرواق الذي يقود إلى الشقة، رحت أتأمّل كيف أن بنايتي لا تقارب الفخامة بأي شكل من الأشكال. فلا دليل على أي نجاح هنا: لا أرضيّات برّاقة أو جدران مزوّدة بمرايا لمّاعة. لكنّني عرفت هذه المرأة مذ كانت في الحادية عشرة من عمرها، ولم تسحرها يومًا مظاهر الثراء أو النجاح. وكنت على يقين أنها لا تزال الشخص نفسه. تلك كانت ميول زوجها الفقيد؛ كان يحب المال والملذات والترف. لكنّنا كنا كلانا نعلم- ولطالما كانت تلك حقيقة مطلقة بالنسبة إلينا- أنها مجرد واجهات ليس إلّا؛ تنميقات تزيّن جوهر المادة إنما لا تغيّره البتة.

لم تقضِ مارني يومًا الكثير من الوقت في شقّتي وقد أحسست بالغبطة لوجودها هنا معي. عرضت عليها بيجاما للنوم- هي بيجامتي المفضلة- وقضت وقتًا مطوّلًا تستحم بينما أعددت لها كوب شاي محلّى بالحليب.

استلقيت في السرير أنتظرها، فسمعت صوت سحب السدّادة وقرقعة المياه وهي تسري في الأنابيب. ثم سمعت باب الحمّام ينفتح بينما تصل إلى الممر لتأخذ البيجاما من على المدفأة. كانت الأنوار مطفأة، لكنّني سمعتها تدخل غرفتي وتصعد إلى السرير إلى جانبي. كانت الشمس قد بدأت تشرق، تسترق بخيوطها الخجولة النظر إلى الأفق وتلقي ببريقها النور على أطراف ستائري.

لم يجد النوم سبيلًا إلى عينيّ وأنا أدرك أنّها هنا. كانت مستلقية على الجانب الآخر من السرير، تدير ظهرها إليّ وتتجه بنظرها إلى النافذة، وأنفاسها مستقرة هادئة، فرحت أتساءل إن كانت ربّما بحال من الإرهاق جعَلَتها تسقط سريعًا صريعة النوم.

بقيت ممدّدة على ظهري ويداي مطبقتان فوق بطني، وكأنني أسيطر على الوضع. ليس هذا ما خطّطت له- فليبقَ هذا محفورًا في ذاكرتك، نعم- لكنّني لم أكن غاضبةً من النتيجة.

«جاين؟» قالت بصوت متكسّر في حلقها.

لم أجبها.

همست في وسادتها: « هل سمعت شيئًا؟» أي صوت أو أي حركة؟».

لم أجب. بقيت ملتزمة صمتي.

«جاين؟» قالت مجدّدًا بصوت أعلى هذه المرة.

«ماذا؟» أجبت بتباطؤ كما لو أن النوم يتملّكني.

«هل سمعتِه؟ هل سمعتِ عندما وقع؟ أو أي شيء بعد ذلك؟ كنتِ هناك، أليس كذلك؟ ربّما كان...»

«لم يكن أي شيء»، قاطعتها وأنا أسند ثقلي على ذراعي، أحدّق في الظلام إلى حيث افترضت أنها مستلقية.

سألت مرة أخرى: «لا شيء على الإطلاق؟ كل هذا الوقت. لم تسمعي أي شيء على الإطلاق؟»

«كلّا، لم أعلم... لم أسمع شيئًا. أعتقد أنّه...».

قاطعتني قائلة: «كان قد رحل، نعم أفترض أنّه كان قد رحل».

تلك كانت الكذبة الرابعة التي أكذبها على مارني.

لم أكن أملك خيارًا، أليس كذلك؟ كيف لي أن أجيب على هذه الأسئلة بصدق؟ لم أستطع ذلك. أدركت هذا في ذلك الوقت وأدركه جيدًا الآن. ومع ذلك، الغريب أنّنا استعدنا مسارنا القديم بفعل إنكاري أنا، وإعلاني أنا لبراءتي.

كان يمكن للحقيقة أن تدمّرها أكثر من ذلك بكثير.

لأنّها عندئذ، كانت ستبقى وحيدة بلا أي أحد إلى جانبها.

الفصل العشرون

لا تنتهي حياة المرء بموت شخص في حياته. كم كان الأمر ليكون رائعًا لو هذا ما يحصل فعلًا؟ لو توافي الشخص المنية فتختفي بكل بساطة تلك الذكريات الضاغطة والمؤلمة من أذهان أصحابها، متلاشية في الأثير. لو يُمحى الشخص -في تلك اللحظة تحديدًا- من كل مكان ومن داخل كل شخص.

لن أتذكّر عندئذ جوناثان. لن أتذكّر أنّني أحبّه أو أنّني تزوجّته. لن أتذكّر نقاط النمش على وجهه أو ساقَيْه القويّين أو العروق التي تظهر في يديه. سأحزن لخسارتي تلك الذكريات، لا شك في ذلك. لكنّني لن أفقه أنّني خسرتها، لذلك لن أدري كيف أشتاقها. لن أعيش أي عزاء وأسى.

ولن أتذكّر تشارلز. لن أتذكّر كم أكرهه ولا كيف قتلته. لن أتذكّر فكّه الصارم أو أنفه المستدقّ أو الطريقة التي كان يفرك فيها ذقنه وهو يفكر. لن أتذكر كيف كان يستجدي المساعدة.

وما كانت مارني لتلتقي به. ما كانت لتنتقل يومًا إلى تلك الشقة، وما كانت لتحبّه يومًا، وما كانت لتتزوّجه. كان ليختفي بالكامل.

لكن الحياة لا تجري على هذا النحو. ما من سجلّات بيض، ولا بدايات جديدة، ولا انقطاعات حادة. ثمّة تداعيات كارثية ليس إلّا، لكل قرار يتخذّه المرء في حياته. لأن- وتلك إحدى أعظم خيبات أملي- الحياة تستمر في اتجاه واحد ولا ترجع. كل قرار يتم اتخاذه محفور في الصخر، إلى الأزل، لا يسعك التراجع عنه. كلّها قرارات مبرمة نهائية. حتى لو وجدت سبيلًا لإلغاء قرار ما، ولفك تلك الروابط، فهذا لا يعني أن هذا القرار لم يُتخذ.

لقد اخترت أول وظيفة لك. لن يكون بإمكانك يومًا اختيار وظيفة أولى أخرى. واخترت شقّة في مكان ما من المدينة، بذلك لا يمكنك إلا الإقرار أنك عشت في هذا الجزء من هذه المدينة، مهما حصل لاحقًا، مهما اخترت القيام به. لا يتوقّف الأمر. القرارات ملزمة دائمًا. قد يختار المرء شريكًا. له، وربّما يتزوّج به. وربّما يصبح أبًا أو أمًا لأولاده. سيكون

دائمًا وأبدًا أب أو أم أو لاده، بغض النظر عن كل قرار يتم اتخاذه في هذا الصدد؛ فمهما يقرّر لاحقًا، يبقى هذا الخيار جزءًا من حياته.

هذا الاكتشاف ساحق. لا يسعني أن أهرب من الاختناق الأبدي الذي تتسبّب فيه قراراتي الخاصة.

كنت لأفضّل لو أن الحياة كما شبكة العنكبوت، تحتوي على دهاليز من الخيارات، تنبثق كلها من نقطة مركزية واحدة. لكنّا كلّنا استمتعنا بخيارات متعدّدة، بدل أن نحصر أنفسنا بخيار واحد لا رجوع فيه، لأنّه في هذه الحالة، يمكن لنا دائمًا أن نختار مسارًا آخر يعود بنا إلى نقطة البداية. لكن عوضًا عن ذلك، ليس أمامنا إلا خط واحد مستقيم، لا خيارات على الإطلاق، بل زخم لا هوادة فيه واتجاه واحد لا غير.

لقد رحل جوناثان. ورحل تشارلز. ومع ذلك، لم يتركانا بحق.

كنت كلّما أعمل على حل أحجية كلمات متقاطعة، أفكر بتشارلز. أتساءل ما كان ليقول، لو كان يعرف كيف يحل الكلمة الأخيرة، لو كان يعرف الجواب الذي أعجز عن إيجاده. وكنت كلّما أرى أظافر قدمي رجل طويلة بعض الشيء، أفكّر بتشارلز. كنت أفكّر بقدميه البغيضتين وكيف كان يصر على ارتداء صنادل مفتوحة في الصيف. وكنت كلّما أرى ربطة عنق معقودة على نحو خانق بعض الشيء، أفكّر بتشارلز. وعندما كان أي رجل يطلب قائمة النبيذ ويدقّق ويتفحّص مطوّلًا بها، ليختار في النهاية الخيار الأغلى ثمنًا، كنت أفكّر بتشارلز. ثمّة أوجه عدة لوجوده لا تزال محفورة في ذاكرتي، لذا لم يكن يومًا بعيدًا كما أردته أن يكون.

في المقابل، لم يكن جوناثان يومًا قريبًا بما يكفي. لا يسعني أن أشاهد ماراثون لندن. لا يسعني أن أتحمّل رؤية المشاركين في سراويلهم القصيرة الضيقة اللمّاعة، وأرقامهم المثبتة على صدورهم، وسمّاعات رأسهم، وعصبات التعرّق، وأحذيتهم المربوطة بإحكام. لا يسعني أن أتحمّل رؤية المشاركات لأهداف خيرية إنسانية في فساتينهن

المترَفة وأزيائهن المجنونة، والابتسامات تزيّن وجوههن والضحكات محيطهنّ. لأن هذا كله يجعلني أفكّر بجوناثان، وليس جوناثان الذي عرفته وأحببته، بل جوناثان الذي مات أمام نصب عيني.

ثمّة أمور تذكّرني به على نحو أكثر إيجابية أيضًا. عندما أنظر إلى مجموعة من الرجال يمرّون سريعًا على درّاجاتهم الهوائية في عطلة نهاية الأسبوع، متوجّهين خارج المدينة نحو الضواحي، ليصعدوا التلال وينزلوا المنحدرات، ويقطعوا أميالًا وأميال، ويتوقّفوا لتجرّع الجعة وتناول شطيرة في حانة في إحدى حارات البلاد. هذا ما كان جوناثان يهوى فعله. أفكّر فيه كلّما أصل إلى محطة قطارات آنجل، لأنّنا كنا نفترق هناك، كل صباح، بعد تناول فطور مؤلّف من شطائر الخبز المحمص والموز، وبعد عملية بحث محمومة بين أكوام الأحذية في الخزانة تحت الدرج، والهرع المجنون نحو المحطة، لأننا لطالما كنا نصل متأخرين بضع دقائق. أفكّر فيه كلّما أصبّ لنفسي البقايا المتصلّبة من علبة عصير، لأنّني لا أخضّها أبدًا، وذلك الكوب الأخير الغني دائمًا بلب العصير.

هذا ما يعني أن يكون المرء على قيد الحياة. هذا ما يعني أن تعيش مع أشباح.

كنّا أنا وMarني...

هل يمكن لك الشعور بالأسى عليّ؟

هل يمكن لك رؤية امرأة يعتصرها الندم؟

حسنًا، إن كان الأمر على هذا النحو، فالأجدى بك عدم القيام بذلك.

لستُ نادمة على ما فعلت؛ لست نادمة على أيٍّ من قراراتي. أنا أتمنّى ليس إلا، لو أن تلك القرارات كانت أكثر مطواعة، لو أمكنني أن أرى حياتي معهم وفي غيابهم في الوقت عينه. على سبيل المثال، أتمنّى لو أستطيع أن أرى كيف قد تبدو هذه الحياة مع جوناثان لكن من

دون تشارلز. كيف كانت علاقتي مع مارني لتكون وفق هذه الشروط؟ هل ثمّة عالم تحظى فيه النساء بصديقات مفضَّلات وأزواج في الوقت عينه؟ أم أن هناك دامًا شيء لى حساب شيء آخر؟ كنت أتمنّى لو أستطيع التلاعب بالوقت كي أجد أفضل نسخة ممكنة من حياتي، بدل أن أتواجد ضمن ما أفترض أنه أسوأها على الإطلاق.

أتمنّى لو أن حياتي قد انتهت بموت جوناثان. لكنّها لم تنتهِ. لأن الحِداد والحزن لا يسيران بهذا الاتجاه. أنا ملزمة بحياتي طالما حييتها، حتى لو تمنّيت انتهاءها، إلا إن كنت على استعداد لوضع حد لها. وبما أنّني لم أكن على هذا الاستعداد، فلم أكن أملك خيارًا سوى العيش من دون جوناثان.

والآن، لا تملك مارني خيارًا سوى العيش من دون تشارلز.

هذا كلّه كي أقول ببساطة إن القصة تتواصل فصولًا. آمل ألّا أجد ممانعة من جانبك لمواصلة سردي؛ لدينا في النهاية، متّسع من الوقت. وأنت بالطبع ضد فكرة تواجدك هنا بمفردك.

ما يهم معرفته أنه في الأيام التي تلت تلك الوفاة، أدركت أنّني اتخذت قرارًا لا رجوع فيه. وكنت راضية أن أعيش مع تداعياته. نعم، كنت أشعر بالتعاسة بشكل متواصل، عندما أرى عينيّ مارني المتورّمتَيْن، وشفتيها المتشقّقتَيْن، وقلبها المكسور المنعكس على وجهها. لكنّني لم أشعر بالندم. وفي الواقع، كنت أشعر ببعض التفاؤل. خلتني وجدت طريقة لأعيد نسج خيوط شبكة العنكبوت تلك. وقد شعرت بأمان نسبي، وباستقرار نسبي أيضًا.

لقد بدأت أشعر بالأسى من جديد.

ما عليك إدراكه جيدًا هو ما يلي: لقد أردت استعادة صديقتي المفضلة. ونجح الأمر.

لكن لفترة موجزة ليس إلّا.

الكذبة الخامسة

الفصل الحادي والعشرون

كانت الحشود التي حضرت الجنازة غفيرة. زملاء تشارلز-ومعظمهم رجال يغلب على ملامحهم طابع الحدّة-من فك مسنون، إلى بزّات داكنة اللون-- أحضروا زوجاتهم، وكلّهن شقراوات جميلات يرتدين فساتين سودًا ضيّقة وأحذية فاخرة بكعب عالٍ. وقد رافقتهم سكرتيرة تشارلز، ديبي، وهي المرأة الوحيدة في المجموعة التي يتخطّى وزنها الستين كيلوغرامًا، ولا يتعدّى طولها المائة وخمس وستين سنتيمترًا. كانت في منتصف الستينات، صغيرة الحجم مقدامة، شعرها رمادي اللون قصير، ترتدي سترة أزرارها مشدودة بعض الشيء. كنت قد التقيت بها مرة واحدة من قبل؛ قبل بضع سنوات، عندما جاءت إلى الشقة مساء يوم جمعة، لتسليمه بعض الأوراق.

وصل أصدقاء تشارلز من المدرسة والجامعة في الوقت نفسه، وكلهم يضعون نظّارات داكنة اللون يرفعونها فوق جبينهم، وربطات عنق رفيعة سوداء اللون معقودة حول أعناقهم. وقفوا معًا عند أسوار الكنيسة، يدخّنون سيجاراتهم، ينفضون رمادها على السكة، قبل أن يدوسوا على أعقابها على الرصيف تحت أقدامهم. عدد قليل منهم قد حضروا مع صغارهم، صبية يصلون بطولهم إلى وسط الرجال، يرتدون سراويل سودًا وقمصانًا بيضًا، ثلاثة منهم يلعبون معًا، يضحكون ضحكات عالية

غير مناسبة للجو. كنت أتساءل إن كان تشارلز، في تابوته، يربط ربطة عنق أيضًا، معقودة حول عنقه المخلوع.

جاءت لويز، شقيقة تشارلز من نيويورك، وبقي زوجها هناك، ليهتم بتوأمهما الصغيرين وابنتهما الأكبر بمفرده للمرّة الأولى في حياته. وقد بدت لويز ضائعة بين الإحساس بالذعر بشأن رفاه أطفالها -هل من يطعمهم ومن يغسل لهم ويغيّر لهم؟- وبين محاولة إثبات أنها الأكثر تأثّرًا ومعاناة، أكثر من أي شخص آخر. لم أكن أعتقدها صادقة في مشاعرها. ومع ذلك، كانت تؤدي بفائق المبالغة دور الحزينة المفجوعة. بدت وكأنها تملك مخزونًا لا ينضب من ورق المحارم تمسح بها الماسكارا السميكة التي تكحّل عينيها، وتلعق دموعها المنهمرة بغزارة بين الحازوقة والأخرى. أمّا والدة تشارلز، فقد نوت أن تحضر الجنازة. إذ كانت بحال أفضل بقليل، بحسب ما قالت لويز، إلى أن ساءت حالها فجأة وباتت هشّة للغاية، لا تقوى على تحمّل مشقّة الرحلة الطويلة. في المقابل، حضر أهل مارني. كنّا نتوقع حضور شقيقها أيضًا، لكنّه لم يتمكن، بحسب ما قال، من تدبير أمور أعماله في فترة قصيرة، وكانت الرحلات من نيوزيلندا باهظة الثمن. وسيزورها قريبًا، بحسب ما وعد، عندما تهدأ الأمور.

لم يبدُ على مارني أنّها تبالي بما يجري من حولها. لقد حافظت على هدوئها طوال الفترة التي سبقت الجنازة، تنتقّل من غرفة النوم إلى المطبخ إلى الحمام، وتجلس كالصنم على الأريكة أمام مجموعة من الأفلام والمسلسلات كنا حضرناها كلّها عندما عُرضت للمرة الأولى قبل سنوات عديدة. لم تبكِ مارني إلّا لِمامًا. لكنّها كانت تستيقظ في منتصف الليل مرّات عدة، تنتفض جالسة تصرخ، ثم تنهض وتعتذر وتعود لتتمدَّد مباشرة. كانت لا تزال في عين العاصفة، وواقع حالها يغزل غزلًا من حولها بينما تحاول الوقوف عالقة في الوسط، تنتظر أن يتم جَلدها أو طردها.

خلال هذه الأسابيع القليلة الأولى، تخلّت كليًّا عن الإنترنت، فكتمت إشعاراتها وتجاهلت أي رسائل كانت تتسلّل إليها عبر ذلك الحاجز. فقد حاولت أن ترد على الجميع خلال اليوم الأول أو اليومين الأولين -على المفطور قلبه والمعني بأمرها والمشكّك بما حصل- وكان الأمر أكثر ممّا بوسعها تحمّله. فالأصوات كثيرة، والوقت ضيّق. لذلك، لم تقم بعزل نفسها عن عملها، وعن العالم داخل هاتفها وحسب، إنّما انقطعت عن العالم الأوسع المحيط بنا. فجلست بكل بساطة، وحدّقت، كما لو أنها تنتظر التعليمات. ولم تغادر الشقة طوال أسبوعين: وكان خروجها الأول للجنازة.

كنتُ أعرف غالبية المعزّين الحاضرين لالتقائي بهم في حفل الزفاف، لكن كان ثمّة بضعة وجوه غير مألوفة: فوجدتني أنجذب لامرأة، في سنّي على الأرجح، ترتدي سروالًا أسود، وحذاء عاليًا بكعب عالٍ، وقميصًا أزرق داكنًا. كانت نحيفة فارعة الطول، كما لو أنّها عارضة أزياء، لكنّها جامدة من دون حركة حتى لتبدونّ غير مرئية. كان شعرها قصير جدًّا، أسود مائل إلى زرقة، وعيناها على خضرة حادّة. أما أصابعها، فتزيّنها خواتم فضّية، وقد دقّت وشمًا صغيرًا، يشبه النوطة الموسيقية أعلى عمودها الفقري. بدت وكأنّها جاءت بمفردها. فوقفت في المؤخرة خلال المأتم، وفي المؤخرة خلال الدفن، وفي المؤخّرة خلال حفل الاستقبال. كانت تحمل حقيبة جلد سوداء تعلّقها على كتفها، وقد لاحظت أنها تأخذ منها كتيّبًا أحمر صغيرًا دوّنت عليها ملاحظات أقلّه مرتين.

«هل تعرفين من هذه؟»، سألتُ مارني، مشيرة إلى المرأة بينما كانت تتراجع إلى الردهة. كان حفل الاستقبال يجري في قاعة صغيرة نوافذها كبيرة تشرف على النهر، وكانت تبدو أكثر كمركز مؤتمرات منه كنادٍ خاصٍّ للأفراد.

هزّت مارني رأسها نفيًا.

كانت حاضرة بجسدها ليس إلا، تتأرجح قليلًا على حذائها العالي

جدًا، وعيناها مغرورقتان بالدموع. أمّا ذهنها، فكان عالقًا في مكان آخر: في تلك اللحظات عندما كانت تجثو فوق جسد زوجها الميت، وفي الدقائق التي طالت وطالت بينما كانت تحاول الادّعاء أنه لا يزال ثمّة أمل. كانت كما الطفل الخائف، ترتعد فرائصها، وتزمّ شفتيها، وتلمع وجنتها بفعل دموع لا تنضب.

تذكّرت مأتم زوجي وكأنّني أنظر من خلال عدسة عين سمكة. كانت الصور مشوَّهة في ذهني، مقوّسة كما البالون، منتفخة على نحو غير مريح. كان بوسعي أن أرى المعزّين يدخلون ويخرجون في دائرة نظري -برؤوسهم الملتوية، وابتساماتهم الخجولة، وعيونهم المغرورقة- ويقفون على تماس مباشر مع وجهي، فأشعر بنفَسهم الدافئ، وأستعيد الطريقة التي شدّوا بها كلّهم على يديَّ وكتفيّ. ورحت أتساءل ماذا رأوا عندما نظروا إليّ. هل كنت أبدو وقتذاك على درجة من الهشاشة، والضياع والشتات؟

انقضت فترة بعد الظهر وجلسنا أنا وماريني معًا، ورحنا نتأمّل أصدقاء طفولة تشارلز بينما يفتحون أبواب الفناء ليدخّنوا خارجًا، وأصدقاؤه من الجامعة يطلبون كلهم المشروب لاحتسائه تكريمًا له، بينما لويز تفيض بكاء، ورأسها مدفون في كتف قريب لها. حاولت أن أكون اجتماعية، فانخرط في حوارات مع أولئك الذين التقيت بهم قبل وقت آخر من السنة، وأقدّم تعازيَّ وأتشارك الذكريات، لكنّني شعرت وكأنّهم كلّهم يفضّلون الكلام مع شخص آخر. شعرتُ -ولطالما شعرت بذلك- وكأنّني شخص يقول له الناس «شكرًا على مجالستك، لكنّني أفضّل أن أذهب للقاء صديق لي»، أو «يسرّني أننا التقينا، لكنّني سأتوجه إلى البار لتناول مشروب آخر»، أو «لقد لمحت ريبيكا للتو، هلّا تعذرينني؟»، لذا شعرت بالارتياح عندما أمسكت ماريني بذراعي ووقفت وأشارت لي إلى المدخل وهي تتوسّلني أن آخذها إلى المنزل.

جلسنا بصمت في سيارة الأجرة. كانت الشمس تغيب وراءنا، في

ساعة مبكرة وقد شارف فصل الخريف على نهايته؛ فأخذت خيوط برتقالية اللون تعكس عمق اللحظة في المرايا الجانبية للسيارة. بدا الأمر وكأنّنا في مشهد وداعٍ من فيلم قديم، فشعرت بالطمأنينة، كما لو أن العالم بأكمله كان ممتنًا لتدخّلي.

وصلنا إلى شقّتي، فتوجّهت مارني لتبدّل فستانها وترتدي البيجاما المفضلة لدي.

«لم أكن أعلم»، قالت وهي تعود لتجلس على مقعد عالٍ أمام منضدة المطبخ. «لم أكن أعلم كم إن الأمر سيئ. لم أكن أعلم في حينها، عندما كنتِ تعانين ما تعانينه، كم إن الأمر كان سيئًا».

«لقد فعلتِ كل ما بوسعك فعله»، أجبتها، وأنا أسكب المياه الساخنة في كوبين. «وعلى كل الأحوال...».

قاطعتني: «لم أفعل كل ما بوسعي، وأشكرك على قولك هذا. لكن كلانا نعرف أنّني لم أفعل».

وضعت كوبًا من الشاي بالحليب على المنضدة أمامها. «اشربي هذا، سيساعدك».

أومأت برأسها إيجابًا ثم أحاطت بيديها الكوب الدافئ.

لقد تساءلت -قبل أن توافي المنية جوناثان- إن كان الشخص الذي يعاني خسارة فظيعة يزدادتعاطفًا. أما وقد اختبرت اليوم مأساتي الخاصة، فقد بتّ على يقين مطلق أن الإجابة هي *بالطبع* نعم، ولا. لقد غدوت أكثر قدرة على الإحساس بالشفقة، وأقل استعدادًا للإحساس بالتعاطف. لقد فهمت المكنونات الدفينة للعبء الذي يتمثّل في حزن مارني، لكنّني بالكاد أحسست بأي شفقة تجاه لويز، بين تجهّمها، وهستيريتها وهرائها بشكل عام.

وأفترض أن تعاطفي تجاه مارني بهتَ قليلًا أيضًا، لا سيما عندما قارنت بين خسارتَيْنا. كنت أدرك أنها تعيش حزنًا حقيقيًا، مريعًا ومدمّرًا. لكن أن تخسر زوجًا محبًّا عطوفًا خلوقًا هو أمر، وأن تخسر شخصًا لم يبلغ مصاف الخيّرين الطيّبين، لهو أمر آخر.

الفصل الثاني والعشرون

أود أن أخبرك عن الأسابيع التي تلت وفاة زوجي. كانت بلا أدنى شك أسوأ أسابيع حياتي وتعجز الكلمات عن وصف ما تجرّعته من ألم. ما من لغة تعبّر بحق عن تلك الهزّات الارتدادية التي تجتاحك غداة خسارة بهذا الحجم. ثمّة الموت بحد ذاته، في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل ذكرى، وفي كل لحظة يتمنّى فيها المرء لو كان معهم. لكن ذلك الموت ما هو إلّا ركن واحد من أركان الحزن والأسى. ففي شموليّته، يتخطّى بكثير خسارة شخص واحد، ليصبح خسارة حياة.

في تلك الأشهر القليلة الأولى، كنت أعيش حِدادي بطريقة عنيفة قاسية، فأبكي لحظات لم أعرفها، وأمورًا لن تجري يومًا. ولو كنت أحمل فوق أحد كتفيّ ذكريات الماضي -كيف التقينا، وكيف تزوّجنا، وكيف قضينا شهر العسل- فإنّني أحمل فوق كتفي الآخر ذكريات لم نصنعها، وأمورًا كنا نتوقّعها في مسار حياتنا معًا: الأطفال الذين كنا سنرزق بهم، والمنازل التي كنا سنعيش فيها، والأماكن التي كنا سنسافر إليها. كنت عالقة بين ماضٍ بدا عابقًا بالمشاعر ومستقبل بدا مجرّدًا منها.

وكنت مضطربة لا أقوى على استيعاب حجم مصيبتي، عاجزة عن التموضع داخل حياتي، أصارع ذاتي كي أجد نوعًا من السلام الداخلي فيها. لم أستطع أن أجلس وأتذكّره وأبكي عليه. لم أقوَ على التركيز على أي لحظة واحدة، إذ إن أمورًا كثيرة عديدة أحسست وكأنّني غير قادرة على تخطّيها. كنت شاردة متقلّبة المزاج، وها أنا أجد نفسي أعاني كي أستذكر تلك المرحلة على نحو دقيق، لأنّني بالكاد عشت فيها.

لكن تلك الأسابيع القليلة ارتدت أهمية بالغة. فبطريقة أو بأخرى، بدأت الأمور كلّها من تلك اللحظات.

في تلك الليلة، بعد وفاته مباشرة، توجّهت إلى شقة فوكسهول، واكتشفت أشياء لم تكن لي في غرفتي القديمة: ملابس مطويّة على الكرسي في الزاوية، وسروال جينز يعود بوضوح إلى رجل وثلاثة قمصان على التعليقة. قرّرت عوضًا عن ذلك أن ألجأ إلى سرير مارني.

كان بوسعي أن أتحسّس طعم الملح على شفتيّ المشقّقتين. كان حلقي جافًا، وذهني ينبض داخل جمجمتي، وتجويفا عينيَّ يرتجفان ويطرقان ويتنافران فوق وجنتيّ. بدا وجهي متورّمًا، وبشرتي مشدودة. رحتُ أحدّق بالسقف، وبخيوط الضوء التي تعكسها الستائر والنور المتسلّل من إنارة الشارع، وأخذت أفرغ نفسي كاملة، وأهدّئ من روع أفكاري، وأثبت جسدي بلا أي حركة. رحت أتخيّل نفسي في مكان آخر، لكن لا مكان أذهب إليه، لا مكان لا وجود له فيه.

استيقظت على وقع أصوات في الرواق، ثم المفتاح في القفل، تلا ذلك ضحكات وخطوات تطرق طرقًا على الأرضية البلاستيكية الخشبية المظهر. وعلى الفور، تعرّفت إلى قهقهة مارني، لكن الصوت الآخر كان عائدًا لرجل، بنبرة أضعف، يتردّد صداه متحشرجًا من صدر ذكوري.

توجّها إلى المطبخ. كان بإمكاني أن أنصت إلى همهمة محادثتهما. ثم فتح الباب الأمامي وأغلق مجدّدًا، وأدير جهاز الراديو فتوجّهت إلى المطبخ ووجدت مارني منحنية فوق صندوق كرتون، تلف ورق الفقاعات حول كؤوس الشمبانيا.

«لقد كان هذا سريعًا»، أسرّت لنفسها قبل أن تقف وتستدير نحوها وتقول: «آه، ماذا تفعلين هنا؟ ما الخطب؟ هيا. ماذا يجري؟ ما الذي حصل؟».

عاد تشارلز إلى الشقّة بعد حوالى نصف الساعة. نادى من الرواق.

«لدي المزيد من الصناديق، أحضرت ستة. هل تعتقدين بأنها تكفي؟ كان بإمكاني أن أحضر المزيد، لكنّني لم أكن أكيدًا وتساءلت أيضًا إن...». توقّف عند الباب لتفلت منه آهة واحدة ويصمت.

كنت أنا ومارني متدثّرتَيْن معًا على الأريكة. لا أخالني بوسعي أن أخبرك أين تنتهي الواحدة منا وأين تبدأ الأخرى. كان رأسي يستريح على صدرها، وذراعها تحوط بظهري وأقدامنا تتشابك كأطراف واحدة.

تلك كانت المرة الأولى التي أراه فيها. كان فطنًا وطويلًا ووسيمًا. عريض المنكبين، يرتدي قميصًا مكويًا، مقلّمًا أقلامًا زهرية على خلفية بيضاء، يضعه تحت سروال من الجينز. كانت أزراره العليا مفتوحة فأمكنني أن أرى شعر صدره يمتدّ ليصل إلى قاعدة عنقه. كان ذقنه مسنونًا وأنفه ضيقًا وحاجباه قاتمين شبه سوداوين، وشعره بنيًا داكنًا تشوبه خصلات رمادية عند الأطراف.

«لحظة»، همست في أذني قبل أن تختفي. سمعت همسات في الرواق ثم فتح الباب الأمامي وأغلق مجدّدًا وعادت إليّ.

لم أره مجدّدًا لفترة من الزمن؛ ولا أذكر أنّني غادرت الشقة لأسابيع عدة. لكن مارني كانت حريصة على أن أخرج، وألّا أقضي أيّامي متغلغلة بين ملاءات السرير النتنة نفسها، أتعرّق وأنتحب وأعذّب نفسي، لذلك بدأت ترسلني شيئًا فشيئًا في رحلات تسوّق سخيفة. فتارة احتاجت إلى الزبدة لخفق قالب حلوى، وطورًا افتقدت للحليب لفطورها مع الحبوب، أو لأن شيئًا ينقصنا من المحلّة الصغيرة عند زاوية الطريق.

عدت في أحد الأيام من السوبرماركت بعد حوالى الشهر تقريبًا، وكان يقف في رواق الشقّة، على وشك أن يغادرها. كان يرتدي بدلة مع ربطة عنق حريرية أرجوانية اللون.

«مرحبًا»، قال لي وهو يمسك بالباب. «لا بد من أنك جاين، صحيح؟ حسنًا، عليّ أن أغادر. يسرني لقاؤك. وأنا آسف -أقصد- يؤسفني ما جرى».

مشى من أمامي واختفى نزولًا في ردهة المبنى.

لحقت بباب المدخل قبل ثوانٍ من أن يقفل في وجهي.

ثم بدأ يظهر بشكل أكثر انتظامًا، يطلّ في أمسيات منتصف الأسبوع، ليترك شيئًا ما، حزمة تم تسليمها له، أو ليأخذ شيئًا ما - إذ كانت أغراضه أينما كان: أكوام أنيقة من السترات الرياضية وصفوف من الأحذية ورف من الساعات المصطفّة عند حافة النافذة. وأحيانًا كان يبيت ليلته. لقد ذكرَت -قبل أشهر على ما أعتقد، عندما كنت لا أزال أعيش في إيلينغتون- أنها تواعد أحدهم. لكن في تلك الفترة، لطالما كانت مارني تواعد أحدًا. لطالما كانت تواعد وترسل لي رسائل حول رجال جدد تُفتن بهم في لحظة وتتحوّل فاترة لا مبالية بسرعة.

لكن سرعان ما بدأ يقضي الوقت معنا أكثر مما يقضيه من دوننا، وفي إحدى الأمسيات، سمعته ومارني يتجادلان بهمسات عالية لأنّهما باتا يملكان شقّتهما الجديدة، بحق الله، بحسب ما قال، وعندما اقترحت أن يشتريا شقة معًا، لم يكن ينوي أن يعيش فيها بمفرده، وكم سيدوم هذا بعد، حقًّا، ما المخطط.

تلك كانت المرّة الأولى التي أحسّ فيها إحساسًا غير اللامبالاة تجاه تشارلز.

كان حضوره حتى تلك اللحظة بالكاد مسجَّلًا. كنت، بالطبع، قد لاحظت تواجده في الشقة، لكنّني بالكاد كنت ألتفت لشيء غير مأساتي.

لكن تلك اللحظة غيّرت الأمور؛ غيّرت كل شيء. أضرمت نارًا داخلي. اعتراني فجأة حقد وكره تخطّيا ألمي. بدا الإحساس بالغضب حيًّا مثيرًا: شعرت بطاقة وشحن على نحو لم أشعر به لأسابيع. لم أصدّق أن رجلًا -رجلًا بالغًا- على هذه الدرجة من انعدام الإحساس. لم أصدّق أنه قادر على وضع ترتيبات معيشته أولوية أمام ألمي، أمام زوجي المتوفّى. لم أصدّق أنّني كنت متواجدة وعلى مدى أسابيع، على هامش رجل بهذا القدر من الفظاعة، ولم أتنبّه للأمر.

كنت أخالني على علم بما سيجري لاحقًا. كانت مارني ستقول كل الأمور التي أفكر فيها: أنّه أناني ومغرور، وإن لم يغيّر في سلوكياته فلن يعيشا يومًا معًا، وكيف يمكن له -هل أنت جاد؟- أن يطلب منها أن تضعه في سلّم أولويّاتها ونحن أصدقاء منذ سنوات -*سنوات*- ألا يدرك هذه المهمّة المستحيلة التي يطلبها؟

تخيّلتنا نضحك حول الأمر في وقت لاحق من تلك الأمسية. هدأ غضبي سريعًا، لكن الهيجان الذي كان يعصف في داخلي جرّاء تصرّفه قد أشعل شيئًا ما. لقد أنعشتني تلك التجربة، لكأنّها طهّرتني، إذ جعلتني أختبر ما هو غير الإرهاق والأسى والذعر.

غير أن الحوار لم يجرِ كما رسمته في مخيّلتي. سمعتها تهمس، ولا تصرخ -لم تبدُ غاضبة على الإطلاق- هادئة، لكنّها لم تكن هادئة كفاية فسمعتها.

«أعلم»، أجابته. «أعلم. وأنا أيضًا أريد أن أعيش معك. أنت تعلم ذلك. ليس هذا ما خطّطت له أيضًا».

في المساء التالي، أعدّت لي مارني طعام العشاء. وشرحت لي أن ليلة توفّى زوجي، كانت تساعد صديقها في توضيب شقّته. وفي الصباح التالي، كان يفترض بهما أن يبدآ توضيب هذه الشقة. وأقرّت أنهما ليسا معًا منذ فترة طويلة من الزمن، لكنّها رأت كم كنت سعيدة مع جوناثان، وقد بدأ الأمر بسرعة، أليس كذلك؟ لقد تقدّما بعرض على منزل في الطرف الآخر من المدينة. لم يمضِ إلا أشهر قليلة، لكن عندما تعلمين، فأنت تعلمين؛ هذا ما قالته. كانت مجرّد نزوة؛ شاهدا الشقة من الخارج بينما كانا يسيران أمامها وكان الوكيل العقاري موجودًا -إذ كان انتهى لتوّه من عرض المكان على زوج آخر- وهكذا دخلا، ولم يخالا سيتم قبول عرضهما -إذ كان عرضًا بخسًا، بخسًا بحق- لكن هكذا حصل وتسارعت الأمور بعد ذلك. وكانت تنوي أن تتّصل بي لتشاركني

الأخبار السارّة. أرادت أن تدعونا للعشاء، أن نكون أولى ضيوفها. كانت شقة جميلة، أو أقلّه هذا ما ستصبح عليه. سأحبّها، على ما قالت.

لكن تم تعليق الأمور -بالطبع؛ لم تكن لتقبل أن يحصل عكس ذلك- بعد الذي حدث. لكن حان الوقت للبدء بالتفكير بالخطوات التالية لكلينا. كانت تعاني، بحسب ما أفادت، لتسديد إيجار الشقة إضافة إلى حصّتها من القرض على المنزل الجديد. وفي كل الأحوال، من الصواب أن تفكّر في الانتقال إلى هناك؛ ثمّة أمور كثيرة عليها الاهتمام بها ولم يتم إنجاز أي أشغال بعد. ربّما يهمّني أن أنقل الإيجار باسمي هنا؟ لكن ربّما لا -ولا مانع في هذا أيضًا- فستساعدني على إيجاد مكان جديد إن كان هذا ما أريده.

أفترض أنّني كنت أدرك أنّها ستقع عاجلًا أم آجلًا في غرام أحدهم، وستقرّر مغادرة الشقة. ومع ذلك، شعرت بالصدمة. لم أصدق أن الأمر سيحصل بهذه السرعة. وبالطبع ليس على هذا النحو.

غادرت الشقة بعد ظهر اليوم نفسه وتوجّهت لأبقى مع إيمّا. لكن عالمها الغريب كان غريبًا جدًّا بالنسبة لي؛ البرّاد الفارغ، والقوانين العجيبة. لذلك، استأجرت شقّتي الخاصّة؛ وكانت المرة الأولى التي أعيش فيها بمفردي. كان المبنى قد شُيّد قبل عقد من الزمن، وكل شقّة بنيت على شكل مربّع مثالي: غرفة نوم وحمام ومعيشة موضّبة في مكانها كما قطع لعبة التتريس. وقد سُمح للقاطن السابق أن يدهن الجدران: أزرق داكنًا في غرفة النوم، وبرتقاليًّا في الحمام، وجدارًا أصفر وراء الأريكة. كانت الشقة في موقع جيّد وإيجارها مقبولًا، وبالتالي مناسبة لي. لكنّني كرهت وجودي فيها. أردت أن أكون مع مارني. رحت ألعن تشارلز بلا كلل. رحت ألومه على كل شيء -على وحدتي، وعلى حزني، وعلى أساي- لأنّه كان بإمكاني أن أفعل هذا، لكن أيضًا، بصراحة، لأنّني كنت أعتقد، ولا أزال، أنه حقًّا وفعلًا ارتكب ذنبًا لا يُغتفر.

لو كنت أعلم وقتذاك ما أعلمه الآن -أن حياتي ستصبح سريعًا من دونه فيها- هل كنت لأكرهه على هذا القدر؟ هل كنت لأجد راحتي في معرفة أن الأمور ستتوازن في نهاية المطاف؟

لكن لا بد لي من إيجاد أمور أشكره عليها. صحيح، على ما أفترض، أنه أجبرني على الوقوف على قدميَّ مجددًا. لم أكن قد عملت لحوالى الشهرين، وقد دفعتني أنانيّته إلى إيجاد قوّة خلتني فقدتها. لم أكن قد قضيت ليلة واحدة بمفردي منذ سنوات -في الواقع في أغلب سنوات حياتي- وها هو يسلبني رفيقتي ويرميني خارجًا. رحلت بطلتي ومعزّيتي ومستشارتي. ليس ثمّة من يهتم بي، ليس ثمّة من أرى في حبه طاقة مطلقة لا تعرف حدًّا، ليس ثمّة من يجدني محورية في حياته. غاب جوناثان. وغابت مارني بدورها الآن.



الفصل الثالث والعشرون

علمت لاحقًا أن المرأة الغامضة في حفل التأبين تدعى فاليري ساندز. كانت تبلغ الثانية والثلاثين من عمرها، مطلّقة، وتعمل صحافية تراسل صحيفة محلّية منذ أكثر من عقد من الزمن، بينما تدير في الوقت عينه موقعها الإلكتروني التشهيري في أكثر الأحيان، وكانت مصرّة على إيجاد قصّة حقيقية، يكون لها وقع قوي، تلفت بواقعيتها - قصة قد تغيّر الصيت الذي لحق بها.

عشيقتان مثليّتان تقتلان زوجَيْهما

ذاك كان العنوان الذي اختارته. واستخدمت الخط العريض واللون الأحمر القاني، كما لو كان دماءً تسيل على خلفية مدوّنتها البيضاء. لم نكن نعلم أن تلك الواقعة ستقع، وأنّها ستُنشر على موقع الشبكة، وأنّها تقوم بالتحقيق حولنا، إلى أن وقعت بالفعل. اكتشفنا المنشور بعد حوالى أسبوعين من الدفن، عندما بدا وكأن الحالة «المقبولة» قد تكون ممكنة لمارني يومًا ما. كانت الأمور قد بدأت تتحسّن، وثقل الحزن يتوسّع، نعم، لكن كما المحلول يتحلّل في المياه، وقد ضحكنا مرة أو مرتين. أمّا أنا، فكنت أتنقّل بين الهدوء المطلق، إذ لا سبيل لإثبات تورّطي، والذعر القاتل، إذ ماذا لو ثبت؟ ومع ذلك، وبينما تحوّلت الأسابيع الأولى إلى أسابيع التشييع، ومرّت الأسابيع التالية، شعرت بتوازن أكبر بشكل عام، وما عاد الذعر يرتفع إلى أوجه عندي إلّا في ما ندر.

لم تبرز تساؤلات كثيرة -بل كانت شحيحة في البداية، وغير ذات أهمية- إلى أن تقبّل الجميع الرواية الأكثر منطقية للأحداث على أنها

الأكثر تماسًا مع الحقيقة. كان تشارلز يعاني صداعًا نصفيًا، وقد أصابه الدوار وكان مشوشًا، فتعثّر وسقط من على السلالم، وكسر عنقه وتوفّى على الفور. وكان تشارلز فعلًا مصابًا بصداع نصفي صبيحة ذلك النهار؛ وقد أكّدت مارني ذلك بحضور رجال الإسعاف. وغالبًا ما اتسمت عوارض الصداع النصفي عند تشارلز بثقل في الرأس وتشويش في الرؤية وأحيانًا بدوار.

أما الأسئلة التي بدأ الجميع يطرحها -من أصدقائها والعائلة، والمعارف الذين لم يكونوا يعرفوننا أبدًا لكنّهم أصيبوا بصدمة ليس إلا- فكانت أسئلة تشكيك ساعية للتصديق أكثر منها أسئلة بحث عن حيثيات ما حدث. غريب أن يلقى شاب حتفه جراء سقوط عنيف على هذا النحو. ماذا كان يشعر بينما كان يهوي؟ ما كانت فرص نجاته؟ ألم يكن من طرق أخرى كان يمكن له أن يسقط فيها، وأن ينجو من مليون عثرة أخرى؟

لكنّني كنت على يقين أنّه لا يمكن تفادي الأسئلة الساعية وراء الحيثيات، والإجابات الأوّلية التي جاءت من التشريح دعمت لحسن الحظ النظريّات كلها. فقد أظهر التشريح أنه كان قد تناول كمية قليلة من الطعام في ذلك النهار؛ بعض القهوة، وعددًا من الأدوية -بكمّيات تتخطى بقليل ما هو مسموح له- لمعالجة الصداع المستفحل الذي رافقه دوار. وقد أصيب بطبيعة الحال إصابات بليغة -من الكاحل المكسور، إلى الكتف المخلوع- لكن الكسر في عنقه هو الذي أرداه قتيلًا. وكان مكدّمًا أيضًا، وبدا كأن عظمة خده مكسورة أيضًا، فافترضوا أن كل هذا ناجم عن سقوطه. ولم يجدوا ما يثير الريبة، لذلك قطّبوه، ونقلوه إلى موقع مراسم التشييع، وخلصوا إلى أن الوفاة ناجمة لسوء الحظ عن حادث عرضي أليم.

تراجع، أقلّه، خوفي. لم أعد أفكّر بالشرطة أو بالسجن أو بالحقيقة.

إذ إنّ أيًا من السلطات -ولا المسعفين ولا الأطباء- بدا لي مسبِّبًا منطقيًا للشعور بالخوف. أليس هذا مستغربًا؟ أعني، لا يجدر بي النقاش. لكن الخوف لم يبدأ بالتسلل إلى داخلي مجدّدًا إلا لاحقًا، بعد الدفن، بل بعد هذه المقالة. فقد ظهر شخص بدا مصمّمًا على مساءلة الحقائق، وطرح الأسئلة، شخص رأى جوانب مظلمة تخيّم فوق تلك الوفاة.

كانت فاليري تبحث عن قصّة تغيّر مسار مهنتها. لا أخالها لا تستمتع بالكتابة للصحيفة المحلّية، لكنه مضى على عملها ذاك فترة طويلة من الزمن، بل عقد من الزمن، وكانت توكل إليها تغطية أحداث اجتماعية لا قيمة فعلية لها -من عروض الكلاب إلى مبيعات خيرية وأحيانًا ملاحقة المشاهير في المطاعم الفخمة التي تفاخر بلوائح انتظارها- لذلك أفترض أنّها كانت بحاجة لأكثر من هذا. ولا شك في أنّها شعرت ببالغ الغبطة عندما عبرت قصتها باب المدخل في إحدى الأمسيات وجلست بجانبها على الأريكة.

كانت فاليري تعيش مع زميلتها في الغرفة، صوفي، منذ ثلاث سنوات. تركت زوجها عند محطّة قطار بعد سنوات. ليس من اللاسعادة على وجه التحديد، بل من الفراغ ليس إلا. وأصبحت السيّدتان سريعًا صديقتين. كانت صوفي تخضع للتدريب كي تصبح مسعفة، وأخذت فاليري تستمتع بالإنصات لقصص الحياة والموت والدم: وهي أكثر اللحظات تطرّفًا في حياة الإنسان.

وقد أخبرتها صوفي على الأرجح أنّها قضت يومها مع مسعفَيْن من الرجال، أحدهما طاعن في السن زائد الوزن، والآخر شاب. توجّهوا لإسعاف حادث في مبنى شقق فاخرة -هكذا تخيّلتها تصف الحادثة؛ هذا ما كنت لأقوله- سقط فيه رجل شاب من على السلالم ووصلت زوجته وصديقتها المقرَّبة لتجدا جثة ملويّة ممدّدة في الرواق. وقد تضيف، ثمّة ما هو غريب في هاتين السيّدتين.

داخَلَ فاليري نوع من الشك. فتسلّحت بفضولها وحاولت أن تجعل من شكوكها قصة. ولأنّها كانت تدرك جيدًا أنّها لو أرادت من هذا أن يحوّل مسار مهنتها، فلا بد لها من إيجاد بعض الإجابات، وطرح الأسئلة المناسبة على الأشخاص المناسبين، وإماطة اللثام عن التفاصيل الشنيعة والحقائق المقيتة.

ومع ذلك، لم تجد شيئًا في بداية المطاف. حضرت مراسم الدفن ولم تلحظ أي أمر مثير للريبة. ثم شرعت تتحدّث مع سكريتيرة تشارلز، ديبي، التي أكّدت عن غير قصد أن تشارلز كان يعاني بلا أدنى شك صداعًا نصفيًا. ثم أخذت تتسكّع أمام مبنى مارني -إذ تقفّى أثرها جيريمي مرّات عدة على كاميرات المراقبة- لكن مارني لم تكن تقطن في المبنى في تلك الفترة، لذلك، لم يكن بإمكانها اكتشاف الكثير. وهكذا، فإن الحقيقة الأكثر جلاء كانت لا تزال الحقيقة الأكثر احتمالًا.

أفترض أنها بدأت تركّز عليّ في تحقيقها بعدما انتهت من تفحّص كل ما يعود إلى مارني. رأيتها مرة عند مكتب الدخول في مبنى عملي، تتحدّث مع رجل الأمن في ردهة الاستقبال. كان رجلًا عجوزًا، أصلع كرشه يدلف أمامه، وكانت هي أكثر صغرًا وأكثر طولًا بشعرها القصير وعظام وجنتيها النافرة. أذكر أنّها كانت منحنية على الرف، وبلوزتها المفتوحة عند الصدر تكشف الكثير بينما تضحك بصخب. كان فمها مشرّعًا يكشف أسنانًا بيضًا مستقيمة، وأذكر أنّني تساءلت عمّا تريده منه.

غير ذلك، لم ألاحظها تتجّسس على حياتي، لكن هذا لا يعني أنّها لم تفعل. فالشبكة الإلكترونية تحفل بالكثير من المعلومات التي كان يمكن لها أن تجدها، لو أجادت البحث في الأماكن المناسبة -وهو ما فعلته على الأرجح-. فثمّة مقالات كنت قد كتبتُها لمجلة الجامعة ومقالات عديدة حول جوناثان: يوم مقتله، خلال الماراثون، والمشاهد المصوّرة بعد ذلك كانت لا تزال متوفّرة. وكان ثمّة مقالة أو اثنتان على موقع شركتي ذكرت اسمي وناقشت التحسينات في خدمة العملاء.

لا بد أنّها وجدت ما حرّك إلهامها. لا بد أنّها خالت نفسها حقًا قد فكّت لغزًا. لكن ما ذكرته على الإنترنت تضمّن كذبة إضافية. كانت مقالتها تشير إلى أنّني قتلت جوناثان، بعد أن دفعته في اتجاه آلية قادمة. ثم بعت شقته، محققة ربحًا ملحوظًا، وقبضت التأمين على حياته. لقد جنيت مبلغًا من المال -هذه كلماتها هي، وليست كلماتي- بقتلي زوجي.

لكنها لم تكتفِ بهذا. بل تواصلت مقالتها تتبنّى هراء لا يدعمه أي دليل ولا أي مصدر من أي نوع كان. ادّعت أنّني ومارني -ثعلبتان خبيثتان وعشيقتان سرّيتان- وجدنا استراتيجيتنا على قدر من النجاح حتى قمنا بتكرار مخطّطنا مرة ثانية.

زواج. جريمة. مال

هكذا ذيّلت أسفل المقالة. كتبت أنّنا نعيش الآن نعيمًا مطلقًا، نتمتّع بثرائنا، والثروات التي استحوذنا عليها من قبضة زوجَيْنا المغدورَيْن.

الفصل الرابع والعشرون

كان يمكن لنا ألّا نسمع بفاليري يومًا وألّا نقرأ مقالتها، لو لم تنقلها صحيفة صفراء محلّية. كان لموقعها بضعة آلاف من المتابعين -جلّهم من سكّان لندن الشباب- وربّما كنّا لنكتشفه عرضيًا أو ربّما كان ليشير إليه أحد متابعي مارني. لكن ربّما أيضًا كانت حياتنا لتتواصل بشكل طبيعي من دون ما يعكّر صفوها.

لكن لسوء الحظ، انتهى الخبر على الصفحة الأولى في صحيفة توزَّع في أرجاء البلاد، في مقالة تبشّر بتنامي الافتتان الجماعي بالجرائم الواقعية. على ما يبدو، وصل عدد المدوّنات إلى بضعة آلاف والبث المباشر إلى المئات. استخدمت قصتنا مثالًا مثيرًا.

قالوا إن المنشور على المدوَّنة قد انتشر كما النار في الهشيم. فتم تشاركه على منصة فايسبوك وتويتر أكثر من مئة ألف مرة، الأمر الذي إن دلّ على شيء، فهو يدل علي أن مضمونه لافت. وربّما كانوا يقولون الحقيقة؛ ربّما الناس كانت حقًّا مهتمّة بحكاية امرأتين قتلتا زوجيهما. أفترض أنه ليس بوسعي أن ألومهم؛ لكنت قمت بالأمر نفسه، أيضًا. لكن الجانب المتهكّم مني راح يتساءل إن كان هذا التساؤل ليس إلا مجرد غطاء، أو طريقة ذكية لنشر قصص فضائحية والاستفادة من الضجة والإثارة من دون أي تبعات قانونية تذكر. فقد نقلوا عن موقع فاليري مرات عدة، لكنهم أشاروا إلى جريمة «محتملة» ولم يتّهمونا مباشرة بارتكاب أي فعل.

امتدّت المقالة على صفحات عدة، لكن كان ثمّة عنوان ناري صغير

على الصفحة الأمامية، وسرعان ما غرقت أنا وماريني تحت سيل الرسائل من أصدقائنا وعائلاتنا. لقد شاركونا روعهم ليس نتيجة سلوكنا المفترَض بل دعمًا لنا. لم يصدّقوا كلمة مما كُتب، بحسب ما أخبرونا. هل سمعتما يومًا مثل هذا الهراء؟ ما الذي يجري في هذا العالم؛ هل ما زال تقفّي الحقائق قائمًا في أيامنا هذه وعصرنا هذا؟ وأخذوا يهدّئون من روعنا مؤكّدين أن لا أحد سيهتم لهذا النوع من الكلام الفارغ.

لم نكن كنا قد اطّلعنا على المقالة بعد -ولم نكن ندري بوجود موقع إلكتروني- لذلك هرعت إلى الكشك عند زاوية الشارع لأحصل على نسخة وأنا لا أزال في ملابس النوم، وقد وضعت فوقها على عجل معطف المطر الأسود الطويل. أحضرت الصحيفة إلى الشقّة، وفتحتها على طاولة الفطور. قرأناها أنا وماريني معًا، وأعيننا تتنقّل يسارًا ويمينًا ونحن ننهي كل سطر معًا وتعابير وجهينا تتبدّل في لحظة واحدة، فتكفهرّ وجوهنا وتقطب حواجبنا على الأكاذيب المريعة نفسها.

كان ثمّة سطر من فاليري في النهاية يقول: «أنا أفهم تمامًا حال الافتتان بروايات مشابهة، لكنّني أعتقد من الخطأ التركيز على وجه التحديد على إراقة الدماء، والافتراض أن الوفاة بحد ذاتها هي سبب تلك الإثارة. بالنسبة لي -وللعديد من قرّائي الأوفياء- الأمر يتعلّق بالحقيقة أكثر منه بالميلودراما أو الفضيحة». وينتهي المقال برابط يشير إلى موقعها الخاص.

سحبت الحاسوب المحمول من تحت الأريكة وفتحته على المنضدة. أخذ الموقع الإلكتروني وقتًا طويلًا ليفتح -وأفترض أنّنا لم نكن الوحيدين الذين نبحث عن المقالة الأساسية- لكن في النهاية، ظهر العنوان الأحمر على الشاشة.

والحقيقة أن مقالة فاليري لم تكن منطقية. فالوقائع التي ذكرتها لم تدعم نسختها المقترحة من الأحداث على الإطلاق. أنا لم أقتل جوناثان. بل قتله سائق سيارة أجرة، رجل أواخر الخمسينات يقضي

حاليًا عقوبة سجن، بعد أن ألقي القبض عليه بجريمة التسبّب بوفاة بفعل القيادة تحت تأثير الكحول. وبعد بيع شقّته وتسديد قرضها، لم يتبقَ لي من الربح سوى القليل، وذلك بسبب الركود الاقتصادي وما استتبعه من أزمة عقارية. ولم أصرف فلسًا واحدًا من بوليصة التأمين على حياته.

اقترحت فاليري أن هذا النجاح الباهر -كلماتها هي مجدّدًا- قد ألهمنا حتى انتظرنا أربع سنوات بطولها وعرضها لنعيد الكرّة وننفّذ المخطّط نفسه مرّة أخرى.

«كيف قامتا بالأمر مرة أخرى؟»، كتبت. «عليّ أن أقرّ أنّني كنت على وشك أن أنهي القصّة هنا اليوم. وفكّرت في جعلكم تنتظرون حتى الأسبوع المقبل لأوافيكم بتحديث. لكن لم يسعني أن أقوم بذلك، ليس في حدث وحكاية بهذه الإثارة والتشويق. لذلك، سأترك بعض المساحة أدناه، وأطلب منكم أن تفكّروا لدقيقة أو اثنتين في ما يلي: ما الذي فعلتاه في المرة الثانية؟».

سارعت بالانتقال إلى أسفل الصفحة.

«العقاقير»، كتبت. «هل هذا ما تفكّرون به؟ إن كان يخطر في بالكم ما هو أكثر روعة، فأعتقد بأنكم تقلّلون من شأن هاتين السيدتَين. لم تكن جاين بلاك مسؤولة بشكل مباشر عن مقتل زوجها: لم تكن تقود السيّارة التي قتلته. بل جل ما فعلته أنها تلاعبت بالوضع لتصل إلى النتيجة المرجوّة. والأمر نفسه بالنسبة لمارني غريغوري سميث. هي لم تدفع زوجها من على السلالم -نعلم جيّدًا أنها كانت في المكتبة العامة عندما وقعت الحادثة- لكنّها قد تكون دسّت بضع حبّات إضافية في فنجان قهوته ذاك الصباح».

هراء ما بعده هراء.

لكن الحقيقة لا تنفع. إذ كما ذكرت من قبل، حتى أكثر القصص الخيالية غرابة قد تبدو واقعية بالكامل. والأكاذيب القابلة للتصديق ليست بالإنجاز العظيم. كانت قصّة مبهرة. وهذا ما يهم.

بوسعي أن أقول الآن إن ردّة فعلي في ذاك الوقت على ما قرأت لم تكن هادئة. لم أتحلَّ بالبراغماتية على الإطلاق. بل اعتراني غضب جامح أحرق معدتي، مثل حمض حارق عندما تدرك أنّك أكلت شيئًا عفنًا، وشعرت بإثارة أدرينالينية غريبة تشنّج أطرافي. كنت أفور غيظًا، بما يشبه اللحظة الأولى التي كرهت فيها تشارلز. وافترضت أن مارني تشعر بالمثل، لكن عندما نظرت إليها، كانت تبكي.

«كيف أمكنها هذا»، همست وهي تشهق بهدوء لافت، وكأن صوتها لا يتعدّى الصفرة. «كيف يمكنها أن تكتب مثل...؟ ليس صحيحًا. كيف يمكنها أن تكذب؟ قالت إن -يا إلهي- كيف يمكنها أن تتفوّه بمثل هذا؟ من هذه المرأة؟».

أشارت إلى سطر في منتصف الشاشة. كان إصبعها يرتعش. كلمات قليلة بالخط العريض، معزولة عن باقي النص.

قال صديق للسيدتين الشابتين» «لطالما كانتا صديقتين مقرّبتين، تعيشان في عزلة دائمة. في نوع من الحميميّة على ما أفترض».

«من هذا بحق الجحيم؟» ثم رمت بكوبها الفارغ على المنضدة. «من بحق الجحيم قال هذا؟ أي نوع من... كلا زوجينا ماتا. وها هي عاهرة تقوم.... من هذا بحق الجحيم يا جاين؟ سحقًا من هي؟».

«مارني»، قلت، وقد بدأت أشعر ببعض الخوف منها، إذ لم يسبق لي أن رأيتها يومًا، على مدى عشرين عامًا، فقدت رباطة جأشها -فلطالما أحسنت السيطرة على نفسها- ومع ذلك، ها هي هنا، وقد ثارت في نفسها سورة الغضب، حتّى لتفوّقت على أي كائن حانق آخر. «فلنفكر لدقيقة في الأمر».

«دقيقة؟ لا نملك ترف تلك الدقيقة اللعينة. جاين، سيُنشر هذا أينما كان. هذه المقالة المزرية ستكون على عتبة كل باب في البلاد، تنتظر أن تُقرأَ مع فنجان قهوة وقطعة خبز محمّص، هناك في رفوف

السوبرماركت، ولدى أكشاك الصحف وفي المطارات اللعينة، ثم في حواسيبهم المحمولة - هذا ما فعلناه نحن، أليس كذلك؟ المقالة باتت متوفّرة الآن على الألواح الذكية، تشع باللونين الأبيض والأسود على الشاشات».

«مارني، فلنقم...». اجتاحني نوع من الإثارة وأنا أراها بهذا الهيجان المتوحّش.

«هل تعتقدين أن أهلي رأوها؟»، سألت قائلة. «يا إلهي. لقد قرأها أهلي. سحقًا. وإن لم يفعلوا، كم يلزمهم -ليس وقتًا طويلًا، بوسعي أن أؤكّد لك ذلك في الحال- قبل أن يسمعوا طَرقًا على الباب من أحد الجيران أو يتلقّوا رسالة نصّية مهذّبة من صديق من نادي الغولف يقول: «آه، أنا آسف أن اسم عائلتكم قد زُجَّ في الصحافة الصفراء، يا له من استغلال»، وهراء يليه هراء، ثم سيدرون بالأمر؟ لقد نُشر على الإنترنت بحقّ اللعنة. سيغضبون. سيقرأه زملاء لهم. يا إلهي جاين. ما الذي يمكننا فعله؟».

ثم تطاير غضبها بالسرعة نفسها التي ظهر فيها، وبدأت مارني تبكي من جديد، ورأسها بين يديها، وجسدها يرتعش، وكل تلك القوة والطاقة تلاشت في الفضاء من حولها.

تلك كانت اللحظة التي طفت فيها مخاوفي إلى السطح من جديد. راحت تتراكم داخلي كما الحمّى. بدأت مع موجة غضبها. أستطيع أن أرى شكلها؛ وأشعر باهتزازاتها. كنت أعلم أن هذا ما سأصل إليه يومًا ما: إدراك أن ثمّة شخصًا في مكان ما لم يقتنع بالإجابات البديهية، وبالوقائع التي تم التثبّت منها.

كان ثمّة شيء في الطريقة التي صاغت فيها فاليري جُمَلها، ما هو أكثر شرًّا من الكلمات بحدّ ذاتها. بدأت أستشعر أن هذا ليس إلا البداية. وأخذت شكوكي المتحالفة مع مخاوفي تنبئني أن الأسوأ لم يقع بعد.

الفصل الخامس والعشرون

ساعات، وبدأ سيل الاتصالات علينا من وسائل إعلامية أخرى. كنت قد ركّبت خط هاتف أرضي عندما انتقلت إلى منزلي لكي أحصل على اشتراك انترنت أقل كلفة، لكنّني ها أنا أشعر بالندم على قراري هذا. كانت الرسائل تبدأ ولا تنتهي، طويلة وصفية أو قصيرة مثيرة، بحيث كنّا بالكاد نتمكّن من محوها. وسرعان ما بدأوا يرسلون لنا الرسائل الإلكترونية والرسائل النصّية على هواتفنا أيضًا. لقد استحوذت القصة على مخيّلات القراء، أو المستمعين، أو الجمهور. وما هو تعليقنا على ما يقال؟ هل لدينا تعليقات نضيفها؟ وعدونا -كلّهم- أنّهم ليسوا كسائر المراسلين أو المذيعين عبر الراديو أو التلفزيون. الآخرون يهتمّون ببساطة بالأعداد، وبالدراما، وبالمشاركة في هذه الفورة. أما نحن؟ كلا، نحن لسنا هكذا على الإطلاق. نحن نهتم بحقّ. وهذه هي اللحظة -«هذه هي *لحظتكما*»، قالوا كلّهم- كي تصوّبا الأمور.

لا عليك بالضحك. ليس الأمر مضحكًا. لمَ الضحك؟ «تصويب الأمور؟». حسنًا، نعم، أفترض أن هذا مضحك بعض الشيء. لن أقوم بطبيعة الحال بتصويب الأمور.

على كل الأحوال، كنا أنا ومارني نعلم أن الكذبة -قصة القاتلتين الشاذتين جنسيًا الخيالية- أكثر إثارة من الحقيقة. أو أقلّه، من الحقيقة المفترضة. من ذا الذي لا يسعى لقراءة خبر الأرملتين الماكيافيليّتَيْن اللتين تعيشان الخطيئة؟

وهكذا لم نتفوّه ببنت شفة. بل قطعنا خط الهاتف الأرضي وأطفأنا هواتفنا المحمولة وتخلّصنا من كل بريد إلكتروني يصلنا من مرسل

مجهول. ثم أقفلنا باب المنزل الرئيسي ولم نترك الشقة لأسبوعين كاملين، نطلب الطعام عبر المواقع الإلكترونية كل بضعة أيام ونقوم بتنزيل أفلام جديدة بطريقة غير شرعية. لم أتّصل بمديري، لكنّني افترضت أن أحدًا في المكتب قد قرأ المقالة لأنّني تلقّيت رسالة غاية في البساطة قوامها أن «أتصل بهم عندما أشعر أنّني جاهزة للعودة إلى العمل».

كنا، أنا ومارني، على ثقة أن الاهتمام بقصتنا الدرامية سيتراجع في نهاية المطاف. فثمّة دائمًا قصّة جديدة أكثر إثارة تنتظر من يخبرها. ولحسن الحظ، فإن الصورة المستخدمة في الصحيفة كانت فظيعة الجودة وغير واضحة بتاتًا، وقد أخذت من أول صيف قضيناه في منزلنا بعد عودتنا من الجامعة، وملابسنا الغريبة الأطوار، وإن كانت جذّابة بلا أدنى شك، إلّا أنها جعلت من الصعوبة بمكان التعرّف علينا. وكانت ثمّة صور أخرى لمارني -على موقعها الإلكتروني وعلى وسائل التواصل الاجتماعي- وأنا أعلم أن ثمّة صورة لي مخفيّة في مكان ما على موقع شركتي، لكن لربّما هذه كانت الصورة الوحيدة لنا معًا. ما كان علينا سوى التحلّي بالصبر والانتظار.

ومع ذلك، كنت أود أن أعرف المزيد عن هذه المرأة الغريبة التي أقحمت نفسها في حياتنا بطريقة مزعجة، لذا أخذت أتصفّح الانترنت بحثًا عن معلومات عنها. فاكتشفت أخبارًا عن زواجها؛ وزوجها السابق، وزوجته الجديدة، والموقع الخاصّ بحفل زفافهما. أخذت أنقر الفأرة صعودًا ونزولًا إلى أن وجدت مكان حفل الزفاف، والإطراء الذي وجّهوه إلى متعهّدي الطعام في الحفل. كما وجدت صورًا عن منزلها على منصة إنستغرام: كانت تظهر الشقة المشتركة التي تعيش فيها حاليًا؛ وزميلتها في السكن، التي عرفتها على الفور؛ والشرفة حيث جلستا في الصيف تحتسيان النبيذ. تمكّنت من رؤية اسم المقهى المقابل، وهكذا وجدت سهولة في البحث عن موقعه عبر الشبكة، كي أعرف أين تعيش.

كانت قد بدأت في الأسابيع القليلة الماضية تحضر صفوف رقص وحمّلت عددًا من الفيديوات لفرقة من ستة أشخاص يغزلون ويقرقعون وينقلون أقدامهم بخطوات محمومة كما لو أن أطرافهم مطّاطية. وربّما كان عملها أسهل ما تقوم به على الإطلاق؛ فبين كل ما وضعته سابقًا على موقعها الإلكتروني، ليس ثمّة ما يضاهي ما كتبته عنا إثارة وحماسة.

لم يخطر ببالي في ذلك الوقت أن أقتفي أثرها خلال عشر سنوات مضت -بل راودتني تلك الفكرة لاحقًا- لكنّني كنت لا أزال مفتونة بحجم البيانات المتوفّرة بين يديَّ، بمجرد نقرة من أناملي. وقد راعني أن أكون على هذه الدرجة من الانكشاف، وأن يكون بالإمكان اختراق حياتي بهذه السهولة. فرحت أراقبها في الأسابيع التالية، بينما كانت تحمّل صورًا حول تنقّلاتها مع الإشارة إلى المواقع، وتنشر مخطّطاتها وتكتب ملخّصًا عن الأحداث المقبلة في المنطقة.

وكنت على ثقة أنها تراقبني أيضًا.

لربّما كانت تلك الفورة لتهدأ لو انتظرنا بضعة أسابيع إضافية. لكن مارني لم تفعل. لم تستطع إلى ذلك سبيلًا. بل كانت الحبكة الخيالية تتعاظم داخلها: من عملية الاغتيال، إلى الأدوية، ومقتله. وكانت تتجلّى أكثر فأكثر مع انبلاج كل يوم. فتنام معها في الليل بينما تتمركز في أحلامها، لتنتقل مداورة من حالة الفتور إلى حالة الهيجان، ولا تكاد تغمض عينيها للحظات حتى يجتاحها الكابوس مجدّدًا. وهكذا، استطاعت أن تتذكّر كيف وضعت أقراص الدواء في فنجان قهوته. كما تخيّلت نفسها واقفة على رؤوس أصابعها، تحضر العلبة من الخزانة فوق المغسلة وتفرغ الأقراص من كرتونتها لتسمّم زوجها. وعندما مرّت أيام عدة لم تذق طعم النوم فيها، بدأت تعاني هلوسات غريبة وتتساءل إن كانت ربّما دفعت به عن السلالم. هل كانت موجودة معه؟ هل وقفت وراءه أعلى السلالم؟ تستطيع أن ترى الحادثة؛ الصور المعلّقة بأطرها على الجدار والسجادة تحت قدميها، وكانت تعرف جيدًا ذلك الشعور

عندما تلمسه، وتمرّر أصابعها بين كتفيه، وتمسّد راحة يديها على عموده الفقري. ثم انقطعت عن الأكل؛ مع أنّها ما انفكت تتناول الكحول. وما عادت تنام؛ بل أصبحت مهتاجة محمومة. باتت بأمس الحاجة لرؤية الحقيقة كما تعرفها قبل أن تقضي عليها تلك الكذبة.

قالت لي لاحقًا. «لا أفعل لنفسي، ليس من أجلي. كان بإمكاني أن أتعايش معه. لكن تشارلز؟ لم يكن ليتزوّج تلك المرأة التي وصفوني بها. جعلوه كلّهم يبدو بسيطًا وغبيًّا، ولم يكن يومًا هكذا. لم يكن بوسعي أن أسمح بأن تكون شخصيته هي تلك التي وردت في هذه الحكاية».

وهكذا التقت بفاليري بعد مضي أسبوعين على نشر المقالة الأولى. استخرجت الصحيفة من ملف القمامة وأخذت تبحث عن اسم الصحافية ثم عادت إلى الموقع الإلكتروني وأرسلت لها بريدًا إلكترونيًا. فتلقّت دعوة لتناول الفطور في الصبيحة التالية في المقهى الواقع في الطابق الأرضي من المبنى الذي أقطن فيه.

لو علمت مسبقًا لكنت ردعتها. لكنّني عندما استيقظت، وجدت مكانها في السرير إلى جانبي باردًا.

أتخيّل أن فاليري شعرت بخيبة الأمل من مارني، إذ أفترض أنها كانت تأمل الحصول على تفاصيل واعترافات قذرة وما يؤكّد نسختها عن الأحداث. وقد تكون مارني اعترفت أنها دسّت الأقراص ذاك الصباح وأنّها لم تتحقّق من التعليمات بعناية ولربّما لم تقرأها على الإطلاق، وأنها كانت حائرة ومنهكة القوى ولم تقدّر الكميات وهي في عجلة من أمرها. لكنها بالطبع لم تفعل.

لا يسعني إلا أن أخمّن أن ما قالته على قدر غير متوقّع من الملل. كانت مارني لتتكلّم بلا انقطاع عن صداعات تشارلز النصفية المتكرّرة. وكانت لتذكر -مرّتين على الأقل- أنها كانت تخشى إصابته بورم في الدماغ. لكن الطبيب -وكان رجلًا طيّبًا، لا بل طبيبًا جيّدًا، وهما يثقان به- لطالما كان مصرًّا؛ إنه صداع نصفي لا غير. لكن النوبات عندما

تصيبه، كانت قاسية؛ ولطالما كانت على هذا النحو. كان يفترض بها أن تبقى في المنزل. كان يفترض بها أن تعتني به. لكانت أحضرت له كوبًا من الماء، أو شطيرة، أو أيًا كان ما يحتاجه. كان بإمكانها أن تنقذ حياته.

وكانت فاليري لتنظر إلى مارني -وكانت قد أصبحت نحيلة بسحنتها الفاتحة، وشعرها غير المسرّح والهالات السود المتراكمة تحت عينيها، ورجفانها المتواصل غير المرئي- وتدرك أن مقالاتها، على ما هي عليه مسلّية، إلا أنه لا يمكن لها أن تكون حقيقية. فهذه المرأة الجالسة تتباكى حول فنجان قهوتها وهي على هذا القدر من الهشاشة والانكسار لا يمكن لها أن ترتكب أي جريمة.

ورحت أتساءل إن كانت فاليري شعرت بأي إحباط جراء هذا الاكتشاف. فأنا أكيدة أنها كانت تأمل اكتشاف شيء آخر. كانت تسعى وراء الجزء الثاني المرتكز على الجزء الأول: المزيد من التفاصيل والدراما والإثارة. لكنّها عوضًا عن ذلك، حصلت على تناقض، أو بالأحرى على اتّهام لا يصمد أمام أي تمحيص.

لا بد من أنّها كانت غاضبة. لكنّها كانت على قدر من الحنكة أيضًا. لذلك، أخذت تعمل بما تملك. فتلاعبت بالحوار الذي دار بينهما -الاعترافات القليلة، والمقتطفات التي نجحت في سحبها من أرملة محزونة- لتعرض تحديثًا أكثر إثارة.

عادت مارني إلى الشقة وهي تحمل لفائف الكرواسان الطازجة -وكانت في ما مضى في شقة فوكسهول جزءًا من طقوسنا في نهاية الأسبوع- فافترضت في ذلك بداية للتغيير في حالها، وتوطئة للسعي للعودة إلى طبيعتها من جديد.

ولم أشك بأي أمر قبل الصباح التالي، عندما تلقّيت اتصالًا من إيما. كانت قد اشتركت لتلقّي أي جديد على موقع فاليري الإلكتروني، فوصلها بريد إلكتروني في ساعات الصباح الأولى يعلمها بمنشور جديد قد تم تحميله. تقول الرسالة الإلكترونية إن فاليري قد راجعت مقالتها

الأخيرة نتيجة حصولها على بعض «الأدلة الجديدة». وقد كشفت -هذه المرة- الحقيقة الفعلية، وهي حقيقة أكثر قتامة لا تكشف العلاقات التي كانت هاتان المرأتان تقيمانها مع زوجيهما المغدورين، بل تفاصيل إضافية مع بعضهما البعض.

فتحت الصفحة على حاسوبي.

كتبت فاليري أنّني أشعر بالغيرة. قالت إن مارني كانت سعيدة -وإن على نحو غير متوقع- وأنه لم يسعني أن أحتمل رؤيتها على هذا القدر من السعادة مع شخص آخر. فقد سبق أن ارتكبت جريمة لأجلها -على ما يبدو- وقد راعني أنها لم تكن مستعدة للقيام بالمثل لأجلي. كانت المقالة طويلة ومعقدة، وكلّها تقريبًا مبنيّة على كلام فارغ. لكن النقطة الرئيسة التي أرادت، على ما يبدو الإضاءة عليها، هي أن الملامة تقع عليّ أنا حصرًا. فمارني لا تقوى على قتل تشارلز، لأنها «ربّما تحبّه فعلًا»، بحسب ما كتبت فاليري. لذلك اتخذت أنا الخطوات اللازمة لأضمن أنها لن تنكث بالوعد الأساسي بيننا. فكنت أنا من وضع ونفّذ هذا المخطط الدنيء. أنا الغريم الحقيقي. أنا قتلته.

«وبينما تملك مارني غريغوري سميث ذريعة مثبتة، لا ينطبق الأمر على الصديقة المقرّبة جاين بلاك. وأدعكم لتبنوا خلاصاتكم بأنفسكم»، كتبت فاليري»، لكن يبدو لي أن السُّحُب بدأت تنجلي عن ذلك اللغز».

هل لك معرفة بما يشعر به المرء عندما توجّه إليه أصابع الاتهام على جريمة ارتكبها؟ الأمر مرعب.

ماذا؟

لمَ النظر إليّ على هذا النحو؟

آه، فهمت. عليّ أن أقر أنها باتت على قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة متخطّية الجميع: من الشرطة إلى الطبيب الشرعي وأصدقائنا وعائلاتنا. وتساورك تساؤلات إن كانت على حق. هل وجدت طرف خيط الحقيقة؟ هل عليّ أن أطلعك إن كنت أغار من مارني.

كلا. أستطيع أن أؤكد لك بكل ثقة أنّني لم أشعر يومًا بالغيرة، لا من حياتها، ولا من الحليّ التي تتزين بها يوميًا. كنت أحسدها أحيانًا على ثقتها بنفسها، وعلى دفئها، وطيبتها، لكن الحسد يختلف الاختلاف كلّه عن الغيرة. هل يجيب هذا على سؤالك؟

لكن السؤال الذي كان يفترض بك طرحه إن كنت أشعر بالغيرة من تشارلز. وأفترض أنّني كنت أغار منه. قد يبدو الأمر سخيفًا، ولربّما لا أعنيه بالحرف، لكنّه حصل على شيء كان لي، حب كان في ما مضى لي، حب اختارني أنا.

لم تذكر أنّها تكلمت مع مارني. لكن في مكان ما بين الدليل الجديد ووصفها لأرملة محطّمة تقبض قهوتها الباردة على صدرها ولا يسعها أن توازن تنفّسها كي ترتشف رشفة واحدة، أدركت ما حصل.

توجّهت إلى غرفة المعيشة لأجد مارني تنتحب على الكنبة، وحاسوبها مفتوح أمامها، تعتذر بين تنهّدات ثقيلة مقطوعة.

قالت لي: «لقد جعلت الأمور أكثر سوءًا، جعلتها تنقلب عليك. الخطأ خطأي أنا. كتبت أنك فعلت الأمر. هل قرأت هذا؟ اعذريني يا جاين. أنا آسفة. أنا حقًّا آسفة». ثم أطبقت الحاسوب وأعادته إلى المنضدة. «خلتها ستدرك أنّني أقول الحقيقة. أردتها أن ترى أنّها كانت مخطئة، وخلتها -كم أنا غبية- خلتها ستنشر تراجعًا أو شيئًا من هذا القبيل وسننتهي من هذه القصة». وألقت برأسها بين يديها. «خلتها ستقول أنا آسفة»، أكملت قائلة وصوتها مكتوم بين راحتيها.

«ليس الخطأ خطأك»، أجبتها، مع أنه لا بد لي من أن أقر الآن -في معرض الصدق الذي تعهّدت به- أنّني كنت محبطة بعض الشيء. فقد أخبرتها بما يفترض بنا أن نقوم به، وقد تجاهلت تعليماتي كلّيًا. لكن نياتها كانت حسنة؛ لقد اعتقدت أن بوسعها أن تعيد الشبكة العنكبوتية إلى سابق عهدها. «لم يكن بوسعك أن تعلمي»، قلت لها، في محاولة للتخفيف عنها.

حاولت أن أحافظ على رباطة جأشي. نظرت إلى البيجاما التي كانت ترتديها وقد كشفت كاحليها وهي تجلس القرفصاء على الكنبة. كانت الأزرار مفكوكة عند عنقها وصدرها، وقد بدأت الحمّى الحمراء تتآكل بشرتها. كانت بحاجة أن أكون قوية، وأن أعتني بها.

والواقع أنّني لم أتوقّع مثل هذه التداعيات. ومع التشريح والمأتم، بدأ هذا الافتراض يصبح ملموسًا أكثر. فلم تكن الشرطة بحاجة لأن تبحث أبعد من الوقائع التي حدّدتها في المقام الأول. لكنّني كنت على يقين أن ثمّة خيوط حقيقة أخرى لا تزال مخبأة في مكان ما. وهذه المرأة الغريبة -التي ظهرت في حياتنا على حين غرّة- تبدو مصرّة على التنقيب حتى تجد ما يبدو أكثر مصداقية.

كنت آمل لو أن تصوير فاليري للأحداث سرعان ما سيسقط في خانة القيل والقال والأخبار الملفّقة والأكاذيب. لكن ماذا بعد المقالة الثانية؟ لم أعد على مستوى الثقة نفسها. لم أدرِ إلى أي مدى كانت مستعدّة للذهاب في مسعاها لاكتشاف الحقيقة.

أردت أن أرسل لها رسالة، أواجهها فيها، وأصر أن تصرفها بكل بساطة غير مقبول. لكنّني كنت أدرك جيدًا أنّني لو استفزيتها، فقد تزداد إصرارًا بدل أن تتراجع حماستها.

أخذت نفسًا عميقًا. كنت أعلم ما يتعيّن علينا فعله. كان يتعيّن علينا أن نثق في الصمت؛ أن نتركه يتّسع على مدى الأسابيع القليلة المقبلة، إلى أن يصبح الحقيقة الوحيدة القائمة، إلى أن تصبح حقيقتي أكثر الحقائق بعدًا عن الواقع، إلى أن يبقى السقوط عن السلالم الحقيقة الوحيدة المتبقية.

وفي هذه اللحظة تحديدًا، وبينما كنت أصب كل تركيزي على إصلاح الوضع مع فاليري، لم ألحظ مشكلة أخرى بدأت تلوح في الأفق.

لطالما كانت مارني واحدة من أكثر الأشخاص ذكاء وحنكة وديناميكية، ولم تفلح الدموع والحزن والفوضى في تغيير أي من هذا.

لطالما تمتّعت بقدرة رائعة -أعتقد أنها شيء يقارب القدرة الخلّاقة- على الجمع بين الأفكار المشتّتة وتحويلها إلى فكرة أكثر تماسكًا، فتحل أحجية عبر جمع قطع مفكّكة. وها هي تقوم بذلك من حيث لا أدري.

«لم يكن يجدر بي أن ألتقي بها»، واصلت مارني قائلة، ونبرة صوتها تتبدّل مع كل كلمة. «كان يفترض بي أن أدرك أنّها ليست موضع ثقة. لا أعرف لماذا أتوقّع الخير من الناس. لماذا؟».

«توقّفي»، أجبتها وأنا أجلس إلى جانبها وأحمل يديها بين يدي. «جل ما تفعلينه هو زيادة وضعك سوءًا وقد حصل ما حصل؛ لا فائدة مما تقومين به الآن».

«حتى إن الأمر غير منطقي»، واصلت قائلة، والدموع تسيل بروية على وجنتيها. «كيف يمكن لها أن تلمّح إلى أنّك قتلتِ تشارلز؟ على الأقل، فإن منشورها الأول محتمل نظريًا. كان يمكن لي أن أسمّمه. أعني، لم أفعل، لكن كان يمكن لي أن أقوم بالأمر. لكنك أنتِ لم تكوني حتى في المبنى عندما توفّى. لم تسمعي شيئًا. الأمر هراء بهراء».

«مارني، توقّفي. انسي الأمر».

«ماذا فعلتِ؟ دفعتِ به عن السلالم ثم عدت إلى منزلك؟ ثم ماذا؟ عدتِ إلى الشقة في وقت متأخّر من تلك الأمسية؟ لم تكوني حتى على دراية أنه عليل. كنت تعتقدين بأنه في عمله».

«تمامًا»، أردفت قائلة، مع أن ضربات قلبي بدأت تتسارع قليلًا وكنت أجد صعوبة في البلع. وقد أحسست باللوزتين في مؤخّرة حلقي متورّمتين جافتين؛ وكانتا تنتفخان في حلقي وتحولان دون وصول الهواء إلى صدري. بدأت أشعر بيديّ تتعرّقان حولها.

«ولمَ قد تتكبّدين هذا العناء؟ أعني، أنا أعلم أنّكما لم تكونا على أفضل حال، حسنًا ربّما هذا لا يفي بوصف علاقتكما، وأعلم أن الأمور لم تكن البتة على خير ما يرام بينكما -سوء التفاهم ذاك الكبير- لكن مع ذلك، ليس الأمر منطقيًا».

بدأت وتيرة صوتها تعلو؛ وتهتز وتتحشرج قبل أن تتحوّل صراخًا. وغدت إيماءاتها محمومة، تلوّح بيديها يمنة ويسرى كما لو أن مسًّا جنونيًا قد أصابها. وازدادت حمرة وجنتيها، لتتحوّل قرمزية غاضبة.

«تركتِه ميتًا في الرواق. هل هذا ما تود قوله؟ دخلتِ وقتلتِه، ثم غادرتِ؟ وماذا بعد؟ عدت بعد ساعات قليلة للتفرّج علي وأنا أجده؟ ثمّة ما هو فعلًا خطير لدى هذه المرأة».

لم يكن بوسعها أن توقف نفسها، ولم يسعني أنا أن أوقفها أيضًا. بل استمرّت تذكر مطوّلًا النقاط العديدة التي لا يبدو فيها الأمر منطقيًا، ولا يمكن أن يكون حقيقة، لا بل هو ضرب من ضروب المستحيل، وأنا أستمع إليها تستذكر شريط أمثلة حول كيف يمكنني -ولا يمكنني في الوقت عينه- أن أكون قد قتلت زوجها. لقد أثارت هذه المقالات أسئلة داخلها، وهو ما عجزتُ عن وضع حدٍّ له. حاولت أن أدفع بها في اتجاه آخر، لكنها ما انفكّت تعود إلى تساؤلاتها، وإذا بي أشعر وكأن قفصي الصدري لا يتّسع لرئتيَّ -فالضغط يزداد على عظامي- ورحت أتساءل إن كنت أقوى على الحفاظ على وجهي خاليًا من أي تعابير فاضحة بينما كانت تبحث عن الخاتمة الصائبة.

«كنّا عشيقتين متيّمتَيْن. هذا ما تقوله أليس كذلك؟ أنتِ وأنا؟ لذلك قتلنا زوجك. بالطبع. لأن هذا منطقي. ثم وقعتُ في غرام تشارلز. فقتلتِه بيدكِ كي تحتفظي بي لك وحدك؟ هل هذا ما في الأمر؟ هل هذا ما حصل؟».

توقّعت أن تواصل كلامها، وتواصل صراخها، وتواصل محاولة كشف ارتباكها بصوتٍ عالٍ. وهذا وحده كفيل بإثارة مخاوفي. لكنّها لم تفعل. بل توقّفت. أخذت تحدّق بي.

«هل هذا ما حدث؟». أعادت تكرار سؤالها، وعيناها شاخصتان وفكّها مشدود، وشفتاها ترتعشان. «هذا ما تقوله، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي -وأنا أتظاهر بالذهول، والرعب والاشمئزاز- وبقيت

هي هادئة لذا أكملت الحديث وأنا أحاول عبثًا أن أضع حدًا له.

«تخيّلي»، قلت وأنا أرفع حاجبي وأحاول أن أضحك. «تخيّلي ذلك ليس إلا».

ورحت أتساءل في ما قد تراه: إن كانت وجنتاي محمرَّتَين، أو عيناي جزعتين، أو نفَسي مثلج؛ إن كانت الحقيقة مكتوبة على وجهي، حقيقة صارخة كما دموعها السخية.

«تخيّلي»، كرّرَت بهدوء.

أجبتها: «أعلم، يستحيل ذلك. وكأني بي قادرة على ارتكاب مثل هذا الفعل. يستحيل أن أقوم بفعل مماثل».

تلك كانت الكذبة الخامسة التي أكذبها على مارني. أخبرتها أنّه يستحيل أن أقوم بفعل قد سبق وقمت به. أخبرتها أنه يستحيل أن أؤذيها، وقد قمت بذلك فعلًا. وبينما جلست آخذها بجسدي وحركاتي كلّها، كنت على ثقة أنّها ستستمر بتصديقي. وهكذا فعلَت. هزّت رأسها ببطء وأخذت نفسًا عميقًا، مستندة إلى الوسائد وراحت تمرّر أصابعها في خصلات شعرها.

لا أعتقد أنها كانت فعلًا تستجوبني. لم تكن تطرح سؤالًا وتتوقّع إجابة عليه. لكن نبرة الشك في صوتها -على التباسها- كانت مثيرة للريبة. فقد شعرت وكأن الحقيقة عبارة عن عظمة صغيرة عالقة في حلقي، تتوق لأن يُطلق سراحها. وقد استحضرت جزءًا صغيرًا مني إلى الواجهة يسعى لأن يحظى باعتراف، وكاد يصرخ، «أجل، هذا ما حصل»، أو يصرخ، «أجل، قمت بذلك من أجلك».

لكنّني كنت أعي أيضًا، أنّني سأكذب مرارًا وتكرارًا كي أحمي ما بيننا.

«علينا أن نقرّر ما يتعيّن علينا فعله»، قلت في النهاية.

مسحت عينيها ثم جفّفت أصابعها بالبيجاما التي ترتديها. وكان القميص قد ارتفع من على خصرها فشدّته إلى الأسفل. «ليس ثمّة ما نقوم به»، قالت، وهي تقف متّجهة إلى المطبخ، وقد هدأت أعصابها،

واحتوت نفسها. «ها هو منشور. وثقي بي يا جاين، لن يفيدك أن تثيري الأمر معها. ستقوم عندئذ بنشر المزيد من الترّهات على الشبكة ونحن على بيّنة من الحقيقة، وأصدقاؤنا وعائلتنا أيضًا، وصدقًا، أليس هذا ما يهم؟ أنا لا أقول إن الأمر عادل. لأنه سحقني أيضًا يا جاين. حقًا سحقني. وكم أكره أنها ستستطيع النفاد بما فعلته وستستطيع قول ما تريده من دون أن تولي أي عناية بالأشخاص المعنيّين بأكاذيبها. لكن عليّ أن أدع الأمر يمرّ».

قلت: «حسنًا، فلننتظر».

بدأت حمى الأدرينالين تتراجع رويدًا رويدًا وتمكّنتُ في النهاية من تنفّس الصعداء بعد أن خلتني قد يغمى عليَّ إذ كانت -أليس كذلك؟- على قاب قوسين أو أدنى.

هل لي أن أخبرك أمرًا؟ هذه الكذبة الخامسة قد أخافتني. أدركت حينئذ الخطر الذي أوقعت نفسي فيه -عن غير قصد، نعم، لكنّني أوقعت نفسي فيه- وكيف أن ذاك القرار سيؤثّر على ما تبقّى من حياتي. عليّ أن أكون حذرة، وألّا أفقد السيطرة.

قرأت الصحف في الأيام التي تلت. وعاد الخبر بقوّة إليها: مقالات رأي وادّعاءات ومصادر غير معروفة. لكنه سرعان ما تلاشى - إذ تصدّرت فضيحة سياسية العناوين واستمرّت تغطيتها لأشهر طويلة.

لكنّني احتفظت بالصفحات التي تناولتنا في علبة أحذية تحت سريري. كانت تذكّرني بأنّني لست غير قابلة للقهر. كانت تذكّرني بضرورة أن أحاذر كلّما تحرّكت. كانت تذكّرني بضرورة أن أواصل الكذب.

الفصل السادس والعشرون

أعتقد بأن بعض النساء قد وُلد بالفطرة ليختبر الأمومة على عكس البعض الآخر. وأعلم أن هذا التصريح مثير للجدل، وقد لا يجدر التفوّه به أمامك أنت على وجه التحديد. لكنّني أعتقد بأن الأمر يستحق عناء ذكره.

لطالما حلمت أن أصبح أمًّا. عندما كنت طفلة، كنت أضع دُمايَ البلاستيكية في أسرّتها وأحمّمها، وأدور بها في عربة فاتحة اللون بمقعد زهري رقيق يقلب على نفسه كما الأرجوحة. وكنت أقوم بصفّها في صفوف مستقيمة وأغيّر حفاضاتها الواحدة تلو الأخرى، وأجعلها ترتدي سراويل قطنية منقوشة، أغلق الأزرار بين ساقيها. كانت كلّها تشبه بعضها تقريبًا -من البطون المدوّرة القاسية، إلى الوجنتين المطليتين بالزهري، والعينين الزرقاوين اللتين ترمشان- لكن الدمية المفضّلة لديَّ كانت أبيغايل. كانت صلعاء وقد أعيد لصق أطرافها. وكانت إحدى عينيها تفتح وتطبق، لكن الأخرى كانت لزجة، ورموشها البلاستيكية ملصقة ببعضها البعض. فكانت تفتح ثم ترفض أن تطبق، لتحدّق أمامها مباشرة، بينما ترمش الأخرى بلا كلل. ومع ذلك، كنت أحبّها.

ثم انتقلت بطبيعة الحال من مرحلة التعلّق بالدمى إلى التعلّق بالأطفال. فكنت أسترق النظر إلى عربات الأطفال وأنا أعبر الشارع، وأنحني داخل المقاهي وأبدأ الصيحات المعهودة قبل أن أطرح الأسئلة اللازمة - كم هو لطيف وكم عمره وكم جميل. وقد شاركت في هذا النمط من دخولي مرحلة الرشد بكامل إرادتي، حيث رحت أتطلّع إلى

نسخة من حياتي أدفع فيها عربة طفلي، بينما ترافقني صيحات امرأة أخرى معجبة أينما حللت.

ثم في لحظة ما -غداة وفاة جوناثان- بدأت أطرح تساؤلات حول هذا المستقبل الوهمي. هل أنا أريد فعلًا عربة؟ هل أريد الصيحات والأسئلة وأن يعيش جزء من قلبي خارج جسدي إلى الأبد؟ أن أقوم بما يقوم به الأهل فأطعم وأطبّب وأغذّي؟

كلا. لا أريد هذا. ليس من دونه.

إن أردت، أستطيع أن أكتب لائحة بأسماء كل النساء في حياتي، وأرسم خطًّا مستقيمًا على هذه الورقة أفصل بين أولئك اللواتي خلقن كي يعشن الأمومة وأولئك اللواتي لم يكنّ بكل بساطة على هذا النحو. وإذا كنت أنا وإيما من جهة، فلا شك في أن مارني ستكون من الجهة الأخرى.

كان للتعهّد بالعيش بسلام وقعه الإيجابي على مظهر مارني بشكل عامٍّ. فقد أصبحت أقل غضبًا، وأقل تطيّرًا وأقل خشية من شيء ما، ولا شيء لاحقها بعد خسارتها. بل وجدنا سبيلًا للتعايش بدا مريحًا مسالمًا. كانت تبكي -في غالب الأحيان- لكنّها كانت تضحك أيضًا وتطبخ وحتى تكتب مقالات صغيرة لمحرّريها المفضّلين. كما حوّلت بريدها إلى شقّتي، وقد بدا الأمر مريحًا على نحو غريب؛ فقد فرحت برؤية اسمها إلى جانب اسمي على علبة البريد كل يوم. وعندما أرسل لها الراعي الرسمي هديّة كانت عبارة عن مجموعة زهرية من السيراميك، وكانت إحدى أحدث مجموعات الطبخ لديهم، نجحت حتى في تصوير عدد من الفيديوات.

وكانت تستدير في بعض الأحيان نحوي -عادة بينما نتناول الفطور أو نجلس على الكنبة ونحن نرتدي ملابس النوم في وقت متأخر من الليل ونتحاشى النوم- وتقول:

«الموت يستمر فعلًا لوقت طويل، أليس كذلك؟».

وأجيبها: «آه، طبعًا، لأطول وقت ممكن».

«إذ مرّ على الحادثة شهر -أو ستة أسابيع، أو شهران، قد تقول- ومع ذلك لست أقوى على استيعاب أن هذه ستكون حياتي بعد اليوم. لا أستطيع تصديق أنه مهما مرّ من أشهر، أو من سنوات، أو حتى من عقود، سيكون ميتًا في كل لحظة منها».

شعرتُ وكأنّني الخبيرة في هذا المجال. وللحظة بدا وكأن إرشادي يؤتي ثماره. كم كان رائعًا أن أستعيدها في حياتي. وكنّا جيّدتين مع بعضنا البعض، فعلًا جيّدتين. فكنّا نعرف أدق التفاصيل في بعضنا البعض، وأكثرها حميمية، كنا نسبر أغوار تاريخنا كلّه، بتفاصيله كلها. كنّا نتحسّر على أهلنا -الذين غادروا، ومرضوا، وتجاهلونا. وكنّا نضحك على أقربائنا، والواحد منا كان يعتمد على الآخر بالكامل بينما الآخر غائب بالمطلق. وأخذنا نستذكر المغامرات التي رسمت سنين صبانا -المغامرات الأولى والمغامرات الأخيرة وتلك التي تعهّدنا ألّا نعيد كرّتها-. كنّا شخصين قد تشاركا من الأحداث مع بعضهما البعض حتى باتا شخصًا واحدًا تقريبًا من جديد.

أخذت أراقبها بينما تستعيد عافيتها؛ ليس بشكلٍ كاملٍ، بطبيعة الحال، لكن على نحو تدريجي ملحوظ. وقد أسعدني أنْ أراها تطبخ مجدّدًا. وطلت مرّة أظافرها لتتذمّر صبيحة اليوم التالي من تشقّقها. ونظرت إلى شعرها في المرآة بعد ظهر أحد الأيام، ورفعت بعض الخصل الشاردة في يديها قبل أن تقطّب حاجبيها. ذاك المساء، عادت إلى المنزل وقد شذّبت أطراف شعرها. وكانت تستمع إلى الموسيقى وتشاهد الأخبار، وتبكي بشكل منتظم -كل الوقت- لكن لحظات الحزن القاهر كانت تقابلها لحظات أفضل بكثير.

ثم تغيّرت الأمور. تراجعت حال مارني، وعادت إلى فوضى الأسابيع

الأولى. فتوقّفت عن النوم وأصابها الإرهاق. ثم سقطت عليلة، وأقلعت عن تناول الطعام. وعندما كانت تضغط على نفسها لتناول طعام ما -وإن كان أصغر الوجبات أو مجرّد قطعة خبز محمّص أو بعض الفاكهة- كانت تصاب بنوبات عنيفة من الإعياء وتبدأ بالتقيّؤ، حتى وجدتني أمتنع عن شراء الطعام والاحتفاظ به في الشقّة، حتى أوفّر على كلينا هذه الفظاعة. وإذا كان الجوع قاهرًا، فالتعب كان أسوأ بكثير. وفي غياب أي تغذية وراحة، لم تعد تقوى على تخطّي مرضها الغريب.

أو هكذا خلنا وقتذاك.

كانت الشمس قد غابت لتوّها -فقمنا بفتح الستائر؛ لمشاهدة الألعاب النارية التي انطلقت في الخارج- فجلسنا أنا وماريني عند منضدة الفطور. وكنا نتناول الأرز الناشف -كيس صغير قمنا بسلقه لكل واحدة منا؛ سريع وسهل- وقد خيّم صمتنا بلا أي منّة منا. لقد اعتدنا مجدّدًا على تناول الطعام معًا، بعد أن تشابكت عوالمنا من جديد، فما عدنا ضيفين بين الفينة والأخرى في حياة بعضنا البعض، إنما زوج غريب بعض الشيء.

«دورتي الشهرية منقطعة»، قالت وهي تعيد الشوكة إلى طبقها. «خلت الأمر مجرّد إرهاق، نتيجة لما جرى. لكن مر على الموضوع ثلاثة أشهر الآن».

قلت: «حسنًا لا شك في أنه الإرهاق، والإعياء. لقد خسرت الكثير من وزنك -انظري إلى نفسك- وكل هذا التقيؤ... آه»

قالت: «عليَّ أن أقوم باختبار».

تنحنحت قليلًا أحاول أن أطرد الكتل التي بدأت تتجمّع في حلقي ونهضت عن الطاولة. ثم توجّهت إلى الرواق وأخذت حقيبة يدي عن المشجب. توجّهت إلى الباب الخارجي، ثم دخلت المصعد ووصلت إلى الطريق. سرت على طول الشارع -والبرد يلسعني من دون معطفي- باتّجاه المحل عند زاوية الطريق.

وعدت مع الاختبار بعد أقل من عشر دقائق.

كانت مارني لا تزال جالسة في المكان الذي تركتها فيه، تضع كوعَيْها على جانبيّ صحنها، تسند عليهما رأسها.

قلت لها: «هيا، قومي بالاختبار الآن».

أخذته بصمت وذهبت إلى الحمام، والكيس البلاستيكي يتدلّى من معصمها.

لا داعي لأن أخبرك أن النتيجة جاءت إيجابية.

ثملتُ. شربت التاكيلا من الزجاجة، ورحت أصفّ أكواب الروم الصغيرة من زجاجة كانت على درجة من القِدَم حتى تحوّل السائل داخلها لزجًا لا طعم له. أما مارني -وقد تحوّلت أمًّا بشتى الطرق- فأخذت تسكب لنفسها عصير التفاح في أكواب صغيرة بلاستيكية تغرق فيها خوفها وذعرها بطريقة أكثر اعتدالًا. وعند الثانية فجرًا، دخلنا حوض الاستحمام ونحن نرتدي ملابس السباحة وغصنا في البخار ونوع من الحياء الغريب وغير الضروري يتملّكنا. ثم مرغنا العسل على قطع الخبز وأكلناها نخبنا بعد أن عددنا حتى الثلاثة. بعد ذلك، استسلمنا لما بين الصدمة والهستيريا، وأخذنا نبكي ونضحك إلى أن تملّك منا النعاس فغفونا، لكننا لم نقضِ وقتًا طويلًا في سباتنا، فاستيقظنا لنمضي الجزء الأكبر من الصبيحة التالية ونحن نريح وجهينا على بلاط المرحاض البارد.

لا أحد يتوقّع أن تتبدّل حياته بهذه السرعة كما يحصل معنا. لقد ترمّلتُ وأعمل في وظيفة لا أفق فيهاوالمأساة لا تنفكّ تجاورني. وها هي مارني قد ترمّلت وحُبلى، وفي خضم سقوط مدوٍّ من حياة جميلة.

قالت مارني مساء اليوم التالي: «عليّ أن أعود إلى منزلي، عليّ أن أرتّب أمور حياتي. عليّ أن أزور طبيبًا وأعاود العمل مجدّدًا. عليّ أن أعود إلى منزلي».

ثم، وهي جالسة على الطاولة، اتصلت بالمدبّرة التي تتولّى تنظيف منزلها على الفور. أرادت المكان نظيفًا يلمع، بحسب ما قالت لها. وأرادت أن يتم توضيب أغراض تشارلز ووضعها في غرفة التخزين؛ من فرشاة أسنانه إلى ملابسه، وكل ما هو له.

زرنا الشقة بعد أيام قليلة. وقد صُدمنا كلانا عندما وجدنا أن عاملة التنظيف قد تركت سجادة بيضاء بخطوط سود طويلة على الأرضية في الرواق. فأخذت أتساءل ما قد يكون تحت السجادة -بقعة دماء داكنة، أو خدوش على الأرضية الملمّعة أو رائحة الموت ليس إلا- لكنّني تمالكت نفسي وقاومت تلك الرغبة برفع طرفها واستراق النظر إلى ما تحتها. كانت بعض أغراض تشارلز قد اختفت -من معطفه خلف الباب، إلى أحذيته التي كانت تصطف بترتيب على طول الجدار- لكنّه كان لا يزال حاضرًا في كل مكان. كان في الكتب على الرفوف وفي الصور على الجدران ومظلته السوداء الطويلة كانت لا تزال تستند إلى مظلتها في الرواق.

كنت أحاول اللحاق بها بينما تنتقل من غرفة إلى أخرى.

عقدت حاجبيها ثم بدأت تصعد السلالم.

سألتها: «هل أنتِ واثقة من أنك تريدين أن تعيشي هنا؟ هل أنت أكيدة؟ يمكننا أن نجد مكانًا...».

«كلا»، قاطعتني وهي تقف أعلى السلالم وتستدير لتواجهني. «يجب أن أعيش هنا. من الصائب أن أعيش هنا. أريد لهذا الصغير...» -ووضعت يدها على بطنها-: «...أن يعرف أقله أمورًا بسيطة عن أبيه. وكان هذا بيتنا. لذلك لا بد لي من أن أعيش هنا».

ثم نظرت ورائي وقالت: «هذا هو الموقع، ربّما هنا، حيث تقف قدماي. هنا أخذ نفسه الأخير. هذا أمر على ابنه أن يعرفه، ألا تعتقدين ذلك؟

ما رأيك؟ هل هذا أمر قد يفيد لك معرفته؟ أعلم أنّني قد أنهار لو تلقّيت اتصالًا يخبرني أن والدي توفّى. ليس لأنّني سأفتقد للرجل الذي أصبح عليه اليوم: خائن وهاجر. لكن لأنّني سأفتقد الرجل الذي كانه يومًا.

في السنوات العشر الأولى من حياتي، كان ثابتًا وصامدًا وصادقًا وحقيقيًا. لقد كان حاضرًا على الدوام، ومشجّعًا على الدوام، وعلى الرغم من كل ما حدث عندما توقّف عن ممارسة دوره كأب صالح، فإنّه لم يكن أنانيًا. بل أضحى مكسورًا تشوبه العيوب، وازداد إصرارًا على ألّا يتم تعريفه وفق أسوأ ما هو عليه. ثم تغيّر شيء ما. تلك الصعوبات التي أخذت تنمو فقاعات تحت جلده لعقود من الزمن -نفاد صبره وعدم يقينه وتقلّبات مزاجه- بدأت تتسرّب عبر مسامه.

هل سأرغب بزيارة المكان حيث ستوافيهالمنية؟ لا أعتقد ذلك. بالنسبة إليَّ، لقد مات عند الباب الرئيسي، وهو يحمل حقيبته في يده، مغادرًا يتركنا وراءه مبتسمًا.

«ربّما انطلاقة جديدة...» بدأت قائلة.

«أريد أن أعود إلى هناك بحلول الميلاد»، قاطعتني مارني.

«لكن هذا يعني بعد أسابيع قليلة».

أكملت: «سأقيم حفل عيد الميلاد عندي، سأزيّن المكان وأطهو -أحتاج لشجرة ولحبشة- وسأجعل الحفل مهيبًا».

«هذا كثير، مارني، يصعب عليّ تحمّل كل هذا، ويصعب عليك إعداد كل ما ذكرته».

«لقد حسمت أمري. وستحضرين. وإيما أيضًا. سأقوم بالأمر».

«نكون عادة مع...».

«مع أمّك. نعم أتفهّم ذلك. تذهبين عادة في الصباح، أليس كذلك؟ حسنًا، بعد زيارة أمك إذًا».

«أنا...».

قاطعتني مجدّدًا، وقد تحوّلت تعابير وجهها قاسية وجحظت عيناها. «أنا لا أقترح خيارًا، أنا أدعوكَ لتشاركيني حفل عيد الميلاد. ويعود لك أن تقبلي دعوتي أو ترفضيها. لكنّني سأكون قد انتقلت للعيش هنا في فترة عيد الميلاد».

قليلة هي الخصال التي نتشاركها أنا ومارني. فهي منفتحة ودافئة ومحبّة لا يخشاها الناس، وأنا منغلقة وباردة وعصبية يخشاني الجميع. هي النور وأنا الظلمة. لكن الجميع يشهد أن كلينا عنيدتان. وأنا على يقين لا يحتمل الشكّ أنه لا يمكن تغيير رأيها في بعض الأمور. لا يمكن للمرء أن يشتريها أو يرشيها أو يفوز بها.

قلت: «حسنًا إذًا، يسعدني أن أحضر».

«وستساعدينني بالانتقال إلى هنا؟».

«بالطبع».

«حسنًا. فلنبدأ. أريد أن آخذ المقاسات لشراء سرير جديد».

وهذا ما قمنا به. أخذنا ندوّن المقاسات من أجل سرير جديد لأنه على الرغم من أنها تستطيع النوم في شقة زوجها المتوفّى، إلا أنه لا يسعها أن تتخيّل نفسها تنام في سريره. فطلبت سريرًا بديلًا بعد ظهر اليوم نفسه. سرير مزدوج صغير -»لي وحدي ليس إلا»، قالت، «بخلفية زهرية. لم يكن ليوافق على اللون الزهري أبدًا، وتحته مستوعب تخزين، للأقمشة والحفاضات وكل ما قد يحتاجه الأطفال».

انتقلت إلى منزلها بعد أسبوعين، في اليوم الذي وصل فيه السرير، وعلى الرغم من مسعاي لأن أكون براغماتية، إلا أنّني شعرت وكأن شيئًا يؤخذ منّي مرّة أخرى. وضّبت الحقائب معها، وأواني المطبخ التي كانت قد اجتاحت خزائني وعلّبت أحذيتها من وراء الباب الرئيسي. ثم وضعنا كل شيء في سيّارة أجرة في الصباح الباكر، وكدّسنا الأكياس تحت أقدامنا وعلى ركَبنا.

أعلم أنّني أغالي في الدراماتيكية. لقد أحزنني أنّها ذاهبة لكنّني أخذت أضبط حزني لأنّني كنت مسرورة لرؤيتها راضية تستعيد تركيزها. لقد استمتعت بالاعتناء بها وبمنحها القوة التي كانت بحاجة إليها، لكنّها ليست نمط حياة مستدامة.

العالم ملؤه أشخاص ضعفاء. يتّكئون على آخرين، يتّكئون دومًا على هذا الدعم الإضافي، أو تلك القوة الإضافية. إيما، على سبيل المثال، هي فائقة الهشاشة. لكن مارني ليست على هذا النحو. ها هي قد بدأت العمل مجدّدًا قبل أيام معدودة، فأدارت هاتفها المحمول وأخذت تحمّل أشرطة الفيديو التي صوّرتها وتشارك تحديثات وتتفاعل مع العالم الذي بنته من حولها. بدت أقوى، على نحو ما، بفضل هذه المنصة التي كانت تستند إليها.

«تستطيعين الذهاب الآن»، قالت لي، بعد أن حملنا كل شيء إلى ردهة المبنى، وأوصلناه إلى الشقة، حملًا حملًا في المصعد. «أعتقد بأنّني أستطيع الاهتمام بما تبقّى من أمور هنا».

سألت: «لكن ماذا عن توضيب الأغراض، ألا تحتاجين للمساعدة في ذلك؟»

«كلا، شكرًا»، أجابتني وهي تقف عند مدخل المنزل -منزلها- ويدها تستند إلى إطار الباب وقدماها مثبتتان على الأرضية الخشبية، بينما أنا كنت في الرواق، من الجهة الأخرى للمدخل. «أنا بخير الآن»، واصلت قائلة. «شكرًا لك».

«لكن...».

«سأتّصل بك في الغد»، قالت قبل أن تغلق الباب.

شعرت بشيء من الغضب، وشيء من الفخر في آن.

وبشيء من الإحراج أيضًا. نظرت يمنة ويسرى، فلم أجد غيري، ليس ثمّة من يشهد على طردي. ثم أخذت أحدّق بالرقعة التي جلست فيها

قبل حوالى الثلاثة أشهر. بدا ذلك وكأنه شخص آخر، زمن آخر، لا بل عالم آخر. ثم عدت أدراجي.

إليك هذا الأمر. لمارني عائلة -كلّنا لدينا عائلات- لكنّني لم أنظر إليها يومًا على أنها عائلة. فعندما كنت صغيرة، كنت أؤمن بأن الأسرة راسخة غير قابلة للكسر، ثابتة لا تتحرّك. وكان لدي أخت، ستبقى أختي ما حييت، وأهل، سيبقون أهلي ما حييت. لكن الأمر قد تغيّر لاحقًا -عندما هجرَنا أبي وتخلّت عنّي أمي- فأدركت أنّني كنت مخطئة. العائلة ليست ثابتة على الإطلاق. لكن ذلك كان خلال مرحلة إعدادي. لم أدرك أنّني بحاجة لبناء وحدتي الخاصة بي إلا لاحقًا، في وقت متأخر. لم أدرك أنّني بحاجة لأن أصبح شخصًا يحتاج الآخرون أن يحبّوه.

لكن ذلك كان درسًا تعلّمته مارني منذ نعومة أظافرها. لقد جاءت عائلتها كما حركة الموج -مد وجزر- ولم يكن لها أن تتوقّع يومًا أفعالها. لذلك، فهي أرادت أن تكون هذه العائلة -عائلتها الجديدة- مختلفة. كانت تملك القوة لربط خيوط تلك الشبكة، وبناء تلك الوحدة كما تريدها، وكان هذا ما أرادته.

الفصل السابع والعشرون

لطالما أحببت فصل الخريف. لطالما أحببت ذاك الإحساس بأن شيئًا ما قد شارف على نهايته من غير أن ينتهي فعليًا. أحب المدفأة المشتعلة والستائر المغلقة والسراويل الدافئة والأحذية الصوفية التي تغطّي قدميك وتدفئ أطرافك. أحب الرياح التي تلذع والسحُب التي تلطّف السماء وذلك الإحساس بالخروج من الصقيع إلى الدفء. فالصيف مبالغ فيه، وفي توقعاته، وفي ضغطه المتزايد كي يكون المرء مرحًا ومستمتعًا ومشرقًا. في المقابل، فإن الشتاء فائق الظلمة، حتى بالنسبة إلي.

لكن شهر ديسمبر لطالما كان شهرًا غريبًا في هذه المدينة، شذوذًا لا يتّبع على وجه التحديد نمط الروزنامة السنوية. ففي هذا الشهر حصرًا، يبدو نسيج المكان مختلفًا. ثمّة شيء غير اعتيادي في المظهر العام، وفي الجو، وفي الناس الذين يتنقّلون بينما تقترب منهم أكثر الأيام ظلمة.

وقد يطرأ بعض التغييرات ببطء، على مدى أسابيع كثيرة. تتدلّى شرائط الأنوار بين المباني، تلمع على خلفيّة ليلة حالكة تأتي مبكرة مع كل أمسية. أما واجهات المحال فتتبدّل، تزدان بألوان احتفالية تترافق مع الدمى وشجر الصنوبر والزلّاجات والثلج. ويقلّ عدد الناس في الشوارع. فبينما تشارف آخر أسابيع الشهر على دنوّها، يأخذ العمّال -الذين يقضون السنة بأكملها على متن القطارات يذرعون الأرصفة بخطواتهم ويدخلون ويخرجون من أبواب المكاتب الدوّارة، أشخاص مثلي- عطلتهم السنوية معطوفة على عطلة الأعياد، فيلازمون منازلهم متدثّرين. أما السيّاح -ويرتدون قبّعات حمر مزوّدة بكريات بيض

ويحملون أكياس التسوق والكاميرات والأطفال إلى صدورهم- فحاضرون فرادى وجماعات، يدخلون محال الألعاب ويخرجون منها، قبل أن ينتقلوا إلى حلبات التزلّج على الجليد المؤقتة في أماكن غير مستثمرة، قبل أن يقفوا في الجهة الخطأ بانتظار المصعد. لكن مع ذلك، لا يكفي عددهم لموازنة الغياب، والتعويض عن مدينة شبه فارغة، بعد أن عقد نزلاؤها العزم على قضاء وقتهم في منازلهم.

وثمّة تغييرات أخرى شبه فورية. فجأة نبتسم في وجه زملائنا من الركاب، ثم نقيم محادثات مهذّبة مع زملائنا في المطبخ، نسألهم فيها عن خططهم لقضاء العطلة، ومن سيطبخ، ويا إلهي، هذا عدد كبير من الأطفال طوال يومين؛ أليس عددكم كبيرًا؟ ثم ومن دون أن نفكر بالأمر، نشرع نتمنّى للجميع ميلادًا مجيدًا بينما نمر - للرجل القابع عند الاستقبال الذي لطالما بدا بخيلًا مقلًّا في الكلام، لكن ها هو اليوم يضيف مشبكًا احتفاليًا على سترته، والمدير في المصعد مبتسمًا بطريقة مزعجة إلى حد ما، والنادل في المقهى حيث تشتري قهوة الصباح، والمسؤولون عن القمامة، وعامل النظافة، والسيدة التي تغسل الأكواب في المطبخ. يتغيّر هيكل المدينة، ونصبح كلّنا فجأة أشخاصًا أفضل ممّا كنا عليه من قبل: أكثر لطفًا، وأكثر سعادة، وأكثر تفاؤلًا. أفضل صورة عمّا يمكن أن نكونه يومًا.

ولا نلتفت إلى زميل لم يعد لديه شريك، ولا إلى هذا الذي سيقضي أولاده الاحتفال في مكان آخر، أو ذاك الذي فقد أهله منذ زمن. كما نتجاهل المرأة المشرّدة التي تجلس عند قارعة الطريق، وكيس النوم البالي تحتها، وملاءة ملفوفة حول كتفيها والبرد القارس يتسلّل إلى بياض عينيها. لا يسعنا أن نقر بالتعاسة التي لا تزال متغلغلة بيننا وسط هذه الأجواء الاحتفالية.

في هذه المرحلة من حياتي، كان بإمكاني أن أجمع بين الاثنين.

أستطيع أن أستحضر الحزن والفرح في آن. كان لديَّ صديقة تقيم حفل غداء وأخت جميلة، لكن في المقابل، أبي غائب وزوجي ميت وأمي أصابها الخرف.

أعتقد أن هذا العام لن يجلب إلا القليل من الفرح؛ والكثير من الحزن. لا أستطيع أن أغيّر الأمر، على ما يبدو. لقد كانت الأمور تزداد سوءًا، ولا تزال.

وأفترض، الآن عندما أفكر بالأمر، أن تلك كانت آخر سنة سعيدة لي. اتّصلت بإيما بعد منتصف الليل عشيّة الميلاد. لقد اتفقنا على زيارة أمّي في الصباح الباكر في اليوم التالي. لم نقرّ بالأمر جهارًا، لكنّني كنت على ثقة أن كلينا نريد أن نذهب أبكر ما يمكننا، حتى ننتهي من الموضوع، ولا نفكّر به سائر النهار. كنت أعرف أن إيما لا تريد الذهاب، وأنّها كانت تخشى الأمر، وكنت أتوقّع منها أن تلقي عليّ بأعذارها، وأن تجد طريقة تعفي فيها نفسها من الرحلة. فاتّصلت بها، ورحت أنصت للهاتف يرن، متسائلة إن كانت ستتجاهله. إن كانت ستتجاهلني كي تتفادى أمي.

«ما هو مشروعنا إذًا؟» سألت عندما أجابت إيما أخيرًا. «هل نلتقي في المحطة؟ ونمضي من هناك؟»

«هل تعرفين إن كانت قد أصبحت بحال أفضل؟ هل قالوا شيئًا؟» سألت إيما بدورها.

«يقولون إنها لا تزال تعاني بعض الزكام، لكنّني أفترض أنّنا لن نحتاج لأكثر من ساعة».

«أه، لكن إن كانت...».

قاطعتها، «إيما، هيّا».

«لا أدري يا جاين»، أجابت، وصوتها يوحي بقلق مبالغ فيه. «إن كانت ليست بخير... ثم نظهر أمامها، ونحضر معنا كل تلك الجراثيم... ألا يجدر بنا أن نتراجع؟ ربّما نذهب الأسبوع المقبل، ربما هذا أفضل!.

«إيم، هذه والدتنا. وإنه عيد الميلاد».

«أعتقد بأنّني لن أذهب، إن كنتِ لا تمانعين»، قالت إيما. «هل ألاقيك عند مارني؟ حوالى الثانية أو الثالثة؟ هلّا ترسلين لي العنوان؟».

«إيم...».

«شكرًا جاين. أحبك. ميلاد مجيد».

ثم أقفلت الخط.

نظرت إلى الهاتف. كنت غاضبة لكنّ هذه المكالمة دارت بسيناريوات عدّة مختلفة على مر السنين ولم تفاجئني هذه المرّة.

كانت إيما -وأعتقد بأنها كانت محقّة- غاضبة من أمّي، التي لم تقدّم لها إلّا القليل من الدعم في أسوأ سنوات حياتها. لكنّني كنت أنا أيضًا غاضبة. وكان يحق لي أن أشعر بهذا الغضب، إن لم يكن أكثر بعد. فأنا لم يتم نفيي لفترة قصيرة وحسب، أو إهمالي بالكامل، بل وأيضًا تمّ تجاهلي في السواد الأعظم من طفولتي. أما إيما، فكانت دائمًا الابنة المفضلة. لكنّها لم تفكّر بالأمر على هذا النحو؛ لم تحاول أبدًا أن تنظر إلى الأمور من منظوري أنا. كانت إيما في حال دائمة من القلق، وعلى شفير الانفجار، تائهة في مشاكلها الخاصّة، لا تفكّر إلا بمشاعرها الخاصّة، الأمر الذي جعلها تنحو منحى الأنانية. تستطيع أن ترفض الزيارة لأنّها على ثقة تامّة أنّني لن أفعل مثلها. أنا لا أستطيع الامتناع عن الزيارة، ولم أفعل ذلك يومًا. لأن ذلك ما هو إلا وجه من أوجه القسوة.

لكن ماذا لو بدأت ذلك الحديث بإبلاغها أنّني لا أتحلّى بالشجاعة للذهاب، وأنّني لم أتمكّن من كبت غضبي لأكثر من ساعة، وأن هذه المرّة، عليها هي أن تتولّى زمام الأمور؟ ماذا لو قمت بما اعتادت هي القيام به؟ ماذا لو توقّفت عن التصرّف وكأنّني قوّتها وطلبت منها أن نقلب الأدوار وتصبح هي قوَّتي؟

لا أزال أجهل الإجابة على هذه الأسئلة. وهل يمكن لمن قضت

حياتها كلّها تتكئ على الآخرين أن تقدّم أي دعم لشخص آخر؟ لست أكيدة من أنه يمكنها ذلك. أعتقد بأنه عندما يقرّر المرء بكامل إرادته أن يؤدّي هذا الدور في حياة شخص آخر، فعليه أن يتقبّل أنَّ هيكليّة تلك العلاقة لا يمكنها أن تنعكس. سيتركونه يتداعى قبل أن يضحّوا بأنفسهم كي ينقذوه.

وصلت باكرًا لأن سائق سيارة الأجرة -الذي فرض عليّ كلفة مضاعفة ثلاث مرّات لقيامه برحلة في يوم عطلة- قد تخطّى السرعة المسموح بها عند كل فرصة سانحة. وكنت أكره ذلك الوضع: الزخم، والارتجاجات، وذلك الشعور بالاحتواء بالكامل، وبالخضوع بالكامل لشخص آخر.

دخلت غرفة أمي فوجدتها جالسة في سريرها ترتدي بلوزة برتقالية اللون وفوقها سترة صوف زرقاء تكاد تنزلق عن كتفها اليسرى. كانت ياقتها مكشوفة وقد أثبت على طرفها شارة احتفالية، عبارة عن شجرة مزيّنة بكراتٍ متعدّدة الألوان، تلمع ألوانًا زهريّة وصفرًا صغيرة.

«صباح الخير»، قلت وأنا أعبر باب الغرفة تحت الزينة الخضراء المثبتة على إطاره. «كيف الحال؟».

«جيدة» أجابت. «أنا بخير».

سحبت الأريكة من إحدى الزوايا باتجاه السرير وجلست عليها إلى جانبها. عندما انتقلت للمرة الأولى إلى هذا المقر، استأجرت رجلًا مع شاحنة صغيرة -وجدت بطاقته معلّقة على نافذة مكتب البريد- لنقل بعض أغراضها من المنزل. وكانت تلك الأريكة أهم إضافة. وعلى الرغم من الحواجب المعقودة التي رافقتني من الممرّضات، إلّا أنني أصرّيت على أنّها ذات أهمية قصوى. كما أضفت أربعًا من الوسائد التي كانت تزيّن سريرها الضخم في المنزل، وبعض الصور الموضوعة في إطارات، ومصباحًا بشرابات، ورزمة كتب وصندوق مجوهراتها. كما

أجريت بعض التحسينات الطفيفة: قاعدة أكواب مطبوع عليها صورة من أيام الطفولة تشكّل أرضية لكوب الماء الخاصّ بها، على سبيل المثال. إناء أزهار رمادي اللون -وقد أحضرت معي باقة فرِحة من بائع الزهور من محطة القطارات في اليوم التالي- ولوح رقمي حتى تستطيع مشاهدة الأفلام وتقليب أفلام فيديو منزلية قديمة، وأحيانًا، إرسال رسالة بريدية عندما تستطيع ذلك. لكنّني بت أتلقّى مع مرور الأيام عددًا أقل من الرسائل.

أعود بذاكرتي اليوم إلى تلك الشخصية التي كنتها عندما كنت أقضي الكثير من وقتي أهتمّ بها -وربّما ليست هذه اللفظة الدقيقة- وأتولّى رعايتها. وأجدني أدهش لتفانيَّ. فقد ناضلت في صغري كي يتم الالتفات إليّ: أبليت بلاء ممتازًا على المستوى الأكاديمي، فحصدت الجوائز والتهانئ من أساتذتي؛ وكنت أسارع فأغالي في تقديم يد العون في المنزل؛ فأعدّ الطاولة لتناول الطعام وأفرغ الجلّاية وأبدّل أغطية الأسرّة؛ كما حاولت أن أكون مصدرًا للتسلية والسعادة، أمارس تأثيرًا إيجابيًا داخل منزلنا. وما هذه الأمور -من الزينة والزيارات الأسبوعية- إلا أمثلة حديثة عن مجمل ما حاولت القيام به لشحذ انتباهها.

أعدت تسوية سترتها على كتفها فأخذت تحدّق بي وعيناها شاخصتان. كان بوسعي القول إنها تناولت دواء ما -ربّما لعلاج الرشح، وربّما للمحافظة على هدوئها- ولحسن الحظ، يبدو وكأن الأدوية قد غطّت على غياب إيما، فلم تلحظ عدم وجودها البتة. ومع ذلك، رغم الأدوية، كانت ذلك النهار على درجة عالية من اليقظة، تستجوبني للحصول على مزيد من التفاصيل عن رحلتي وتسألني عن مخططاتي لفترة بعد الظهر.

«ستكونين مع مارني وتشارلز؟»، سألتني.

«مارني وحدها».

«من دون تشارلز؟»، سألت، وهي ترفع حاجبيها وسط جبينها.

أجبتها وأنا ألوي برأسي إلى جانب واحد، فانتقلت تعابير وجهها من الإرباك إلى القلق، إذ إن هذه الحركة غالبًا ما تسبق أخبارًا سيئة. «كلا، لقد أخبرتك من قبل. هل تذكرين؟ توفّى تشارلز».

«توفّى؟». كانت مذعورة، وقد علا صوتها وبدت علامات الذهول على وجهها، كما كانت تفعل كل مرّة تسمع فيها هذا الخبر. «متى؟».

«منذ أشهر قليلة».

«كيف؟».

«وقع عن السلالم. أنت تعرفين القصّة. لكنك لا تريدين أن تتذكّريها».

أجابت: «هذا ليس صحيحًا، لا أذكر. الأمر مريع».

قلت: «أعرف. كنت هناك. وجدناه أنا ومارني أسفل السلالم. رأيناه». ولا أعلم لماذا أخبرتها بذلك، إذ لم أشاركها أيًّا من التفاصيل من قبل، لكنّني أعتقد بأنّني أردتها أن تستوعب أن هذا الحزن ليس حزنها ولا يعنيها أن تنسبه لنفسها. «»

«كان ميتًا؟». سألتني.

«نعم».

«مات وحيدًا. يا له من خبر»، قالت وبدت حزينة وهي تقول هذا، كما لو أن تلك النقطة على وجه التحديد لا يمكن احتمالها. فتنبّهت عندئذ إلى أنه لم يسبق لنا أن ناقشنا الموت، بعمق، باستثناء كونه واقعًا بسيطًا، أو مجرّد خسارة.

«كنت خارج شقّتهما عندما وقع الحادث. كنت أنتظر عودة مارني إلى المنزل. كانت في المكتبة. وكنت هناك لحوالى الساعة، أجلس هناك، أقرأ وأنتظر».

«تخشين أنه كان بإمكانك أن تقومي بأمر ما»، قالتها وكأنّها تسأل وتؤكّد في آن.

قلت: «ربّما لو أمكنني سماع شيء. لو كنت أملك مفتاحًا».

لا أعلم لمَ قلت هذا. ولكن في الوقت نفسه، أعتقد أنّني أعلم لماذا. أردتها أن تحميني، أن تنظر داخلي وترى أن شيئًا ما قد كُسر، وأردتها أن تعيد ترميمه. أليس هذا ما يفترض بالأم أن تفعله؟ وإن لم تستطع إلى ذلك سبيلًا، إن لم ترَ أو لم ترمِّم الكسور، فأردتها أن تفكّر أنّني من نوع الأشخاص الذين يستطيعون إنقاذ حياة وليس وضع حدٍّ لها. أردتها أن تفكّر أنّه لو كان بإمكاني القيام بأي شيء، لفعلت، وأنه لو أمكنني أن أكون شخصًا أفضل، لكنت.

كررت: «مفتاح».

قلت: «كنت أملك مفتاحًا، لقد رويت الشتول عندما ذهبا في عطلة. لكنه لم يعد بحوزتي. لقد أعدته».

أومأت برأسها.

«هل تذكرين دايفد؟». سألتها. كان يعيش في المنزل المجاور. كان يروي شتولك عندما كنّا نذهب في عطلة.

وصلت عند مارني بعد الثانية بقليل. كانت شقّتها تعج بالكثير من الضيوف وتنضح مزيجًا غير مألوف من البهجة والأسى والادّعاء. وضعت مارني شجرة في الرواق زيّنتها بالكريات الفضية اللون، إضافة إلى ملاك يلمع في أعلى الشجرة. وكانت الرقائق متناثرة ببراعة فوق السلالم إضافة إلى صينيّة تتكدّس عليها فطائر اللحم المفروم. وكانت أغاني الميلاد تصدح عبر مكبرات الصوت بينما ارتدت مارني شريطًا مبهرجًا حول رقبتها.

أحسست وكأنّني أريد أن أخنقها به.

«جاين!». صرخت مارني عندما رأتني ألج الباب الأمامي المفتوح. «وصلت باكرًا، لم أكن أتوقّع قدومك في هذه الساعة. كيف حال أمّك؟ هيّا. هيّا ادخلي. ماذا أحضر لك؟ مشروبًا؟ نبيذًا؟ ربّما مشروب الكرز؟

أعطيتها كيس هديّة. كنت قد وجدت صعوبة بالغة في العثور على هديّة تكون في الوقت عينه عاطفية وغير مبالغ فيها؛ محترمة على ما أفترض. لذلك اخترت في النهاية مجموعة من سكاكين المطبخ -بدت باهظة الثمن بالنسبة إليَّ- كانت قد أشارت إليها قبل سنوات في محلٍّ على بعد دقائق من منزلنا الأول. «أليست رائعة؟». قالت وقتذاك. كانت مصمِّمة على شكل أزواج ثديين، من كل الأشكال والأحجام، مع قواطع منفصلة لجميع أنواع الحلمات. لم أفهم جيدًا سر جاذبيّتها.

«شكرًا لك»، قالت وهي تترك الهدية مغلّفة على الأرض أمام المدفأة إلى جانب عدد آخر من الهدايا وأكياس الزجاجات. «هيا تعالي. إيما وصلت قبلك. أعتقد أنها في المطبخ. في الواقع وجدتها قليلًا... متى كانت آخر مرة رأيتِها فيها؟ هل قلتِ تريدين النبيذ؟».

«من هم هؤلاء الناس؟»، سألتها. لم أتعرّف إلى أحد منهم ومع ذلك كان ثمّة عشرون إلى ثلاثين شخصًا متجمّعين في الشقة.

أجابت: «أليس التجمّع جميلًا؟ إنّهم مجموعة مذهلة. هذا ديريك». وأشارت إلى رجل في مقتبل العمر يرتدي قميصًا بمربّعات وربطة عنق على شكل أيل. «يعيش تحتي بثلاثة طوابق». زوجته توفّيت في وقت سابق من هذا العام بالسرطان. لذلك نتشارك الكثير. وهذان ماري وإيان». وأشارت إلى زوج لا يقل عمرهما عن التسعين. الذّكر كان يحاول أن يأكل فطيرة لحم مفروم، لكن الجزء الأكبر من الفطيرة كان يتساقط فُتاتًا على سترته. أما هي، فكانت تتزيّن بأجمل شعر رمادي ترفعه بأناقة ليسقط على جانب واحد من عنقها. «يعيشان في الطابق الأرضي. التقيت بهما في الردهة البارحة ودعوتهما. هناك جينا، هي تهتم بأظافري. وهذه إيزوبيل، تنظّف الشقة. ربّما التقيتها من قبل. انفصلت عن زوجها وكانت ستقضي النهار وحيدة ففكّرت، لا، هذا ليس صائبًا، وطلبت منها أن تنضمّ إلينا. أليس هذا جميلًا؟».

«الأمر حقًّا جميل، يا مارني. بالفعل. لكن هل أنتِ أكيدة... كيف تشعرين؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟».

«الأمور كلّها تحت السيطرة. لدي حبشتان في الفرن. هل تدغدغ أنفك الرائحة؟ رائحة زكيّة، أليس كذلك؟ والكثير من النقرشات في كل مكان. هل لديك هاتفك؟ ربّما تلتقطين بعض الصور؟ سأضع منشورًا كبيرًا حول كيفية استضافة حفل ميلاد بعنوان: مرحبًا بالجميع».

«وماذا عن الطفل؟ هل تأخذين قسطًا كافيًا من الراحة؟».

«بدأت علامات الحبل تظهر عليّ الآن، أترين؟». واستدارت إلى جهة واحدة. «هل تصدّقين ذلك؟».

«جاين!». التقطت إيما ذراعي ثم أحاطتني في عناق مطول. «ميلاد مجيد! كيف حالك؟».

ابتعدت عنّي لكنّني حاولت إبقاءها بين ذراعيَّ لفترة أطول، كي أتأكّد من أنّه يمكنني فعلًا أن أحوطها بذراعيَّ عند منطقة الخصر وألمس براحتي كوعي المقابل. بدت أسوأ بكثير ممّا كانت عليه سابقًا. تراجعتُ قليلًا ورحت أتأمّل وجهها. كان خدّاها أجوفين، حتى لأمكنني رؤية شكل أسنانها من خلال بشرتها. أما معصماها، فممغوطان ناتئان من سترة كانت كبيرة عليها، وسروال الجينز الضيّق بالكاد يثبت على ردفيها.

واصلت إيما: «ذاك الرجل، هل ترينه؟ بالقميص الزهري المائل إلى برتقالي؟ أمضى حوالى العشرين دقيقة يتكلّم فيها معي، وقد نجحت لتوي في التحرّر منه. عفوًا على الإساءة مارن، أنا أكيدة أنه صديق ودود أو أي شيء من هذا القبيل، لكن...».

«الرجل بالرباط الأحمر؟»، سألت مارني.

أومأت إيمّا برأسها إيجابًا. «والقبعة الورقية».

«ليس لدي أدنى فكرة عمّن يكون. هل قال لك شيئًا؟ دقيقة واحدة»، قالت قبل أن تتوجّه إلى المطبخ لتعرّف عن نفسها.

«فطيرة لحم؟». عرضتُ عليها الصحن.

«لقد سبق وأكلت عددًا منها»، قالت إيما وهي تفرك معدتها وكأنّها تشير إلى أن بطنها امتلأت بأكثر ممّا تقوى على تناوله. «هذا كلّه ولم نتناول الحبشة بعد».

التقت عينانا فدارت أحاديث عدة بيننا من دون أن نجرؤ على التفوّه بها.

«أنتِ لا تأكلين».



«بلا، آكل».

«تكذبين».

«لا أكذب».

«لا تكذبي عليّ».

«كيف تجروئين على اتهامي بالكذب؟».

أو:

«أنتِ لا تأكلين».

«لست جائعة».

«لا بد من أنك جائعة. كلي شيئًا».

«توقفي عن إملاء ما يتعيّن عليّ فعله».

أو:

«تبدين بحال رهيبة».

«حسنًا اذهبي إلى الجحيم».

«أنا جادّة. متى كانت آخر مرّة أكلتِ فيها؟».

«الأمر لا يعنيك».

لم نكن بحاجة لأن نتفوّه بأي ممّا سبق.

«لا تبدئي»، قالت.

فأومأت برأسي، وسألتها: «هل يمكنني المساعدة؟».

«كلا»، أجابت، ثم سألتني: «كيف أمي؟».

«كانت بخير. متعَبة، لكن بحال أفضل».

«هل كانت عاتبة عليّ لأنّني لم أحضر؟».

أردت أن أقول إنّها كانت عاتبة، وإنّها بدت متروكة، وحتى مهملة، حتى أظهر بصورة الابنة الفاضلة. وأردت أن أفصح لها أنّها لم تلاحظ غيابها، حتى تتحوّل إيما إلى الابنة المنسيّة التي سقطت صريعة الخرف. لكنّنا كنّا كلانا نعلم أنّني لم أكن يومًا الابنة الأكثر محبوبة والأكثر تذكّرًا.

«كلّا»، أجبتها. «كانت بخير».

أومأت إيمّا برأسها وقد بدت عليها علامات الارتياح. «حسنًا، هذا جيد، أفترض. أنا آسفة. لأنّني لم أذهب. أنا لم أستطع... بكل بساطة».

«فلنتكلّم عن أمور أخرى»، قلت لها، وأنا أتساءل إن كانت العائلات الأخرى تملك من المواضيع ما تدفنها في الرمال، ومن الكلمات ما لا تقوى على البوح بها. وسألتها: «هل هذه إحدى ستراتها؟».

«أجل!»، ردّت وهي مبتسمة. «هل تذكرينها؟ لطالما تذكّرني باحتفال عيد الميلاد عندما ارتدى أبي ملابس بابا نويل عشية العيد وتسلّل إلى غرفنا وتعثّر ووقع فوق صندوق الألعاب وتعرّض لضربة قوية أيقظتنا كلينا وانتهى بنا الأمر في الطوارئ في المستشفى معه».

«أذكر جيّدًا»، أجبتها.

«كنّا نرتدي ملابس النوم وكانت أمي ترتدي هذه السترة وكان سائر من في القاعة ثملًا وفرحًا ومصابًا أيضًا. هل تذكرين؟ وهذا الرجل الذي شق يده بسبب ماكينة شريط لاصق».

«والممرّضة التي أعطتنا السكاكر عند منتصف الليل».

«كان شعرها زهري اللون».

«صحيح!».

«لطالما خطّطت لأن أصبغ شعري باللون الزهري بعد أن رأيتها».

«افعلي ذلك، إذًا»، قلت لها.
«ربّما سأفعل»، ردّت.
«لا بأس»، قالت مارني وهي تدخل مباشرة في الحوار. «تبيّن لي أنّني أعرف الرجل. يعمل في غرفة البريد في مكتب تشارلز، وعلى كل الأحوال، تفادينا أزمة. دعوني أتفقّد الحبشتين. خلتك ستلتقطين بعض الصور؟».

ساد الحزن ذاك اليوم، ومصدره صورتين موضوعتين في إطارين على رف الموقدة، جنبًا إلى جنب، هي لقطات عن شهر عسلهما. وكان ينبعث أيضًا من كرة خشبية معلّقة على شجرة الميلاد، محفور عليها «أول عيد ميلاد لنا كزوجين». أعتقد أنهما حصلا عليها كهدية زواج. كيف كان يمكن لأحد أن يتوقّع أن هذا الزواج لن يكمل سنته الأولى؟ ساد حزن في الأشباح التي جلست بالقرب منّا كلنا: بالقرب من مارني ومنّي ومن الضيوف الآخرين -الثابتين والعرضييّن منهم- وكل منهم أحضر من خسر من أحبابه معه أيضًا.

لكن الفرح عمّ ذاك النهار أيضًا. وشهِدنا الكثير منه. تجاهلت كل ما لم يكن بالإمكان إيجاد حلٍّ له، وأخذت أركز على الطعام والأحاديث والألعاب التي لعبناها في وقت متأخّر من بعد الظهر، غرباء يصرخون بالأجوبة ويسلّمون باليد على أعضاء فريقهم فرحين بالنصر. فزت في الفوازير، إن كانت من إمكانية للفوز. وخسرت في لعبة كلمات السكرابل. تمكّن إيان من تركيب ثلاث كلمات من ثمانية أحرف وسجّل أكثر من خمسمئة نقطة. أما أنا وجينا، ففزنا على إيزوبيل في لعبة ورق الكاناستا.

بحلول الساعة السابعة، كان معظم الضيوف قد غادروا، ونزعت مارني مئزرها وجلست على الكنبة، تلفّ بذراعها بطنها الصغير.
«هل يمكنني...».

«جولة ترتيب صغيرة؟»، سألت مارني.

كانت صداقتنا مبنية على «جولة ترتيب صغيرة». أوّل سنة لنا من صداقتنا في المدرسة- كانت معلّمتنا السيدة كارلايل مهووسة بالترتيب والنظافة. وقد تبيّن لنا بعد فوات الأوان أنها كانت تعاني اضطراب الوسواس القهري الشديد. في ذلك الوقت، خلنا الأمر مجرّد هوس بالنظافة والترتيب، لكن كما هي الحال دائمًا، لا تنكشف الحقيقة أبدًا في اللحظة المناسبة.

كانت في غالب الأحيان -وأحيانًا أكثر من مرّة- تصرّ على أن يقوم الصف بأكمله بـ«جولة ترتيب صغيرة». وهذا يعني تعليق المعاطف والسترات على المشابك آخر الغرفة، وحشر الحقائب وراء مقاعدنا، وترتيب الكتب على طاولاتنا، وإعادة ربط شعرنا إن بدا ذيل الحصان رخوًا، وعدم ترك أي رباط للشعر على الرسغ، وإعادة تسوية الياقة، وربط شريط الأحذية، وعدم رفع الأكمام، ولائحة تطول ولا تنتهي من الطلبات الصغيرة.

لطالما انصعنا لأوامرها لكنّها تحوّلت إلى جملة ثابتة، نوع من الفكاهة التي حدّدت بعض ملامح صداقتنا، وأحد الأمور التي تشاركناها منذ البداية ولم ينجح الآخرون -من أهلنا وأقربائنا والطلاب الآخرين في مجموعات دراسية أخرى، وطلاب المدارس الأخرى- في فهمها على الإطلاق.

جلست مارني وإيمّا معًا تشاهدان فيلمين من وحي الميلاد -وظهر الواحدة منهما يستند إلى الأخرى- تشعران بالراحة نفسها التي كانتا تشعران بها عندما كنا صغارًا، وكنت أطوف حول الشقّة، أجمع الصحون في الجلّاية، وأزيل الأطباق والأكواب وأمسح الطاولة حتى يعود النظام إلى البيت وأتمكّن من دس نفسي تحت الملاءة أيضًا. أذكر أن الشقة كانت تبدو في حال ضجيج عارم على الرغم من الصمت. من أزيز

الجلّاية، إلى صوت المياه التي تقطر في مكان ما في الجدران. كانت تسيل على طول الصنبور صعودًا إلى السلالم وكنت أشرع برفع صوت التلفاز حتى أكتم صوتها.

وبينما كانت اللقطة الافتتاحية للفيلم الثالث تنير جدران الغرفة، شعرت بهاتفي يرتج على ردفي. سحبته -لست أكيدة مما كنت أتوقّعه، لكنّني أعتقد أنّني تساءلت إن كان يمكن أن تكون رسالة غير متوقّعة من أبي- ووجدت عوضًا عن ذلك رسالة إلكترونية من فاليري ساندز.

كانت الكلمات تقول: رجاءً إقرئي: لا تمحي الرسالة.

شعرت ببعض الريبة، إنما بالفضول أيضًا. لم نسمع أي خبر من فاليري منذ مدة: لا كلمة مذ نشرت ثاني مقالاتها. وكان قلقي الأوّلي قد بدأ يتراجع. كنت قد اعتبرت أن صمتها يعني أن الأمر قد انتهى. ومع ذلك، ها هي، عشية أكثر أيّام السنة حميمية، في يوم مخصّص للعائلة والأصدقاء، للمنزل وللسعادة، ترسل بريدًا إلكترونيًا لشخص بالكاد تعرفه.

وكنت قد أقلعت عن متابعتها بشكل منتظم على الشبكة العنقودية، أكتفي بتتبّع خطواتها ورسم أيامها عرَضيًا في مخيّلتي. لقد رأيت أنّها حضرت عرضًا في نادي الرقص حيث تأخذ حاليًا حصّتين في الأسبوع لكنّها لم تشارك فيه. وقد كتبت عددًا من المقالات من وحي الأعياد للصحيفة: عندما فاضت حلبة الرقص على الجليد، وعندما أضيئت أنوار الشوارع الفخمة على يد نجم وقع طي النسيان بالكامل، ومقالة أخرى عميقة نوعًا ما عن التشرد والوحدة. لكنّني لم أعد أتتبّع مسارها عبر المدينة كل يوم أو أبحث عن كل موقع تذكره. ومع ذلك، بدا وكأنه على الرغم من تساهلي معها، إلا أنها لا تزال مصرّة على ملازمَتنا.

فتحت البريد، وأنا أخفي نور الشاشة تحت الملاءة. كتبت أنّها تعرف أن قصّتها الأولى لم تكن دقيقة بالكامل؛ وأنّها ما إن التقت بمارني، حتى

سرعان ما بدا لها جليًا على نحو مؤلم أنها أساءت تحليل شكوكها. وأضافت أنها لن ترتكب الخطأ نفسه مجدّدًا وأنّها تتمنّى لي ميلادًا مجيدًا. «لكن»- قالت- «لا أعتقد أن قصّتك، أو عرضك للأحداث صحيح بالكامل». قالت إن الأحجية المعروضة أمامها تفتقد، من دون شك، لبعض قطعها، لكنّها كشفت ما يكفي من معطيات حتى تتأكّد أن ثمّة الكثير، الكثير المخفيّ، الكثير الذي لا بد من كشفه. وشجّعتني على الرد، وعلى ملء الفراغات، وقول الحقيقة في نهاية المطاف. لأنّها، كما قالت، وكما وعدت، ستجد هذه الأجوبة في النهاية.

محوت الرسالة وضغطت على الهاتف في حرجي بين وسادتين. ها أنا أشعر ذلك الشعور من جديد: الخوف الناشئ، والذعر الذي يولد فيّ من جديد.

لكن مارني انتفضت في هذه اللحظة تحديدًا، فسقطت الملاءة عن كتفيها ووجّهت يدها نحو بطنها. وقالت: «شعرت لتوي بشيء، أعتقد بأنّني شعرت بشيء».

سألتها: «شعرتِ بماذا؟، ما الأمر؟».

«لا أدري. الطفل؟ كفراشة. كفراشة في بطني».

«اسمحي لي»، قالت إيمّا وهي تزيح يد مارني وتفرد يدها على بطنها. «لا أشعر بشيء. لا أشعر بأي شيء».

«حسنًا، لقد توقّف الآن».

قالت إيما محبطة وهي تسحب يدها: «آه، حسنًا أخبريني بشكل أسرع في المرة المقبلة، حتى أتمكن من التقاط هذا الشعور أيضًا».

أخذت خلال الأشهر القليلة التالية أراقب هذا الانتفاخ ينمو شيئًا فشيئًا، فيتمدّد تحت جلد مارني، إلى أن بات متكوّرًا أمامها كما الكرة المخفيّة تحت قميصها. كنت أراها تتغيّر كما لو أنّني أقلّب صفحات دفتر، إنشًا بعد آخر، وأسبوعًا بعد آخر، بينما كنا نعود إلى عاداتنا القديمة،

فنقضي معًا سهرات العشاء في نهاية كل أسبوع. كان شيئًا جميلًا وغريبًا في آن أن أراقب هذه المرأة -التي عرفتها منذ أن كانت طفلة- تتطوّر لتصبح أمًّا. وفي كل مرحلة من مراحل هذا التطوّر، كنت قد حميتها. في البداية، حميتها من أهلها، ثم من أصحابها، ثم من رب عملها. ولاحقًا من زوج مقيت.

ودائمًا، وحتى الآن، من الحقيقة.

بقينا أنا وإيمّا عندها تلك الليلة. تقاسمنا سريرًا واحدًا فشعرت وكأنّنا صغار من جديد نحشر أنفسنا في مقصورة ساحلية مرة أخرى. وخلال الفطور، سألت إيمّا عن فاليري، فشرحت مارني أنّهما التقيا مرة واحدة لا غير، وأنها تسبّبت عن غير قصد بكتابة المقالة الثانية، وأن الخطأ خطأها بالكامل، وأنّني كنت على حق: علينا بكل بساطة أن نتحلّى بالصبر. أما أنا، فانسحبت بحجّة أنّني أريد ترتيب السرير لأنه لم يكن بإمكاني مجاراة هذا الحديث وآثار المشروب تصيب مني مقتلًا. ولاحقًا بينما كنا نهم بالمغادرة، نظرت إيمّا إلى السجادة أسفل السلالم وقالت: «آه، انظري، هنا تركت زوجك يموت». وراحت تكوّر عينيها. كانت تلك الدعابة قاتمة على نحو غير مريح، وخبيثة ومتهوّرة، لكن مارني ضحكت عن قصد، وقد تحرّرَت بفعل تلك الفظاظة. حاولت أنا أيضًا أن أضحك، أن أكون جزءًا من هذه الدعابة.

لكنّني كنت على يقين من أن السر قد ينكشف، وأن الحقيقة قد تجد سبيلها إليّ. كانت قريبة، تجاورني على الدوام، ولا تسقط أبدًا في الماضي.

الفصل الثامن والعشرون

كانت الصباحات مظلمة والأمسيات مظلمة، والليالي غارقة في ظلمة كالحة. وكان الصقيع كافيًا لاستدرار الثلج، بعد أن اصطبغت السماء بياضًا متّسخًا. وكانت الأشجار جرداء عارية، مجرّد أغصان تهدّد بالانكسار، بينما الهواء قارس لاذع. وقد بات جفاف بشرتي جافّة يدفعني إلى حكّها باستمرار، حتى لباتت تقشر على سريري ومناشفي، وفي ثيابي عندما كنت أخلعها في نهاية كل يوم.

عملت منذ بداية الشهر لساعات طويلة، بما فيها أيّام العطلة، بدل الموظفين من الأهل الذين لن يعودوا إلى العمل قبل منتصف شهر يناير، مع عودة أبنائهم إلى المدرسة، يضاف إليهم كبار الموظفين الذين لن يعودوا قبل نهاية الشهر، لأن بداية العام هي الفترة المثلى لجزر الكاريبي والشرق الأقصى.

مع كل صباح، عندما كنت أصل إلى مكتبي، كنت أعيد قراءة رسالة فاليري وأحاول أن أفبرك ردًا في مخيّلتي. وهكذا رحت أتلاعب بالكلمات وأنا أعدّ نسخة مهذّبة تشجّعها، كما أرجو، على التراجع وإيجاد رواية أخرى، أو نسخة شريرة غاضبة تشكّل تحديًا بالنسبة إليها، وأحيانًا، بمجرّد همس ليس إلّا، نسخة تظهر بمثابة اعتراف. لكن عندما أصل إلى هذه المرحلة، يكون ضغط النهار قد بدأ، فأصرف انتباهي عمدًا إلى مسائل يسهل حلّها أكثر.

قد يبدو الأمر سخيفًا، أنا أعرف، لكن كان يساورني شعور أنّها تراقبني. وقد رأيتها أحيانًا، أو هكذا تراءى لي: خارج شقّتي، وفي مكتبي،

وأحيانًا عبر النوافذ البلاستيكية في قطار الأنفاق، أو على المنصّة أو في المقصورة القريبة. كنت أرى نساء بشعر قصير في كل مكان، وكنت أحدّق دائمًا بحثًا عن وشم بالأسود خلف العنق.

وجدتني أعيد تكرار مقتله في ذهني. لم أتوقّف كثيرًا عند المشاعر -الأدرينالين والحدس ثم الإغاثة- لكن عوضًا عن ذلك، وعلى نحو أكثر براغماتية، عند الأدلة التي قد تجدها يومًا ما. لم أترك ورائي أي بصمة. لم أتنبّه لأي شهود. لم تبرز أي شكوك من أي جهة أخرى. حتى إن الجثة لم تعد متوفّرة، بل غدت هيكلًا عظميًا متحلّلًا على عمق ست أقدام تحت الأرض.

أخذت أتأرجح بين الثقة المطلقة -إذ ليس ثمّة ما يمكن الكشف عنه؛ ستستلم في النهاية- وبين الذعر الأقصى. لكن عليّ أن أقرَّ بأن خوفي كان إلى ازدياد. فقد أصبحت على قناعة أنها ستجد طرف الخيط الذي سيفضح تورطي.

أجبت على رسالتها في نهاية الشهر. كان يوم جمعة. كان يفترض بي أن أزور مارني، لكنّها اتّصلت بي يوم الاثنين لتخبرني أنها دُعيت إلى حفل افتتاح مطعم جديد، وهل يمكن تعليق مخطّطاتنا لأسبوع واحد لا غير. بقيت في المكتب حتى ساعة متأخّرة وعندما أنهيت العمل -كلّه؛ حتى المهمات التي جلست تنتظر على قائمتي لأشهر- أجبت على رسالتها الإلكترونية.

كتبت: «أعتذر، على تأخري في الإجابة. لكن شكرًا لك على التبرير».

ما رأيك؟ هل الأمر سيّئ لهذه الدرجة؟ أردتها أن تحبّني.

أكملت: «أشعر بالقلق، من أنك قد أصبحت مهووسة فينا، بينما نحن لا نستحق حقًّا وقتك».

كان واضحًا أن انبهارها بنا يتعدّى عملها كصحافية.

وكتبت: «ليس ثمّة ما قد تجدينه، زوجي قتل في حادث مأساوي.

والأمر سيّان بالنسبة لتشارلز الذي -كما تعلمين- كان زوج صديقتي المقرّبة. ما حصل كان حادثة مدمّرة، وبالطبع صدفة مريعة، لكن هذا ما حدث في الواقع. وأتوقّع أن تأتي رسالتي هذه تكرارًا لما تعرفينه».

لم أرسل.

«أنا أكيدة أن تحقيقاتك قادتك إلى هذه الخلاصة. لذلك، ربّما لا يجدي نفعًا أن أقول هذا، لكنّني سأكون فعلًا ممتنّة لو توقّفت عن التحقيق في موضوعنا، وتوقّفت عن الكتابة عنا، لأنّنا نحتاج حقًّا لنجد سبيلًا لنكمل حياتنا».. أرسلت.

لم تمضِ ثوانٍ بعد ضغطي زر الإرسال حتى كانت قد أرسلت لي ردًّا.

«دعينا نلتقي»، كتبت في رسالتها.

«لا شكرًا»، أجبتها في رسالتي.

«لدي ما تودّين رؤيته».

«لا أعتقد ذلك ممكنًا، لكن أخبريني ما هو، وسأرد عليك».

نظرت حولي إلى المكتب الخالي. كانت الساعة قد شارفت على التاسعة مساء وقد غادر الجميع قبل ساعات. قمت برجّ هاتفي وكأنّ بهذه الحركة قد تظهر رسالة جديدة. لكن صندوق البريد الإلكتروني كان فارغًا. مرّرت إبهامي على الشاشة، أعيد تحديث الرسائل الإلكترونية المرّة تلو الأخرى. وتركته مضاءً على منضدة المطبخ، بينما أغسل كوبي في المغسلة. ثم تركت الهاتف بين يدي بينما أطفئ جهاز الكومبيوتر الخاص بي. ثم أطفأته وأعدت تشغيله بعد أن ارتديت معطفي، كما لو أن خطبًا ما أصابه. ثم حملته أمام ناظري بينما أخرج من المبنى باتجاه المحطة.

استلقيت في السرير تلك الليلة والهاتف أمامي على وسادتي، والصوت بأعلى مستوى له. وكنت أصاب بالصدمة مع كل رسالة

تصلني: من الشكاوى التلقائية التي وردتني متأخّرة في المساء، إلى الرسائل الإلكترونية من البائعين الذين حصلوا على معلوماتي الخاصة من دون إذني، وصولًا إلى تحديث السفر العام مع معلومات لليوم التالي.

لكن لا رسالة من فاليري.

انتظرت وانتظرت لكنّني غفوت على ما يبدو في النهاية، لأنّني صحوت بعد لحظات معدودة على صوت منبّه الهاتف يرن: لقد حان موعد نهوضي لزيارة أمي. فعلت ما أفعله دائمًا: أدخل الحمام، وأستحم، وأجهّز نفسي. وهو بالطبع الوقت الذي وصلت فيه الرسالة.

وجدتها عندما عدت إلى غرفة نومي بعد عشر دقائق، ومنشفة ملفوفة حول صدري والأخرى حول شعري. حاولت أن أبقي رأسي ثابتًا بينما أقرأها.

كتبت: «حدث أمر ما الأسبوع الذي سبق، لا أدري ما هو بالتحديد. لكن جيرانك (يبدون فتيات مسلّيات) كنّ مغادرات بعد منتصف الليل للسهر، عندما رأينك عائدة. قلن إنك كنت مبلّلة ويبدو كأنّك كنت تبكين. لا يخفى على أحد أنك تذهبين لزيارة مارني وتشارلز كل يوم جمعة. قلن إنك تعودين عادة في حوالى الساعة الحادية عشرة. فماذا حصل ذاك الأسبوع؟».

«لا شيء». قلت بصوت عالٍ. ثم، «سحقًا».

كنت أدرك أنه يتعيّن عليّ أن أجيبها، وإلّا ستسيء تفسير صمتي. لكنّني لم أعلم بمَ أجيب. لم يكن بوسعي أن أعترف بالنقاش من دون أن أوقع نفسي وأثبت عليّ الدافع. ولم يكن محتوى رسالتها ما أثار هولي وحسب، بل أساليبها في التحقّق للحصول على المعلومة، أو ما تشير إليه بالأدلة. لقد كانت في مبناي. كانت خارج شقّتي. لقد تكلّمت مع جيراني.

جلست على سريري والمنشفة الملفوفة حول رأسي بدأت تنزلق وشعري يقطر قطرات باردة على ظهري.

كتبت: «أبكي؟ كلا. لكنّني كنت من دون أدنى شك غاطسة في المياه، فربّما بدوت وكأنّني أبكي. مشيت سيرًا على الأقدام ذلك المساء من منزلهما. لهذا السبب قد تجدينني وصلت متأخّرة أكثر من المعتاد ومبلّلة أكثر من الطبيعي. ليس ثمّة ما يمكن إضافته».

ضغطت على زر الإرسال.

لا داعي للتحديق، فالأمر فظ. ألا يمكن أن تدركي أن بعض الناس يستمتعون بالمشي تحت المطر؟ يجدونه منعشًا. من المنعش بطريقة ما أن يكون المرء على تماس مع الطبيعة.

لم ترد.

أعدت قراءة الرسائل التي أرسلتها في اليوم السابق وضغطت على الرابط في التوقيع أسفل أحدها. نقلني مباشرة إلى موقعها الإلكتروني. وهناك -مجددًا باللون الأحمر والأحرف الكبيرة- قرأت الكلمات التالية:

الصبر ثم الصبر: قريبًا تفاصيل جديدة.

الفصل التاسع والعشرون

حل شهر فبراير ثم ولّى من دون أن أسمع مجدّدًا أي خبر من فاليري، ومن دون أن تضيف أي تحديث على موقعها الإلكتروني. كنت لا أزال أعمل ساعات النهار كلّها، وحتى عندما تم تقديم الساعة ساعة، لم تسنح لي فرصة رؤية ضوء النهار. لم أرَ أحدًا تقريبًا طوال شهر، باستثناء مارني. كانت تعدّ لي الطعام، جريًا على عادتها، وكانت تتكلّم حول حبلها: كيف يبدو الأمر جسديًا -التمدّد والوجع والتوتر- وعاطفيًا أيضًا، ثقل أن تكون مسؤولة عن حياة أخرى.

«كم غريب أن أكون هنا من دونه»، كانت تقول في كل مرة نرى فيها بعضنا البعض. «أستطيع أن أشعر به في هذا المبنى. وأستطيع أن أشم رائحته أحيانًا: كريم ما بعد الحلاقة، وعطر شديد الذكورة عتيق يجعلني أفكّر به. لكن لا بد لي، من التركيز على المستقبل». ثم تخبرني عن فرص جديدة: تلقّت أوعية للأطفال مع قواعد تثبتها بالطاولات وتفكّر في تخصيص مساحة على موقعها على الإنترنت لإعداد وصفات للأطفال. وقالت أكثر من مرة: «لا يسعني ببساطة أن أغرق في حزني. عليّ أن أبني حياة لي ولطفلي».

وتحدّثت في كثير من الأحيان عن السنوات المقبلة، وماذا بعد ذلك، وكيف يمكن أن تبدو حياتها من دونه. وكان يبدو أنّها تنسى أحيانًا أن تذكرني. لذلك، شعرت كما لو كنت مسؤولة عن إعادة حشر نفسي في القصة.

«أستطيع أن آتي وأعيش هنا لفترة من الزمن»، قلت لها.

«آه، هذا لطف منك»، أجابت. «لكنّني لا أعتقد الأمر ضروريًا».
«أستطيع أن أتواجد معك كلّما لزم الأمر. أساعد كيفما استطعت».
ردّت بثقة. «طبعًا، مع إنّني أرى أنّنا قد نحتاج للسلام والهدوء في الأسابيع القليلة الأولى».

كنت واثقة من أنها ستغيّر رأيها. لقد كنت أتطلّع في ما مضى لحياة مع أطفال، ومع ذلك كنت على ثقة أنها ستكون المحور بشتى الطرق. كنت أرانا في المقاهي، نقوم بنزهات في الحديقة العامة مع عربة أطفال، ونمرّر الطفل بيننا. كنت واثقة من أنّها ستحتاجني. لأن الجميع يؤكّد أن هذه المرحلة مرهقة، مرحلة الاهتمام بمولود، وأنّها لربّما تحتاج لجيش من البشر، وكم ضروري أن تكون الأم محاطة بالأصدقاء والعائلة. لكن لم يخطر ببالي أنّني قد لا أكون نوع الأصدقاء المناسب الذي تحتاجه في المرحلة التالية من حياتها.

كنت منهمكة في عملي، إذ قمت بتوظيف خمسة أشخاص جدد، امرأتين وثلاثة رجال. كانت الأعمال تنمو بشكل متزايد - مزيد من الطلبات مع كل أسبوع، ومزيد من التجّار الجدد الذين يعتمدون على منصّتنا، وقد خيّم نوع من الذعر المتواصل بعد أن أثبتت أنظمتنا وفرق عملنا وإعداداتنا أنّنا لسنا جاهزين للتعامل مع هذه القفزة النوعية.

جلست عند رأس طاولة في وحدة خدمة العملاء. كانت طاولتي تدعى «زاديه». على ما يبدو، فإن الأسماء النسائية تُشعِر الناس براحة أكبر، وبسهولة في التعامل، فأطلق على كل محطّة عمل في المبنى -من مخازن التحميل إلى المكاتب في الطابق الثامن- اسمًا نسائيًا. لكن الملفت أن ما من جاين. أعتقد بأن رئيس مجلس الإدارة كان يفضّل اللجوء إلى خيارات أنثوية صارخة كمثل أسماء تنتهي بحرف الهاء.

جلس الموظّفون الجدد على المقاعد من على جانبي زادي. كانت المرأتان في الخمسينات من عمرهما، وقد انفلصتا حديثًا عن أزواجهما

وباتتا بحاجة ملحّة لمردود ثابت. في المقابل، كان اثنان من الرجال يافعَيْن، متخرّجين حديثًا يأملان الحصول على مدخول سريع يؤمّن لهما ما يكفي من المال حتى يتمكّنا على الأرجح من السفر حول العالم: لركوب الأمواج أو الغطس أو التزلّج على الثلج وإغواء فتيات لا يتعدّى عمرهنّ الثامنة عشرة. أما الموظّف الثالث فكان في بداية الأربعينات من عمره، واسمه بيتر. عمل لأكثر من عقد من الزمن في مصرف، وكان يتلقّى راتبًا خياليًا، وعلاوة مناسبة. هذا كلّه إلى ما قبل سنتين من الآن. كان جالسًا وراء مكتبه في زاوية فسيحة في مبنى قرميدي في المدينة عندما أخذت ضربات قلبه تتسارع أكثر فأكثر، حتى شعر وكأنّه سينفجر داخل قفصه الصدري. شعر أن رئتيه مملوءتان بالماء، وأن قلبه ينبض ويطرق طرقًا على أضلاعه، وتورّمت عيناه. وكان يمسك صدره بيده وقد تحوّل نفَسه ضحلًا حتى فقد وعيه في النهاية.

بعد سلسلة من التحاليل والاختبارات والصور، قيل له إنه بخير، وإن لا خطب طبّيًا، وإن حالته الصحية ممتازة. فعاد إلى عمله في اليوم التالي، وفي فترة بعد الظهر، شعر بالعوارض نفسها من جديد. ثم في اليوم التالي، حصل الأمر نفسه. وفي اليوم الذي تلاه. إلى أن توقّف بيتر في نهاية المطاف عن الذهاب إلى العمل ولازم ببساطة منزله. فشخّص طبيبه عندئذ الحالة على أنها إجهاد: «كما لو كانت مرضًا»، شرح له خلال معاينته، «وهي حالة ذهانية»، وجعله يقتنع بتشخيصه، الأمر الذي وضع حدًّا لنوبات الهلع، لكنّه شكّل مدخلًا لعوارض كآبة عميقة وراسخة.

كان غاية في الصراحة. قال إن الأشهر قد امتدّت لتصبح سنة كاملة، إلى أن وجد الشجاعة أخيرًا لحضور اثنتي عشرة جلسة مساعَدة نفسية في غرفة صغيرة في منزل صغير مع شرفة في الضواحي. أخذ يحاول التركيز على ورق الجدران والعصافير الزرق المرسومة باليد وقد التقطت جامدة في لحظة، أو صوت الكرسي الجلدي تحته، أو الزغب

الرمادي اللون فوق شفة معالجته العليا، أو الأقراط التي تتدلّى حتى تلامس كتفيها. لكنّها تغلّبت عليه، ووجد نفسه، عن غير قصد بنحو أو بآخر، يبوح بالحقيقة: الأسرار التي دفنها داخل أعماقه لعقود من الزمن وما كان يكنّه فعلًا من مشاعر وأحاسيس تجاه الأشياء والناس والحياة (حتى عندما لم تكن أفكاره أفكارًا يجدر بالمرء التفكير بها حول الأشياء والناس والحياة.

أحسست بانجذاب تلقائي نحوه، كما لو كان غريزيًا. كان يملك المهارات المناسبة -التكلّم مع العملاء وإدخال البيانات- وقال إنه أراد أن يبدأ من الحضيض مجدّدًا، وصعود السلالم سلّمًا سلّمًا بطريقة مدروسة أكثر. كان يتحمّل مسؤولية كل فشل في حياته بطريقة تبدو فعلًا غريبة. ولم يكن صريحًا مع نفسه وحسب، بل كان أيضًا صريحًا معي، مع غريب، نعم، لكن مع من يجري معه المقابلة أيضًا. لم أقوَ على فهم هذا الأمر على الإطلاق. كيف يمكن له أن يختار الصراحة؟

في تلك الفترة، لم أكن لأتوقّع تلك اللحظة: أن أكون أنا على مقدار من الصراحة، وأعيد سرد أكاذيبي.

كان بيتر المفضّل لديّ من بين الموظفين الخمسة. وكان أيضًا الأكثر كفاءة، كما كان يحل المشكلات بسهولة فائقة. ويبدو أن الزبائن قد أحبّوه. والحواسيب أحبته أيضًا، وغالبًا ما كان هذا يمثل الجزء الأكثر تحدّيًا في العمل. عندما كان يتواجد من حولي، كنت أكثر سعادة وأكثر كفاءة وأكثر حماسة وأكثر ثقة في عملي. شعرت بالسرور لتوظيفه.

في آخر يوم من شهر مارس -بعد مرور ستة أشهر على بدء الموظفين الجدد عملهم- وصلت إلى المكتب مباشرة بعد الثامنة صباحًا وفتحت صندوق بريدي الإلكتروني لأجد رسالة من مديري، أرسلها عند السابعة والنصف، يطلب فيها مني أن أحضر فورًا إلى مكتبه، لأن ثمّة ما نحتاج لمناقشته والأمر بالغ الأهمية.

استدرت باتجاه المصاعد وحشرت نفسي بين عشرات آخرين، كلّهم يتوجّهون إلى الطوابق العليا ببزاتهم الأنيقة وستراتهم المقلّمة. أما أنا، فأخذ حذائي الرياضي يصرّ صريرًا على الأرضية المصقولة. وبينما راحوا يخرجون عند الطابق الخامس والسادس والسابع، رأيتهم ينظرون إليّ، يتساءلون ما الذي أفعله بحق الله متّجهة إلى الطابق الثامن. وأعتقد أنّهم هم أيضًا افترضوا أنّني سأطرد قريبًا.

كان مكتب مديري يطل على المدينة، عبر نافذة زجاجية ضخمة تمتد على طول جانب من الغرفة. كان يجلس أمام مكتبه. ربطة عنقه تتدلّى حول عنقه من غير أن يعقدها، بينما الهالات السود تزنّر عينيه، متوسّطةً بشرته الداكنة الشاحبة، كما لو أن الدفء كلّه قد سُحب من داخله. كان الباب مفتوحًا، ومع ذلك طرقت طرقات خفيفة تحت لوحة صغيرة تحمل اسمه. دونكان برين. مدير خدمة العملاء.

انتفض ونظر إلى الأعلى. قال: «جاين، تعالي. اجلسي. ماذا تشربين؟ القهوة؟».

هززت رأسي نفيًا.

«وصلت باكرًا. وهذا لا يعني أنّني تفاجأت. لقد سمعت الكثير من الأمور الحسنة عنك».

شعرت بالراحة تتسلّل إلى كتفيّ، وأعصاب معدتي تتمدّد، فغرقت في الكرسي المنخفض، الذي لم يكن إلّا كرسي مكتب عادي، إنما مُوِّه ليصبح كرسيًا أكثر أناقة يدور حول نفسه على نحو غير متوقّع. حفرت قدميَّ حفرًا في الأرض، لأحافظ على ثباتي.

«في الواقع، أنا لم أسمع الأمور الطيبة عنك وحسب، بل رأيت أيضًا نتيجة هذه الأمور الطيّبة بنفسي. هل تعلمين عمَّ أتكلم؟ أعتقد ذلك. نحن نقضي وقتنا نجري اتصالات عمل، وأنتِ تعلمين ذلك، لكنّنا نتابع عملاءنا أيضًا -لحسن حظّنا- لذلك لم يفاجئني الموضوع. ليس ثمّة

ما يمكننا فعله في هذا المجال. لكن ما بوسعنا القيام به -وما نقوم به- هو خفض نسبة العملاء الذين يعاودون الاتصال للشكوى للمرّة الثانية لأنّهم لم يكونوا سعداء من ردّنا الأول. وعلاوة على ذلك، فإن مسارات العمل التي تؤسّسين لها استنادًا إلى بيانات يجمعها فريق عملك باتت تخفّض عدد العملاء الذين يتّصلون بشكل جذري. فمن بين مجمل عدد الطلبات، تراجعت نسبة الاتصالات بحوالى الثلث في الفصل الأول من هذه السنة مقارنة بالسنة الماضية. وهذا إنجاز، أليس كذلك؟ هذا فريق عملك. هذا عملك. هؤلاء هم الموظفون الذين قمتِ بتوظيفهم. ونحن نودّ أن نكافئك على هذا. لا تخافي. هذه أخبار جيّدة. نريد أن نقدّم لك علاوة».

فتح درجًا أمامه وسحب منه ظرفًا مرّره عبر مكتبه. كان اسمي مطبوعًا عليه بأحرف سوداء كبيرة.

«ثمّة تفاصيل أكثر بكثير في الداخل، لكن خلاصة الموضوع أنّنا نودّ أن تتولّي مهمات مديرة خدمة العملاء الرئيسية. نريدك أن تكوني في صف فريق الاستراتيجيا. نريدك أن تبحثي في الأرقام. نريدك أن تواصلي العمل بما كنت تقومين به -درّبي هذا الفريق!- وأكثر من ذلك. هل يمكنك تحمّل هذه المسؤوليات؟».

أومأت برأسي إيجابًا. كنت بالكاد أملك من الوقت والمساحة كي أعلّق ولم أكن أدري ما كنت لأقوله لو سنحت لي الفرصة لذلك.

«حسنًا، إليك بهذا، اقرئيه وفكّري إن كان يناسبك، ثم وقّعيه، وأعيدي إرساله إلى قسم الموارد البشرية ليدخل مباشرة حيّز التنفيذ. حسنًا فعلت يا جاين. هيّا، أبدعي. هذا ما نبحث نحن عنه. الآن عودي إلى موقعك. ثمّة الكثير يُفترض القيام به تحت».

لن أدّعي أن هذا اللقاء لم يكن غريبًا مثيرًا للضحك. فأقل ما يقال عن دونكان برين أنه رجل غريب الأطوار. يتكلّم بجمل متقطّعة قصيرة،

غالبًا ما ينطقها صراخًا، ويحرّك يديه بطريقة غريبة عجيبة تترافق مع كل كلمة يتفوّه بها. لكن على غرابته، كان لطيفًا أيضًا.

هنا مكان أرتدي فيه أهمية بالغة. هنا مكان تكافأ فيه جهودي. كنت أعني شيئًا لأحد. عدت إلى مكتبي وأخبرت فريق عملي الجديد وخرج بيتر وقت الغداء ليعود حاملًا شيئًا جاء به من الفرن.

قال: «هذه قطعة حلوى احتفالية، لك. لأقول حسنًا فعلتِ».

الفصل الثلاثون

كم كنت أتمنّى لو أن اليوم انتهى عند هذا الحدّ. لكنّ هذا لم يحصل. عملنا أنا وبيتر حتى وقت متأخّر. كنت قد بدأت العمل منذ أشهر على نظام برمجة جديد، وكنّا على وشك إطلاقه في غضون أسابيع. انسحب الموظّفون الأربعة الآخرون بين الخامسة والسادسة، ليعودوا مسرعين إلى أهلهم أو أطفالهم، أو لرؤية أصدقائهم في الحانة أو لحضور المباراة الأخيرة في الدوري. لكن بيتر لم يكن عنده من يذهب إليه -فقد تخلّت عنه زوجته في خضم أزمته النفسية- ولم يكن هناك من ينتظرني أنا أيضًا.

«أنت كذّابة»، قال بيتر وهو يرفع رأسه عن شاشة حاسوبه.

«عفوًا؟»، أجبته وقد خلتني أسأت سماعه.

«أنتِ كذّابة يا جاين»، كرّر بكل ثقة.

أصبت بصدمة لكن من دون أن يزعجني الأمر. لم أكن أشك في أنّني كذّابة وبشتى الطرق والوسائل. وكنت واثقة من أن بيتر رجل حكيم لذلك أخذت أنتظر ما سيقوله لي. أردت ما يسلّيني.

ابتسم وأشار برأسه باتّجاه الساعة البيضاء الكبيرة المعلّقة فوق الباب. لقد تخطّت الساعة منتصف الليل.

«هل فهمتِ؟»، سألني.

هززت رأسي نفيًا.

«كذبة أول إبريل». وراح يقهقه بينما شعرت أنا بالإحباط، وبالغباء لشعوري بالإحباط، وبنوع من الجاذبية لدعابته السخيفة.

أجبت: «آه، ممتاز، مع إنّني يمكنني أن أقول الأمر نفسه عنك. نحن

عالقان هنا حتى ساعة متأخّرة مع أنّه لا بد لنا من شيء نفعله خارج العمل».

التقت نظراتنا للحظة فأحسست إحساسًا جميلًا. بين كل الحثالة التي تبدو وكأنّها تطفو على السطح، ثمّة ما هو جميل. لقد تم -للمرّة الأولى منذ زمن طويل- الاعتراف بجميلي، وأكثر من ذلك، هذا شخص يكنّ لي من الإعجاب ما يجعله يمازحني. ورحت أفكّر أن ربّما فصل الصيف لن يكون سيئًا هذه السنة؛ ربّما سأكون مرحة ومشعّة ومشرقة. لكن الأمر لم يدم طويلًا. ألم يعد واضحًا لك بعد أن الأمور لا تدوم أبدًا؟

إذ رنّ هاتفي بعد ذلك، فسوّينا كلانا جلستنا في آن واحد على كراسينا، مذهولَين ليس بفعل الجلبة التي أحدثها صوت الهاتف وحسب، بل نتيجة النبرة المثيرة للقلق، ذلك اللحن الحاد الرقيق في آن، الذي يفوق في بهجته وقوّته صمت الليل.

«الأجدى أن أجيب على هذا الاتّصال»، قلت وأنا أرفع الهاتف إلى وجنتي.

«مرحبًا».

«أنا أحاول الاتصال بالمدعوّة السيدة جاين بلاك». بدا صوت المرأة مقتضبًا، ولهجتها محترمة رسمية. «لكنّني لم أنجح... حسنًا لقد تكلّمت مع عدد كبير من الأشخاص الذين ليسوا السيدة جاين بلاك. هل أنا...؟ هل أنت...؟».

«أنا جاين»، أجبتها. درت في كرسيّ بحيث لم أعد أواجه بيتر. «أنتِ تتكلّمين مع الشخص المناسب الآن.

«اسمي ليليان براون. أنا ممرّضة، أتصل من مستشفى سان توماس. لقد حصلنا على اسمك بصفتك قريبة...». بدا لي أنها تنحني برأسها على أوراقها فترة لا تنتهي، وأنا أنصت إلى فلفشة الصفحات وأصابعها تتنقّل على الورقة، تبحث عن الاسم الصحيح. «للآنسة إيمّا باكستر. هل هذا صحيح؟».

شعرت فجأة بانقطاع نفسي. «نعم، أنا أختها. ماذا حصل؟ هل هي...؟ ماذا حصل؟».

«لقد انهارت. إنّها بخير، بالنظر إلى وضعها، لكن تساورنا بعض المخاوف. ربّما تستطيعين زيارتها؟ لقد وصلت لتوّها. أخشى أنّه لن يمكننا السماح لها بالخروج. لكنّها تصر على أنها لن تبقى هنا».

«أنا ذاهبة إليكم. سأصل في غضون نصف ساعة. قولي لها إنّني آتية».

«شكرًا سيّدة بلاك. أقدّر لك هذا».

وانقطع الاتصال.

«عليّ أن أذهب»، قلت لبيتر.

كان يفترض بي أن أكون آخر من يخرج، فأطفئ الأنوار، لكنّني لم أستطع الانتظار بينما يطفئ حاسوبه ويذهب إلى الحمّام وينظّف كوبه في المغسلة.

أشرت إلى السقف. «هلّا تهتم بالأنوار؟ عندما تغادر؟».

«طبعًا. طبعًا. آمل أن تصبح الأمور بخير».

أومأت برأسي وسحبت معطفي من وراء الكرسي.

قلت: «شكرًا».

كان المستشفى هادئًا. فالجدران البيض وبلاط الأرضية وتلك الرائحة المألوفة من المطهّرات تشبه بنمطها المكتبات، وكنّا كلّنا نسير على طول الممرات بصمت، لا يكسره إلا وقع أحذيتنا وحفيف أكمام معاطفنا على أجسادنا.

سألت عند مكتب الاستقبال، فتم تحويلي إلى قسم التقييم في الطابق الثالث. اتّبعت الإشارات وأنا أحاول أن أفصل نفسي عن واقع وجودي هنا بالتركيز على صور الأطفال المصابين بالسرطان، يبتسمون والنساء العجّز يلوحن بأيديهنّ والأمهات يحملن مواليدهن الجدد.

لقد سبق أن زرت إيمّا في مستشفيات عديدة مختلفة، لكنّها تأرجحت

على مدى خمس سنوات في حال يمكن تعريفها بالـ«جيدة». دخلت القسم وكانت الممرّضة عند مكتب الاستقبال تتكلّم عبر الهاتف، تلغي عملية تحويل من المستشفى للصباح التالي، لأن المريض قد أُدخل بحال طارئة إلى غرفة العمليّات، ولن يغادر في وقت قريب.

أخذت أتململ في وقفتي، أنتظر منها أن تقفل الخط ومع ذلك، كنت آمل أن تستمر محادثتها حتى أتمكّن من تأجيل الأمر المحتوم.

قالت في النهاية: «نعم عزيزتي، عمّن تبحثين؟».

«أختي، إيمّا باكستر».

«الجناح الثاني، بهذا الاتجاه».

«شكرًا»، أجبتها، لكنّها كانت عادت إلى شاشة حاسوبها وكدسة الأوراق المتراكمة إلى جانبها.

وصلت إلى الجناح الثاني لأجد ستة أسرّة وخمسة مرضى. كانت الضوضاء تتواصل بشكل ثابت: من شخير خافت إلى صفير متقطّع وهمسات هادئة لجهاز تلفاز. كانت امرأتان مسنّتان تغفوان وقد وصل لحافاهما إلى ذقنيهما، وشراشف سريريهما محشورة تحت جسدَيهما الهشَّيْن. وكانت امرأة شابة، ربّما في الثلاثينات أو الأربعينات من عمرها، وقد ارتفعت ساقها فوق السرير في رافعة، وشاشة الدفع الفوري مثبتة أمامها مباشرة. وكان أحد الأسرّة فارغًا، من دون ملاءات. في المقابل بالقرب من النافذة، في سرير مخفي، والأزيز الخافت يتصاعد من وراء ستارة زرقاء، كانت أختي الصغيرة.

لم تلاحظ وجودي مباشرة. كانت تتكلّم عبر هاتفها الذي عكست إضاءته الخلفية وهجًا أزرق مائلًا إلى الأبيض على وجهها، فظهّرت أكثر عظامها: عيناها الجاحظتان النافرتان في تجويفتين، وخدّاها الغارقان، والأوتار الناتئة من عنقها. أما أناملها التي كانت تمسك بالهاتف، فبدت طويلة طويلة، ومفاصلها متورّمة، وعظام معصمَيها كأنّها تضغط على بشرتها.

زفرت زفرة طويلة بطيئة، فأحسست بالعقدة وسط معدتي تصارع لتحل نفسها.

نظرت إيمّا إلى الأعلى. وابتسمت. «أتيتِ». ثم وضعت هاتفها على الطاولة.

«بالطبع أتيت»، أجبتها وأنا أسحب كرسي طاولة لأجلس بجانب سريرها.

«ماذا جرى؟».

«لقد غبت عن الوعي»، أجابتني، ولا شك في أنني قلبت عينيّ أو رفعت حاجبيَّ لأنها عبست ثم تحوّلت إلى الدفاع. أصرّت قائلة. «حقًا هذا كل شيء. لكنهم يبالغون هنا. وتلك الممرّضة. براون، –على ما أعتقد– هل هي من اتّصلت بك؟ لم تتوقّف عن الشكوى».

«ربّما لأنّها تقوم بعملها على أكمل وجه».

«لو هذا صحيح، لكانت سمحت لي بالخروج إلى منزلي».

«هل اتّصل أحدهم بسيارة الإسعاف؟».

«نعم».

«إذًا كان الأمر أكثر من إغماءة. وإلا كنت لتستعيدي وعيك عندما وصل المسعفون إليك».

«آه، جاين، توقّفي. رجاء لا تبدئي بهذا».

«إنهم قلقون على صحتك، وإلّا ما كانوا ليبقوك هنا».

«لا داعي لذلك»، أجابت إيمّا.

تنفّست نفسًا عميقًا وأنا أضع يدي فوق يدها، أحثّها على بوح مكنوناتها إليّ، ومشاركتي الحقيقة، والوثوق بي كما فعل بيتر قبل أسابيع قليلة.

«ما الذي يخشونه؟»، سألتها.

فأجابت: «قلبي». ثم نظرت بعيدًا عني، وكأنّها تشعر بالإحراج،

فأردت أن آخذها بين ذراعيَّ وأعِدها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن أخبرها أنّها ليست مضطرة للاختباء مني لأنّني أعي جيدًا أنّنا كلّنا لن نستطيع أن نكون الأشخاص الذين أردنا أن نكون.

بدلًا من ذلك همست: «لا بأس، سنجد طريقة لنصلح الأمور».

عندما نظرت إليّ، كانت عيناها مغرورقتين بالدموع.

«لا أعتقد ذلك. لن أكون يومًا» -وغيّرت تعابير وجهها كما لو أنها تشعر بالاشمئزاز- «بصحة جيدة».

«لكن...».

قاطعتني: «لن أكون يومًا بصحّة جيّدة. لم أكن ذاك الشخص لأكثر من عقد من الزمن». واختبأت تحت الشراشف مديرة رأسها باتجاه النافذة. «سيقتلني هذا، أنت تعرفين ذلك وأنا أعرفه أيضًا. تلك هي الطريقة الوحيدة التي سينتهي بها الأمر».

كانت يديّ تحتضن يدها. قلت: «اسمعي إيمّا، هيّا، الآن. هذا ليس صحيحًا. ثمّة ألف وسيلة ووسيلة لتخطّي الأمر. وأنت تعرفين هذا أكثر من أي شخص آخر. انظري إليكِ: هذا ما أحسنتِ صنعه طوال هذه الفترة». ومع أنّني كنت أعلم أن الأمر قد يكون حقيقيًا. إلا أنّني كنت على يقين أنّه لن يكون يومًا حقيقيًّا بالنسبة لإيمّا. كانت على حقّ. كنت أعرف هذا، ولطالما عرفته لسنوات.

لطالما بدت إيمّا ذلك الشخص الذي لا يُقهر، ومع ذلك، بدا جليًّا في لحظة ما أنّها مكسورة أيضًا، وأن حتى أفضل ما لديها لن يكون يومًا كافيًا. فبدأت تضع نفسها في مساحة لا يسكنها إلا المعتلّون ولا يمكن لأي شخص آخر أن يلجها. وباتت تعيش وكأنّها في عدٍّ تنازلي، يتناقص رقمًا بعد آخر في أعماق عقلها، وهو يقيس ما تبقى لها من معارك. وكنّا كلنّا نعلم أن معركتها أضحت معركة خاسرة.

لكنني، مع ذلك، أصرَّيت: «تستطيعين القيام بذلك، أنتِ قوية».

ردّت: «أنا قوية! محتمَل، لكنّني عليلة أيضًا. وتلك الأمور ليست قابلة للمبادلة على الإطلاق. أنا لا أعلن استسلامي ولم أصبح أقل شجاعة إذ أنا على يقين أن النهاية مكان حقيقي».

كنت أعلم هذا. أعلم هذا كلّه. «أنا أحاول فقط...».

«حالتي تسوء. ترين ذلك بعينيك، أليس كذلك؟ أراه في وجهك عندما تنظرين إليَّ. لم أعد قادرة على السيطرة على الأمر. لقد سيطر هو عليّ بالكامل».

قلت: «يمكننا أن نحاول». وإذا ما نظرتُ الآن إلى الأمر، أجدني كنتُ كما لو أنّني أستجدي عطفها.

«أنت لا تفهمين. والخطأ ليس خطأك. ليس بإمكانك، ولا بإمكاني، فعل شيء. الأمر أكبر مني ومنكِ. هو كل ما أنا عليه».

قلت: «هذا ليس صحيحًا، أنت أكثر بكثير من مجرّد هذا».

وبدأت عندئذ الدموع تفيض من عينيها، فأدركت حينئذ أنّها كانت تعيسة جدًا، ولكن ربّما كانت في غاية الإحباط، مرهقة بسبب الناس غير القادرين على فهمها، ومرض لم تقدر هي أن تفهمه.

«لا. تتمنّين ذلك، لكن الوضع مغاير. ربّما كنت كذلك في ما مضى. ربّما. لكن ليس بعد اليوم. هل تذكرين كيف كنتِ عندما التقيت بجوناثان للمرة الأولى؟».

«إيمّا...».

«كلّا. توقّفي. دعيني أكمل. هل تذكرين؟ أنا أذكر. كنتِ مفتونة به بالكامل. كان حاضرًا في كل ما تقولينه وما تفعلينه وربّما في أفكارك أيضًا. هذا ما هو عليه الأمر. إنه كحالة عشق. يستهلكك بالكامل. ولا يمكن وضع حدٍّ له. هذا ما أنا عليه».

عارضتها قائلة. «كلا، ما تصفينه مريع، بائس. العشق رائع يا إيم. سترين. يومًا ما سترين».

انطلقت ضاحكة بينما أردت أنا البكاء. قالت: «لا أعتقد ذلك، أعتقد بأنني تخطّيت تلك اللحظات التي ننتظرها بآمال كبرى. الآن، ثمّة لحظة واحدة لا غير تنتظرني في نهاية الطريق».

أردت أن أهزّها. أردت أن أهزّها وأحرّرها من بؤسها. أردت أن أصل إلى عمق أعماقها لأجتث منها ذاك الشيطان القابع دفينًا. كنت أدرك أن ليس بوسعي إنقاذها، لكنّني كنت أدرك أيضًا أنه كان بإمكاني أن أفعل ذلك في لحظة ما في السابق. كنت أدرك أن لا بد من وجود سبيل لوقف ذاك التدهور قبل أن تزداد عظامها هشاشة وتذوي عضلاتها ويتراجع أداء قلبها إلى أن يتوقّف كليًا. لا بد من أنّني خذلتها في مكان ما ليصبح هذا مآلها.

سمعنا وقع خطوات تقترب فغرقنا في صمت مبين. ظهرت ممرّضة عند حافة السرير.

«سيدة بلاك؟»، سألت. «اسمي ليليان. تكلّمنا سابقًا». نظرت إلى إيمّا «الآن إيمّا، أصبحت الأوراق جاهزة، لذلك يمكنك الخروج متى أصبحتِ أنتِ جاهزة».

«لكن...»، بدأت بالقول.

«سأوافق على خروجي بنفسي»، قاطعتني. ثم أضافت، «ليس ثمّة ما يمكنهم فعله لي هنا».

حاولت أن أقنعها بالبقاء في المستشفى. لكنّها رفضت. حاولت أن أقنعها بقضاء بضعة أسابيع في مركز إعادة تأهيل. لكنّها رفضت. حاولت أن أقنعها بالعيش معي لفترة قصيرة، حتى تستعيد عافيتها، لكنّها رفضت.

أخذتها إلى منزلها في سيارة أجرة وساعدتها على الاستلقاء في سريرها.

خشيت أن تكون تلك المرّة الأخيرة التي أراها فيها، لكنّني كنت مرهقة وأبالغ في مخاوفي، والأهم من ذلك، كنت على خطأ.

كنت أتمنّى لو أن النهار قد انتهى ههنا، لكنّه لم يفعل.

كان هاتفي موضوعًا بجانبي على الوسادة، في حال احتاجتني في الليل. وكنت شبه غافية، ورأسي ملبّد بالأفكار التي لم تكن على درجة من الوعي، عندما ارتجّ الهاتف. قفزت يدي تلقائيًا، وقد انجذبت إليه كما المغناطيس.

لم يكن الهاتف يرن -إذ قد توقّفت الارتجاجات سريعًا- لكن كان ثمّة دائرة حمراء فوق إشارة البريد. فتحت صندوق البريد وهناك وجدت اسمها: فاليري ساندز.

«مكثتِ في شقّتهما طوال أسبوع كامل»، كتبت في رسالتها.

لم تكتب أي شيء آخر، جملة واحدة ليس إلا، فانتصبت جالسة، أدفع بالوسادة وراء رأسي، محاولة أن أفهم مغزى ما كتبت.

كانت محقّة، بطبيعة الحال. كانت دائمًا تقريبًا على حقّ.

لقد طلب مني تشارلز أن أروي الشتول بينما ذهبا في عطلة، وقد فعلت ذلك. غير أنّني مكثت هناك، من دون دعوة منهما، أعيش في منزلهما لحوالى الأسبوع.

كم كانت تعرف؟

وماذا ستفعل بما تعرفه؟

ها هي الأمور بدأت تتكشّف ببطء، لتتجمّع قطع المعضلة معًا. لم يكن خوفي يظهر إلا عندما تتعرّض صداقتي للخطر. فقلما كنت أخشى الشرطة والسجن لأن ما من أحد أو دافع أو سبب للتشكيك بالتقارير التي سبق أن أعدّت. لكنّني بدأت أعي شيئًا فشيئًا أن الخيوط الصغيرة التي تطل برأسها من أكاذيبي قد تقضي على صداقتي مع مارني، إذا ما قام أحدهم بسحبها. والمشكلة على ما يبدو أن تلك الخيوط هي أكثر ما يشدّ فاليري. كانت مصرّة على كشف أمرنا.

الكذبة السادسة

الفصل الحادي والثلاثون

مضى على وفاة تشارلز أكثر من ستّة أشهر، وكنت أعاني نومًا متقطّعًا سيئًا للمرّة الأولى منذ سنوات عدة. فعندما كنت طفلة صغيرة، كنت أنام -ليس بسهولة، لكن براحة، وغالبًا بعد أن أقضي وقتًا أقرأ فيه حتى ساعة متأخرة من الليل، وشعلة الضوء مثبتة تحت أغطيتي- لكنّني عانيت خلال سنوات مراهقتي. فقد قضيت ليالي طوال أتقلّب على وسادتي وأسوّي وضعيتي، وأعيد ملء كوب المياه الذي سرعان ما يمتصّ ثقل غرفة نوم دافئة، فيتجمّع عند سطحه طعم عفن. أعرف جيدًا أن أفضل فترات نومي قضيتها إلى جانب جوناثان.

كان من الصعب في كثير من الأحيان تصديق كيف أن الإتيان بفعل واحد بسيط يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الفاعلية، كيف أنّه مات بهذه البساطة، كيف أن الموت سهل والروح قد تزهَق في أي لحظة. وجدتني أعود إليه باستمرار، أعيد تلاوة القصّة، فأطوّر دوري، لكن من دون أن أجزع منه يومًا. في الواقع، وجدت فيه الراحة التي كنت أنشدها على نحو غريب. كنت أشعر بالطمأنينة لإدراكي أن لديَّ نوعمن التفويض ألجأ إليه في حياتي.

ومرّة أخرى، شعرت، كما لو أن ذلك لا بد منه. أنّني بحاجة لأن أقوم بشيء ما كي أحافظ على رباطة جأشي وتحكّمي بالأمور. لم يكن

بإمكاني أن أصارحك بهذا آنذاك، لكنّني كنت قد بدأت أشعر وكأنّني أفقد توازني. لقد عشت نوعًا من الاستقرار المؤقت -خلال هذه الأشهر القليلة ليس إلا- لكن الأمور بدأت تضطرب من جديد.

كنا في منتصف شهر أبريل، عندما شعرت مارني بآلام المخاض. كان يوم جمعة، وكنت مرهقة. فقد استيقظت في الليلة السابقة على ضجيج جيراني يغادرون إلى إحدى السهرات عند الحادية عشرة والنصف -من أصوات قهقهاتهم المتواصلة، وقرع زجاجات النبيذ والهمهمات العاصفة التي تدعوهم كلّهم إلى الهدوء- ثم يعودون إلى الشقة بعد الثالثة فجرًا. قضيت ليلتي أقفز من حلم إلى آخر: من إيمّا إلى مارني إلى تشارلز.

لم يسبق لي أن حلمت بجثة إيمّا منذ سنوات دراستي في الجامعة، أي تقريبًا منذ حوالى العقد من الزمن، ومع ذلك، فقد عادت تلك الصورة وبدت أكثر رعبًا ووضوحًا من ذي قبل. كانت تتسلّل إلى سياق آخر لا علاقة لها فيه لا من قريب ولا من بعيد. فقد أكون في خضمّ حلم يتعلّق بوظيفتي -مئات الاتصالات المتزامنة وغياب فريق العمل الكافي للإجابة على خطوط الهاتف، وفترات انتظار تصل إلى ساعات عدة، ودعوتي إلى ذلك المكتب بالنوافذ الكبيرة في الطابق الثامن- أو وسط حلم آخر من أحلام القلق التقليدية تلك، حيث أقف عارية أمام جمع غفير، أو تتهاوى أسناني الواحدة تلو الأخرى. وفجأة، في خزانة القرطاسية أو في عيادة طبيب الأسنان، أكتشف جثتها، مرميّة في إحدى الزوايا، بأطرافها المتصلّبة الثابتة وعينيها الواهيتين. فأستيقظ لاهثة أبحث عن هواء أتنشّقه، متعرّقة مرتعشة تحت ملاءات باردة رطبة.

لم يكن غريبًا أن يزورني تشارلز على حين غرّة في أحلامي أيضًا. فقد بات يظهر، جالسًا على طاولة أخرى في مكتبي، أو على مقعد اختصاصي الصحة، في بزّته عاقدًا ربطة عنقه أو في أحد سراويل البيجامات المقلّمة

وبلوزة الجامعة الواسعة تلك. نادرًا ما شاركني حديثًا أو توجّه إليّ مباشرة بالكلام. كان هناك ليس إلّا، حاضرًا في زاوية كابوس، يتأمّل سير الأمور. كنت أتساءل إن بتّ مسكونة بأفعالي، وإن كان حضوره في أحلامي يوحي بأولى عوارض شيء من الذنب المتجذّر أو العار. لكن واقع الحال أن وجوده لم يزعجني يومًا في أحلامي. كان بكل بساطة موجودًا هناك، لكّنه في المقابل لم يكن موجودًا البتة في يقظتي.

اتّصلت بي مارني في خضم كابوس. كنت عالقة أمام مرآة خزانتي أتأمّل جثمان إيمّا العفن بين ملاءاتي. وكان بإمكاني سماع جهاز قصّ العشب يدور في مكان ما خارجًا، يرج الأرض رجًّا، يواصل ارتجاجاته، ومحرّكه يهدر، إلى أن فتحت عينيَّ عنوة.

كان هاتفي يرج على الطاولة بجانبي. أخذ يرتجف على الطاولة حتى سقط أرضًا وهو لا يزال موصولًا بالشاحن. مددت يدي إلى الأرض وأخذت أبحث إلى أن وجدته أخيرًا وهو لا يزال يرن.

«ألو؟»، قلت. كان صوتي عالقًا في حلقي وخرج هادرًا أجش. سعلت كي أزيل البلغم الذي تجمّع من الليلة السابقة.

«جاين؟».

كان صوت امرأة، لكنّني لم أتعرّف إليه. كان يفتقد للحياة، لا بل يبدو يائسًا.

بدأت ضربات قلبي تتسارع قليلًا.

أدركت على الفور أن الأمر لا يتعلّق بإيما -فأنا أعرفها جيّدًا؛ هذا ليس صوتها وكانت لتملأ هذا الصمت على الفور- بل قد تكون إحدى صديقاتها، أو ممرّضة أخرى، أو واحدة من دار الرعاية حيث أمي.

«نعم، جاين تتكلّم»، قلت ردًّا عليها، وعلى نحو رسمي تمامًا.

سمعتها تلتقط أنفاسًا عميقة. «لحظة... لحظة واحدة». ثم نفس عميق. «حسنًا، الحمد لله... انتهى الأمر. أنا...».

«من هذا؟». قاطعت سائلة.
«آه، هذه أنا»، قال الصوت. «عفوًا -هذا لا يساعد- أنا مارني. جاين، هذه أنا».
الأمر الذي لم يبدُ منطقيًّا على الإطلاق. فالظلمة دامسة في الخارج.
سألت: «مارني؟» ما بكِ... لماذا تتّصلين؟ في منتصف الليل؟».
«ليس منتصف الليل، الساعة شارفت على السادسة، وخلتك تكونين قد استيقظت».
«ماذا حدث؟ هل من خطب؟».
«حسنًا، اهدأي،لا داعي للذعر. أنا فقط... أعتقد أن الأمور قد بدأت تحصل مع الطفل. وكنت أتساءل إن كان بإمكانك أن تأتي. أردت أن أتواصل معك قبل أن تتوجّهي إلى عملك، فهمتِ؟ أنا أكيدة أنه لا يزال أمامي متّسع من الوقت. لكنّني بدأت أشعر بتلك الانقباضات القارصة. لقد استيقظت حوالى الثالثة. أحس بها ثم تختفي، كما يفترض بعوارض الطلق أن تأتي، لكنّني لم أتمكّن من العودة إلى النوم. وجلست أنتظر أن أتّصل بك -كما قلت- إذ خلتك قد استيقظت في هذا الوقت».
لقد عشنا معًا لسنوات طويلة، انغمسنا فيها في تفاصيل يوميّات كلّ منا، حتى انتفى أي وجود لأسرار أو أخطاء أو مجهول. فكان بإمكاني أن أستيقظ في أي صباح وأعيش يومها عوضًا عنها: أشرب الشاي الذي تشربه، ثم أذهب إلى ناديها الرياضي، وأستخدم صابون الاستحمام الخاص بها، وأتكلّم مستخدمة صوتها وكلماتها: كان يمكنني بكل بساطة أن أكون هي. وكان يمكنها أن تقوم بالمثل لأجلي. فكانت على دراية تامة بعاداتي وروتيني اليومي. وكانت تدرك جيّدًا أنّني لم أكن لأغادر يومًا إلى عملي قبل السادسة صباحًا.
سألتها: «متى تحتاجينني؟».
ساد صمت طويل.

فأكملت: «هل آتي الآن؟ أستطيع أن أحضر معي طعامًا خفيفًا نتناوله؛ حتى إنّني أستطيع أن أستحم عندك».

أجابت مارني: «نعم أرجوك، إن كنت لا تمانعين».

أخبرتني أنها تحبّني، أنّها حقًّا تحبّني، وكان أمرًا غير اعتيادي، وصادقًا، لا يشبهها البتة. فلم يكن بيننا -لم يكن يومًا- هذا النوع من الصداقة. لم نعترف يومًا بحب أحدنا للآخر بهذا الشكل العاطفي أو تبادلنا عهودًا إلى الأبد. لربّما هذه كانت نقطة ضعفنا، لكن، بغض النظر، بدا لي أنّها كانت حقًّا جزعة، وكانت تحتاج إليّ بكل جوارحها.

وكنت أحب هذا، ذلك الشعور بالحاجة إليّ. وبحاجة مارني إليّ على وجه الخصوص. شعرت وكأنّني أنزلق إلى الوراء، على طول خيوط بيت عنكبوت، إلى المكان الذي اعتدنا أن نكون فيه، حيث كنّا نحن بمفردنا، وكنّا أصدقاء، من دون ما يعكّر هذا الواقع البسيط.

وضعت سروال الجينز وبلوزة، وانتزعت الشاحن من المقبس ورميت به في حقيبتي الجلدية. كنت قد أحضرتها لجوناثان كهديّة عيد الميلاد في السنة التي سبقت وفاته. ثم أخذت ملابس قليلة من كومة الملابس النظيفة المكدّسة على الكرسي في زاوية غرفتي -بعض الملابس الداخلية، وبلوزة، ومنشفة صغيرة- ووضعتها داخل الحقيبة أيضًا. والتقطت حقيبة أدواتي الصغيرة من الحمّام. فوضعت في الجيب الأول فرشاة أسناني ووجدت كل ما أحتاجه من أدوات أخرى هناك -من عيّنات شامبو إلى مشط بأسنان مكسورة، ومجموعة من السدّادات القطنية بغلافات بلاستيكية ملوّنة، وماسكارا سال معجونها وتجمّد حول غطائها -فأغلقتها ورميتها كلّها في الحقيبة الكبرى أيضًا.

نزلت السلالم -درجتين درجتين، وأنا أعبق برائحة نفَسي الذي تسارع. ووصلت إلى مارني في أقل من نصف ساعة، وجهي يقطر عرقًا ووجنتاي زهريتان، لكنّني سعدت لرؤية علامات الارتياح تتسلّل إلى وجهها ما إن فتحت الباب.

مرّ رجل من أمامنا ببدلة وربطة عنق عليها طبعات حيوانات، وشعره لا يزال مبلّلًا بينما تتأرجح حقيبة من معصمه. لا بد من أنّه رآني، بمظهري وكأنّني عائدة من سباق ماراثوني أقف لاهثة، كما رأى مارني المثقلة بحملها تقف عند المدخل في رداء نوم زهريّ قصير. أدار رأسه سريعًا قبل أن يتمتم: «صباح الخير».

«صباح النور»، ردّت عليه مارني في شبه أغنية.

وبينما اختفى عند الزاوية، امتدّت يد مارني إلى الجانب تلتقط إطار الباب.

«لا، ليس مجدّدًا»، همست قائلة.

تراجعت إلى الوراء، وهي تحمل بطنها المنتفخ في يديها.

بدت الشقّة في حالٍ من الفوضى من حولها. كانت شاشة التلفاز تتراقص في غرفة المعيشة، وجهاز الراديو يصدح من المطبخ بالموسيقى التي تتغلغل إلى أعلى السلالم. أما الملابس، فكانت تتناثر على طول الرواق: من سترات الصوف على الدرابزون، إلى المشالح المكدّسة في زاوية، والمشبك على الجدران الذي يطوف بالسترات والمعاطف. كانت الأشياء مبعثرة في كل الاتجاهات: من أكواب شاي مبقّعة، إلى أكواب مياه فارغة لم تجد طريقها إلى المطبخ، ونصف قطع بسكويت، ومغلّفات حلويات، وعبوات مقرمشات غير مفتوحة تتجمّع كلّها في غرفة المعيشة، والأنسجة القطنية وملابس النوم والجوارب الصغيرة تتبعثر على السلالم.

حاولت مداراة صدمتي بابتسامة عريضة.

«يحدث الآن»، قلت وكأنّني أغنّي ورحت أرقص بغرابة متنقّلة من قدم إلى أخرى، أصفّق بيدي معًا من دون أن أفلتهما فعلًا.

بدأت مارني تئنّ.

قلت لها: «حسنًا، أنت تشعرين بتلك الانقباضات مجدّدًا».

«لا مزاح في الموضوع»، همسَت وهي تحاول العودة إلى الغرفة.

أراقبها تبتعد، وقد فتحت قدميها نحو الخارج، وضغطت يديها على أسفل ظهرها. انتابني على الفور شعور بالذهول. حاولت أن أذكّر نفسي بأن هذا أمر طبيعي، وأن النساء يفعلن ذلك كل يوم، في جميع أنحاء العالم وفي جميع الأوقات. لكنه بدا بعيدًا عن المألوف. لقد عرفنا بعضنا البعض أولًا كأولاد، ثم كشابّات، وتاليًا كزوجات، لكن أن أعرفها أمًّا؟ بدا ثقل هذا الاكتشاف مستحيلًا.

صاحت مارني.

ركضت وراءها.

كانت تنحني على كرة منفوخة زرقاء ضخمة.

قلت: «حسنًا، بالطبع. نعم. نفس عميق. جيّد. خذي نفسًا. أخرجي النفس. ثم...».

«هل أنت جادّة؟ توقّفي. اخرسي».

«حسنًا، سأنتظر هنا ليس إلا».

استندت إلى حافة الأريكة، وأنا أمسك بحقيبتي الجلدية بين ساقيَّ. كانت ترتد بقوة، إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، تنفخ الهواء بقوة بين شفتيها المزمومتين. ثم مالت أخيرًا إلى الوراء، ممدّدة صدرها ومعدتها مكشوفة، قبل أن تتنهّد. بدأت تتمايل بلطف، ترفع وزنها الملحوظ قبل أن تعيد خفضه.

«هل نذهب إلى...».

«المستشفى؟»، سألت. «كلا، لم يحن الوقت. لكن الانقباضات بدأت تتتالى. كيف حالك؟ أعتذر منك على هذا كلّه. وعلى إيقاظك باكرًا. الأمر...». ثم أشارت بيدها إلى الجنون المنتشر من حولها... «الأمور خرجت قليلًا عن السيطرة».

تمقت مارني الفوضى؛ لا بل لا يسعها على الإطلاق تحمّلها. وهذا أحد الأمور القليلة جدًا التي نتّفق عليها اتفاقًا كلّيًا على نحو غريب.

فنحن نعمل بأساليب مختلفة كثيرًا. ونبذل قصارى جهدنا في مواضع مختلفة كثيرًا. فأنا أميل إلى الصمت أو الهمس الهادئ للأصوات. بينما هي تفضّل الراديو أو الموسيقى أو التلفاز، أو الأفضل الثلاثة معًا. وأنا منطوية على نفسي: أحتاج لمساحتي الخاصة ولرفقتي الخاصة ولوحدتي. أما هي، فكتاب مفتوح، واثقة من نفسها، منفتحة تتوق لنقاشات الآخرين وآرائهم، وتلك التفاعلات والتواصلات التي سرعان ما ترهقني.

لقد سبق وقلتها، أليس كذلك؟ كانت هي الضوء وأنا الظلمة. لكن الفوضى كانت تجعل كلينا عديمتي الفائدة.

أعتقد أنه ربّما كان بإمكانها أن تتعامل مع الوجع والانزعاج والخوف من المخاض بحد ذاته -رحت أتساءل الآن إن كانت فعلًا بحاجة إليَّ لهذه الأمور الثلاثة- لكنه كان يستحيل عليها أن تتقبّل هذه الفوضى العارمة.

«أرى ذلك»، قلت لها. «ماذا حصل؟».

أجابت: «أعلم، المكان كارثة. كنت أحاول أن أتراخى قليلًا، فآكل ما أحتاجه وأركّز حصرًا على الانقباضات ثم أخذت أفكّر أن أرتّب المكان قليلًا، كي أكون على أهبة الاستعداد، وتعلمين، ثم ازدادت الأوجاع، وحسنًا»... أحاطت رأسها بيديها مجدّدًا... «ها هي النتيجة الآن».

«لا بأس، هذا لا يهم».

كنت أعي جيّدًا ما تريده منّي. كنت أعي جيّدًا ما هي بحاجة إليه. لطالما فعلت. ولطالما أدركَت هي أنّني سألبّي طلبها، أيًا كان: بلا أسئلة، بلا تذمّر.

«ما رأيك أن تبقي هنا، وأنا أقوم بجولة ترتيب سريعة؟».

ابتسمت مارني، وكم كان جميلًا، عند هذا المنعطف الخطير، مع بداية مرحلة جديدة من حياتنا، أن يحين الوقت مرة أخرى لـ«جولة

ترتيب سريعة». أعتقد بأن الأمر قد منحني بعض الطمأنينة -وكنت على خطأ كما بدا لاحقًا- بأن الأمور لن تتغيّر، وأن لا داعي للهلع من ثقل تلك اللحظة، وأن الأمور كلّها ستكون على أحسن ما يرام.

أخذت مارني تتأرجح على كرتها بينما أنا أتنقّل بين الغرف، أجمع الملابس وأعيد وضعها في مكانها المناسب، وأنظّف مستوعبات القمامة، وأفرش أصغر الملاءات وأغرَبها وأجملها رائحة. فتحت النوافذ. كان أحد أولى الأيّام المشرقة في السنة -لم أحتج لارتداء معطفي- وبدت نسمة الهواء عليلة منعشة بينما أخذت تتسلّل إلى الشقة. وعندما تحوّل المنزل نظيفًا برّاقًا لا غبار عليه، أخذت حمّامًا سريعًا وأعددت فنجانَي شاي -واحد لها مع الكثير من الحليب، وواحد لي مع نقطة ليس إلا- ثم جلست على الأريكة أشاهد قناة الأخبار المتواصلة ممسكة بيدها.

«هلّا تتّصلين بأمي؟»، سألتني.

لم أكن أتوقع هذا. «ماذا؟ لماذا؟».

«ربّما تريد أن تحضر؟ أقلّه قد تريد أن تعرف ماذا يجري».

«حسنًا، هل أنت أكيدة؟».

أومأت برأسها إيجابًا.

« لا بأس إذًا، سأتصل». توجّهت إلى الرواق، وأطلت الوقت هناك، بينما أرتّب المعاطف على المشبك، وأمسح الغبار بالريشة في فجوة تحت لوح، ثم اتّصلت بأمّها. لكنّني شعرت بكثير من الراحة عندما لم تجب. فتركت لها رسالة موجزة تمتمتها ولم تكن واضحة، قبل أن أعود إلى مارني بعد دقائق معدودة.

مع بداية فترة بعض الظهر، كانت انقباضات مارني قد تقاربت إلى ثلاث دقائق بين الواحدة والأخرى، فطلبت سيارة أجرة لتقلّنا إلى المستشفى. بدّلت ملابسها وارتدت فستانًا صيفيًا خفيفًا. قالت إنها تشعر بالحر ولا يسعها أن ترتدي أي رداء آخر. جلسنا معًا في المقعد الخلفي،

وأخذت تنخر كلما عبرنا مطبًا، تطبق عينيها كما لو أن الظلمة تساعدها على تحمّل أوجاعها.

وصلنا إلى المستشفى، فراحت تمشي بتثاقل من ردهة الاستقبال إلى المصعد، وقد تفاجأت عندما وصلنا إلى جناح الولادات. كان يشبه بكل شيء أجزاء أي مستشفى عادي -جدران شاحبة وأرضيّات مبلّطة ورائحة مواد مطهّرة- ولكن كان ثمّة ما هو مختلف. لربّما كانت الإضاءة أو الابتسامات على وجوه الموظفين أو الزي الرسمي باللون الباهت لكن المكان لم يبعث أي شعور بالقلق أو الخوف.

عبرنا عددًا كبيرًا من المرضى ونحن نمر في الأروقة: نساء مسنات جنّيات المظهر يتم نقلهنّ على طول الممرات في أسرّة تجعلهنّ يبدون أصغر حجمًا. ومع ذلك، هنا المريضات كلهنّ متورّمات متعرّقات عابقات -حرفيًا- بالحياة.

قدمت قابلة مبتسمة ترتدي زيًا أزرق وأبيض وقادتنا إلى غرفة جانبية.

وقالت: «هيّا يا صغيرتي، استريحي هنا وسأعود لأطمئن عليك بعد خمس دقائق».

أمسكت مارني بقبضة السرير الجانبية وأخذت تتمايل من جنب إلى آخر، ووجنتاها منتفختان، وعيناها مغمضتان من جديد.

همست لي سائلة: «هل تبقين معي الوقت كله؟ حتى يصل الطفل؟».

«بالطبع»، أجبتها. «بالطبع سأبقى».

إذ أين يمكن لي أن أكون غير هنا؟

وُلدت أودري غريغوري سميث عند السابعة وعشر دقائق مساء الرابع والعشرين من شهر أبريل. كانت صغيرة وغاضبة ووجهها أحمر وعيناها مغمضتين مطبقتين كما قبضتيها تقريبًا. كان لديها خصلات رفيعة من الشعر الفاتح فوق فروة رأسها، بينما التجاعيد تتكدّس على ركبتيها ومرفقيها ومفاصلها. أما شفتاها، فورديتان زهريتان.

حملت مارني طفلتها الصغيرة إلى صدرها، وهي تائهة ما بين فرح وذعر، تصرّ في الوقت نفسه على أنها قد تعيا وقد تفلت المولودة ثم تصرخ على حين غرّة: «من المسؤول هنا؟»، أمام غرفة تعج بالممرّضات والممرضين.

اقتربت منها ووضعت يديَّ فوق يديها. «أنتِ»، لم أرد أن أثير فيها الرعب، لكن أليست هذه الحقيقة؟ «أنتِ المسؤولة الآن».

«آه، سحقًا»، أجابت ثم قهقهت بعصبية جنونية. «حسنًا، هذا ما يفترض أن يثير الذعر، أليس كذلك؟». ثم انطلقت في نوبة من البكاء.

أسكتّها وأنا أبعد شعرها عن وجهها.

سألت: «أين أمّي؟ هل هي في طريقها إليّ؟». ونظرت إلي.

«لا أعرف». لم أكن أعتقد بأن أمّها تستحق أن تكون شاهدة على لحظة بهذه الأهمية.

«أنتِ اتّصلت بها، أليس كذلك؟»، سألتني.

«نعم».

«نعم؟»، كرّرَت متسائلة.

«أكيد»، أجبتها.

«هل قالت إنها آتية؟».

«لم تجب على الهاتف. تركت لها رسالة. أعتقد بأنها قد تكون قد سمعت الرسالة الآن. لم أرد أن أثير قلقك. اعتقدت أنها ستأتي إلى المستشفى. لكنّني أفترض... هل تريدينني أن أتصل بها الآن؟ أن أزفّ لها الخبر السعيد؟».

«كلا، لا أعتقد ذلك».

وهذا بالطبع ما كنت آمل أن تقوله لي. لأن تلك لحظة مكرسة لأهم أشخاص في حياة هذه الطفلة.

الفصل الثاني والثلاثون

مكثت مارني ليلتها في المستشفى، فعدت أدراجي وحيدة. ورحت أفكّر، في سيارة الأجرة، بينما كنّا نتنقّل عبر شوارع المدينة الفرعية، كم تغيّر الكثير في يوم واحد. وكيف لا بد من أن أيّامًا تغيّر عوالم كاملة قد تمر في حياة كثيرين مع بزوغ كل فجر. رحت أفكّر أن تلك الأيام -الأيام الكبرى- هي المفاصل التي تحدّد الحياة: عندما تفوز بشخص، وعندما تخسر آخر. أصابني الدوار وأنا أفكّر بالاحتمالات الجديدة، وبشكل حياتي في تلك اللحظة على وجه الخصوص، وبهذا الشخص الجديد الذي بات موجودًا لي.

كنت فد غادرت منزلي في الصبيحة الباكرة ولم أفتح الستائر، لذلك كان المكان مظلمًا عندما دخلت الشقّة. فتنبّهت على الفور إلى الزر الأحمر الذي يلمع على هاتفي، منذرًا برسالة تنتظرني. مشيت بجوار الجدار، أبحث عن كبسة الضوء.

كنت قد أعدت وصل خط الهاتف الأرضي قبل أسابيع قليلة، وأخذت أكتشف كل رسالة من الرسائل التي كانت تنتظرني. كما استمعت إلى عدد منها: أصوات تبدو وكأنها تتكلّم من العالم الآخر، من أشهر طويلة خلت، عندما لم يكن مولودنا الجديد قد أبصر النور بعد. ثم بدأت الرسائل تطرح أسئلة -حول جوناثان وحول تشارلز- فمحوتها كلّها.

ضغطت بإصبعي على المثلّث الذي يومض.

«رسالة واحدة جديدة»، ردَّ عليَّ الصوت النسائي الممكنن. «وصلت -اليوم- العاشرة والدقيقة الثالثة والعشرين، مساءً».

«مرحبًا»، قال صوت نسائي آخر، هو صوتٌ بشريٌّ. وتردّد صداه في الرواق، مصطدمًا بالجدران، في دوي مطوّل من الـ«آه». «خلتك تودّين أن تعلمي»، قالت، وصوتها منخفض أجشّ، «إنّني أحقّق في كل شيء: كل ما قلتِه وكل ما حصل. وقد توصّلت إلى حقائق أيضًا. كنت أعلم أن ثمّة قصة -أنا على ثقة أن ثمّة قصّة- وسأصل إليها في نهاية المطاف. سأجدها، وأكتشفها، وأنت تعرفين ذلك».

كانت تبتلع ألفاظها بين أسنانها، فتخرج حروفها الساكنة ضعيفة، بينما تطول الحروف الصوتية، فتتدحرج الألفاظ الواحدة تلو الأخرى، كما لو أنّها قضت نهارها بطوله وعرضه تحتسي الخمر. نظرت إلى ساعتي. شارفَت على الحادية عشرة.

أكملت قائلة: «إذًا، بكل الأحوال، أعلم أنك كنت هناك لأكثر من ساعة. قرأت تقرير الشرطة: تنتظرين بحسب ما قلتِ. هل تعلمين أن الجارة في الشقة السفلى أقرّت أنها قد سمعت أحدهم يصرخ؟ في وقت سابق من اليوم، بحسب ما أفادت، لكن الصراخ كان نفسه. عليّ أن أقر بأن هذا غريب. لأنّه مات على الفور، أليس كذلك؟ الأمر الذي لا يفسح الكثير من المجال للصراخ. الأمر أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ تلك الفترة التي قضيتها هناك. لماذا قد يقضي المرء هذه الفترة الطويلة في منزل شخص آخر؟ والأسبوع السابق. مجرّد سير تحت المطر؟ لا أعتقد ذلك. ثمّة أمر آخر، أليس كذلك؟ كلانا يعرف ذلك. لا داعي لمعاودة الاتصال بي».

«لا رسائل أخرى جديدة»، قال الصوت الممكنن، الآلي الرتيب.

وتحوّل الفرح العارم الذي اعتراني طوال فترة بعد الظهر في لحظة واحدة كربًا، كما الحليب المتخثّر.

ما الذي سمعته الجارة؟ دخلت المطبخ وفتحت الصنبور. فنزلت المياه باردة على يدي.

من يعيش في الشقّة السفلى؟ نزعت معطفي وعلّقته على ظهر الكرسي العالي أمام منضدة الفطور.

هل كان يصرخ عاليًا في الساعات التي تلت سقوطه؟ أدرت جهاز الراديو ورفعت الصوت فاجتاحت الغرفة أغنية، أو لحن لا يعني لي شيئًا البتة.

هذا قد يقوّض المعلومة حول ساعة وفاته.

أدرت جهاز التلفاز. كنت قد أضعت جهاز التحكّم عن بعد قبل أشهر قليلة، فبت أستخدم الأزرار على جانب الشاشة لرفع الصوت.

جلست على الكنبة. كانت حالة من الذعر الطارئ تستعد لتتجمّع داخلي، بينما بدأ القصور يسيطر على أنفاسي داخل صدري. لقد باتت على قاب قوسين أو أدنى: أستطيع أن أشعر بها ورائي، في لمسة شعري على عنقي، وإحساس ملابسي على كتفي. اعترتني موجة غضب، وكأن جسدي ينتفض على تلك القفزة السريعة من الغبطة إلى الذعر. بدا وكأن ثمّة ما هو مغمور في داخلي، يتحيّن الفرصة للخروج إلى العلن، فرُحت أزأر وسط تنافر النغمات: المياه، والموسيقى والأصوات.

ثم جلست في صمت مطبق.

أحسست وكأن حالي قد تحسّنت قليلًا: إذ بت أكثر نظافة، ونضارة، وخفّة أيضًا.

أقفلت الصنبور، ثم أطفأت جهاز الراديو وأطفأت التلفاز، وعدت لأجلس من جديد.

أحتاج لأن أركّز.

أخذت أحدّث نفسي أطلب منها أن تحافظ على رباطة جأشها.

لقد سمع أحدهم شيئًا.

ليس هذا بالأمر الجيّد.

لكن ربّما ليس كارثيًّا أيضًا.

إذ إن جميع من يعيشون بالقرب من آخرين يعلمون أن الناس يصدرون أصواتًا، غالبًا ما تكون عالية. ولطالما بدت لي عشرات تلك الشقق المكدّسة كلّها في هذا المبنى الفخم وكأنها متلاحمة. فكلّنا نسمع الأطفال يبكون، والأمهات يحاولن إسكاتهنّ، والموسيقى تصدح في المكان، والضحكات تعلو في حفلات العشاء، والغسالة تهدر بعنف على الأرض، والأبواب تطرق، والأقدام تسير متثاقلة على الأرض، ومنبّه الساعة أو الهاتف يرنّ. كلّنا نسمع الإهانات ترتفع أكثر فأكثر، والمظالم تعلو، والـ«أنت لا تصغي/ تصغين» والـ«لو أنك/ أنكِ لا تقضي/ تقضين وقتك تتذمّر/ تتذمّرين» والـ«لم لا تحاول/ تحاولين أقله النظر إلى الأمور من منظاري».

لذلك لم يكن من المستحيل على أحدهم أن يسمعه يصرخ. لكن الأمر ليس بذات أهمية. فما من دليل حسّيٍّ على أنه لم يمت على الفور. قد يكون صراخ رجل سقط، بكل بساطة، أو عويل ولد يلعب أو غضب مراهق حانق. أما انقباضات الغضب التي اجتاحته، فيمكن بكل بساطة أن تكون نتاج صراع زوجين قد أنهكهما زواج أكل عليه الدهر وشرب.

أيّ مما سبق لم يكن جديدًا. أيّ مما سبق يستحقّ التوقّف عنده.

أيٌّ من اكتشافاتها الصغيرة يملك من القوة بحيث يُحدث أي تغيير من أي نوع كان. كان دليلها ظرفيًا في أفضل أحواله، ولا شك في أنه يعتبر غير وثيق الصلة بالموضوع. وهكذا، قمت بتذليل آخر خيوط ذعري، خيطًا خيطًا، أفكّكه وأحل عقده تلو الأخرى.

لكن القضيّة الكبرى -وهي القضية التي تحتاج إلى معالجة واضحة، والتي لا يمكن التخلّص منها بسهولة تامة- كان إصرارها الذي لا يعرف نهاية. كنت بحاجة للتخلّص منها، لإيجاد طريقة لإسكاتها. كنت بحاجة للتأكّد من أنها لن تجد أي دليل آخر، ولا يمكنها العثور على أي شيء قد يهدّد صداقتي.

أخذت أفتش في خزائن المطبخ، أبحث عمّا يمكنني تناوله. لقد كان يومًا طويلًا وبدأت أشعر بالتعب يحلّ عليَّ، وبنوع من الصداع يستقر في مكان ما خارج جبهتي، في المساحة المقيمة أمام وجهي. اكتشفت بضع شرائح من الخبز في كيس قديم. رحت أنتزع مواضع العفن منها قبل أن أحمّصها - القطع الأربع كلها. ثم دهنت الزبدة عليها، صفراء سميكة، وأخذت أتأمّلها تذوب لمّاعة. لقد استعدت السيطرة؛ وأستطيع أن أحافظ على سيطرتي. وضعت العسل على كل شريحة، ورحت أميل بالشرائح حتى يسيل العسل عليها كلّها، فيغطّي البقع البنّية بذهبه البرّاق ويعود بي بالذاكرة إلى مارني.

حملت شرائح الخبز إلى سريري، ورحت أتناولها بحذر وأنا أفكّر بإيمّا التي تتنبّه إلى الفتات. ثم أرسلت رسالة إلى بيتر، أشرح له سبب غيابي طوال اليوم، فأجابني بمبروك في اللحظة نفسها تقريبًا، الأمر الذي أثارني، وأعاد إدخال القليل من تلك البهجة، إذ أنا أيضًا أستحقّ تلقي التهانئ.

أطفأت النور ورحت أقلّب على ضوء هاتفي في صور فاليري الجديدة. لقد حمّلت صورة لها مع نزيلتها في الشقة تحملان كؤوس الكوكتيل في مطعم مزدحم، وصورة أخرى لمغيب الشمس وراء شرفتها. كما وجدت شريط فيديو لافت لها ولخمسة آخرين يرقصون في حلقة. وقد أظهرت الجملة التي كتبتها تحت الفيديو أنّهم يعدّون لتقديم عرضفي وقت لاحق من العام، على أبواب الصيف.

جهّزت المنبّه للصباح التالي، وأعددت نفسي لتكون سعيدة، وشجاعة، من دون خوف. لأنّني سأجد طريقة أضع فيها حدًّا لهذا.

الفصل الثالث والثلاثون

عدت إلى المستشفى صباح اليوم التالي، وكلّي حماسة لرؤية مارني، ولرؤية أودري أيضًا. سألت عنهما عند مدخل جناح الولادات، فتم توجيهي إلى الطرف الآخر من الممر. توجّهت إلى السرير رقم سبعة، لأكتشف أنّه مخفي وراء ستارة زرقاء خفيفة. وجدت فتحة في الستارة، ففتحتها قليلًا، وتكلّمت من الفجوة فيها.

«مرحبًا».

فأجابتني، «ادخلي».

كانت مارني تجلس في سريرها، والملاءات مفتولة حول ساقيها، وشعرها الأحمر مرفوع فوق رأسها. كانت ترتدي سروال المستشفى الأزرق الباهت وبدت فيه غاية في الجمال، ببشرتها المنتفخة الناعمة وعينيها البرّاقتين النضرتين.

عاجلتها بتحيّة الصباح، قبل أن أرفع قدمًا على السرير، لتغرق الفرشة تحتي.

«من أتى لزيارتنا؟»، أخذت مارني تغنّي، وهي تنظر ليس إليّ بل إلى الطفلة الملتصقة بصدرها، وصوتها عالي النبرة رخيم. ثم أدارت أودري نحوي، حتى أتمكّن من رؤية الثنايا التي تتكدّس على خدّيها الصغيرين، نتيجة النوم، وشفتاها تفترّان ثم تطبقان. «من هذه؟». غرّدت مارني فرحة.

«صباح الخير أودري»، قلت.

«مرحبًا خالتي جاين»، ردّت مارني من غير أن تتخلّى عن نبرتها الفرحة.

فسألتها: «هل نمت جيدًا؟».

«كلا»، أجابتني. «لكن لا بأس؛ لا بأس».

ثم ابتسمت وأعادت الطفلة إلى حضنها، برقَّة متناهية، من غير أن تفلت رأسها أبدًا، بل تديرها برشاقة ملحوظة.

«وكيف تشعرين؟» سألتها مجددًا.

«قليل من كل شيء. بعض الأوجاع، لكنّها متوقعة. وأنا سعيدة. إنّني بحال جيدة».

«وهل تبلي هذه الصغيرة حسنًا؟» سألتها، وأنا أمد يدي لتحوم أناملي على بعد سنتيمترات من الطفلة.

«إنّها ممتازة»،.

«أعلم هذا».

«آه»، أردفت قائلة»، وأريد أن أخبرك هذا -الأمر غريب بعض الشيء- لكن قبل أن أنسى: تلقّيت رسالة من الصحافية. تعرفين الصحافية؟ الصحافية من المرحلة السابقة؟ تركت لي رسالة الليلة الماضية».

أتساءل كيف بدا وجهي في تلك اللحظة. جل ما أعلمه أن يديّ بقيتا متجمّدتين أمامي. كما شعرت بالمرارة تتجمّع أسفل حلقي، فتقيأت لا إراديًا واضطررت إلى تحويلها إلى حازوقة كي لا أثير أي شكوك.

«هل وصلتك رسالة منها؟».

«نعم، تركت لي رسالة».

«تركت لي رسالة أيضًا».

فجأة أحسست بجناح المستشفى يسقط فريسة صقيع مثلج. اقشعرَّ بدني تحت سترتي الصوفية. وأخذت أصر أسناني لأحول دون طقطقتها. لكن مارني بالكاد لاحظت التغيير الذي اجتاحني. كانت تركز على أودري التي سقطت قبّعتها القطنية البيضاء على عينيها.

«ماذا أرادت؟»، سألتها. لم يكن الغثيان الذي أشعر به يسيطر على

رأسي ومعدتي وحسب، بل كان يتغلغل إلى عظامي وعضلاتي أيضًا. كان كما الأمواج التي تعصف بكل طبقة من طبقات أنسجة جسدي.

«لا أدري»، أجابتني وهي لا تزال تحاول أن تعيد القبّعة الصغيرة على رأس أودري.

«ماذا تعنين؟»، سألتها.

«تعلمين، لا أريد حقًّا التفكير بها. ليست امرأة لطيفة، ولديَّ الكثير من الأمور الجميلة في حياتي الآن. ليس عليّ أن أسمح لها باحتلال تلك المساحة في ذهني».

«هل عاودت الاتصال بها؟».

رفعت عينيها تنظر إليَّ. «لم ألحظ حتى رسالتها حتى صباح اليوم. في الواقع، خلتها أمي. وإلّا لا أعتقد أنّني كنت لأستمع إليها».

«وماذا قالت؟»، قلت بإلحاح.

نزعت مارني القبّعة عن رأس أودري وحملتها كلّها في قبضتها. «رأسها صغير جدًّا».

«مارني»، قلت بحنق، «هلا تنظرين إليّ؟ ما الذي قالته في رسالتها؟ هل وجدت شيئًا؟ هل لا تزال تحقّق في روايتنا؟».

«بحق الله يا جاين»، ورمت القبّعة نحوي، فطارت في الهواء قبل أن تستقر بيننا على الشرشف الأزرق.

«ماذا؟ ألا تريدين أن تعرفي إن كانت ستعاود الكتابة عنا؟ لا أريد أن أكون على هذا الموقع اللعين، ليس بعد المرة الأخيرة. ألا يهمك هذا؟».

«إهدأي» قالت. «هذا ليس المكان المناسب. ولم قد تبالين على هذا النحو في كل الأحوال؟ ما أهمّية أن تقوم صحافية بالتحقيق في أمورنا؟ تستطيع أن تهدر ما يناسبها من وقتها الثمين. لن تجد شيئًا فلمَ نكترث نحن بالطريقة التي تقضي فيها وقتها؟».

بدأت أودري تبكي.

«آه، لا، لا، لا، لا تفعلي هذا. حسنًا». ورفعتها في الهواء، وجسدها لا يزال مكوّرًا على بعضها، لأتبيّن في النهاية حقيقة الأمر.

أيًا كان ما تحتويه هذه الرسالة، فهو بغير ذات أهمية. لم تقدم على أي اعتراف، أو دليل. لأنّه لو كان الأمر عكس ذلك، لكان هذا الحوار قد سلك منحى آخر منذ البداية. لأن مارني لم تنجح يومًا في الاحتفاظ بأي سر. لم تكن يومًا تلك التي تسمح للغضب بالتجمّع داخلها بإصرار، ليتسلّل بطيئًا قبل أن ينفجر. لو احتاجت لما تقوله، فستفعل على الفور.

لكن هلعي أنا قد استهلكني بالكامل. لقد خلقت عن غير قصد زوبعة من المياه الراكدة وكشفت بكل تهوّر مخاوفي. لقد افترضت أنها ستنعكس في مارني. لكنّها لم تكن تعلم أن ثمّة سببًا يحملني على الخوف من تلك الحكاية، أو الرسائل أو التدخّل المتواصل. لقد افترضت بكل غباء أننا لا نزال نعرف كل شيء معًا، ولا نزال نشعر بكل شيء معًا، وأن أي فجوات قد ظهرت بيننا سرعان ما نردمها، لكن بالطبع، لم يعد الأمر كما كان عليه في السابق؛ لا يمكن للأمر أن يعود كما كان عليه.

كنت بحاجة لأن أنقل النقاش إلى مكان آخر، فأخفي توتّري، إذ كانت على صواب في التعبير عن صدمتها إزاء ما تراه من رد فعلي.

«هل هي بخير؟»، سألتها.

كان ثمّة ما يشتّت الانتباه في التباين الملحوظ بين ما قد تكون قد اكتشفته والصفاء المثالي لتلك الحجيرة الصغيرة.

أجابت مارني: «أعتقد ذلك»، بينما تقرّب أودري منها من جديد. تناولت قبّعة صغيرة أخرى من حقيبة ظهرها التي كانت تعج بسراويل النوم القطعة الواحدة والجوارب الصغيرة، فمرّرت تلك الجديدة فوق جبين أودري إلى أن استقرّت فوق حاجبيها.

«أنا آسفة»، قلت. «أنت على حق. علينا أن نتجاهلها ليس إلا. ستتوقّف في نهاية المطاف».

«تمامًا»، أجابت مارني.

وصلت قابلة، غير تلك التي رأيتها سابقًا، لتقيّم وضع أودري، فتجري لها اختبارًا للسمع وتقيس وزنها مجددًا، قبل أن تسمح لها بالخروج إلى العالم الذي يتعدّى جدران هذه المستشفى. كانت طاعنة في السن، تبتسم بحنان، وتظهر ثقة لا متناهية في وقفتها. أما أنا، فشعرت ببالغ الامتنان لها على قطع حديثنا.

«وكيف ستعودين إلى المنزل؟»، سألت، وعيناها تتنقّلان بيننا نحن الثلاثة.

أجبتها: «كنت سأطلب لتوّي سيّارة أجرة، هل أقوم بهذا الآن؟».

«هل لديك مقعد للسيارة؟»، سألت.

أومأت برأسي وأنا أشير إلى المقعد القابع في زاوية الغرفة.

«حسنًا، ممتاز. أنتن جاهزات للذهاب». ثم داعبت قدميّ أودري. «ألستِ دمية محظوظة بهاتين الوالدتين اللتين ستأخذانك إلى المنزل؟».

لم أشأ أن أصحّح لها.

قالت مارني، بينما كنا ننتظر سيّارة الأجرة خارج المستشفى، «جاين، هل يمكنني أن أطلب منك أمرًا؟».

«كانت ترتعش في ثوبها الصيفي على الرغم من الشمس الساطعة.

«كل ما تريدينه»، أجبتها.

كانت أودري قد استقرّت في مقعدها والوثاق مشدود حولها وهي تغرق تحت شراشفها، فانتفضت قليلًا قبل أن تعطس.

«تبدين مختلفة. هل أزعجك شيء ما؟».

«أنا بخير»، أجبتها.

«هل المشكلة في تلك الصحافية؟ تلك الرسالة؟».

توقّفت سيارة إسعاف أمام المدخل الرئيسي، وصافرتها لا تزال تصفّر.

«جاين»، صاحت بسخط.

«ماذا؟ ماذا قلت؟».

توقّفت صافرة الإسعاف. أنزلتمحفّة من مؤخرة الآلية ونُقلت سريعًا إلى داخل المبنى، يرافقها مسعفان يرتديان اللون الأخضر وطبيب يرتدي الأزرق.

«هل ما زلت منزعجة من تلك الصحافية؟».

«ربّما».

تنهّدت مارني. «أفهمك. لكن في مطلق الأحوال، عليك أن تعي أن الأمر أكثر سوءًا بالنسبة إليَّ. لقد خدعتني. اعتقدتها لطيفة، عندما التقينا تلك المرة. بدت في الواقع محبّة. وغاية في الجمال أيضًا. بدت غاية في الطيبة والتعاطف. خلتني حقًّا أستطيع أن أثق بها. لكن هذا كلّه كان أداء مدروسًا، أليس كذلك؟ وتاليًا، لقد تعلّمت الدرس. أعلم أنّه من المحزن امتصاص تلك الاتّهامات -أعرف ما يعني هذا، تذكّري جيدًا- لكنها لم تعد مهمة على الإطلاق».

أومأت برأسي كما لو أنّني أفهم، كما لو أن هذا كلّه يجدي نفعًا، كما لو أنّني أنا أيضًا منزعجة بفعل اتهام باطل.

وسألَتني: «أوليس الأمر على هذه الحال؟ هل ثمّة ما قالته في رسالتها؟ هل تلك هي المشكلة؟».

هززت رأسي نفيًا.

«ماذا قالت لك؟»، سألتني مارني.

توقّفت قليلًا، بحثًا عن إجابة. «أفترض أنها قالت لي الأمر نفسه الذي قالته لك، أجبتها أخيرًا.

«لم أستمع إلّا إلى بدايته. محوته لحظة أدركت مَنْ المرسل. لكن ما الذي قالته لكِ؟ ماذا قالت؟».

اقشعر بدني ارتياحًا. لقد كنت محقّة بأن لا داعي للذعر. هي لا

تعلم أكثر ممّا كانت تعلم مسبقًا. ثم اجتاح تلك الراحة الموجزة ذعر أقوى. فالأمر لا يتناول كون فاليري قد تركت رسالة بغير ذات أهمية، لا تذكر فيها ما يثير القلق. وهو ما قادني الأمل إليه. بل كنت بكل بساطة محظوظة. لو لم تمحُ مارني تلك الرسالة، من يدري ماذا كانت لتعلم منها؟

نبّهتني: «جاين؟».

فقلت: «كانت تتّصل لتعتذر».

والحقيقة -وأكاد أخجل من الإقرار بذلك- أنّني اختلقت مضمون تلك الرسالة بتلقائية مطلقة، من دون أن أفكر فيها، بل سعيًا لتلميع صورة تلك الكذبة بالسهولة التي لمّعت فيها أكاذيبي السابقة.

«قالت إنها كانت تمر بأمور عصيبة، وأن زوجها السابق قد تزوّج، وأنها أجبرت نفسها على الانغماس في العمل. وقالت إنّها آسفة على ما تسبّبت به من أذيّة لك، وإنّها تتمنّى لو تسامحينها».

تلك كانت الكذبة السادسة.

قلت كذبتي للسبب نفسه الذي حملني على قول الأكاذيب الأخرى. لكن تلك الكذبة بدت مختلفة، لأنّها عبارة عن وقت مستقطع ليس إلّا للمشكلة. لقد سعت فاليري للوصول إلى مارني. وستحاول من جديد.

كان الضغط يتزايد داخلي للقيام بشيء ما، وكان لا بد لي من مواجهة الأمر.

قالت مارني وهي تحدّق بي: «هذا غريب. بدت لي وكأنّها فعلًا حزينة في بداية الرسالة. ما هي الكلمات...».

«لا يهم...». لكنها قاطعتني.

«أعلم هذا. لكن الأمر بدأ يزعجني. أتعلمين، لقد قالت ما أثار حفيظتي على الفور، فأدركت مباشرة أنّني لا أريد الاستماع إلى ما لديها. لأنّني كنت أكيدة أن ما ستقوله مليء بالعدوانية والأكاذيب السخيفة من

جديد، وبصراحة لم أكن بمزاج يسمح لي بالإصغاء إليها. لكن...آه، لا أذكر».

«أعتقد أنّها كانت ثملة»، أجبتها.

«ربّما. مع أنّني أكيدة أن ثمّة ما هو أكثر من ذلك».

هل كانت تعلم؟ هل كانت تشكّك بي. ليس بوسعي أن أعرف. لكنّني لم أكن أعتقد بأن الأمر ممكنٌ. فهذه الصحافية كانت عبارة عن ذلك الحضور غير السويّ، تلك التي تلاحقنا وتتحرّى عنا وتنشر أكاذيب خبيثة عبر الإنترنت حولنا. وأنا كنت صديقتها الوفية: الثابتة والمستقرّة والدائمة. لو كان الأمر عبارة عن كلمة ضد كلمة، فأنا أدرك جيدًا في صف من أكون. ومع ذلك، ساورتني شكوك بسيطة لأنّني لا أذكر أبدًا أنّه سبق لها أن خالفتني الرأي بهذه السهولة من قبل.

بينما توقّفت سيّارة الأجرة أمامنا، قالت: «لنقفل الموضوع».

توجّهت إلى المنزل معهما، وأنا أثبت كرسي أودري في مكانه، ثم حملت أغراضها -من أكياس الحفاضات إلى الملاءات والملابس الإضافية- إلى الشقّة. انتظرت خارج الباب الرئيسي بينما كانت مارني تصارع بالمفاتيح، تخدش الباب وتخربش إلى أن تجد طريقها إلى القفل. في نهاية المطاف، نجحت في مهمّتها.

كانت الشقة تمامًا كما تركناها: نظيفة مرتبة باستثناء الكرة الزرقاء الكبيرة التي كانت في منتصف الردهة، بينما المدخل مرتّب، والسجادة السوداء والبيضاء مبسوطة أسفل الدرج.

وقفت هناك والأكياس تتدلّى من معصمي، قبل أن تستدير مارني إليّ وتقول: «أنا أتولّى الأمر عنك».

وهكذا بكل بساطة، طُردت من منزلها.

لقد طُردت للمرة الثانية.

الفصل الرابع والثلاثون

بدأ فصل الربيع يتنحّى أمام جلالة فصل الصيف، وكنت أشعر بالإحباط.

أردت لو أقضي المزيد من الوقت مع مارني.

كنّا نضرب مواعيد لنلتقي، لكنّها كانت تلغيها في آخر لحظة. لقد زرتها مرّات عدة في تلك الأسابيع القليلة الأولى، لأحضر لها الأغراض -من الحفاضات إلى الأدوية، وألواح الثلج- لكنّني لم أمكث مرّة مطولًا. فلطالما كان يحدث ما يقطع تلك الزيارة، من إزعاج أحدهم، إلى اتصال من الممرّضة، إلى زيارة من الطبيبة.

وكانت مارني مصرّة على الشروع بتلك المرحلة الجديدة من حياتها باستقلالية تامة. لذلك، أخذت تتّكل على نساء أخريات، أمّهات جدد يستطعن تقديم المشورة لها، وفي وقت كان هذا الأمر بعيدًا عني. شعرت بعدم كفايتي. كانت تثق بالاختصاصيّين الطبيين الذين يستطيعون وصف شتى أنواع المراهم اللازمة على ما يبدو في الأسابيع الأولى من حياة الأطفال. أردت أن أكون حاضرة -أردت حقًّا ذلك- وأؤكّد لك أنّني حاولت أن أقدّم أقصى درجات الدعم. لكنّني غالبًا ما شعرت وكأنّني أقف عائقًا أمامها، لا أملك أدنى فكرة عن تلك المعدّات الجديدة، ولا كيف أثبّت رأس طفل أو أضع لطفلٍ حفاضًا على نحو سليم.

بذلت جهدي كي أكون جزءًا من عالمهما، ولم أكن أفهم لمَ قد لا يريداني جزءًا منه. أردت أن أتعلّم مع مارني، وأن أكتشف التحدّيات معها وأنا أقف إلى جانبها. كنت أملك رؤيا محدّدة عن كيفية تصوّر

حياتنا، كيفية تشابك العوالم الثلاثة في عالم واحد، وقد تحوّل الأمر ضربًا من ضروب المستحيل بفعل المسافة القائمة.

ذهبنا يومًا لتناول وجبة ما بين الفطور والغداء، عندما كانت أودري قد بلغت أسابيعها الستة تقريبًا. وكنت على حماسة كبرى للقاء كليهما، فاشتريت حلقة من القطع البلاستيكية الرنّانة هدية لأودري. لكنّها لم تبالِ بالهدية، بل أخذت تبكي بلا كلل، وقد أزعجتها الأصوات الجديدة والروائح المنبعثة من المقهى والأضواء القوية الناجمة عن أشعة الشمس. بدت مرتابة حانقة -ووجهها الأحمر الصغير يزداد احتقانًا- بينما تهزّها مارني صعودًا ونزولًا، تهمس لها وتدندن وتتعرّق.

قالت: «سحقًا، المراوح. المراوح اللعينة».

«أي مراوح؟»، سألتها. أحضرت النادلة الصحون إلى الطاولة: بيض مخفوق لمارني ولحم مقدّد لي.

أجابت: «كان يفترض بي أن أستلم المراوح، الحرارة شديدة في الشقة. إنها صراحة كابوس. هي لا تنام، ولديَّ الميزان الصغير الذي لا ينفك يُظهر اللون الأحمر بفعل القيظ - لم أعرف يومًا ربيعًا بهذه الحرارة- لكن لا يسعني فعل الكثير إزاء الطقس، أليس كذلك؟ لذلك طلبت ثلاث مراوح. ربّما بالغت في الأمر، ربّما لا أحتاج إلّا واحدة، لكنّني كنت مغتاظة. على كل حال، يجب أخذها عند الظهيرة ولا يسعني أن أصل إلى هناك الآن، ليس في الحالة التي هي فيها. حسنًا، سأذهب في الغد. ما يعني ليلة إضافية من الزعيق».

عرضت عليها. «أستطيع أن أذهب؟ أين المكان؟».

توقّفت قليلًا. ثم سألت: «هل أنت أكيدة؟ هل تعنين ذلك؟ في هذه الحالة يتعيّن عليك أن تغادري الآن».

أجبت: «طبعًا». لقد أردت المساعدة.

«حسنًا». وأخذت تبحث في حقيبتها قبل أن تُخرج منها الإيصال. «ربّما لا يحتاج الأمر لأكثر من عشر دقائق لو مشيتِ مسرعة؟».

«طبعًا، لا تقلقي»، قلت وأنا آخذ الورقة الصغيرة من يدها.
«لكن طعامك، ألا تريدين...».
«لقد تناولت القليل من الرقائق في الصباح، أنا بخير. حقًا».
«حسنًا، خذي هذه». واختفت يدها اليمنى مجدّدًا في حقيبتها. ثم أخرجت مفتاحًا ذهبيًا صغيرًا تعرّفت إليه على الفور. «سأسدّد الحساب وأوافيكِ هناك، لكن عليَّ أن أسوّي وضعها أولًا، وقد تصلين قبلي. وبالمناسبة، ثمنها مدفوع بالكامل».
«حسنًا أركِ هناك» أجبتها وأنا أتناول المفتاح. رأيت الخدش فوق سطحه الدائري فأدركت أنه المفتاح نفسه الذي كان بحوزتي في السابق.
أخذت المراوح وحملتها عائدة إلى الشقة؛ كان وزنها ثقيلًا وغريبًا. دخلت الشقة. بدت مختلفة في تلك اللحظة: غير مأهولة، وفوضوية بالكامل. فتحت العلب الثلاثة في الممر وأخذت أجمع المراوح، أوصل كل واحدة منها في القابس إلى جانب المدفأة، الواحدة تلو الأخرى، لأتأكّد أنّها كلّها تعمل جيّدًا. هناك، بينما كنت أجثو على الأرض، شعرت بانجذاب نحو تلك السجادة السوداء والبيضاء. فرفعت إحدى زواياها لأسترق النظر إلى ما تحتها. لا شيء. ثم رفعتها أكثر، لكنّني لم أعثر على أي بقعة عند السلالم الأولى.
تركت المراوح أسفل السلالم وجلست على الكنبة أنتظر مارني وأودري لتعودا إلى المنزل، ولم أجرؤ على لمس أي غرض لأنني لم أرد أن أعبث بروح المكان. عادتا قرابة الواحد بعد الظهر لتقول مارني إنّها متعبة وتريد أن ترتاح وتشكرني على المراوح، وتؤكد على ضرورة أن نحاول أن نتناول الطعام مجددًا معًا في القريب العاجل، وإنها ستعاود الاتصال بي.
مذذاك الحين صار هذا اللقاء يتأجّل.
كان يفترض بي أن ألتقي بها إلى مائدة العشاء الأسبوع الماضي،

لكنّها اتّصلت بي في المكتب بعد الظهر لتقول إنّها لا تشعر بأي رغبة بإعداد الطعام، وإنّها مرهقة، وهل يمكن إعادة الاتفاق على موعد العشاء؟ أجبتها أن لا داعي للقلق، وأنها يمكن أن تأتي هي إلى منزلي، وإنّني أستطيع أن أعد لها الطعام، أو يمكنني أن أعد الطعام في منزلها، أو يمكننا أن نطلب طعامًا جاهزًا. لكنها أصرّت. ليس اليوم.

مرّ على الأمر أكثر من شهر.

استخدمت هذا الوقت -هذه المساحة- لأركّز عوضًا عن ذلك على فاليري.

أتمنّى لو كان بوسعي أن أقول إن تلك التسلية كانت لترضيني، لكن ذلك ليس صحيحًا. وأنا سبق ووعدتك أن أقول الحقيقة. إليك بها. وجدتني أتأمّل الأمور التي -كيف أقولها؟- تحول دون تدخّلها على نحو حاسم. كنت أعلم أين تعيش. وأعلم أين تعمل. قد لا أعرف أسرارها كما تعرف هي أسراري، لكنّني كنت واثقة من أنّني أستطيع أن أخلق وضعًا يقضي عليها.

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة. لم أستطع أن أجد سبيلًا للقيام بذلك لا يصيبني بالغثيان. أحببت فكرة أن أدفع بها أمام سيارة. يا له من تناسق ملفت. وتخيّلت أساليب عدة للاستيلاء على أقراصها -فقد سبق ورأيتها تنشر صورًا عن أقراص حمى القش- واستبدالها بأقراص مميتة. لكنّني كنت أجزع وأتصلّب كلّما أصبحت أفكاري أكثر عملية وأقل خيالية. وهذا ما يثبت بطرق عدة أنها كانت على خطأ: أنا لست، في نهاية المطاف، بقاتلة.

لذلك، كنت بحاجة لخطة مغايرة.

بعد ظهر ذلك اليوم، وجدتني أفتّش مرة أخرى في أحدث تنزيلاتها -من صور ومقالات صحافية وتغريدات أيضًا- فوجدت صورة جديدة نشرتها صبيحة اليوم نفسه. كانت تظهرًا رفًا من أحذية الرقص مع جملة

تقول: *التدريب الأخير... نحن جاهزون!* انتقلت إلى الموقع الإلكتروني لشركة الرقص لأكتشف أن عرضهم بعد ساعات قليلة في ردهة كنيسة مركز المدينة.

لم يكونوا يبيعون بطاقات مسبقًا -من يأتي أولًا يحجز مكانًا له- لكن في المقابل يقبلون بتبرّعات لجمعية خيرية تعنى بالصحة العقلية.

قرّرت أن أذهب. أردت أن أراها.

وصلت في تمام السابعة مساء. سألَت المرأة التي تحمل علبة التبرعات عند الباب إن سبق لي أن شاهدت أحد عروضهم من قبل، فأجبتها بالنفي، فسألتني إن كنت أعرف أحدًا من أعضاء الفرقة.

من دون أي تفكير، أجبت: «فاليري».

سألت: «ساندز؟ فاليري ساندز؟».

أومأت برأسي إيجابًا.

علّقت المرأة: «إنها إضافة رائعة للمجموعة، كم نحن سعداء بانضمامها إلينا. لم ترقص مذ كانت شابة مراهقة، لكنّها استعادت ليونتها بسرعة مبهرة. سيسطع نجمها الليلة، أنا أكيدة. ستكونين فخورة بها».

ابتسمت وأومأت لها برأسي مجدّدًا قبل أن أستلم منها بكل رحابة صدر برنامجًا زهريًا فاقع اللون. كان اسم فاليري مذكورًا كواحدة من الراقصين الستة الذين سيؤدّون في الافتتاحية.

دخلت الكنيسة وقد أبهرني حجمها: من السقيفة الشاهقة الارتفاع المزخرفة بإتقان باهر، إلى المقاعد الخشبية السميكة والمنصّة المخفية وراء الستائر الخضر السميكة. كانت المقاعد ممتلئة -الأطفال يجلسون على أحضان أهلهم والمراهقون يصطفّون الواحد إلى جانب الآخر- وهكذا توجّهت لأقف في الأمام بجانب عدد قليل من المشجّعين الآخرين. بدأ الحشد يتشكّل ورائي: العائلات والأصدقاء والأحبّاء. ثم انطفأت الأنوار، وفُتحت الستائر، ورأيتها تتقدّم على المسرح. كانت

واحدة من ثلاث نساء يقفن أمام ثلاثة رجال، يرتدون كلهم سراويل سودًا وقمصانًا بيضًا. بدوا عاديّين، مملّين، إلى أن بدأت الأغنية. بدأ مكبّر الصوت إلى جانبي يرتجّ، فتحوّل أداؤهم في لحظة واحدة مبهرًا. كانوا يتحرّكون بسرعة فائقة -أجسادهم منتصبة، تتبدّل على إيقاع الموسيقى- وطَرق أقدامهم عنيف، جريء. تلك الطاقة المنبعثة منهم جعلتني أشعر وكأنّني أتّقد بالحياة مجدّدًا فاستسلمت بالكامل لهم إلى أن قامت بالنظر باتجاه الصف الأمامي. كانت تبحث عن أحدهم. لكنّها وجدتني أنا.

تعثّرَت، قليلًا، قبل أن تستقيم مجدّدًا. لقد استعادت رباطة جأشها سريعًا، لكنّني سررت بالأثر الذي تركته على إيقاعها. أحببت أنّني تمكّنت لمرة واحدة من مفاجأتها.

تسلّلت خارجًا بنهاية الأغنية، وأحببت أيضًا أنها باتت تدرك ما هو شعور أن يُفقدك أحدُهم توازنَك.

الفصل الخامس والثلاثون

كانت صبيحة يوم سبت وكنت في طريقي لزيارة أمي. كنت على وشك أن أضعف أمام غواية البقاء في سريري، لكنّها اعتادت انتظاري -أو أقله، هكذا كانت-؛ ولربّما نسيَت أيضًا.

كان الطقس حارًّا، تحول حرارته المرتفعة ورطوبته الكثيفة دون التلكؤ فترات طويلة في السرير، أو قضاء صباحات دافئة. فقد تخطّت الحرارة السبعة والعشرين درجة طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة، مع انقطاع هطول المطر لفترة شهر تقريبًا. وقد تحوّل العشب في المدينة إلى صفرة حتى إن الصباحات الباكرة بدت دبقة خانقة. كان طقسًا يحثّك على تناول المثلجات في الحديقة، والجلوس في الظل وزيارة الليدو وتناول العشاء في ساعات الليل الطويلة. لم يكن طقسًا محبَّبًا لرحلات القطار الطويلة ودور الرعاية التي تخلو من أي نوافذ ولا لتوطيد أواصر القربة في الواجبات العائلية.

كان القطار مزدحمًا. وكنّا لا نزال في واترلو ولن ننطلق قبل دقائق عدة. كنت أجلس إلى جانب الأبواب التي تفتح على صف من أربعة مقاعد، تستند كلها إلى نافذة. وكانت عائلة صغيرة تتألّف من أم وأب وابنتين صغيرتين تجلس على المقاعد المواجهة لي. كانوا يضعون حقائبهم على أحضانهم، فرحت أتساءل إن كانوا متوجّهين إلى الشاطئ، أو إلى القرية حيث الحرارة أكثر لطفًا والهواء أقل ثقلًا.

وراءهم، كان قطار آخر يعدّ العدة للانطلاق. انحنى الحارس، وفحص المنصة قبل أن يصفر صافرته. هدر القطار الآخر وبدأ يتحرّك

فأحسست بانقباضة في أحشائي كما لو كنا نحن أيضًا نتحرّك. أسندت ظهري وأغمضت عينيّ.

كان يفترض بي أن أعود إلى المدينة في فترة بعد الظهر، على أن أكون قد أنجزت مهمتي كابنة مطيعة لأسبوع آخر.

عندما فتحت عينيّ، كنا قد وصلنا إلى فوكسهول.

«توقّف، لا يمكنك أن تصعد على متن هذا القطار». قالت امرأة وهي تقف عند طرف القطار، تنظر إلى الخارج، ويداها ممدّدتان من على الجانبين، تمسكان إطار الباب وتعيقان الدخول. لم أستطع رؤية وجهها، لكن كان بوسعي أن أشعر أنها على وشك الانهيار باكية بفعل صوتها المهدّج.

«هيّا، يا امرأة، ما خطبكِ؟»، قال رجل واقف على المنصة.

أخذَت نفسًا عميقًا فانتفخ صدرها، وكان واضحًا أنّها خائفة لكنّها تبذل جهدها كي لا يظهر ذلك. أخذت تصرخ باتجاه الحارس على المنصة. كان ينظر في الاتجاه الآخر، يتكلّم على جهازه. «إن هذا الرجل يتعقّبني»، لم يستدر الحارس.

واصل الرجل بصوتٍ مرتفع: «أستطيع أن أصعد على متن أي قطار لعين أريده»،.

«كلا ليس هذا القطار. أنت تتعقّبني وتتفوّه بكلام مشين، ولن أقبل بهذا بعد الآن». رفعت حزام حقيبة يدها فوق رأسها لتتدلّى الحقيبة عن صدرها. كانت بلوزتها زهرية اللون –جعلتها تبدو أكثر صغرًا وهشاشة– بينما كشف سروال الجينز القصير الذي كانت ترتديه عن فخذَيْن مشدودين أسمرين.

التقت عيناي بعينيّ السيدة القابعة أمامي. أحاط زوجها بذراعيه أكتاف بناتهما بينما رحنا نناقش بصمت ما إذا كان يتعيّن علينا أن نتدخّل.

«آه، اللعنة عليك»، صاح الرجل.

قال الأب، وصوته رزين وهادئ: «حسنًا، هذا يكفي، انتظر دقيقتين يا صاح. هناك قطار آخر بعد هذا القطار. لا داعي لكل هذه الجلبة».

وقف الرجل على المنصّة بلا حركة، كما لو أنه يفكّر بهذا الطلب. «اللعنة عليكم كلّكم»، قال أخيرًا قبل أن يبتعد.

أخرجتُ نفسًا عميقًا. فكّرت، رجلٌ يلاحق امرأة ضعيفة بسروال قصير وبلوزة زهرية! حسنًا، هذا دليل ضعف وحقارة. بينما التخلي عن رجل آخر -أكبر سنًا وحجمًا- فهو مجرّد منطق سليم.

كان تشارلز يشعر بالهلع في حضرة نساء قويّات. فكان يصرف زميلاته عن العشاء، مصنّفًا إياهن أنهنّ يبالغن بعواطفهنّ، أو يفرطن في أحاسيسهن. كان يشعر بالخطر من نجاح شريكاته من النساء، خاصة اللواتي كنّ يربّين أطفالًا سعداء، وينعمن بزيجات ناجحة، ويشغلن وظائف مبهرة. أو لربّما هذا ما أردت بكل بساطة أن أراه. كنت أزيد كل فشل من فشله إلى لائحة طويلة وأعدّد الأسباب الكثيرة التي تجعله لا يستحق امرأة مثل مارني.

ضغطت المرأة بالزهري على الزر فأغلقت الأبواب أمامها.

«شكرًا»، قالت وهي تستدير لتواجه الأب وابنتيه الصغيرتين. «شكرًا على تدخلك».

ثم استدارت متّجهة نحو المقعد الشاغر بجانبي.

عرفتها.

عرفتها على الفور.

قد أتعرّف هذا الوجه في أي بقعة على الأرض.



الفصل السادس والثلاثون

كم كان وجهها مألوفًا. تعرّفت إلى شعرها الداكن الأملس المشدود إلى الوراء، بينما الأوشام على معصمها الأيسر وإبهامها تطابق تلك الظاهرة في صورها. لكنّها بدت مختلفة عن قرب: أكثر حدّة، وأكثر لفتًا للأنظار. لقد رأيتها تقف على هذا النحو من قبل، أيضًا، فترمي بثقلها على جانب واحد، بينما يميل وركها إلى اليسار، وكانت تحمل الحقيبة الجلدية السوداء نفسها التي حملتها في مراسم الدفن. لكن الأمر يتعدّى ذلك: يتعدّى الطريقة التي تنظر فيها وتقف. شعرت وكأنّني أعلم جيدًا كيف يعمل دماغها، كيف تبني أفكارها.

«أنا أعرفك»، قلت لها.

«طبعًا تعرفينني»، أجابت. «مع أنّه ما كان يفترض بك أن تريني. لكنّني لم أكن لأتوقّع هذه الجلبة مع ذاك الرجل الغريب. في الواقع، شعرت ببعض الاضطراب. كان مقيتًا، أليس كذلك؟ إنّها المرّة الثانية التي يلاحقني فيها. ولا يستسيغ المرء أبدًا أن يلاحقه غريب، على ما أفترض».

رفعَت حاجبًا لها، ثم انطلقَت ضاحكة.

أدهشتني ثقتها؛ بدت على ثقة عالية بنفسها، بعيدة كل البعد عن أي إحساس بالخوف. ولا بد من أنّني بدوت جزعة. أعرف هذا. لا بد من أن تأكيدها أنّها تلاحقني -ولأشهر على الأرجح- من دون أي بوادر نيات حسنة، لم يكن إلا ليثير حفيظتي وتوتّري. ومع ذلك، في تلك اللحظة، شعرت ببعض الطمأنينة. لقد كنت محقّة. ثمّة من كان يلاحقني. لقد كنت على صواب.

قلت لها: «لم تكوني بالخفة أو الحنكة التي تخالينها، لقد رأيتك. أكثر من مرّة في الواقع».

«حقًا؟ سحقًا. هذا محبط». لم ألحظ الأمر من قبل، لكن ثمّة ما هو جميل جدًا في ملامحها وفي تقاسيم وجهها.

«ما الذي تريدينه؟»، سألتها.

أجابت: «أريد أن أعرف أين تذهبين كل يوم سبت، هل تمانعين لو جلست؟».

هززت رأسي. لم أكن أريد لها أن تجلس إلى جانبي، وتتصرّف كما لو كنا أصدقاء، كما لو أن ما بيننا ليس تلك الفوضى القائمة التي هي سببها.

فأجبتها: «نعم. أمانع».

«آه، لا تكوني هكذا».

«لقد أقرّيت لتوّك أنك تلاحقينني وتريدين الآن الجلوس إلى جانبي وإجراء حديث معي؟ كلا. لست مهتمّة».

«أنت تبالغين في مشاعركِ،لم أتوقّع ذلك. خلتك ستكونين أكثر اتّزانًا، أوعلى الأقلّ غير مبالية، لكنّ عواطفكِ تغلب عليكِ، أليس كذلك؟ وهذا ما ليس غريبًا ولا أعتبره اكتشافًا، أليس كذلك؟ إن كنتِ حقًا تعرفين أنّني ألاحقك».

كرهت هذا. كرهت ذاك الإيحاء بأنّني أتصرّف بهستيرية في حين كنت أريد بشدة أن أبدو العكس تمامًا: هادئة، متماسكة، ومحكمة السيطرة.

جلست بالقرب مني من دون أن تعير بالًا لما قلته. والتصقت ذراعها بذراعي. جلستُ بلا أي حركة فأخذ نسيج سترتها يداعب بشرتي العارية. شعرت بذاك الغضب يخزّ في داخلي، فأيقنت أن لا بد لي من تجاهله والحذر، ومحاولة احتساب كل خطوة بدل اعتماد القسوة.

تنهّدت وأخذت تمرّر أصابعها في شعرها.

أردت أن أصفعها على وجهها، مع أنّني كنت أعلم جيّدًا أن العنف لا يشكّل أبدًا الحل، ومع ذلك، كل ما فيها -من ابتسامتها الصغيرة، إلى سترتها الوردية وحماستها- يثير حفيظتي. لقد سبق واتّهمتني بجريمة قتل، ليس مرّة واحدة، بل مرّتين. لقد اتّهمتني بقتل زوجي أنا. وعندما كانت مارني قد بدأت أخيرًا تجد سبيلًا لمداواة ألمها، جاءت هذه المرأة -التي تجلس هنا إلى جانبي- وقضت عليها، وأعادتنا إلى الوراء.

«عليك أن تخرجي في المحطة التالية»، قلت لها.

«لكن عندئذ لن أعرف إلى أين تذهبين»، أجابت وهي ترفع قدمًا على مقعدها لتربط شريط حذائها.

«بإمكانك أن تسأليني ليس إلّا، لا يهمك الأمر. وبصراحة، إن كانت تحقيقاتك قد قادتك إلى هنا، فقد حان الوقت فعلًا لتتوقّفي. أنا متّجهة لزيارة أمي. أراها في عطلة نهاية كل أسبوع، ولذلك أنا أستقل دائمًا هذا القطار».

«أين تعيش؟».

«في نهاية خط هذا القطار».

«هل لي بالعنوان؟». ابتسمت لي بتواطؤ متقن، كما لو كنا شريكتين في هذا. ثم أعادت قدمها إلى الأرض، وبدأت ترفع كعبها وترجعه إلى مكانه مرارًا وتكرارًا، حتى تمايلت ساقها للأعلى وللأسفل، وبدأت بشرتها المسمرّة ترتعش.

«تعيش في دار رعاية، إنها مصابة بالخرف».

أعتقد بأنه كان يفترض بي أن أبدو صادقة، كما لو أن ليس ثمّة ما أخفيه. كنت أقدّم لها المعلومات التي تريدها بملء إرادتي، في محاولة منّي لأجعل نفسي أبدو بريئة.

قالت فاليري: «أنا آسفة، يا للعار».

سألتها بفظاظة: «لماذا؟ ألأنّها لن تكون قادرة على إخبارك بأي شيء؟».

بدت مصدومة وأصرّت قائلة: «كلا. كم مقيت ما قلتِه الآن. هذا ليس ما في الأمر على الإطلاق».

«حسنًا»، قلت. ولم أكن أعلم إن كانت تقول الحقيقة أم لا. لكن لا يهم.

نظرت من أعلى كتفها، باتجاه النافذة إلى أسوار الشجر التي كانت تمر سريعًا، في خضرة ضبابية. «تعتقدين بأنّني وحش. لكنّني لست كذلك. أنا بكل بساطة واثقة أن ثمّة ما أحتاج لكشفه بعد. لذلك عليّ أن أواصل البحث. أخشى أن الأمر لن يتحسّن بيننا».

أعتقد بأن ملامح وجهي قد تغيّرت بطريقة أو بأخرى -ربّما رأت الخوف القابع في أحشائي- لأن عينيها تبدّلتا سريعًا حتى أصبحتا شبه متعاطفتين.

فأردفت: «أعتذر، بدا الأمر نوعًا من التهديد، أليس كذلك؟».

نظرت إليها وقلت: «أليس الأمر كذلك؟».

«أجل، أنت محقة، ربّما هو تهديد. هل تشعرين بأنّني بتّ قريبة من الحقيقة؟».

«ليس ثمّة ما هو قريب من الحقـ...».

قاطعتني قائلة: «توقّفي، أنت ترينه بالوضوح الذي أراه أنا. ثمّة تلك الفجوات الصغيرة في روايتك. وفي مكان ما، ثمّة كرة تكبر أكثر فأكثر وستدمّركِ بالكامل. وسأجدها».

هززت كتفيّ مستهجنة وحاولت أن أقول بثقة: «أنتِ مخطئة». لكنّني لم أبدُ مقنعة.

«ومع ذلك، لا أعتقد بأنك قتلتِ زوجك، إن كان ذلك يشكّل عزاء لك».

«لا يشكل أي عزاء».

«وأنا آسفة،على ما أعتقد، لما حصل. أخال الأمر صعبًا عليك».

فقلت: «تعتادينه مع الوقت. تعتادين السفالة».
«أفهمك. أحيانًا، أكون قد بلغت كأسي الرابعة من الفودكا قبل أن أحس بأنّني بدأت أفقد إحساسي بقساوة الأمور من حولي...». ثم بدأت تداعب الخاتم الفضي حول إبهامها. «تذكّرت لتوّي تلك الرسالة»، قالت، قبل أن تتلوّى قسمات وجهها. «لقد تركت لك رسالة. على المجيب الآلي. بكل الأحوال، شعرت بحال رهيبة في الصباح التالي: كنت قد غاليت في ثمالتي. لكنّني عنيت ما قلته».
«لا تزالين تحقّقين في قصّتنا؟ يسرّني أن أخبركِ أنَّ مارني محت رسالتها قبل أن تستمع إلى ما تفوّهتِ به من هراء».
أحنت فاليري رأسها قليلًا إلى جانبٍ واحدٍ وشخصت عيناها فأدركت على الفور أنّني ارتكبت حماقة.
سألتني: «ماذا تعنين؟ ألم تستمع إلى رسالتي؟».
هززت رأسي نفيًا.
«خلتها استمعت إليها لكنّها قرّرت أن تتجاهلها ليس إلّا».
لم أزد شيئًا. استعدّت عائلة الأربعة أفراد للنزول في ريتشموند. وبدأت مشاحنة اللحظات الأخيرة -على القبّعات والحقائب وواقي الشمس- فابتسمت الأم لنا بانزعاجٍ وحياءٍ بينما أخذت تستعجل عائلتها خارج المقصورة قبل أن تصفّر الأبواب وتغلَق وننطلق من جديد.
أخذ المكيّف ينخر ويهدر قبل أن يصفر متوقّفًا. بدا القطار أكثر هدوءًا، من دون هدير المروحة وفحيح الهواء البارد الذي يدخل المقصورة. وبدأت الحرارة ترتفع. وقفت لأفتح النافذة لكنّها كانت مقفلة. كانت النوافذ كلّها محكمة الإقفال.
«حسنًا يا أميرتي»، صدح صوت من ورائي فاستدرت لأكتشف أن الرجل قد عاد وبات جالسًا قبالتنا، حيث كانت العائلة تجلس قبل لحظات معدودة.

بقيتُ واقفة، لكنّني لم أقل شيئًا.

«ما الذي قلتِهِ هناك؟». كان صوته عاليًا، فأخذ آخرون في المقصورة يحدّقون، بانتظار ما ستؤول إليه الأمور. تساءلت إن كانوا ينصتون إلينا منذ البداية، وما الذي قد تناهى إلى مسامعهم من جدالنا.

«هيا»، صرخ بها. كانت فاليري تحدّق في حقيبتها الصغيرة. «لم تعمدي إلى تجاهلي من قبل، أليس كذلك؟».

في بادرة تضامن مني: «هناك توجد مقاعد شاغرة، انظر إلى هناك».

ردّ على الفور: «أنا لا أبحث عن مقعد، أليس كذلك، يا حبّي؟ أنا أبحث عنها للتكلّم معها».

رفضت فاليري أن ترفع ناظريها، بل بقيت تقلّب كدسة من الإيصالات القديمة المطويّة وتلعب بزجاجة مياه فارغة، وبهاتفها. كان يفترض بي أن أبتعد. كان يفترض بي أن أدعها تتعامل معه بنفسها، لكن ثمّة تلك الشيفرة غير المكتوبة بين النساء، خاصة في الأماكن العامة، وعلى الأخصّ في وسائل النقل العام، حيث تتّحد النساء كلّهنّ لمواجهة رجالٍ يشكّلون تهديدًا ما، وهكذا بقيت إلى جانبها، من دون أن أفكّر حقًّا بالموضوع.

«انظري إليّ»، صرخ بها، فرفعت رأسها تلقائيًا.

تنشّقت فاليري نفسًا عميقًا ثم وقفت وقالت: «اسمع. أنا أحاول أن أقضي يومًا جميلًا مع صديقتي هنا». شعرت بأناملها تصعد من معصمي وصولًا إلى يدي. تركتها تمسك بها. هل تؤدّي لعبة ما؟ هل تُحكم السيطرة على الموضوع؟ «ونحن حقًّا لا نسعى وراء أي متاعب، فما الذي تريده تحديدًا؟».

«حسنًا، فهمت. هذا يفسر موقفكِ؟»، قال وهو يقف.

شعرت ببعض التوتّر، لكنه لم يقترب خطوة واحدة.

«أنت سحاقية إذًا». وانطلق في ضحكة. «لِمَ لم تقولي ذلك؟ لربّما

أنه كان يفترض بي أن أكتشف ذلك بفعل كمّ الغضب والكراهية اللذين واجهتني بهما».

مر من أمامنا وهو يرفع إصبعه الأوسط في وجهَينا بينما يختفي في مؤخّرة المقصورة.

نظرنا إليه وهو يختفي قبل أن نعود إلى مقاعدنا.

قالت لي بكل هدوء: «كان يتعقّبني، ذهبنا لتناول مشروب مرة واحدة. ولمناقشة مقالة أردت كتابتها. ثم رأيته في حفلي، حفلي الراقص. كان يراقبني من الصف الأمامي للمسرح. وقد هالني الأمر. أتمنّى أن يكون ما حصل نهاية لهذا الإزعاج».

«أريدك أن تغادري في المحطة التالية»، قلت مجدّدًا.

«لن ألاحقك».

«لا أصدّقك».

ضحكت»،أعتقد أنّك على حق».

«أريدك أن تتوقّفي عن التحقيق في قصّتنا».

«لن أفعل».

«بل ستفعلين، ولن تجدي شيئًا، وأنت تلاحقينني الآن، وهو اعتداء بحدّ ذاته».

«سأخبر الشرطة بما وجدته».

«وتخالينهم سيهتمّون عندما تخبرينهم عن سَير تحت زخّات المطر وجلبة في الشقة؟ تلك الأمور ليست أدلّة يا فاليري. هي لا شيء. لم تجدي شيئًا. أنت تضيّعين وقتك. ثمّة مشكلة جدّية فيكِ».

«ما من مشكلة بي». راحت تدافع عن نفسها، وأمكنني أن أرى أنّني وجدت ما زعزع ثقتها.

«تصرفكِ غير طبيعي»، كنت أحاول ألّا أصرخ، لكن الغضب داخلي قد بدأ يغلي لينفجر عبر كل مساماتي، في انفجارات طفيفة باتت خارجة عن سيطرتي، تنخر وتنبض وهي تتوق للخروج. «أنت لستِ طبيعية».

«انظر من يقول هذا!». وتحوّل وجهها. اشتد فكّها، وضاقت عيناها وتقطّب فمها.

«ماذا يعني هذا؟ ماذا تقصدين؟».

«أقصد أنّك قتلت زوج صديقتك المقرّبة. تريدين التكلّم عن الهوَس؟ وعن من منّا غير طبيعي؟ أنا هنا وراءك. وأنت تعرفين هذا. لكنّك غير قادرة على تصديق الأمر بعد».

هاجمتها قائلة: «أتعلمين! أعتقد أنك تشعرين بالغيرة».

كانت فكرة جديدة راودتني. لم تخطر ببالي قبل تلك اللحظة. لكن لا بد من أنّها كانت ترشح من مكان ما، إذ بدت صائبة بشكل لافت.

فتحت فاهها لتتكلّم، لكنّها لم تنبس بكلمة. غرقت وجنتاها قليلًا، وغارتا بين أسنانها، بينما اختفت التجاعيد في لحظة عن جبينها.

«لست كذلك»، قالت في نهاية المطاف.

تجاهلت ما قالته، تمامًا كما فعلت من قبل، بطريقة مقصودة فاضحة.

توقّف القطار في محطتها. تناولت حقيبتها وأخذت منها بطاقتها. كان مرسوم عليها قلم حبر سائل منقوش بورق ذهبي على جانب واحد.

قالت: «أنا ذاهبة، لكن خذي هذه. واتّصلي بي. أتوقّع أن تتّصلي بي. أعني هذا».

«مستحيل»، أجبتها.

الفصل السابع والثلاثون

كان الباب مفتوحًا، كما هي الحال دومًا، فطرقت طَرْقًا خفيفًا على إطاره. كانت أمّي تجلس في زاوية الغرفة على كرسيّها الذي يحدّه إطار خشبي شاحب، بينما يستند إلى أربع قوائم خشبية مصقولة. لم ألحظ نقوشه من قبل -الأريكة المبطّنة المزخرفة بنفّاثات كهربائية خضر- لكنّها بدت وكأنّها تدفع بك إلى التنويم المغناطيسي مع انعكاس قرمزيّة سترتها الصوفية. كانت تنتعل الحذاء بدل الخف، فتساءلت إن كانت تستخدم المرطب الذي أحضرته لها هدية عيد ميلادها، لأن بشرتها بدت أكثر نعومة وليونة.

«صباح الخير»، قلت لها.

ابتسمت لي وأخذت تربّت بيدها على ذراع كرسيها. كانت لا تزال تؤثر الكلام -أحيانًا- لكن بدرجة أقل، وتستخدم عوضًا عن ذلك حركات بسيطة لتعبّر عمّا تريده. وقد وصفت لي مرّة شعور أن تفقد كلماتها بمجرد بلوغها شفتيها. قالت إن الأمر شبيه بمحاولة مرافقة الأطفال إلى المدرسة، وكل كلمة هي طفل، لكن يصعب ضبطهم فيصلون متأخرين، أو، أحيانًا، لا يصلون البتّة، ويقفون وسط الطريق، يدورون في مكانهم. أو، الأسوأ من ذلك، الأطفال الذين يصلون ليسوا الأطفال الذين يفترض بهم أن يصلوا، بل هم أطفال أشخاص آخرين، وليسوا الأطفال الذين تريدهم هي. أمّا الصمت، فهو البديل الأقل إثارة للذعر.

أدارت برأسها نحو السرير، تشجّعني على الجلوس هناك. ففعلت

كما طلبت مني، مع أن الفرشة كانت مريعة بعيدة كل البعد عن مبدأ الراحة.

«أنت»، قالت. وما عنته من ذلك، رجاء أخبريني عن أسبوعك، وعن يومك، وعن حياتك، عن كل ما حصل معك مذ التقينا آخر مرّة.

«ليس لدي الكثير في جعبتي لأخبرك به»، قلت. وكانت تلك الحقيقة. لقد عدت إلى روتيني المعتاد، المكوّن من توليفة ثابتة من العمل والمنزل والمنزل والعمل. «لكنّني سأتّصل لاحقًا بإيمّا».

تبدّلت قسمات وجه أمي قليلًا لحظة أخبرتها بذلك، لكنّني واصلت الحديث كي لا أفسح لها المجال لإعداد رد أو للانطلاق في إيماءاتها المهلوسة.

«وقد أمرّ عندها. لقد تحسّنت منذ أن زارت المستشفى في المرّة الأخيرة، وربّما هي فكرة سديدة أن أقوم بزيارتها».

تقطّب حاجبا أمي. لقد كانت تتجاهل معاناة إيمّا إلى أن استحكم المرض بها وتغلغل في عظامها. لم تعرفني أمي كزوجة، بل كأرملة ليس إلّا. لكن على الرغم من هذا التقصير الفاضح في حقّنا، إلّا أنّها كانت تعرفنا جيّدًا. وربّما على نحو لا تفهمه أو تعرفه إلّا أم تجاه ابنتها. فكانت تعرف، على سبيل المثال، أنّني كنت أتلاعب بالحقيقة لأنّني ضعيفة. لم يكن بوسعي أن أقرّ بأن حال إيمّا ليست إلى تحسّن، بل بدت لي في الواقع تزداد سوءًا. فكان شعرها يخف أكثر فأكثر، وبدأت بقعة صلعاء صغيرة تظهر في الجهة اليسرى من جبينها. كما كانت ترتجف طوال الوقت، على الرغم من تدثّرها بطبقات من السترات والملاءات والجوارب. وكانت تعاني سعالًا لا تقوى على التخلّص منه.

لكن لم يسعني أن أقرّ بأي من هذا لأنّني لم أكن قادرة على مواجهة تلك الحقيقة. وكانت أمي تدرك ذلك جيدًا. وكانت تعرف، أيضًا، أن إيما لا تملك القوّة لتكون بحال أفضل، وأنها في أفضل حالاتها، ترزح تحت وقع المعاناة.

أخذت أمي تمرّر أظافرها على ذراع الكرسي الخشبي قبل أن تسأل: «جون؟».

«جوناثان؟»، سألتها.

«غدًا»، أجابت.

وأشارت إلى الروزنامة المعلّقة على الجدار. كنت قد اشتريتها لها قبل بضعة أعياد ميلاد، وهي روزنامة عامة تحتوي تواريخ بلا أيام، مزيّنة بصور ورود، صورة مختلفة لكل شهر. لقد كانت تشعر بالإحباط لعدم قدرتها على تذكّر المناسبات الملحوظة -وعلى سبيل المثال أعياد ميلادنا- فجلسنا ورحنا ندوّن عليها أهم التواريخ. وعلى الرغم من مرور سنوات عدة على وفاة جوناثان، إلا أن تواريخه لا تزال تواريخي، وقد سجّلتها كما لو كانت تواريخي أنا.

وقفتُ واقتربت من الروزنامة. في كل صباح، كانت الممرضة التي تعتني بأمي تنزع اللاصقة الصفراء الصغيرة وتنقلها إلى تاريخ اليوم. لكن ما جدوى معرفة تاريخ اللحظات المهمّة، إن كانت لا تملك أدنى فكرة عن تاريخ الحاضر؟

اليوم التالي كان يوم ذكرى ميلاد جوناثان.

لقد نسيت الذكرى.

في حياة أخرى، ربّما كنت لأعدّ لهذه المناسبة قبل أسابيع، إن لم يكن أشهر -مع الهدايا وقالب الحلوى وبطاقة المعايدة والبالونات-. وقد أحجز طاولة في مطعم جميل أو أنظّم حفلًا مفاجئًا. وقد أبحث عن ورق هدايا يتناسب مع شخصيّته -مزيّنًا بالدرّاجات الهوائية أو مضارب الكريكيت أو الحيوانات- أو أحضر الكرواسان من المَخبَز.

وحتى -قبل سنوات قليلة معدودة- كنت لأنتظر ذلك اليوم وصدري يكاد ينفطر ألمًا لا أقوى على تخطّيه. كنت ليتملّكني الذعر والهلع وأنا أراقب الأيام تذوي وهي تقترب من ذاك التاريخ، أفكّر في كل ما كان

بإمكاني أن أقوم به لو كان لا يزال على قيد الحياة، وما لا أقوم به لأنه غادر هذه الحياة.

«نعم»، أجبتها، في محاولة منّي لإقناعها أنّني أذكر، وأنّني أعلم، إذ أي نوع من الزوجات تلك التي تنسى ذكرى ميلاد زوجها. «ربّما أزوره. في المقبرة. أول ما سأفعله. قبل أن أزور إيمّا. سآخذ معي بعض الأزهار، على ما أعتقد. وربّما بالون. كلا، من دون بالون».

أومأت برأسها. «أبوك؟»، سألت.

كانت أحيانًا - بل غالبًا - تنسى أنه لم يعد جزءًا من حياتها. كانت تخاله يأتي لزيارتها، وتخبرني، عرَضيًا، عن هذه الزيارات. أخبرتني أنه أحضر لها الورود، مع أنّني لم أجد يومًا ورودًا في غرفتها لم أحضرها أنا، وأنّه وضع بعض الرفوف في المنزل، مع أنها طلبت منه ذلك لسنوات طويلة ولم يفعل. كان بخير، بحسب ما قالت، وكنت أعلم جيدًا أنّه بخير، لكنّه على بعد بضعة أميال في أحضان امرأة أخرى لم تكن أمّي.

في إحدى المرّات، بينما كنا نتجادل حول مسؤوليتنا المشتركة، أوحت إيما أنّني أزور أمي بشكل منتظم، ليس لأنّها أمي، ولا لحِسّ واجبٍ عائلي، بل لأنّني أحسد أمي على قدرتها على النسيان. لم تكن على دراية بأن الشخص الذي أحبّته أكثر من أي شيء آخر في حياتها لم يعد موجودًا إلى جانبها.

كنت أحاول قدر المستطاع أن أتفادى هذا النوع من الأحاديث مع أمّي: فإمّا أتجاهل الأسئلة أو أجيب بطريقة مبهمة توحي أنه قد يزورها قريبًا من دون قطع أي وعد بذلك، أو قد أمرّ أنا عنده لألقي عليه التحيّة.

لربّما لم تحاول قطّ أن تتذكّر غياب أبي. لربّما كانت سعيدة بنسيانها.

«مارني؟»، سألتني وابتسامة ترتسم على وجهها.

قلت: «إنّها تبلي حسنًا، وأودري بحال ممتازة أيضًا. لقد خضعت لفحص طبي قبل بضعة أسابيع. يزيد وزنها سريعًا. مع أنّني لم أرها كثيرًا في الآونة الأخيرة. يبدو أنّهما منشغلتان».

«الأمومة»، قالت أمي قبل أن تتثاءب، كما لو أن فعلها هذا يشكّل جزءًا أيضًا من حديثنا.

«أعلم ذلك، لكن الصداقات بالأهمية نفسها. كنت أفكّر أنه ربّما يتعيّن عليّ مفاجأتها».

أومأت أمي برأسها بحماسة تعبيرًا موافقتها.

علت قعقعة من الباب المجاور ثم أنين محبط، إذ أوقع جار أمي شيئًا ما على الأرض. ثم سمعنا وقع الأحذية السريع على البلاط، بينما هرعت ممرّضتان من أمام الباب لتقديم يد العون.

كانت تنظر إليّ. قلت: «قد أعد طعام العشاء، هل تذكرين أنّنا كنا نتناول العشاء معًا مرة في الأسبوع؟ أعتقد أنه يتعيّن عليّ أن أعود إلى تلك العادة. فمن الجميل أن نبقى على تواصل. ما رأيك؟».

في أماكن أخرى، ومع أناس آخرين، كانت الفراغات تتراجع أمام حضور أصوات أخرى أكثر صدحًا. أما هنا، فكان صوتي هو الوحيد.

وأضفت: «أفكّر في مغادرة العمل باكرًا يوم الجمعة المقبل، لا أعتقد أن هذا مشكلة، الجميع يتسلّل خارجًا بعد الغداء نظرًا للطقس، في مسعى لبدء عطلة نهاية الأسبوع باكرًا. ويقل عدد الأشخاص الذين يردّون على الهواتف لكن -لا بأس- فالهواتف ترن بوتيرة أقل لأن الناس كلّهم يكونون قد دخلوا في مزاج العطلة. في كل الأحوال، أعلم أن مارني تلتقي مع بعض الأمهات عند الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة -فهي تجد وقتًا لهذا الالتزام الأسبوعي- لذلك أنا أعلم أنها لن تكون في المنزل. أخطّط للدخول وإعداد طبق رائع، طبق سيفاجئها حتى هي».

قطّبت أمي حاجبيها.

أكملت: «لدي مفتاح، كلا، لا تسيئي فهم الموضوع. لن أقتحم المنزل». وانطلقت في ضحكة وقد بدا الأمر غريبًا.

بدأت أمي تهز رأسها.

«أعطتني المفتاح. ما خطبك؟».
«كلا»، قالت وقد بات رأسها يهتز بإصرار أكبر. «كلا».
«لا تتصرّفي هكذا. إنها فكرة سديدة. ستكون مفاجأة جميلة».
«مفتاح»، أصرت قائلة.
«نعم، مفتاح»، أجبتها. توقّفت أمي عن هزّ رأسها وأخذت تحدّق بي.
كنت الراشدة الوحيدة المسؤولة في عائلتي، ومع ذلك، كانت أمي لا تزال تحتفظ بدورها التقليدي الآسر الحاضر أينما كان، فتتّقد عيناها على نحو لا يسع إلّا لأم أن تقوم به، بينما تلوي برأسها بانتظار إجابات. لقد لزمها أسابيع كي تتقبّل أن أبي قد غادر فعلًا -فقد كنّا واثقين من أنه ضرب من ضروب خداعه- لكنّها عندما أدركت أنه لا بد لها من تقبّل الأمر في نهاية المطاف، انهارت. أرسل لنا بطاقة بريدية من شاطئ في تايلاندا يشرح فيها أنَّ لديه امرأةٌ أخرى في حياته الآن، وأنّه لا يفترض به أن يتشارك الأمر معنا، لكنّه يرى أنّ من حقّنا أن نعلم أنه لم يتجاهل اتصالاتنا ورسائلنا، بل بكل بساطة لم يعد يتلقّاها. بكت كثيرًا وشربت حتى الثمالة وأغلقت على نفسها في غرفتها، بينما كنت أزورها باستمرار لأترك لها زجاجات المياه على الطاولة إلى جانب سريرها، وأملأ البراد بوجبات جاهزة للتسخين. لم تؤدِ في تلك الفترة دور الأم كثيرًا.
قلت لها مطمئنة. «لا بأس، لا تبدئي بفبركة الأمور».
ضربت بيدها ذراع الكنبة الخشبي، بقوة، قبل أن تجفل، فتضرب على صدرها كما لو أنّها تحاول إخراج الألم الذي يعتصرها.
«توقّفي. هيّا توقّفي على الفور. ماذا تفعلين؟».
صفعت بيدها الأخرى وجهها ثم أوقعت إبريق المياه الذي كان على صينيّة إلى جانبها، على الأرض.
انتصبتُ واقفة وركضت باتجاهها. «ما خطبك؟ توقّفي عن إحداث كل تلك الجلبة؟».

«مفتاح»، قالت بشبه همس.

«لقد أعطتني إيّاه لتوّها»، أجبتها. وكانت هذه هي الحقيقة. «ليس الأمر حول... لا علاقة للأمر بـ...».

توقّفت ممرّضة عند الباب. استدرنا أنا وأمي نحدّق بها.

«صباح الخير يا جاين»، قالت موجّهة كلامها لي، قبل أن تستدير نحو أمي «صباح الخير هيلين، ماذا يجري؟».

ضربت أمي بيدها على وسطها مجدّدًا. ثم أخذت تحدّق بي، وكأنّها تريد أن تقول لي شيئًا، لكنّها عاجزة عن ذلك، لا تقوى على إيجاد الكلمات الصحيحة لتعبّر عما تريده.

«ماذا يجري الآن؟ ابنتك هنا تزورك. إنها مناسبة سعيدة». جثت الممرضة على الأرض أمام أمي وأخذت يديها معًا، حتى تتوقّف عن صفع نفسها.

«مفتاح»، همهمت أمي. «مفتاح».

نظرت إليّ الممرّضة فتجاهلت الأمر.

«أخشى أنّني لا أملك أدنى فكرة عمّا أثار حفيظتها».

«آه، عزيزتي»، قالت الممرّضة وهي تحاول أن تتحمّل مسؤولية الفوضى الحاصلة. «أخشى أنّني لا أعلم أيضًا. ما الذي أزعجها على هذا النحو؟ لمَ لا تأخذين نفسًا عميقًا، حبيبتي؟». كان صوتها مطمئنًا. «حسنًا. سنعالج الأمر برمّته في دقيقة واحدة، لكن فلنسوِّ أمرك أولًا. لقد قضينا أسبوعًا ممتعًا أليس كذلك؟ زارنا الحلّاق وقد عمل على تسريحتك بشكل رائع، أليس كذلك؟» ثم أشارت إلى شعر أمي بإيماءة مبالغ بها. «هل أخبرت جاين بالأمر؟ نحن أصبحنا جاهزين الآن لاستقبال الزوار، أليس كذلك؟».

«مفتاح»، أعادت أمي في إصرار واضح، وهي تحدّق بي والشرر يتطاير من عينيها.

«حسنًا، لا بأس، حسنًا»، قالت الممرّضة وهي تنهض للوقوف على قدميها. «ماذا تحتاجين؟ تريدين مفتاحًا؟ هل تريدينني أن أفتح النافذة؟ هل هذا ما تريدينه؟».

كانت تراودها أكثر الأفكار سوءًا عنّي: أنّني كنت أملك المفتاح من البداية، وأنّني أكذب عليها الآن.

ضربت أمي بيدها مرة أخرى على الصينية فوقعت بما عليها على الأرض، لتغزل علبة المحارم الورقية والصورة في أرجاء الغرفة.

«نظرت الممرّضة إليّ. «ربّما علينا...».

قلت وأنا أقف. «حسنًا، لا تقلقي. سأعود الأسبوع المقبل. ربّما لم تنم جيدًا أو شيء من هذا القبيل».

كنت قد بدأت أفقد صوابي، أفقد السيطرة، وأرتكب الأخطاء.

لقد سبق وقلت لها إنّني لا أملك مفتاحًا. والأسوأ من ذلك، قلت إنّني لو كنت أملك مفتاحًا، لكنت استخدمته لأنقذ حياته. وهذا هراء. لقد استخدمت ذاك المفتاح لأنهي حياته، وربّما باتت تدرك ذلك الآن.

لم أكن أكذب الآن، لكنّني كذبت من قبل، وقد أوقعتني في فخٍّ نصبته أنا لنفسي.

«أبوك؟» قالت أمي، فاستدرت لمواجهتها. كانت تسأل عنه لأنّها بحاجة إليه. أرادت منه أن يتدخّل، أن يكون أبي. كانت تعلم أنه لا يمكنها الوثوق بي، وكانت تعلم أنها من الضعف والوهن بما يحول دون أن تصوّب الأمور.

قلت بصوت بالغ التعاطف: «أنتِ تعلمين أنه لن يأتي، لقد سبق لنا وأن تكلّمنا عن هذا الموضوع. لم يعد يعيش هنا. هل تذكرين؟ لم يعد جزءًا من عائلتنا منذ سنوات».

ثم غادرت.

وجدت نفسي بعد ذلك، وأنا في طريقي إلى منزلي، أتساءل إن

كان ما فعلَته ليس على سبيل التوبيخ على الإطلاق، ولا هو محاولة لمعاقبتي، ولا كانت غاضبة، بل كانت خائفة ليس إلّا. هل كانت تحاول أن تحميني؟ هل كانت تحذّرني وتطلب مني أن أكون أكثر حذرًا، وأن أتنبّه لما أفعله، كي لا أفضح أمري؟

أليس هذا ما يفترض بالأم أن تفعله؟

كانت خائفة عليّ. لقد نظرت داخلي فرأت أن ثمّة ما هو مكسور، ولاحظت تمزّقاتي، فاكتشفت أنّني قد لا أكون أفضل نسخة عن نفسي. وعلى الرغم من ذلك، كانت لا تزال مصرّة على حمايتي.

الفصل الثامن والثلاثون

عندما وصلت إلى المنزل، اتّصلت بإيما لكنّها لم ترد، فجلست أشاهد ثلاثة أفلام الواحد تلو الآخر، وطلبت طعامًا جاهزًا قبل أن أخلد للنوم. ثم اتّصلت بها في الصباح التالي ولم أتلقَ أي رد أيضًا، فلم أعر الأمر أي أهمية إذ خلتها لا تزال نائمة فقد كانت على شديدة الوهن وغالبًا ما تعاني إرهاقًا، وقد اعتادت عزل نفسها عندما تصبح الأمور خارجة عن سيطرتها.

اتّصلت بها مجدّدًا يوم الاثنين بعد العمل لكنّها لم ترد أيضًا فقرّرت أن أتوجّه إلى شقّتها حاملة معي بعض الفاكهة -كانت تتناول أحيانًا بضع شرائح من التفاح، حتى في أسوأ حالاتها- وأن أذكّرها أنّني أحبّها وأريد أن أقدّم لها يد العون.

لم يخطر ببالي للحظة طوال هذه الأيام الثلاثة أن تكون في مأزق، أو في خطر، أو أن سوءًا قد أصابها.

وصلت وقرعت الباب. لم أتلقَ أي جواب.

سألتني الشرطة لاحقًا إن بلغت أنفي أي رائحة في تلك اللحظة، ومع أنّني لن أنسى ما حييت تلك الرائحة الكريهة، إلا أنّني لم أتنبّه لها وقتذاك.

لكنّني بدأت أشعر بالذعر يدب في فرائصي. أيقنت في تلك اللحظة أن مصيبة قد حلّت.

نزلت إلى أسفل المبنى أبحث عن حارس الأمن. لقد تم توظيفه لحراسة المنطقة بعد أن تعرّض شاب للطعن في موقف السيارات المجاور. كان يتكئ إلى جدار من الطوب، فقاطعت شيئًا كان يشاهده

على هاتفه طالبة منه المساعدة. تنهّد بفظاظة واضحة، قائلًا إن ليس ثمّة ما يمكنه القيام به، وإن عليّ أن أطلب الشرطة.

اتّصلت بالشرطة على الفور وتكلّمت في شبه صراخ، وأنا أحاول أن أشرح أن حال أختي الصحّية حسّاسة، وقد أدخلت المستشفى قبل أشهر قليلة، وهي لا تغادر منزلها تقريبًا، ولا أستطيع حاليًا التواصل معها. وقفت هناك أمام حارس الأمن، أذرع بخطاي الأرض، أقاطعه مرارًا وتكرارًا، بانتظار وصول رجال الشرطة.

أحسست ببعض الغباء، إذ بينما كنت على ثقة مطلقة أن ثمّة أمرًا فظيعًا قد وقع، إلّا أنّني لم أستطع أن أستبعد الخوف -والأمل أيضًا- من أنّني لربّما أحدث جلبة لا داعي لها.

وصل رجال الشرطة وأعتقد بأنّهم كانوا يدركون أيضًا أنّها ميتة.

نزولًا عند إصرارهم، اتّصل حارس الأمن برجل الصيانة الذي رافقنا إلى الشقة.

سألتني الشرطية: «هل تريدين أن تنتظرينا هنا؟ نستطيع أن ندخل أولًا».

هززت رأسي نفيًا. «لا بأس. أريد أن أكون هناك».

كنت على يقين أن بصيص الأمل الشحيح الذي يرافقني كان على ضلال، وأنّها ميتة، لكنّني لم أرد أن أكون جبانة هذه المرّة، وأن أنظر بعيدًا لأنّني خائفة.

فتحوا الباب فوطأت بقدميّ داخل الشقة، لتبلغني تلك الرائحة. تقدّمت، وكانت هناك مستلقية على الكنبة، منتفخة كما لم أرها من قبل، بشرتها مرقّشة رمادية اللون، عيناها شاخصتان، والذباب يحلّق من حولها بينما تستقر واحدة فوق جفنها.

وقفت أحدّق، فسارعت الشرطية من أمامي تبحث عن نبض ما، لكنّنا كنّا كلّنا نعلم أن الحياة قد فارقت ذاك الجسد. تقيّأ رجل الصيانة ورائي وسمعته يسرع نحو الشرفة.

كنت أعي منذ سنوات أن الوفاة ستدركها عاجلًا أم آجلًا.

قد يبدو الأمر مؤلمًا، وربّما هو فعلًا على هذا النحو، لكنّها كانت تحتضر. كانت تعاني مرضًا لن يمكنها أبدًا أن تتعافى منه، ونتيجته واحدة، وحتميّة.

وقفت الشرطيّة تهز برأسها ثم مشت باتّجاهي ووضعت ذراعها حول خصري وحاولت أن تديرني وهي توجّهني نحو السلالم.

لم أكن خائفة. ولم يكن الأمر خارج التوقعات. وقد سبق أن ذقت طعم الألم وكنت جاهزة له.

«هل يمكنني أن أتّصل بأحد يساندك؟»، سألتني.

هذه المرّة، لم يكن هناك من يمكن الاتصال به.

إليك بعض الأمور التي قد يحظى بها المرء عندما يكون محاطًا بآخرين، أمور لم تعد بحوزتي: همهمة ثابتة، مطمئنة، متناغمة، تصدر عن شخص ما في مكان ما، شخص يهتم بحق؛ رد الفعل التلقائي الذي يبحث عن قصّة، عن إعادة تلاوتها، عندما تسوء الأمور على نحو مثير للضحك؛ ذاك الشخص الذي قد يتم الاتصال به من على قارعة الطريق، أو من المستشفى، أو من سيارة رجال الشرطة؛ واقع أنك لن تموت وحدك في فراشك من غير أن يتمّ اكتشاف جثّتك بعد فترة لأن شخصًا ما في مكان ما يبحث عنك.

ما نفع العيش بلا تلك الأمور؟ بلا الحب والضحكات والصداقة والأمل؟

لا أريد أن أعرف.

لا أريد أن أعيش هذه الحياة.

ها أنا أختار -يبدو الأمر نوعًا من شجاعة، لا بل هو فعلًا نوع من الشجاعة- أن أستعيد تلك الأمور، مهما تطلّب الأمر، أن أجعل تلك الحياة تستحق أن أحيا لأجلها.

لن أعيش على هذا النحو بعد اليوم.

ما يعني أن على الأمور أن تتغيّر.

الكذبة السابعة

الفصل التاسع والثلاثون

توفّيت إيمّا قبل أسبوع.
لم يمر الكثير من الوقت، أليس كذلك؟
لا أزال تحت وقع الصدمة. لا بد أنّني كذلك.

ومع ذلك، في الوقت عينه، أعتقد بأنّني بلغت نظريًا المرحلة الأخيرة من مراحل الحزن. أنا أعلم أنّها رحلت؛ أستطيع الآن تقبّل واقع أنها رحلت.

أفترض أنّني لطالما كنت مدركة أنها لن تكبر وتهرَم. لم أتخيّلها يومًا ستصبح واحدة من هؤلاء النساء الشنيعات اللواتي تتجعّد بشراتهن وهن مستلقيات على فراش مستشفى. لم يبدُ لي الأمر ببساطة واردًا. ربّما لأنهّا كانت فعلًا، وبأوجه مختلفة، مثل تلك النساء المسنّات العالقات في ردهات المستشفيات.

كانت تقضي الكثير من الوقت وحيدة. لم أرها من قبل على هذه الدرجة من الوهن كما كانت في الأسابيع القليلة الأخيرة من حياتها. بدت عظامها بالغة الهشاشة. حتى إن ظهرها كان مقوّسًا ومفاصلها متورّمة ملتهبة. كانت تعاني كلّما أرادت صعود السلالم نحو شقّتها. وكانت تلوم وركها. لقد عانت تلك الحالة المعقّدة من الأمراض حتى إنها قضت حياتها الراشدة وهي تتأرجح بحذر بين الحياة والموت.

وهكذا، كنت مدركة منذ فترة طويلة أن ذلك الأجل سيحين في

القريب العاجل. كنت أراه بين النجوم مساء كل ليلة، يسطع بالحقيقة، ينتظر لحظة صدور المرسوم النهائي. ليست أسوأ الطرق لخسارة محبوب.

فحالات الوفاة تلك التي تظهر على حين غرّة -خيوط الضوء التي تنير ظلمة سماء كالحة- هي الأسوأ على الإطلاق. يسترق المرء النظر من نافذته ليراها فجأة تقف أمامه، تتفوّق بلألأتها على أي نجمة أخرى وتهوي سريعًا. ليس ثمّة وقت ليعد نفسه، أو ليثبت قدميه قبل أن تتزلزل الأرض من تحته.

تلك هي حالات الوفاة التي لا يسعك تقبّلها. إنّها الأكثر شراسة وتقع عليك كما الصاعقة، فتدمّر حياةً وتُلحق خرابًا شاملًا. يشعر بها المرء ضربة واحدة، في لحظة واحدة، كما الحياة التي تزحل عبر أرض متصدّعة، كما المياه تنزلق عبر أصابع منكمشة.

عدت إلى منزلي بعد اكتشاف حال إيمّا مباشرة. بكيت، إنّما قليلًا ليس إلا. ثم غفوت.

استيقظت باكرًا -باكرًا جدًا- وشعرت بعدم توازن رهيب، كما لو أن كل القطع التي كوّنت حياتي قبل تلك اللحظة قد بدّلت مواقعها بين ليلة وضحاها. لبست سروال الجينز وسترة فضفاضة وخرجت إلى الشارع لأذكّر نفسي أن الأشجار باقية، وأن جذورها لا ترتعش تحت التربة، وأن الإسفلت لا ينسلخ عن سطح الأرض. أردت أن أذكّر نفسي أن هذا ليس الأسوأ، وأنّني سبق وتخطّيت أمورًا أكثر سوءًا.

كانت السماء غارقة في سواد لا ينيره سوى ضوء القمر الذي يسطع فوق رؤوسنا، وأنوار الشارع الدافئة. مشيت في شوارع المدينة، أتنقّل في الأحياء المتوارية بداخلها. كانت السيّارات المتوقّفة تصطف وعجلاتها تحاذي حافة الرصيف. مررت أمام بيت الكاري وإشارته الضوئية تبرق برقًا في الليل، وأمام السوبرماركت وأبوابها المغلقة بسلسلة معدنية،

بينما تومض لمبة واحدة من الداخل. كما عبرت وكيلين عقاريين، وثلاثة صالونات تجميل، لأتأكّد أن المدينة لم تتغيّر.

عدت إلى شقتي ولاحظت خيوط الغبار تسبح في فضاء غرفتي وفي المطبخ فبدأت حملة تنظيفات. فالحياة لا تبالي بالخسارات الفردية الصغيرة. الغبار لا يزال يتجمّع. ثم أخذت حمّامًا وارتديت البيجاما المفضّلة لدي وجلست على الكنبة لا أتحرّك إلا للتوجّه إلى الحمام، ولإعادة ملء كأس النبيذ، ولإعداد بضع شرائح من الخبز المحمّص. قلت لنفسي إنّه عليّ أن أتحلّى بالصبر وأن أثابر، وإن تلك الفترة أيضًا ستمرّ على خير.

في المساء التالي، سحبت كرسي طاولة السفرة إلى غرفة نومي ووضعتها أمام خزانتي المفتوحة على مصراعيها، وصعدت عليها بحثًا عن ألبوم صور قديمة أعدّته أمّي قبل عقود خلت، عندما كنّا لا نزال عائلة واحدة. وجدته هناك: ألبوم سميك مغبر، مغلّف بالجلد الأحمر.

جلست على سريري ورحت أقلّب في صفحاته، أحاول أن أجد صورًا لإيما ولي معًا. كانت بالعشرات. وجدت صورة لي أرتدي فيها سروال جينز وصندلًا زهري اللون، وأجلس غارقة في زاوية أريكة؛ أمسكها بين ذراعيّ وأحتضنها على وسطي. ربّما كانت لا تزال في الأسابيع الأولى من عمرها، إذ كانت الأنابيب لا تزال متدلّية من أنفها ملصقة على وجنتيها.

في صورة أخرى، كنّا نقف أمام جدار من الطوب، يدًا بيد في زي المدرسة الرسمي. كانت تقف إلى جانبي، وتضع رأسها على صدري. وثمّة صورة جميلة لنا نجلس في حقل، ولفائف النقانق والسندويشات وقطع البسكويت مفروشة بيننا على قماشة مقلّمة، وكانت تحمل قرصًا هوائيًا في يدها بينما الأبقار تظهر في خلفية الصورة. وفي صورة أخرى، كنا نرتدي ملابس سباحة برتقالية اللون مطابقة، في حديقة مائية تكثر

فيها الزلاقات الضخمة المتلوّية وراءنا. ثم يبرز جسدها الصغير نسخة مصغّرة طبق الأصل عن جسدي: الساقان المستقيمتان نفسيهما، والكتفان المربّعتان. في نهاية الألبوم، تبرز صورتان احتفاليّتان. في الصورة الأولى، نجلس جنبًا إلى جنب ونحن نرتدي ملابس النوم، والهدايا مكدّسة من حولنا، والشجرة تبرق بأنوارها من ورائنا، وتلك التعابير الفرحة المتحمّسة على وجهينا. وفي الصورة الثانية، نرتدي معاطف وأحذية عالية مطابقة، نقف أمام رجل ثلج يضع جزرة بدل أنفه وأغصانًا بدل ذراعيه. وفي آخر صفحات الألبوم، صورة لنا أمام آخر منزل عائلي عشنا فيه، يوم انتقلنا إليه، نتوسّط أهلنا.

كنت أعلم أنه عليّ أن أخبر أمي.

كان يوم أربعاء. لم أزرها يوم أربعاء من قبل، لكنّني كنت أعلم أنه لا يجدر بي أن أنتظر حتى يوم السبت. توجّهت إلى المحطّة، واستقلّيت القطار، ورحت أتأمّل وجهي في النافذة، وعيناي حمراوان منتفختان، وبشَرتي متورّمة رمادية اللون. أخذت أفرك وجنتي في محاولة لأنفخ فيهما بعض الروح. حاولت ألا أبكي في رحلتي، على أمل أن تتحسّن حالهما لدى وصولي.

ضغطت على الجرس الموضوع على المكتب، فاقتربت عاملة الاستقبال، وتنهّدت بعمق عندما قلت لها إنّني أريد أن أتكلّم مع أمي لأمر طارئ.

«لم نكن نتوقّع قدومك اليوم»، قالت.

«كما قلت، الأمر طارئ». أجبتها مكرّرة.

«ربّما هي في غرفة المعيشة...».

«لا تكون هناك عادةً».

«لقد خصّصنا أوقات للزيارة...».

أكملت ثرثرتها بينما استدرت نحو الممر الطويل الذي يقود إلى غرفة أمي.

لم تبدُ متفاجئة عندما رأتني. بل ابتسمت وأنا أجلس عند حافة سريرها؛ ربّما اعتقدت أننا بلغنا عطلة نهاية الأسبوع. كانت ترتدي السترة الصوف الزرقاء مجدّدًا، وقد رفعت أكمامها حول كوعها، وبدت وكأنّها لا تزال ترتدي ملابس النوم تحتها.

«أريد أن أكلّمك»، بدأت.

أومأت برأسها.

«ليست أخبارًا سارة»، أضفت.

أومأت برأسها مرة أخرى.

«ماما، إنه خبر سيئ. الأسوأ على الإطلاق».

لم أنادِها «ماما» منذ سنوات. لطالما شعرت بالكلمة غريبة غير طبيعية في فمي، كما لو أنها لا تمتّ بصلة للمرأة الجالسة أمامي.

لوت رأسها إلى اليسار. وأومأت مجدّدًا، بحدّة أكبر هذه المرة، وكأنّها تحثّني على البوح بما أريد أن أخبرها به، وأن أوقف هذه الإطالة غير اللازمة.

«الأمر يتعلّق بإيما».

أخذت تحدّق بي. واصلتُ الكلام.

«ذهبت لأراها، كما وعدتك، لأتحقّق إن كانت بخير. لم تكن تجيب على اتصالاتي. وعندما وصلت إلى شقتها، لم تفتح لي الباب. فاضطررت في النهاية للاتّصال بالشرطة لأنّهم لم يسمحوا لي بالدخول إلى الشقة، ثم وصلوا. وفتحوا لي الباب».

أردتها أن تقول شيئًا، لكنّها جلست صامتة، فواصلت تلاوتي لما حدث، أعيد شريط الذكرى، فأستعيد اللحظات التالية، وأفكاري ومخاوفي، والأساليب كلّها التي كان يمكن للقصّة أن تنتهي بها على نحو مغاير. كنت أعلم أنّها تحت وقع الصدمة، لكن لم يسعني أن أبطئ الكلام. أخبرتها أن ابنتها ماتت بكلمات لم أستخدمها في حياتي من قبل،

كلمات كانت تنتظر في داخلي، لكنّني كنت آمل أن تبقى دفينة إلى الأبد.

قلت لها: «ماما، لقد رحلت. يعتقدون بأن قلبها قد خانها».

أعتقد أنها استوعبت الأمر عند تلك اللحظة، لأنّها شهقت وتحوّلت عيناها محدّقتين مذهولتين. فتحت فمها ثم أطبقته، قبل أن تشيح بنظرها عني.

حاولت أن أمسك بيدها، لكنّها انتشلتها مني.

حاولت أن أكلّمها، لكنها بدأت تهمهم بهدوء مطلق، فأدركت أنها لا تستمع إليَّ.

بعد ذلك، لم تبادلني نظرة واحدة. اقتربت منها، وأحنيت رأسي لأنظر في عينيها، لكنّها أشاحت بنظرها، فاقدة أي تركيز كما لو أنّها تنظر عبري من غير أن تراني.

أدركت حينئذ أنّني بلغت تلك اللحظة، لحظة تبدأ الفطريات التي قضت سنواتها الأخيرة تحاربها، تبدأ توسّعها داخل دماغها. لقد قادت معركة طاحنة وهي تحاول السيطرة على نفسها؛ معركة تطلّبت منها جهودًا جبّارة، مع انقضاء كل يوم. لكن الأمر لم يعد يستحق كل هذا العناء.

وهكذا غادرت.

الفصل الأربعون

لقد كنتُ الفرد الوحيد في عائلة أمي لسنوات عديدة. كنت الزوج، والابنة الكبرى والابنة الصغرى أيضًا. نعم، لقد ضقت ذرعًا بالأمر أحيانًا. ونعم، كنت أشعر بملل لا يقاس لاضطراري لزيارتها في كل عطلة نهاية الأسبوع. ونعم كنت أشعر بالإحباط لإدراكي أن أحدًا في هذه العائلة لا يشعر بالذنب ما يكفي ليحلَّ مكاني.

كانوا كلّهم على درجة عالية من الأنانية. كانوا كلهم لا يبالون. لا يبالون البتة.

وكان يفترض بي أنا أيضًا ألّا أبالي. لما كان يفترض بي أن أهتم بالأمر؛ كان مضيعة لوقتي، ولصبري، ولحياتي، أن أقضي وقتي معها، أفكّر أنّني أقوم بأمر صالح، وأبلي حسنًا، أضحّي من أجلها، ثم أدرك أنها بكل بساطة عاجزة عن أن تكون موجودة من أجلي.

آه.

عذرًا.

هل أخفتك؟

أرجوك دعك من البكاء.

اكتشفت وفاة أختي في بداية الأسبوع. واشتدت حالة خرف أمّي قبل أيّام قليلة. فإن كان لا بد لأحدهم من البكاء الآن، فلا شك في أن هذا الأحد هو أنا.

لم يكن بوسعها أن تحافظ على وجودها من دون ابنتها الصغرى. لا تستطيع أن تكون موجودة لي.

لقد كان أسبوعًا سيئًا للغاية.

هذا الصباح، وصلتني رسالة من مارني. قالت إنّها آسفة جدًا، لكنّها بحاجة لإلغاء عشائنا هذا المساء، وهذا ما يبدو أنه العرف السائد هذه الأيام. وعذرها -دائم عذر جيّد، يصعب رفضه- أن أودري لم تكن بحال جيّدة، وبقيت صاحية طوال الليلة الماضية، وحرارتها تخطّت الثمانية والثلاثين درجة.

أجبتها قائلة إن لا داعي للقلق أبدًا وأرسلت لها قبلاتي وتحياتي متمنّية لابنتها الصحّة الجيّدة.

لكنّني لم أشعر بأي تعاطف. شعرت بالحزن ليس إلّا. لأنّنا لم نعد أطفالًا نلهو بالأكواب الورقية وحبل ممدود بين نوافذ غرف نومنا. لقد ابتعدنا البعد كلّه، وفقدنا الرابط بيننا، وخرج كلّ منّا من حياة الآخر.

لقد تكلّمت فاليري عن كرة تكبر، كما لو أن ثمّة ما سيؤدي في مكان ما إلى موت تلك الصداقة. أردت أن أجعل جدراننا أكثر صلابة، وأكثر تدعيمًا وأكثر أمانًا بحيث لا يمكن لأي شيء أن يزعزع تلك الحجارة. كنت بحاجة لأن أعزّز أواصر تلك الصداقة، وأدعّمها، وأجعلها قادرة على التصدّي لجبروت الحقيقة.

كنت سأحيك مختلف النتائج التي توصّلت إليها فاليري في أحاديثنا على نحو عرَضي، فأذكر بعض الجيران الذي يحدِثون الجلبة، وكيف أن الجدران والأرضية في المبنى الذي تقطن فيه غير عازلة للصوت، وكيف أن الصوت يبدو وكأنّه يتغلغل بين الشقق. لقد خطّطت لأن أذكر عرضيًا الأسبوع الذي قضيته في الشقة -فأشير لمكوثي هناك بطريقة أو بأخرى: صرير الأنابيب في الليل أو تكتكة الساعة في غرفتها- فأصاب بالصدمة لأنها تفاجأت بوجودي في منزلها.

كنت لأقول لها: «ألم يخبرك تشارلز؟ كان اقتراحه هو».

وكنت لأخبرها عن اللقاء في القطار. وكنت لأكشف -أقله هذا الجزء

يشكّل الحقيقة- أنّني تعرّضت للملاحقة، وللتعقّب، من تلك الصحافية الخطيرة، فأسألها إن كانت ترى أنه يتعيّن عليَّ أن أبلغ الشرطة. فاليري. سأقول اسمها ولن أخاف. لأن هذه المرّة، قصّتها هي ملكي أنا. وسأجعل منها شيئًا آخر، شخصًا آخر لا يمكن الوثوق به. شخصًا كاذبًا.

لكن كان يفترض بي أن أقضي بعض الوقت مع مارني حتى أستطيع القيام بهذه الأمور.

وعلى الرغم من شعوري ببعض الإحباط لإلغائها الموعد بيننا، إلّا أنّني كنت واثقة من أنها ستجد الوقت لي ما إن تعرف بوفاة أختي، وبحال أمي. فالموت، بينما يشكّل الفاصل النهائي بين البشر، إلّا أنه يوحّد أيضًا. فالمرء قد لا يدرك حجم المحبّة التي يكنّها له الآخرون قبل أن يقع صريع مأساة من الحجم والهول، بحيث لا يقوى على الرؤية أبعد من أطرافها. عندئذ، سرعان ما تبدأ الوجوه بالظهور أعلى تلك الجدران، تقدّم لك بطاقات وترسل لك رسائل وورودًا وطعامًا. وهؤلاء الناس هم ناسَك وسيجدون وسيلة يخرجونك فيها من قعرك.

لقد وجدت مارني وسيلة تخرجني فيها في المرة الأولى.

وكنت أعلم أنّه باستطاعتها أن تنقذني من جديد.

هذه هي الصداقة التي تهمّ. لا تتخلّى عن حب مماثل.

ويبدو أن فاليري، هي أيضًا، لم تستطع أن تتخلّى عن حبٍّ كحبّنا.

اكتشفتها تنتظر في ردهة المبنى الذي أقطن فيه باكرًا ذاك اليوم. كنت قد ذهبت إلى السوبر ماركت ولم أتنبّه لها في البداية، لكنّها نادتني بعد أن جمعت بريدي. كانت تجلس على كرسي مكتبيٍّ قديم ينتظر من يأخذه، تدور به وتدور مخلّفة آثار أقدام قذرة على الجدران المطلية حديثًا. وكانت قد أضافت وشمًا جديدً -عبارة عن زهرة صغيرة- تحت أذنها اليسرى. كان سروال الجينز الذي ترتديه فضفاضًا، ممزّقًا عند الركبتين، تعلوه سترة سوداء فضفاضة أيضًا.

توقّفت عن الدوران وابتسمت. قالت، وهي تسحب قدميها لتجلس القرفصاء على المقعد. «جميل أن أراك هنا، أردت أن أكلّمك عن الأسبوع الماضي».

«ليس الوقت مناسبًا»، أجبتها وأنا أقف أمام الأبواب التي تقود إلى المصعد، أحمل بريدي على صدري. لم أتفاجأ لرؤيتها. كان يفترض بي، حقًّا، أن أتفاجأ، لا سيّما في هذه المساحة التي تعود لي، لكن ثمّة ما تغيّر بيننا. لقد بتُّ أعرفها بشكل أفضل قليلًا الآن -تعنّتها- لذلك لم تعد لتصدمني على النحو نفسه.

قالت لي: «الأمر مهم، لقد أزعجتِني».

ضحكت؛ لم أستطع تمالك نفسي. بدا الأمر ممتعًا، نفحة راحة، على الرغم من الألم والذنب الذي سرعان ما لحقها. «أزعجتك؟ حقًّا؟» سألتها.

«على متن القطار، عندما قلتِ إنّني أشعر بالغيرة».

«ألست كذلك؟»، سألتها من جديد.

«كلّا لست كذلك. لكن هذا ليس الموضوع».

كان ثمّة ما هو طفولي في صِدقها، في حضورها هناك، في بساطة ما كانت تقوله. في الأسابيع السابقة، قمت بتتبُّعها عبر الإنترنت، أقتفي أثرها من أيّام دراستها -وقد كتبت مقالة عن الحياة في الأحواض المائيّة في سن السادسة عشرة ظهرت على موقع المدرسة- وصولًا إلى الجامعة، حيث تولّت مهمّة تحرير صحيفة الحرم الجامعي. كما وجدتُ منصّاتها الأولى على وسائل التواصل الاجتماعي: أهم أصدقائها واهتماماتها وقائمة الأشخاص الذين تودّ مقابلتهم. وتتبّعت التغيير في هواياتها، ومنازلها، وعاداتها. كانت تمارس رياضة السباحة في الهواء الطلق في عامها التاسع والعشرين لمرة واحدة على الأقل في الأسبوع. كما انتقلت إلى منطقة إيليفانت أند كاسل في الثلاثين من عمرها بعد انتهاء زواجها.

ومذاك الحين، بدأت تضيف وشمًا جديدًا على بشرتها في كل عيد لها؛ وكان الوشم على مؤخّرة عنقها الوشم الأول.

لكن أكثر ما يلفت النظر على الأرجح -وهو أمر لم ألحظه من قبل- أن كلًا من أصدقائها المصنّفين على أنّهم الأصدقاء المفضّلون لديها، مذ كانت في السابعة عشرة من عمرها، قد غابوا. ليسوا على قائمتها على إنستغرام. ولا يتبعونها على تويتر.

واصلت: «أجيبيني على هذا السؤال وسأرحل، كيف يمكن لكما أن تحافظا على صداقتكما؟».

لم أجب.

قالت: «هيّا، هذا كل ما في الأمر. آخر سؤال أطرحه عليك. لأن الأمر لا يبدو منطقيًا بالنسبة لي. أن نملك صديقة مفضّلة. في عمرنا. يبدو لي الأمر طفوليًا، أليس كذلك؟».

«أعتقد بأن الأمر مميز نوعًا ما»، أجبتها قائلة.

«ليس هذا ما أراه، لأن الأمر غير حقيقي، إنّه...».

قاطعتها وسألت: «أليس لديك أي أصدقاء قدامى؟ أصدقاء يشكّلون جزءًا منك حتى لكأنّك لا تستطيعين تذكّر حياتك من دونهم؟».

«كلا، لا أملك أصدقاء على هذا النحو».

«تبدين في وحدة مطبقة».

تجاهلَت ردّي وفكّت قدميها ترجعهما إلى الأرض.

قالت وهي تحاول أن تكمل، «أعتقد أن...».

قاطعتها مرة أخرى، «ولا حتى صديق واحد؟».

«أريد أن أتكلّم عنك، أنا مهتمّة بك».

«لكنّني لست مهتمّة بك»، أجبتها وأنا أنظر إلى بريدي أمامي، أحاول أن أبدو غير مبالية. كان ثمّة رسالة من المصرف، وأخرى من الجامعة. ورسالة بخط اليد من مقيم في الطابق الأرضي من المبنى يصرّ على أن نولي كلّنا عناية أكبر ونغلق الباب الأمامي بشكل صحيح.

نظرت إليها مجدّدًا وكانت تهمهم. «ومع ذلك تطرحين عليَّ الكثير من الأسئلة. أنا أعرفك يا جاين. وأنت تتمنّين لو أنّني لم أفعل».

«لا تعرفينني البتة»، أجبتها، وقد بدأت أشعر بالقدرة على ضبط الحديث تفلت مني، وبسيطرتها هي، وكأنّها تسحب البساط من تحت قدمي.

رفعت كتفيها لا مبالية. «أنت وحيدة. هل ألغت لقاءكما لهذا المساء؟ أتساءل إن كانت تدرك كم يزعجك الأمر. لا أعتقد أنّها تدرك ذلك. لا تعرفك كما أعرفك أنا، ترين. و...».

«عليّ أن أذهب»، قاطعتها قائلة. واستدرت نحو المصعد وضغطت على الزر.

ضحكت. «كما تريدين. لكن بحسب ما أعرفك -وأعتقد أنّني أعرفك جيّدًا- ليس ثمّة مكان عليك أن تذهبي إليه».

«هل انتهيت؟»، سألتها، بينما اقترب صوت صرير أحد المصاعد.

أجابت: «ليس بعد، حضرت إلى هنا لأخبرك بأمر آخر. ألا تريدين أن تعرفي ما هو؟».

«كلا». وضغطت الزر مجددًا.

«هذه كذبة. أعرف جيدًا أنك تتوقين لمعرفة الأمر».

«حسنًا، تكلّمي إذًا».

أستطيع أن أدّعي لنفسي -ولك- أن الأمر مجرّد خدعة. أستطيع أن أقول إنّني شجّعتها على الإسراع في الحديث، كي أمنحها المساحة الكافية لتقول ما تود قوله، على أمل أن تغادر بعد ذلك. لكنّها كانت على حق، بالطبع. أردت أن أعلم.

«لقد انتهيت من تعقّبك». توقَّفَت قليلًا ونظرت إليَّ: «ألا أستحق ابتسامة على هذا؟».

«لا يهمّني الأمر».

«بلا يهمّك! لقد ارتحتِ! حسنًا، ما أردت قوله: هذا لا يعني أن التحقيق قد بلغ خواتيمه. على العكس. أنا لا أزال أريد أن تكتشف ماريني الحقيقة. لأن الأمر أكثر بكثير ممّا ورد في رسالتي الأولى، أليس كذلك؟ هناك الكثير مما لا تعرفه بعد. لكنّني لم أعد على عجلة من أمري».

«فاليري...».

«ستقومين أنت بفضح الأمر كله».

«آه، بحـ...».

«سأكتب عنه وقتذاك».

استقر المصعد وفُتح بابه. ولجت داخله.

«اتّصلي بي عندما ينتهي الأمر».

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الحادي والأربعون

لم أذهب إلى العمل طوال الأسبوع. أرسل لي دونكان رسالة بريدية حانقة تحدث فيها عن إهمالي مسؤولياتي. وتلقّيت رسالة نصّية من بيتر يعرب فيها عن قلقه. لكنّني لم أرد على أي منهما.

لقد كنت، على ما أعتقد، أشعر ببالغ الأسى على نفسي، واليوم بلغ هذا الشعور أوجه، نتيجة تراكم عدد لا يحصى من الأخبار السيئة.

لكن الأمور بدأت، على نحو غير متوقّع، تأخذ منحًى مختلفًا وتبدو أكثر إشراقًا. فبينما كان الجوع يتسلّل إليّ، وقد بدأت أفكّر في العشاء، تلقّيت اتصالًا من مارني. كانت مهتاجة ومضطربة ومتخبّطة، كما هي حالها تلك الفترة، لا تقوى على الثبات على حديث موزون. قالت إن حرارة أودري قد ارتفعت مجدّدًا، وإنّها نجحت في حجز موعد مع الطبيب في اللحظة الأخيرة -وكان طبيبًا ممتازًا، دائم الاستعداد للالتفاف حول القواعد لأنّ همّه الاهتمام بطفل ما- وإنه شخّص التهابًا في الأذن، ومعها نسخة عن الوصفة الطبّية، لكنّهم أرسلوا نسخة أيضًا إلى الصيدلية. فهل أمانع، بحسب ما قالت، لأنّها صيدلية بين شقّتينا، وتفتح لفترة مطوّلة، فهل أمانع؟

قلت على الفور: «بالطبع لا، سأصل في الحال».

ارتديت سروال الجينز القديم وفوقه السترة الفضفاضة وحذائي البنّي الداكن ومشيت باتّجاه محطّة القطار تحت المطر، فجلست في المقصورة المكتظّة بعائلات تقطر معاطفها مطرًا بينما تتعرّق النوافذ بفعل الكثافة، فشعرت ببعض الأمل. إذ ما حصل كان خبرًا جيدًا، أليس

كذلك؟ ها نحن أمام لمّ شمل، أو علاج، أو وسيلة لإعادة بناء ما بدا وكأنه تشظّى.

كنت أعلم بالتفصيل ما الذي سيجري. كان باستطاعتي أن أتخيّل وجهها عندما تكتشف ما حل بإيما: صدمتها، وحزنها. كان بوسعي أن أراها تغلي المياه في الإبريق، ثم تطلب طعامًا جاهزًا، ثم تقرّر أن الشاي لم يكن كافيًا، ليس لمداواة هذه المصيبة، فتفتح عوضًا عنه زجاجة نبيذ. أما أودري، فستخلد إلى نومها سريعًا -تحت تأثير المضادات الحيوية والمسكّنات- ثم سنعمل معًا على فكفكة هذا الحزن.

لكن الأمر لم يجرِ كما تصوّرت. لأنّني توجّهت إلى الصيدلية، كما طُلب مني، لأكتشف أنها أغلقت أبوابها قبل ساعة من موعدها. كانت الإشارة على الباب دقيقة -أيام الجمعة: 8 صباحًا- 7 مساء. لكن بطريقة ما، تم تشويش الرسالة، والتضليل في المعلومات. اتّصلت بمارني. قلت إنّني سأكمل سيري نحو منزلها، لأحصل على الوصفة الورقية وأحاول أن أجد صيدلية أخرى. بدأت حال من الذعر تدبّ في فرائصها -إذ ماذا لو لم تجد صيدلية أخرى، أو لم تجد الدواء هذه الليلة؟- فأخذت أطمئنها أن الأمور ستكون على ما يرام، وتخيّلت لحظة، في وقت متأخّر من تلك الأمسية، تقوم هي فيها بالمقابل بالتخفيف عني.

استقلّيت القطار التالي، وعندما وصلت إلى محطّتها، كان الامتداد الرمادي اللون ينتشر في السماء وفوق المباني والمدرّج. تابعت طريقي العادي إلى شقّتها، عبر الشارع الضيّق، ومررت بصف من المتاجر الصغيرة. وكانت كل تلك الخطوات وكل تلك اللحظات إيجابية. فتلك هي أماكني، الطريق الذي يقود إلى ناسي. بكيت لفترة وجيزة -ولم يكن ذلك أمرًا غير معتاد بالنسبة لي في هذه الفترة- لكن على نحو غريب، كان مريحًا.

التقيت جارك في الردهة. هل تذكرين الرجل الذي يحمل حقيبة،

يهرع إلى عمله في اليوم الذي ولدت فيه؟ كان عائدًا لتوّه من المكتب، يقف أمام المدخل، ينفض مظلّته في الشارع كي ينزع عنها قطرات المطر. ابتسم لي ابتسامة صغيرة، حتى إنه أومأ برأسه إيماءة خجولة.

ألقى عليّ جيريمي التحيّة بحركة خاطفة من يده.

شعرت وكأنّني أنتمي إلى هنا.

طرقت الباب ففتحت لي وبدت مسرورة برؤيتي.

«لقد جئتِ»، قالت وهي تبتسم.

كانت ترتدي سروال جينز داكن اللون وقميصًا عاجيًا، فضفاضًا عند الوركَين لكنّه ثابت بإحكام عند أعلى ذراعيها. وكانت ترفع شعرها على شكل كعكة، جريًا على عادتها، بينما تتساقط الخصلات القصيرة على جبينها. بدت جميلة.

كانت الشقة ممتازة: الأرضيّات تلمع، والأسطح نظيفة تخلو من أي بقايا، ولم أستطع لحظ أي غرض وإن صغير يعود إلى تشارلز.

«هل ثمّة خطب؟»، سألتني، وهي تقترب أكثر مني، كما لو أنّها تريد التدقيق في النظر. «هل كنت تبكين؟».

أفترض أنّني أومأت برأسي إيجابًا.

«ما الأمر؟»، سألتني وهي تقودني إلى غرفة المعيشة.

كانت أودري مستلقية على فرشة صفراء صغيرة على الأرض لا ترتدي إلا حفاضة ووجنتاها متورّدتين.

قالت مارني بإصرار: «هيا، اجلسي. ما الذي يجري؟».

وقفت أمامي، فنظرت إلى حزامها الجلدي الأسود ومشبكه الذهبي اللون، وحاولت أن أركّز. لم أعد أبكي، لكنَّ عينيَّ كانتا منتفختين. تساءلت إن كانتا حمراوين أو مؤطّرتين بهالات سود.

جلست على الكنبة وعانقت الوسادة الرمادية اللون.

«عانيت أسبوعًا فظيعًا، إيما...».

لم أدرِ كيف أكمل الجملة لكنّني لم أحتج إلى إضافة المزيد.

«كلّا»، صاحت مارني وقد انقطع نفسها. «يا إلهي، متى؟ ماذا حصل؟ لماذا لم تتّصلي بي؟».

«أنا وجدتها».

«جاين!».

«يوم الاثنين».

أخذت مارني تزرع غرفة المعيشة بخطاها، تمرّر أصابعها في شعرها، وتدور حول منضدة القهوة الصغيرة. كانت قوائم المنضدة خشبية وسطحها زجاجيًا، وعندما نظرت عن كثب، لاحظت مخلّفات طبعات صغيرة - بصمات أصابع وعلامات، وحلقات بيض ناجمة عن أكواب- تتوزّع على سطحها.

قالت: «كان يفترض بك أن تتّصلي بي، لكنت أتيت إليك على الفور. لا أصدّق هذا. كيف قاموا بـ...؟ هل أخبرت أمّك؟».

أغلقت مارني أبواب الشرفة ثم أسدلت الستائر فوق الزجاج. بدت الغرفة فجأة أصغر حجمًا، من دون جلبة أبواق السيارات في الشارع في الأسفل.

كنّا نحن معًا دون سوانا.

«هي بالكاد في عالمنا، كما لو أنّها تلاشت على الفور، لحظة أخبرتها. لم تعد تنظر إليّ. ولا تستمع. كانت لا تزال جالسة هناك، كما كانت قبل لحظات قليلة، لكنها تلاشت بالكامل».

«آه جاين، أنا آسفة». وغرقت مارني في الكنبة إلى جانبي.

«ما جرى منطقي»، قلت بعد تفكير.

«كلا، ليس منطقيًا، أعني... كيف له أن يكون منطقيًا؟».

«لطالما عشقَت إيما، أليس كذلك؟ وإن كان الأمر خرفًا أو... لكن ما الفائدة؟ لم تكن يومًا موجودة من قبل لتقدّم لي الدعم من أي نوع كان».

خرجت قوقأة مكتومة من حنجرة مارني. «يا لسوء هذا الأمر. إنّه مريع. أعني... يا لمأساتك. لا بد من أن الأمر قد تسبّب بصدمة لك. هل عاودت الذهاب إلى العمل؟».

هززت رأسي نفيًا.

«مكثتِ في المنزل؟ طوال الأسبوع؟ بمفردك؟ لماذا لم...». أخذت يديّ وكانت أظافرها مطلية طلاء زهريًا، وكانت طويلة بحيث أخذت تدغدغ بشرتي بينما تفرك مفاصلي بين راحتيها. «كان بإمكاني أن أقف إلى جانبك، كان بإمكاني أن أهتم بك. أكره أن أفكّر أنّك مررت بهذا كلّه وحيدة».

«لم يكن الأمر على هذه الدرجة من السوء»،

«لا تكوني غبية»، قالت وهي تطرقني طرقة خفيفة على ذراعي. «لهو ضرب من الجنون أن تقضي الوقت وحيدة بعد مثل هذه... مثل هذه الصدمة. أنا دائمًا، لطالما كنّا على بعد اتّصال هاتفي واحد. كان يفترض بك أن تتّصلي بي. لكن الأمر لم يعدّ يهم الآن. أنا هنا. أنا هنا. أنا دائمًا هنا. متى مراسم الدفن؟ هل ستأتي أمك؟ هل تريدين المساعدة في تنظيم الأمور؟ أو في ترتيب شقّتها؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟

«لقد اتّفقت على تنظيف شقّتها غدًا. ثمّة ساكن جديد سينتقل إليها يوم الاثنين. كنت أتمنّى لو لم يستعجلوا الأمور، لكن الطلب متزايد على مثل هذه الشقق، فهي بخسة الثمن، كما تعلمين، و...».

بدأت أودري تتململ وفي غضون ثوانٍ كانت تصرخ. تحوّل وجهها الصغير أحمر مؤلمًا، بينما أقفلت قبضتيها وراحت تضربهما على الأرض، وقدماها الصغيرتان في الهواء.

«آه، أعلم، أعلم»، قالت مارني، وهي تهرع لحملها. «أعلم أنّك بحال مريعة، يا صغيرتي العزيزة». وأخذت تهز أودري على وسطها، تدور بها ببطء، تواجهني في حين، قبل أن تدور دورتها، لكن من دون أن تنظر

إليّ البتة. «أعلم، أعلم». ثم وضعت ظهر يدها على جبين أدوري. «آه يا صغيرتي، حرارتك ترتفع من جديد. كم الساعة؟». ألقت بنظرة خاطفة على الساعة المعلّقة على الجدار، بأرقامها الرومانية الضخمة، وعقاربها المعدنية الرفيعة. «حسنًا، فلنتناول ما يعالج هذه الحرارة. وستعطي ماما الوصفة لخالتك جاين وسنعيدك إلى سابق عهدك في أقصى سرعة».

واختفت الاثنتان في المطبخ.

قالت منادية، «جاين، هلّا تبحثين عن صيدلية مفتوحة؟».

نصحت نفسي بضرورة أن أحافظ على هدوئي، أن ألتزم الصبر، وألّا أقرأ بين السطور حقيقة لم تعد موجودة، بمعنى إحساس التخلّي هذا الذي بدأ يملأ صدري، والذعر الذي يتسلّل عبر مسامي. أجبرت نفسي على القيام بما طلبت مني، ولم أجد إلا صيدلانيًا واحدًا كان لا يزال فاتحًا في المنطقة المجاورة. كان يبعد بضعة أميال عن الشقة، لكنه لم يكن قريبًا من أي محطّة قطارات ولا محطّة باصات قريبة منه أيضًا في المنطقة نفسها. كنت أسمع زعيق أودري، مقابل تفاهات مارني المتواصلة -»حسنًا، الآن. لا تبكي. ماما هنا».- وشعرت بموجة من الغضب تعتريني لكنّني حاولت كبتها.

«إذًا؟»، قالت وهي تعود من المطبخ، وقد قطّبت حاجبيها بينما رحت أشرح لها المشكلة، وكيف أنّني بحاجة لأكثر من ساعة للوصول إلى هناك -عليَّ أن أسير معظم الطريق مشيًا على الأقدام- وربّما أكثر للعودة.

قالت: «آه، ما هذه السخافة، نحن نقطن في إحدى أكبر المدن في العالم ومع ذلك لا أستطيع أن أجد صيدلية لعينة واحدة يمكن أن ألجأ إليها. حسنًا. لا بأس. سأضعها وأهدّئ من روعها ثم أتولّى الأمر بنفسي. سأقود. هذا أسرع. وستبقين مع أودري. أتمانعين؟

هززت رأسي.

«جيّد. اعطني بضع دقائق».

توجّهت إلى الأعلى، فأدرت جهاز التلفزيون وحاولت أن أجد برنامجًا أشاهده، فتعدّدت الخيارات، لكنّني لم أشعر أن ثمّة ما يشدّني إلى مشاهدته. توجّهت إلى البرّاد، فوجدت زجاجة نبيذ أبيض، ففتحتها -لا أعتقد أنها كانت لتعترض على ذلك- وسكبت لنفسي كأسًا صغيرة. نظرت في الخزائن، محاولة أن أجد قرص «دي في دي»، أو كتابًا يبدو ملفتًا، لكن لم يسعني أن أركّز كما يجب. مرّت دقائق خمس. ثم عشر. شرعت أحدّق بسواد شاشة التلفزيون، والفراغ القاتم وسط المدفأة.

قالت مارني وهي تعود مسرعة. «حسنًا، ليست نائمة -أنا على درجة من التعب والوهن لا تخوّلني تصديق أنّه يمكن لنا أنا وهي أن ننام مجدّدًا؛ فهي منهكة بالكامل- لكن أقلّه باتت أكثر هدوءًا. فقد توقّف البكاء، وهذه بداية جيدة». وانطلقت تجمع أغراضها من محفظتها إلى هاتفها ومفاتيح سيارتها تضعها كلّها في حقيبتها الجلدية السوداء. «أعتقد هذا كل ما أحتاجه»، قالت. ثم سحبت معطفها عن المشبك الخشبي في الردهة ووضعته على كتفيها. وأشارت إلى السلالم. «هلّا تتأكّدي من حالها بعد بضع دقائق؟ هلّا تتأكدي أن الحرارة تنخفض؟ ثمّة ميزان حرارة هناك: تلك الميازين التي تستخدم عبر الأذن. إن عجزت عن إسكاتها، حاولي إطعامها. الطعام في البرّاد إن احتجت له. وأكياس الحفاضات تحت السلالم، لكن أعتقد أن كل ما تحتاجين إليه في غرفتها. حسنًا. أنا ذاهبة. سأعود بأسرع ما يمكنني، نصف ساعة على الأكثر. وسنتكلّم بهدوء لدى عودتي. أنا آسفة، جاين. لن أستغرق وقتًا طويلًا».

لم أنبس ببنت شفة. لم أقوَ على التفكير بما أقوله. شعرت بإحباط ما بعده إحباط، وخلته يتحوّل غضبًا، لكنه لم يفعل. كنت حزينة ليس إلا.

وهكذا صعدت، إلى غرفتك.

وبدأت أتلو عليك قصّتك.

لأنّها قصة تستحقّين أن تصغي إليها.

ففي النهاية، هي قصّتك أنت، قصّة ولادتك، قصّة حياتك، والأشخاص الذين قادونا إلى تلك اللحظة. وكان يفترض بها أن تكون قصّة أبيك، قصّة أوجه قصوره، وقصّة وفاته.

وكان يفترض بها أن تكون قصّة أمك، قصّة إبداعها، والأساليب الصغيرة كلّها التي ساعدت حبنا على تخطي الصعاب. كانت يفترض بها أن تكون قصّة تطمئنني، قصّة تذكّرني، وتخفّف من روع هذه الأمسية التي لا تغتفر.

لكنّها لم تكن كذلك، ولم تصبح كذلك.

الفصل الثاني والأربعون

كثيرة هي الأمور التي تجعلكِ تشعرين بحال أكثر سوءًا بينما يفترض بها أن تحسّن من حالك. الأكل الجاهز على سبيل المثال. يكون رائعًا لحظة تتناولينه: صلصة البندورة الحادّة التي تشكل أساس البيتزا، أو صلصة المانغو الحمضية مع عجينة البابادوم الهندية، أو فطائر البط المقرمشة. لكنّك تشعرين بثقلها لاحقًا. لا يسعك أن تستمتعي بطيب طعمها بعد حين كما خلت نفسك قد تفعلين قبل أن تتناوليها. لقد استبقت أن حديثي مع مارني سيأخذ منحًى مغايرًا كليًّا. لم أتوقع أن أشعر بهذا السوء بعده.

لأنّني خلتني أعرفها. لو سألتني، لكنت قلت إن بوسعي أن أتوقّع بكل دقّة ردها على أي حديث كان. لكان بوسعي أن أقول لك، على سبيل المثال، إنّها تحب لحم البرغر أن يكون متوسّط الاستواء، مع جبنة زيادة ونعم لو سمحت أضف البندورة. أستطيع أن أقول لك إنّها كانت لتكوّر عينيها وتنظر في الاتّجاهات كلّها لو سألتها عن أهلها، بغض النظر عمّن قد يكون السائل، وبغضّ النظر عن السؤال بحد ذاته. أستطيع أن أقول لك إنّها تسلّم نسختها بعد انقضاء مهلة التسليم، لكن بساعات قليلة لا أكثر. أستطيع أن أقول لك إنّها لن تعاود الاتّصال بك، ولا داعي لترك أي رسالة صوتية، إذ لن تستمع إليها على الأرجح. أستطيع أن أقول لكِ إنّها لا تستطيع -ولا يمكنها أبدًا- أن تأكل الخيار الصغير المخلّل، وإنّه يسعدها لو تتناولين الخيار الموجود في صحنك سريعًا حتى لا تتأمّله طويلًا.

كل هذه الأمور لا تزال صحيحة.

ومع ذلك، فإن الحديث لم يجرِ كما توقّعته. لقد قمت بوضع نصّه، من طرفينا، على نحو ممتاز -مخاوفها، ودعمها، وكيف ستركّز انتباهها عليّ- لكنّها من دون سابق إنذار، قامت بالارتجال.

أشعر بالإحباط. أشعر بالخوف. أعتقد بأنّني مربكة.

أعلم أنكِ لست بخير. ولستُ غبية. أفهم أن مسؤوليّتها تقضي بضمان توفير الدواء المناسب لك، والعناية المناسبة لك، والاهتمام بك اهتمام الأم بابنتها. لكن أن تقاطعني في منتصف جملة، وتنتقل بهذه السلاسة إلى موضوع آخر، وتقلّل من شأن خسارتي بهذه العلنية، واللاتعاطف؟ لا أعتقد بأن تلك أمور يفترض بصديقة مقرّبة أن تقوم بها. أليس كذلك؟

أرسلت لي رسالة قبل أكثر من ساعة، تقول فيها إن الصيدلية مغلقة، وأنه توجدإشارة على الباب تفيد أن ثمّة «**حالة عائلية طارئة- نفتح يوم الاثنين**» وإنها ستبحث عن صيدلية أخرى. عندئذ، أطفأت هاتفي لأنّني أردت أن نكون بمفردنا معًا، أن تكون قصّتنا، ولأنّني كنت بحاجة لبعض المساحة لأفكّر، ولأكشف عن معاناتي بمفردي.

لطالما قال والدي إنه عندما تقع في حب أحدهم، عليك أن تبذل قصارى جهدك كي تحبّه بدرجة أقل من الحب الذي يبادلك إياه. فتلك الطريقة الوحيدة التي تحمي فيها نفسك، بحسب ما كان يقول.

لكن الوقت قد تأخّر على هذا الآن. هل بوسعي أن أغادر هذه الشقة بعد ساعات قليلة من غير أن أستدير لأنظر ورائي، ومن غير أن أرى أيًّا منكما مرة أخرى؟ لا أخالني قادرة على القيام بهذا. كم يصعب التخلّي عن حب بهذا الحجم. لا يسعني أن أفك الخيوط التي تنسج عقده داخل أضلعي ومفاصلي وعضلاتي. وحتى لو استطعت إلى ذلك سبيلًا، من قال إنّني أريد القيام بذلك؟

على كل الأحوال، أبي كان مخطئًا. أعتقد أنك عندما تحبّين شخصًا

إلى هذه الدرجة، فعليك أن تفعلي ما بوسعك وما يتطلّبه الأمر حتى تجعليه يحبّك بالدرجة نفسها. وأنا أحبّها: أحب انفتاحها، ودفئها وثقتها والشعاع الذي ينبعث منها. ولم يتغيّر أي من هذه الأمور. لكنّها لم تعد كافية. هي لا تزال منفتحة - لكن معك أنتِ - ودافئة - لكن معك أنتِ - ومحبة - لكن معك أنتِ.

لم تعد تبعث بشعاع يبلغني أنا.

هل يحق لي أن أقول إنّني أتمنّى لو أن أمّكِ أحبّتني كما أحبّتك أنتِ؟

ربّما لا.

لكن هذه هي الحقيقة.

لأنها كانت تحبّني في السابق. معًا اكتشفنا معنى الصداقة، وأدركنا أنّها مختلفة، وأفضل من علاقاتنا مع أولئك الذين كانوا مجبرين على مبادلتنا الحب. اكتشفنا أن حبّنا يشكل المرساة التي تثبتنا في حياتنا. لكن، ها نحن بعد سنوات خلت، نتخلّى عن مرساتنا. أتمنّى لو أستطيع أن أقول لك إنّك لن ترتكبي الأخطاء نفسها، لكنّك ستفعلين، لأنّنا كلنا نفعل. كلنا نضحّي بأفضل ما نملك من حب، بحثًا عن حب أفضل.

آه.

آه، كلا.

هذا ما في الأمر، أليس كذلك؟

لم أكن أدري أن ثمّة المزيد. لم أستطع أن أراه.

لكنّني محقة، أليس كذلك؟

كم بات الأمر منطقيًا الآن.

تحرّرين نفسك من عائلتك، ثم من أصدقائك، طرفًا بعد آخر، عظمة بعد أخرى، ذكرى بعد أخرى، بينما يصبح كلّك الواحد جزءًا من كلّين، جزءًا من حب رومانسي. خلت هذا هو الأمر: المرحلة النهائية. لم أتنبّه إلى أن النمط نفسه يعاد تكراره مرّة أخرى. وأنّه ليس عقدة في طرف

حبل، بل دائرة، وأن كل مرحلة تغذي المرحلة التالية لها، إلى أن يخلص بك الأمر واقفة في نقطة البداية: وتعودين، مرّة أخرى، إلى عائلتك.

تعدّين لنفسك أطرافًا جديدة وعظامًا جديدة وتتخلّين عن حالك كشخص واحد، لأن هذه المرة، لقد أصبحت فعلًا شخصين. فهيكلك العظمي يحوي حياة أخرى. حياة موجودة ضمن وجودك أنت. ولا يمكن أبدًا وضع حد لهذه الأمور. فتلك الأطراف والعظام -هذا الكيان الجديد- سيتواجد ما وراء جسدك، بينما يعيش جزء منك خارج نفسك ما حييتِ. قلبك أضحى قلبين الآن، وأحدهما في مكان آخر.

لم أتنبّه للأمر من قبل.

لكن المشكلة فيكِ أنتِ.

لقد فككتِ أواصر تلك الصداقة، بقدميك الصغيرتين وذراعيك الصغيرتين وذلك القلب الصغير الذي ينبض في صدرك. لقد خلقتِ ذلك الحب الجاحد الذي لا يكلّ ولا يُحدث أي توازن.

خلت في بداية الأمر أن المشكلة بي أنا -خطأ ما قد ارتكبته- لكنّني كنت على خطأ، المشكلة ليست بي على الإطلاق.

هل تذكرين المرأتين في بداية هذه القصة؟ الأولى الطويلة الفاتحة اللون، والثانية القصيرة السمراء، وقد وجدتا كلاهما الراحة، الواحدة في رفقة الأخرى؟ هل تذكرين أغصانهما القوية، وجذورهما الطويلة المتشابكة؟ ها أنا أتفرّج على هذه الشجرة تتهاوى لتختفي. لكنّني أستطيع إعادة إحيائها. لقد خسرت حبّي الرومانسي ثم سحقت حبّها. ووجدت سبيلًا لنا نستعيد فيه صداقتنا. أريدنا أن نكون أكثر صلابة مما كنّا عليه من قبل، وثمّة سبيل واحد أوحد لتحقيق هذا.

عليّ أن أعيد الكرّة.

قد يبدو الأمر على شيء من المبالغة. ألا يبدو مبالغًا به؟ لكن إن لم أقم بأي خطوة، فسأبقى عالقة هنا، في هذه الحياة الرهيبة المقيتة التي

يتخلّى فيها الناس عنّي طوعًا لأنّني بكل بساطة لا أستحق أن يعيش أحدهم لي، وهذه ليست الحياة التي أريدها لنفسي. ثمّة درب واحدة تقودني إلى هناك، إلى حياة تستحق أن أعيشها. وأنا آسفة، لكنك لست في هذه الحياة.

«اتّصلي بي إن واجهتك أي مشكلة»، صرخت قبل أن تختفي في الممر، وهي لا تزال تضع ذراعها الأخرى في معطفها. ثم استدارت عند الزاوية ونادت في شبه أغنية، «اهتمّي جيدًا بطفلتي».

«سأفعل»، أجبتها، قبل أن تغلق الباب وراءها.

أعتقد أن تلك كانت كذبتي السابعة.



الفصل الثالث والأربعون

في يوم من الأيام، كنت على وشك أن أرزق بطفلي أنا أيضًا.

أذكر الليلة التي فقدته فيها. كان من الممكن أن يكون هي، لكنّه كان دائمًا هو بالنسبة لي. لم أعرفه إلّا لليلة واحدة حصرية.

كنّا قد خرجنا لتناول العشاء مع بعض الأصدقاء - عدد قليل منهم. وكنت قد دعوت مارني. أما جوناثان، فقد دعا دانييل وبين، وهما رفيقاه منذ أيام المدرسة؛ لوسي زوجة بين، وكارو، التي كانت المرأة الوحيدة في مجموعتهم لركوب الدراجات الهوائية. كانت أمسية جميلة. زرنا خلالها مطعم الكاري المحلّي وطلبنا كمّيات مهولة من الطعام وزجاجة جعة تلو الأخرى، وأنهينا الأمسية بأقداح الليكور. عانقنا بعضنا البعض لحظة الوداع، وقد أخبرتني مارني أن لديها أخبارًا حماسية سارة، وأن لا بد لنا من اللقاء للتحدّث، وأنها التقت رجلًا جديدًا وأن الأمور تجري جيدًا ومتى يمكننا الكلام؟ أما كارو وصديقتها فكانتا مغادرتين في الصباح التالي لركوب الدراجات عبر فرنسا، وقد وعدت بإرسال بطاقات بريدية لنا. بين ولوسي كانا يستضيفان أهليهما على العشاء في عطلة نهاية الأسبوع التالية وكنا كلّنا نعرف، مع أن أيًا منّا لم يثر الموضوع، أن بين سيتقدم بطلب يدها خلال الأسابيع القليلة المقبلة.

كانت أمسية طبيعية: أمسية مرحة رائعة طبيعية. أفتقدها بحق، تعلمين. عندما تمسحين بنظرك غرفة أو تنظرين إلى طاولة وتدركين أنّك محاطة بأشخاص يحبّونك، أشخاص يحتاجونك، أشخاص يختارونك. أفتقد لهذا الشعور، شعور أن أكون محظوظة على نحو لا يسعني توقّعه أو تخيّله. لقد مضى وقت طويل مذ أحسست بهذا الشعور.

تلك الليلة لم يتوقّف النزيف. جلست على كرسي المرحاض، في حمّامنا الصغير، وقد ثارت ثائرة التشنّجات في معدتي، تنبض بلا هوادة داخلي. رفعت ثوب نومي إلى خصري وأنزلت ملابسي الداخلية إلى حدود كاحليّ لأجد بقعة حمراء قانية.

أذكر الدموع تنهمر حتى ركبتيّ، قبل أن تسيل على بطّتيَّ. لم أكن على علم أنّني حامل، لذلك لا أخالني كنت أبكي طفلي الذي فقدته، لكنّني كنت خائفة، أرتعش، جسمي يرتجف كاملًا. ثم شعرت بالغضب يعتريني فجأة. أذكر ذلك الصوت الرهيب، ذلك الهدير المريع، من عمق أعماقي، صوت عصف في عظامي وملأ الحمام البارد الصغير.

«جاين؟»، أستطيع أن أذكر كيف ناداني. أستطيع أن أذكر كيف بدا صوته: أستطيع أن أسمعه الآن كما لو كان لا يزال هنا. «ما الأمر يا جاين؟».

تجاهلته إذ ما من كلمات تشرح له ما أنا فيه.

«جاين. أرجوك. افتحي الباب».

لم أتفوّه بكلمة.

صرخ: «جاين! افتحي الباب. الآن».

لم أفتح. ما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى رأيته أمامي داخل الحمام ترافقه جلبة وضجيج، بينما الباب قد اهتز عند مفاصله وتفتّت الخشب حول القفل وسقط أرضًا. أذكر أنه كان يرتدي سروال جينز داكن الزرقة. لم يكن يرتدي حزامًا فبدا السروال رخوًا عند خصره، بالكاد يعلق عند وركيه. وكانت بلوزته الرمادية مبقّعة عند طرفها: طلاء أصفر على ما أعتقد. كان فكّه مشدودًا وعيناه ثابتتين شاخصتين ولكن شفتيه بدتا صغيرتين خائفتين.

قال وهو يجثو على الأرض أمامي: «لا بأس، ستكونين بخير».

انحنى إلى الأمام وطبع قبلة أعلى رأسي. كان رجلًا طيّبًا، أفضل رجل

على الإطلاق. أذكر كيف عرض عليَّ أن أمسك بيديه قبل أن يلاحظ أن يديَّ مبلّلتان بالدماء، فارتعش لا إراديًا ثم أجبر نفسه على التماسك. لأنه أرادني أن أعلم، على الرغم ممّا حصل، أنّه لا يزال معي، وأن ما بيننا رابط -رابط دائم- لا يسعه أن يتداعى وإن للحظة.

وقف ورفع ردائي فوق رأسي.

«سأحضر لك بعض الملابس الداخلية النظيفة»، قال لي. «واضح؟ هلّا تبقين حيث أنت؟».

أومأت برأسي، فابتسم؛ ابتسامة خجولة ناعمة تقول لي إن لا داعي للذعر.

ثم سمعته يهرع باتّجاه خزانتي. أعتقد أنه لم يكن يريد أن يبقى بعيدًا عنّي لفترة طويلة. عاد مع سروال تحتي قديم كان أبيض في السابق وقد تحوّل رماديًا، ورداء للنوم قطنيًا سميكًا.

هل تريدين شيئًا لـ...؟». وألقى نظرة خاطفة على الملابس الداخلية النظيفة في يده.

أومأت برأسي إيجابًا وأشرت إلى الدرج تحت المغسلة.

«هذا؟». كان يحمل في يده علبة فوط صحية موضّبة في كرتونة زهرية اللون.

أومأت برأسي من جديد.

«هل تريدين أن...». كانت عيناه تتوسّلانني، وكأنّهما تقولان أرجوك، يمكنك القيام بذلك بمفردك، ولئن أبتسم الآن عندما أفكّر أنه كان مستعدًّا لأن يقوم بالأمر لو طلبت منه ذلك. نحا بوجهه جانبًا، فمسحت بين ساقيّ، المرّة تلو الأخرى. وواصلت إلى أن أحسست أنّني أصبحت أكثر جفافًا، لكن ليس نظافة. استبدلت ملابسي الداخلية وفتحت ساقيّ كي أثبت النسيج بينما أضع الفوطة الصحّية مكانها.

وضع جوناثان خرقة قطنية تحت الصنبور. ثم مسح يديّ، الواحدة

تلو الأخرى، بين أصابعي، وبرفق حول الخاتم الذي قدّمه لي. وقفت، فمرّر رداء النوم فوق كتفي.

«أحتاج لسروال»، قلت له.

«»سروال أيضًا؟».

أومأت مجدّدًا.

«حسنًا، اذهبي إلى السرير وسأجده».

مشيت في الغرفة، وساقاي لا تزالان دبقتين، والفوطة قد بدأت تمتلئ. سحبت الملاءة وغرقت تحتها، وقد فاجأني مشهد يديّ نظيفتين، لا تشوبهما شائبة.

أعطاني جوناثان سروال بيجاما خاصًّا به. كان السروال أحمر وأخضر مع حزام مطاطي عند الخصر. كان يرتديه طوال الوقت: في الصباح عندما يشرب قهوته ويقرأ الجريدة، وفي المساء عندما نتمدّد على الكنبة نشاهد الأفلام. لا أزال أحتفظ به.

«لكنه سيتسـ...»،

هزّ برأسه، وقاطعني: «لا يهم».

لم أكن على علم أنّني حامل. أخذت أفكّر في عطلات نهاية الأسبوع السابقة -الأماكن التي زرناها والأشخاص الذين التقينا بهم- فأدركت أنّني قد أكون حاملًا منذ شهر أو شهرين لكنّني كنت منشغلة وسعيدة فلم أتنبّه للوقت يمرّ على الإطلاق.

لم أكن أعلم -وقد وجدت صعوبة وقتذاك في تصوّر الأمر- لكنّني شعرت كما لو أن عدم تنبّهي للأمر قد حرمني تلك التجربة. كنت حزينة، لكنّني لم أستطع تبرير هذا الحزن، إذ كيف تفتقدين شيئًا لم يكن يومًا؟

ومع ذلك، في الوقت نفسه، كان فعلًا شيئًا، لا يهم إن كان كبيرًا أو صغيرًا، لكنه كان شيئًا. لقد رأيت الشخص الذي قد تتحوّل إليه يومًا ما تلك الخلايا. رأيت صبيًا صغيرًا يشبه جوناثان. رأيت صبيًا صغيرًا على

دراجة صغيرة شعره فاتح اللون وذقنه مستدق. رأيت صبيًّا صغيرًا أراد أن يمسك بيدي، وكان يتأرجح بيننا، ويكبر ليتخطّانا، وكان محبوبًا ويعرف ذلك تمام المعرفة.

بعد أسابيع قليلة، عاد جوناثان من آخر جولة ركض له، كانت آخر تحضير قبل سباق الماراثون. كان قد استعاد شعوره بالراحة في حضرتي؛ فأقلع عن التوقّف قليلًا كلّما دخل الغرفة، واستراق النظر باتجاهي كل بضع دقائق. تناول طعام العشاء على الكنبة، وبما أن الأحاديث الصعبة أكثر سهولة عندما نكون جالسَيْن جنبًا إلى جنب، أخبرته بما أريد. أريد ذاك الصبي الصغير الذي يشبهه.

فابتسم ونظر نحوي وقال إنه يريد الأمر نفسه أيضًا.

أعتقد أن مارني كانت لتحبّ ذاك الصبي. أعتقد أنّها كانت لتحضر له الهدايا وتخطّط للمغامرات وتعلّمه الطهو. أعتقد أنّها كانت لتكون أفضل معه ممّا أنا معكِ.

كلّا.

أنا على يقين أنها كانت لتكون أفضل معه ممّا أنا معكِ.

لا يسعني إلا أن أقرّ أنّني أشعر ببعض الإثارة.

لأننا، بعد هذا، من دونكما أنتما الاثنين، لن يكون بإمكان أحد فصلنا.



الفصل الرابع والأربعون

أنت تنامين في مهدك الصغير. تتلهّين باللعبة التي تتدلّى من السقف، ونجومها الرمادية والبيض تتراقص. لقد جعلَتها جميلة، هذه الغرفة، ومثالية لكِ. الستائر العاجية اللون مزيّنة بعصافير جميلة. والرفوف تتكدّس عليها كتب وألعاب وصور حيوانات زاهية بأطر بيض لمّاعة. كم أنتِ محبوبة.

أرى أمّك فيكِ، في كل ما فيكِ. في الشفاه الزهرية الصغيرة التي تستقر نافرة في وجهك، وتناسب البيجاما الزهرية التي ترتدينها. وفي زرقة عينيكِ. وفي قبضتيك اللتين تفتحينهما وتغلقينهما وقد عيل صبرك بينما تنتظرين إطعامك مرة أخرى قبل أن تخلدي للنوم.

ولا أرى فيك والدك إلا بساقيك الطويلتين، وفخذيك القويّتين. أذكر أنّني كنت أراقبه بينما كان ينطلق في حياته وفي كل جانب من جوانب النجاح. تعلمين، كان رجلًا محظوظًا. كان يملك كل المزايا وثروة فاحشة، وسحرًا يبدو وكأنه يوحي بالثقة.

كان الجميع يسعى لأن يرى ابتسامته، أو يُضحكه، أو أن يكون الشخص الذي يُحدث أمرًا إيجابيًا له. يا لها من ميزة أن تكون شخصًا يسعى الآخرون لكسب إعجابك. أفترض أنّني كنت أتمنّى لو أمتلك بعضًا من سحره هذا.

يصعب أن أصدّق أن وقتنا معًا قد شارف على نهايته.

أريدك أن تعلمي أنّني أحببتك بادئ ذي بدء، قبل أن يراكِ أحد أو حتى قبل أن أتعرّف إليك. لقد رأيتكِ أولًا. أحببتك في تلك المساحة بين

الحياة واللاحياة، عندما اجتزت المسافة الفاصلة بين شيء لم يكن بعد وشيء سيكون إلى الأبد. لكنّني لم أعرفك بحق بعد تلك المرحلة، لم تسنح لي الفرصة لأن أحوّل ذلك الحب البدائي إلى حب أكثر جوهريًا. أردت ذلك، حقًّا. لقد خطّطت لحياة معًا.

ها أنت على وشك أن تنامي. أنا آسفة؛ أعلم أن الوقت قد تأخّر. سأكون سريعة.

لست خائفة ممّا قد يحصل. إن ساءت الأمور -وأعلم جيدًا أنها قد تسوء- فسأكون في الحالة نفسها التي أنا عليها الآن. سأكون لا أزال وحيدة.

لكن هل سيفكّر أحدهم بطرح أسئلة؟ مأساة أخرى على حافة حياتي؟ لا أعتقد ذلك.

وكما قلت، أنا واحدة من هؤلاء الناس. وأفترض أن مارني هي واحدة منّا نحن أيضًا الآن.

كانت الوسادة هدّية تلقّيتها. كانت تعود في ما مضى لأختي. أعطيتها إيّاها عندما ذهبت إلى المستشفى، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها. أنا صنعتها بنفسي. الأمر مضحك الآن، أعلم ذلك. هل تتخيّلينني جالسة أمام ماكينة خياطة؟ والكعكة المنسوجة عليها هي مزحة. لقد أعجبت أختي، لكن أبي وأمي أصيبا بصدمة. لم يصدّقا أنه يمكن لي أن أكون على هذه الدرجة من انعدام الإحساس، بينما كانت هي على هذه الدرجة من المرض، وقد أسعدنا أن نراهما غاضبَيْن. أعطتك الوسادة عندما ولدت. كانت أمك قد أحضرت هذا الكرسي الهزاز، بخشبه الأبيض اللمّاع، وقالت إنها تحتاج لشيء أكثر، شيء يبعث ببعض الإنسانية، شيء يبعث على الحب.

حسنًا.

توقّفي عن التململ. توقفي الآن.

لقد حان الوقت.

الحقيقة

الفصل الخامس والأربعون

الوسادة في يدي -نسيجها الخشن، قلبها المبطّن- وأنا أخفضها ببطء، أسيطر على الوضع بالكامل. لكن باب الشقّة الرئيسي يفتح باندفاعة محمومة فيدور حول نفسه وحول مفصلاته، ويرتطم بالجدار، وسلاسله تتأرجح قبل أن يصدر صوت طرق قوي وهو يغلق من جديد على نفسه. في تلك اللحظة تحديدًا، تدخل الشقة في حال من القفز الحرّ. ثم وقع خطواتها على السلالم، ومن الواضح مباشرة أن ثمّة خطبًا ما، لأن الخطوات سريعة، تطرق طرقًا، كما لو أنها لا تبالي بمحاذرة التشقّقات، تلك الأخشاب المتخلخلة، التي قد توقظ الطفلة.

عندما ظهرت عند باب الغرفة، بدت في حال من الجنون، وشعرها يتساقط على وجهها، يلتصق ببشرتها. كان وجهها أحمر، وعيناها مبلّلتين، متّقدتين شررًا، محمرّتين دمًا، تومضان كما الفراشة في حال عراك، ورموشها ملتصقة بفعل الدموع. كانت تحاول أن تتنفّس، أن تهدّئ من روع نفسها، لكنها لا تجد سبيلًا لذلك، والصوت الذي يصدر منها ضعيف، كما لو أنه همس.

هجمت نحو المهد، وقطرات الرطوبة تتسرّب من على سطح معطفها إلى سترتي، نزفًا على بشرتي. «جاين!»، كانت تعوي. «ماذا فعـ... أودري؟»، انحنت على سريرها. «حبيبتي؟». كان حزام معطفها مفتوحًا؛ يتدلّى وصولًا

إلى بطّتي قدميها، فيقطر ماء على السجادة. التفّت يداها حول ابنتها، وفي تلك اللحظة، سقط شيء ما من جيبها، وتدحرج على الفرشة. تقدّمت قليلًا، لأرى بوضوح أكبر، وإذ بمفاجئة تنفجر أمامي، تحبس أنفاسي.

كان هاتفًا.

وكانت تلك الغرفة.

وكنت أنا، في نسخة مصغّرة، معكوسة على الشاشة. اقتربت من المهد، لأسوّي شكلي في إطارها، فتحرّكت معي نسختي المعكوسة، ترافقني مع كل حركة مني.

«ما هذا؟».

لكنّني لم أكن بحاجة لأن أسأل، فقد شرعت أمسح الغرفة بحثًا عن الكاميرا، إلى أن وجدتها: جهاز هاتف آخر، موضوع على الرف إلى جانب الحيوانات المحشوّة والكتب المكدّسة.

الصدمة بحد ذاتها غير قادرة على تقليد نفسها، كما الفيروس الذي يعتمل داخلي، يتصاعد من معدتي حمضًا قاتلًا.

قالت: «سمعتك، يا جاين. سمعت ما قلت. كنت أتحقّق من وضعها وأنا في الصيدلية. أردت أن أرى إن كانت بخير. واستمعت في طريق عودتي إلى المنزل. ولو لم أسرع...». أغمضت عينيها، وعصرتهما، وعضّت على شفتيها. «كنت تتكلّمين عن تشارلز، عن الليلة التي مات فيها، ثم...». سرت قشعريرة في جسدها، وردًا على ذلك، قرقرت أودري، وراحت تركل بقدميها، فيهتز لحم ساقيها.

«ليس الأمر كما تخالينه...». لكنّني لم أجد كلمات أنهي بها جملتي، ولا وسيلة أمحو بها ما وقع.

همست: «لا تفعلي، كذبة أخرى؟ هل هذا ما تبحثين عنه؟ كم كنتُ...».

«مارني، أنا...».

«سمعت كل شيء يا جاين. سمعت أنك أنهيت عملك باكرًا يوم مات. كم شعرت براحة لأنك هنا، أن أسمع صوتك في هذه الغرفة. ثم -ما كان الأمر؟- تملكين مفتاحًا. ولم أفكّر في سؤالك عن الأمر بداية؛ لطالما افترضت أنّك أفضل شخص، ولم أشكّك بك يومًا، ولا مرّة واحدة في -كم؟- عشرين عامًا».

«أستطيع أن أشرح لك، أستطيع...».

«جاين»، قاطعتني صارخةً.

ارتعشت بفعل الصوت الذي يحدثه وقع اسمي، كما نباح كلب، عندما خرج من عمق حنجرتها. أدركت عندئذ أن لا سبيل لطمس الحقيقة: لا مجال لمزيد من الأكاذيب.

«أريد منك أن تتركي هذه الوسادة»، قالت.

كانت لا تزال في يدي، أمسكها إلى جانب فخذي، فتركتها تسقط على الأرض.

خرجت من الغرفة. الظلمة حالكة في الخارج، لا ضوء غير أنوار الشارع التي تعكس أشكالًا على الرصيف، وهذه الغرفة غريبة جدًا من دونهما فيها. أشعر ببداية حزن مهول يجتاحني ومع ذلك لا يزال الوقت باكرًا كي أتخيّله في صورته الكاملة. أتبعها.

تقف هي أعلى السلالم، تنظر إلى الأسفل، وكمّ معطفها يرتجف، قليلًا، على نحو غير ملحوظ، وأعلم أنها تشعر الشعور نفسه: ذلك الخوف الذي لا شرح له.

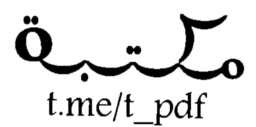
لقد لمس كل منّا طرف كل خيط ونصّ تفاصيل حياة الآخر. لذلك، فإن كان من المخيف أن نتعايش مع هذا الواقع، لا بد من أنه من المرعب أن نخسره. ثمّة أمل داخلي، أحس به في هذه اللحظة.

قرقرت أودري -وكأنّها تقهقه- والتفّت قبضتها حول خصلة شعر كستنائية اللون. سحبتها واستدارت مارني نحوي. كانت وجنتاها ورديتين، تخطّهما خيوط من الماسكارا السوداء. أما عيناها، فمنتفختان، وأطراف شفتيها ذائبتان وسط بشرتها المحيطة.

أعرف تلك الملامح تمام المعرفة، وفي أدق تفاصيلها. ومع ذلك، بدت لي بطريقة أو بأخرى غير مألوفة البتة. ثمّة شيء جديد ههنا، شيء إضافي.

قالت في النهاية: «غادري، اخرجي».

تتمة



بعد مرور أربعة أعوام

الفصل السادس والأربعون

جاين تجلس في سيارتها -لقد تعلّمت القيادة في السنوات التي مرّت- وقد ركنتها بين ملعب المدرسة وخط سكك الحديد. لقد استيقظت قبل ساعات -عند الثالثة فجرًا، أو ربّما الرابعة- ولا يزال الوقت باكرًا الآن. الشمس تسطع على زجاجها الأمامي، وهي تشرق بطيئة بين مباني المكاتب عند طرف الشارع. تُرجِعُ كرسيها إلى الوراء وتسحب ملاءة من المقعد الخلفي تضعها على قدميها. يمر قطار سريعًا أمامها، محدثًا جلبة على سكّته: هو أحد أوائل قطارات هذا النهار. نوافذه المقفرة تلمع معًا.

تذكر جاين يوم كانت تسافر بالقطار -كانت تستقل القطار طوال الوقت- وقد شعرت بسكينة لانتقالها للعيش في الضواحي الآن، في بلدة تبعد ثلاث محطّات عن نهاية سكة الحديد، من غير أن تشعر بالحاجة الملحّة لزيارة المدينة. تملك شقّة -لا شك في أن أختها كانت لترحّب بالفكرة- في منزل أشبه بالقصر قد أعيد توزيعه، ليتحوّل إلى شقق سبع، مزيّنة كل واحدة بالرمادي والأبيض. كانت تحب التداخل؟؟؟ القاتم ما بين القديم والجديد: الموقد بتناظره المثالي، وأدوات المطبخ البيض الأنيقة، وألواح الأرضية البلاستيكية المتشابكة. تأمل أن تكتنف

الجدران قصصًا مخبّأة، أسرارًا صامتة وراء لوح من الجص وطبقة من الطلاء الجديد.

أسرارها الخاصّة بالغة الهدوء الآن. هناك لحظة شعرت فيها بالرعب، بعد أن تداعت الأمور، لكنّها حافظت على رباطة جأشها. قالت للشرطة إنها لم تتفوّه بأي كلمة من هذا القبيل -»اعتراف؟ بالطبع لا!»- وإنّه من المعيب أن جهاز رصد الأطفال لم يكن مصمّمًا لحفظ التسجيلات، وأنه لا يسمح للأهل إلا بالنظر والإصغاء في حينه، لكن حتى لو كان يقوم بالتسجيل، فكان ليثبت صوابية كلامها.

لطالما كانت كاذبة بارعة.

أصرّت مارني لأشهر عدة، وهي تتوسّل الشرطة أن تقوم بالمزيد، وأن تواصل تحقيقاتها رسميًا، لكنهم، بحسب ما قالوا، لم يجدوا أي دليل، وما هم أمامه هو كلمة امرأة في مواجهة أخرى. لكنهم اتصلوا بجاين مرة أخرى -ربّما رضوخًا لشكاوى مارني ليس إلا- وقد بدا رجال الشرطة وكأنهم يعتذرون وهم يعيدون طرح أسئلتهم من جديد. وفي نهاية الاستجواب، تكلّموا عن الخسارة والانكسار وكيف أن للعقل أهمّية لا تفوقها أهمية. وقد أومأت جاين برأسها موافقة، ولم تكن بحاجة لتغيير ملامحها لتعكس تعابير الأسى، إذ كان حزنها حقيقيًا هذه المرة.

الشاي في الترمس على أرض السيارة أمامها، فأخذت رشفة منه. لا يزال دافئًا. أخذت تنظر بينما يقود رجل بمعطف سميك سيّارته أمامها، فيشير ويتوقّف عند أبواب المدرسة. يخفض نافذته، يخرج بطاقة صغيرة، فتفتح الأبواب الحديدية. بعد ذلك، تصبح الطرق أكثر اكتظاظًا. يعبر المشاة في طريقهم إلى المحطة. يركن المعلّمون سياراتهم ويخرجون أكوامًا من الأوراق عن المقاعد الجانبية، قبل أن يحثّوا خطاهم إلى دفء صفوفهم. إنه اليوم الأول في الفصل، وثمّة عذوبة تميّز هذه الإجراءات.

جاين لا تزال تبحث عن شعر كستنائي اللون، ملفوف لفائف حمر

وذهبية، يتساقط بعضها إلى الأمام. لا تبحث جاين أبدًا عن شعر أسود قصير، ومع ذلك، فهي تراه في كل مكان، إنّما ليس أسود بما يكفي، ولا ذلك الوشم نفسه. تمسح الجموع بناظريها بينما يبدأ الأطفال بالوصول، لكنّهم أكبر سنًا قليلًا، يرافقهم أهلهم الذين يلوّحون بأيديهم لحظة الوداع عند البوّابة. تغرق جاين قليلًا في مقعدها الأمامي، وهي تلوي ساقيها، والناس يمرّون على تماس مع سيّارتها: أولاد على درّاجاتهم الصغيرة، وأهل يسوقون عربات وأطفال.

تنظر جاين إلى الأعلى فتجدها أمامها: مارني تقترب من المدرسة من الجهة المقابلة للبوّابة. كانت ترتدي سروالًا أسود فضفاضًا يصل إلى الكاحلين، وحذاء رياضيًا أبيض. وكانت تغلق معطفها الأزرق حتى الياقة وتمشي كما مشت دائمًا: واثقة الخطى، تضع هدفًا نصب عينيها، لا تخشى أمرًا. تتكلّم، فتشعر جاين بالغيرة تتسلّل إليها، لأنها قد ألفت جيّدًا حركة هاتين الشفتين، وارتفاع الخدّين وتراجعهما، حركة ذلك الفك الحماسية.

أودري تمشي إلى جانب مارني، ترتدي معطفًا أحمر اللون وحذاء أسود لمّاعًا. تعتقد جاين أن شعر أودري الكستنائي اللون قد خضع مؤخّرًا لقصّة حديثة؛ فهو يصل بكل ترتيب إلى ذقنها. تحمل حقيبة صغيرة حمراء تتدلّى من يدها وتضع قبّعة حمراء أيضًا على رأسها.

لدى جاين هذه القبّعة أيضًا. قبل أسابيع قليلة، تبعت مارني وأودري إلى المحلّ الذي يبيع أغراض المدرسة في الشارع العريض. خرجت مارني من المحل محمّلة بأكياس الزي المدرسي، وكانت أودري تسبقها وهي تعتمر بكل حماسة تلك القبعة. هكذا فعلت جاين، إذ دخلت المحل واشترت القبّعة نفسها أيضًا، بعد أن أخبرت قصة ابنتها التي فقدت قبّعتها العام الماضي. أرادت أن تشعر بالنسيج -النسيج الخشن- بين أناملها.

عند البوّابة الأمامية، تنحني مارني وتُسِرّ أمرًا لأودري. تنظران إلى

المعلّمة، التي كانت تبتسم بدورها مرحّبة بالتلامذة الجدد ومطمئنة الأهل. مارني متوتّرة. يمكن لجاين أن ترى شفتيها المزمومتين، وكيف تضع يديها حول وسطها. تريد أن تكون إلى جانب صديقتها، لأنها تعلم أنها تحتاجها في لحظات مماثلة.

لكن أودري لا تبدو قلقة على الإطلاق. المعلمة تحثّ مارني على المغادرة -تشير إليها بيدها- حتى تستطيع أودري الدخول، فتسير مارني بعيدًا على مضض. تستدير وتلوّح بيدها مرّات عدة قبل أن تبلغ الزاوية في نهاية الطريق وتختفي.

عندئذ، تبدو أودري وكأنّها ضائعة بعض الشيء. تنظر من حولها.

لا تستطيع جاين أن تذكر يومها الأول في المدرسة الابتدائية. إنّها على ثقة كاملة أن أودري لن تذكر هذا اليوم بعد عشرين عامًا. لكن، إن فعلت، فلن تذكر على الأرجح أنّها رفعت نظرها ورأت امرأة تجلس في سيارة حمراء تنظر إليها. لن تذكر أن هذه المرأة ابتسمت ولوّحت لها بيدها.

لن تذكر أنها تبتسم دائمًا. أنها تلوّح دائمًا بيدها.


t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

حبكة مليئة بالمفاجأت، تقدّم إليزابيث كاي رواية مشوّقة تدخل في عمق العوالم النفسيّة التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب جريمة.

جاين ومارني صديقتان تتشاركان كل شيء منذ طفولتهما، وتعرفان أعمق أسرار بعضهما البعض. ولكن عندما تقع مارني في الحب تبدأ الأشياء بينهما بالتغيّر.. لأن جاين لديها سرٌّ تخفيه، فقد كانت تكره زوج مارني الثري المتعالي، ولذلك عندما سألتها مارني إن كانت تستلطف زوجها، أخبرتها جاين بكذبتها الأولى. لأنه، وكما نعلم جميعًا، حتى أقرب الأصدقاء يحتفظون ببعض الأسرار لأنفسهم. لكن الكذبة الأولى تجرّ الثانية، ويتحوّل الكذب إلى غضب، ثم إلى جريمة.

سبع أكاذيب قصة استحواذية.. جذّابة... مغوية... لا تستطيع تركها، عن الحب والانعكاس المدمّر للشعور بخسرانه، وعن الصداقات المعقّدة وما يصيبها حين يبدأ الكذب وإخفاء الأسرار.



رواية مثيرة ذات أثر نفسي صادم... حتى القرّاء الذين يستطيعون التنبؤ بمسيرة الحوادث عليهم الاستعداد لمفاجآت عاصفة. فـ كاي ستقدّم لنا حكاية أخّاذة.

Publishers Weekly

سبع أكاذيب ، هي قصة فجّة ومثيرة عما يحدث للصداقة حين تتحوّل إلى هوس.. ابقِ النور مضاءً لأنك ستمضي الليل في متابعة قراءة صفحات هذه الرواية.

Harlan Coben, New York Times, best seller author of (Run Away)

ISBN 978-614-472-124-7





دار التنوير